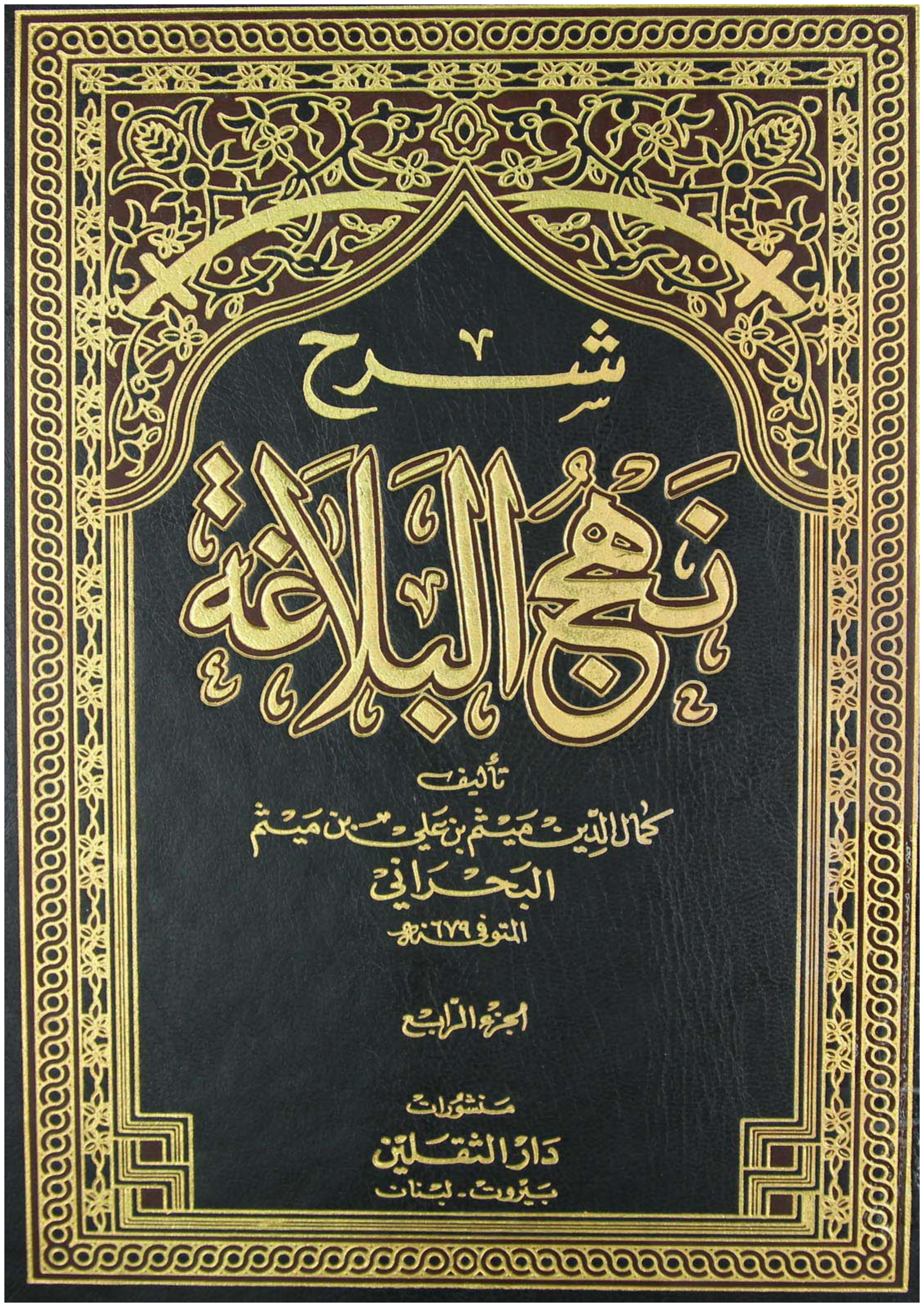
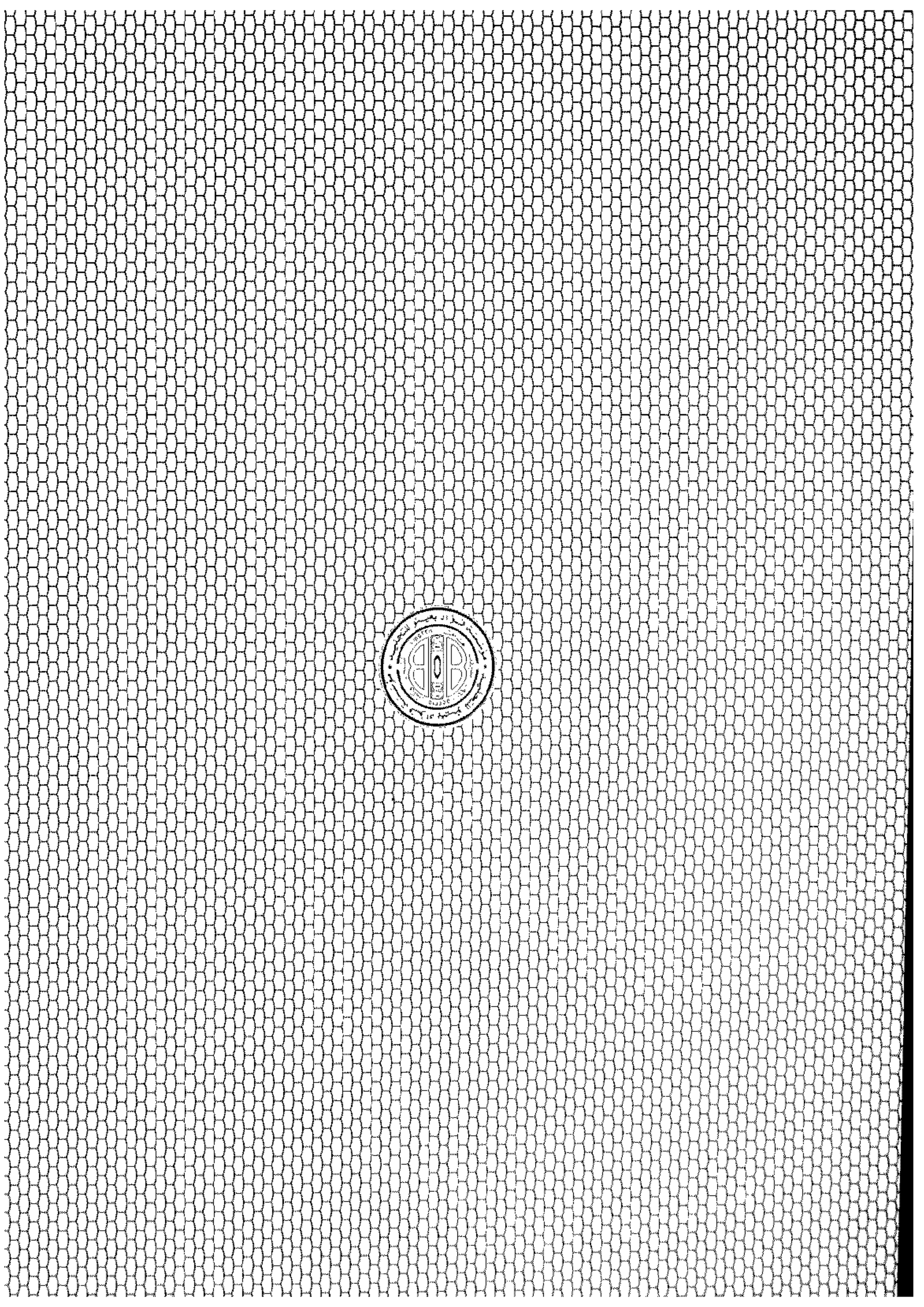
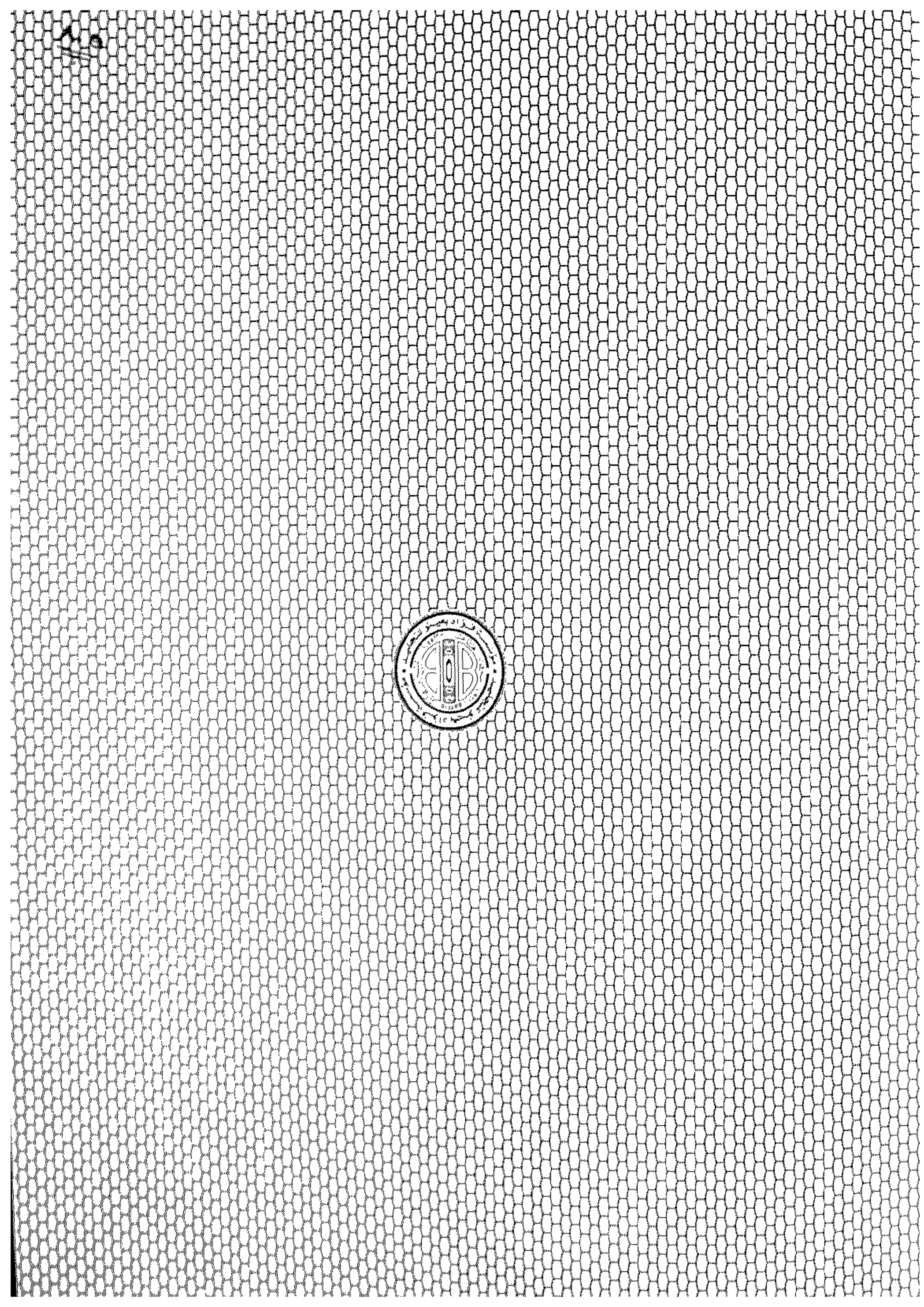

شرح
نهج البلاغة
تأليف
كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩ هـ
الجزء الرابع
منشورات
دار الثقلين
بيروت - لبنان









شرح نهج البلاغة

تأليف

كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩هـ

الجزء الرابع



دار الثقلين
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



دار الثقلين للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ص. ب ٢٥/١٧٩ تلفاكس ٢٧١٦٣٠
DAR AL THAKALAIN Printing ,Publishing andDistribution BEIRUT-LEBANON P.O. BOX:179/25 -Telefax :271630

١٩٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

روي عنه أنه قاله عند دفن سيدة النساء فاطمة عليها السلام كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند قبره.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ عَنِّي وَعَنِ ٱبْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللِّحَاقِ بِكَ، قَلَّ، يَا رَسُولَ ٱللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إلَّا أَنَّ لِي فِي التَّأَسِّي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ؛ مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَلَقَدِ ٱسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ، أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ ٱللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ، وَسَتُنَبِّئُكَ ٱبْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ، هٰذَا وَلَمْ يَطُلِ العَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ لَا قَالٍ وَلَا سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ ٱللهُ الصَّابِرِينَ.

أقول: مسهّد: مورق. وأحفها السؤال: استقص عليها فيه. فأمّا قول السيّد ـ رضي الله تعالى عنه ـ سيّدة النساء، فقد جاء في الخبر أنّه رآها تبكي عند موته فقال لها: أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة، وروي أنّه قال: سادات نساء العالمين أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، وآسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران. والسلام منه عليه السلام على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كعادة الزائرين لكن الزيارة هنا قلبيّة، وعنها كالمستأذن لها في الدخول عليه، وجوارها له: أى في منازل الجنّة وأمّا سرعة لحاقها به ففائدة ذكرها التشكّي إليه من سرعة تواتر المصائب عليه بموته ولحوقها عقيبه، والمنقول أنّ مدّة حياتها بعده صلى الله عليه وآله وسلم أربعة أشهر، وقيل: ستّة أشهر. ثمّ أخذ في التشكّي إليه كالمخاطب له من قلّة صبره ورقّة تجلّده وتحمّله للمصيبة بها.

وفي قوله: صفيّتك.

إشارة إلى ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التبجيل والمحبّة والإكرام.

وقوله: إلاّ أنّ لي. إلى قوله: موضع تعزّ.

كالعذر والتسلية وإن كانت هذه المصيبة عظيمة يقلّ لها الصبر ويرقّ لها التجلّد فإنّ المصيبة بفراقك أعظم، وكما صبرت في تلك على كونها أشدّ فلإن أصبر على هذه أولى. والتأسي الاقتداء بالصبر في هذه المصيبة كالصبر في تلك.

وقوله: فلقد وسّدتك. إلى قوله: نفسك.

كالشرح للمصيبة به صلى الله عليه وآله وسلم ومقاساتها عند تلحيده وعند فيضان نفسه وهي دمه بين صدره ونحره، وكالتذكير لنفسه بها.

وقوله: فإنّا لله وإنا اليه راجعون.

امتثال لقوله تعالى: **﴿وبشّر الصابرين الّذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾**[1].

وقوله: فلقد استرجعت الوديعة. إلى قوله: الرهينة.

استعار لفظ الوديعة والرهينة لتلك النفس، ووجه الاستعارة الأولى أنّ النفوس في هذه الأبدان تشبه الودائع والأمانات في كونها تسترجع إلى عاملها في وجوب المحافظة عليها من المهلكات، ويحتمل أن يريد ما هو المتعارف بين الناس من كون المرأة وديعة الرجل كما يقال: النساء ودائع الكرام، ووجه الثانية أنّ كلّ نفس رهينة على الوفاء بالميثاق الذي واثقها الله تعالى به، والعهد الّذي أخذ عليها حين الإهباط إلى عالم الحسّ والخيال أن ترجع إليه سالمة من سخطه، عاملة بأوامره غير منحرفة من صراطه الوضوح على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فإن وفيت بعهدها خرجت من وثاق الرهن وضوعف لها الأجر كما قال تعالى: **﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾**[2] وإن نكثت وارتكبت بما نهيت عنه بقيت رهينة بعملها كما قال تعالى: **﴿كلّ نفس**

(١) ٢ - ١٥١.

(٢) ٤٨ - ١٠.

بما كسبت رهينة﴾[1] والرهينة تصدق على الذكر والأنثى وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقوله: أمّا حزني. إلى قوله: مقيم.

صورة حاله بعدهما على سبيل الشكاية، وكنّى بالدار عن الجنّة لأنّه ممّن بشّر بها.

وقوله: وستنبّئك ابنتك. إلى قوله: الذكر.

رمز للتشكّي إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أُمّته بعده فيما كان يعتقده حقّاً له من الخلافة ونحلة فدك لفاطمة (عليها السلام) فزحزحا عنهما مع نوع من الاهتضام له، والغلظة عليه في القول على قرب عهدهم بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وطراوة الذكر الذي هو القرآن الآمر بمودّة القربى.

وقوله: والسلام عليكما. إلى آخره.

صورة وداع المحبّين الناصحين بجاري العادة.

وقوله: وإن أقم. إلى قوله: الصابرين.

تنزيه لنفسه عمّا عساه يعرض لبعض من يلازم القبور لشدّة الجزع والأسف عن وهم أنّه لا عوض عن ذلك الفائت والأجر على التعزّي والصبر عنه، وما وعد الله به الصابرين على نزول المصائب هو صلاته ورحمته في قوله تعالى: **﴿قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم وأولئك هم المهتدون﴾**[2] وبالله التوفيق.

١٩٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا

---

(١) ٧٤ ـ ٤١.

(٢) ٢ ـ ١٥٢.

قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهاَ أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا ٱخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهِا خُلِقْتُمْ، إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَت ٱلمَلاَئِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ لِلّهِ آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ، وَلاَ تُخَلِّفُوا كُلاًّ فَيَكُونَ عَلَيْكُمْ.

أقول: حاصل الفصل التنفير عن الدنيا والترغيب في الآخرة بذكر الغاية من وجودهما فتكون الدنيا مجازاً: أي يسلك بها إلى الآخرة سلوكاً اختياريّاً كسلوك عباد الله الصالحين إليه، واضطراريًا كعبور الكلّ إلى الآخرة بالموت، وأراد هنا الاضطراريّ، وهاتان القرينتان كالمقدّمة لقوله: فخذوا من ممرّكم لمقرّكم.

وقوله: ولا تهتكوا. إلى قوله: أسراركم.

أي لمجاهرته بالمعصية فإنّه إذا كان يعلم أسراركم فهو بعلم ظواهركم أولى.

وقوله: وأخرجوا. إلى قوله: أبدانكم.

أمر لهم بالزهد في الدنيا قبل الموت، وكنّى عنه بإخراج القلوب منها. يقال: خرج فلان عن كذا، وأخرج نفسه من كذا إذا أعرض عنه وتبرّأ منه.

وقوله: ففيها اختبرتم.

إشارة إلى قصد العناية الإلهيّة منها، وقد عرفت معنى الاختبار، ولغيرها خلقتم: أي لنيل السعادة في الآخرة بالذات، أو الشقاوة لمن حرمها بالعرض.

وقوله: إنّ المرء. إلى قوله: قدّم.

أي ما ترك من متاع الدنيا أو ما قدّم من الأعمال الصالحة، وإنّما قرن ذكر الناس وما يُسألون عنه بذكر الملائكة وما يُسألون عنه لينبّه على شرف الأعمال المسعدة في الآخرة على متاع الدنيا لكون الأوّل مطلوب الملائكة وما تعتنون بالفحص عنه، وكون الثاني معتنى الناس الغافلين، وفي لفظ ما ترك وما قدّم لطف شبيه [تنبيه خ] على أنّ متاع الدنيا مفارق متروك والأعمال

الصالحة مقدّمة باقية نافعة للمرء في معاده فينبغي أن تكون العناية بها دون المفارق المتروك.

وقوله: لله آباؤكم.

كلمة تقولها العرب لتعظيم المخاطب بنسبته أو بنسبة أبيه إلى الله يقال: لله أنت ولله أبوك، وقيل: اللام للعاقبة: أي إلى الله تصير آبائكم لكن بذلك يخرج الكلام عن معنى التعجّب والاستعظام.

وقوله: فقدّموا بعضاً. إلى آخره.

أي فقدّموا بعضاً من متاع الدنيا كالصدقات ونحوها يكن لكم ثوابها في الآخرة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: يا ابن آدم ليس لك من دنياك إلّا ثلاث: ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأبقيت، ولا تخلّفوها بأسرها لغيركم فيكون عليكم وزرها، وقد علمت كيفيّة استلزام الصدقة والزكاة ونحوها للملكات الفاضلة والثواب الأُخروي، واستلزام البخل وإدخار المال للشقاوة الأخرويّة، وإنّما خصّص البعض بالتقديم لأنّ حرمان الورثة لا يجوز، ونهى عن تخليف الكلّ لأنّ ترك الزكاة والصدقة لا يجوز، وروي: يكن لكم قرضاً ويكن عليكم كلّاً وهو كقوله تعالى: ﴿من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسنا﴾[1] ولفظ القرض مستعار، ووجه الاستعارة أنّ القرض يستلزم في العادة الطلب من المقترض وشكره لمقرضه وأداه إليه فأشبه ذلك تكرر أوامر الله الطالبة للزكاة والصدقة وشكر الله للمنفقين في سبيله وجزاؤه للمتصدّقين في الآخرة بأضعاف ما بذلوه وأنفس كميّة وكيفيّة من الكلّ الّذي لا منفعة فيه مع وجود مضرّته، ولمّا كان حفظ المال وتخليفه بعد الموت كذلك لا جرم كان كلّاً. وبالله التوفيق.

١٩٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

كان كثيراً ما ينادي به اصحابه:

تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ ٱللهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ؛ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُوداً،

---

(١) ٢ ـ ٢٤٦.

وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لاَ بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلاَحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ، فِيهَا مُفْظِعَاتُ الأُمُورِ، وَمُعْضِلاَتُ الْمَحْذُورِ، فَقَطِّعُوا عَلاَئِقَ الدُّنْيَا، وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدم، بخلاف هذه الرواية.

أقول: العرجة والتعريج: الإقامة على المكان والاحتباس به. وعقبة كؤود: شاقة المصاعد. والملاحظ: جمع ملحظ وهو مصدر أو محلّ اللحظ وهو النظر بمؤخّر العين. ودانية: مجدّدة. ومفظعات الأمور: عظائمها وشدائدها المجاوزة حدّ المقدار المعتاد. ومعضلات المحذور: ما ثقل منها وأمال.

ومدار الفصل على الأمر بالتجهيز من الدنيا وهو الاستعداد للسفر إلى الله بما يحتاج إليه المسافرون إلى حضرته من الزاد المبلغ وهو التقوى، والرحيل يحتمل أن يريد به السفر بالموت فيكون المنادى هو حوادث الأيّام الداعية بضرورتها للأمزجة إلى الانهدام، ويحتمل أن يريد به السفر إلى الله بالرياضة الكاملة، والمنادى بذلك هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والكتاب العزيز وأولياء الله. ثمّ على الأمر بإقلال التعريج على الدنيا: أي بقلة الالتفات إليها إلاّ على القدر الضروري منها وهوالزهد. ثمّ بالانقلاب عنها بصالح ما يحضرهم في الدنيا ويمكنهم إعداده والاستعداد به وهو الأعمال الصالحة والتقوى.

وقوله: فإنّ أمامكم عقبة كؤودا.

استعار لفظ العقبة بوصف الكؤود، ووجه المشابهة شدّة الملاقاة وقطع منازله في حال تألم النفوس إلى آخر الموت، وأراد بالمنازل المخوفة المهولة منازل الآخرة بعد من القبر وسائر درجات النفوس في الشقاوة والأهوال الأُخرويّة وظاهر أنّه لا بدّ من ورود تلك المنازل والوقوف عندها إلى حين عبورها خصوصاً أصحاب الملكات الرديئة والعلائق الدنيّة البدنيّة فإنّ وقوفهم بتلك المنازل أطول وشدائدهم فيها أهول.

وقوله: واعلموا. إلى قوله: فيكم.

أخذ بعض لوازم المستعار وهو الملاحظة وذويها، وكنّى بذلك عن كونها هم بالرصد لا تنقطع عنهم، وروى دانية: أي قريبة منهم، وكذلك المخالب ونشبتها كناية عن لحوق الآفات والأمراض المهلكة لهم، ومعنى التشبيه هيهنا تشبيه المقدَّر القريب وقوعه وهو لحوق الموت لهم، ونسبة مخالب المنية فيهم بوقوع ذلك في السرعة، والباء في بمخالبها للالصاق، والواوان في قوله: وقد للحال.

وقوله: وقد دهمتكم. إلى قوله: المحذور.

كناية عن لحوق شدائد الموت ومثقلات الظهور المحذورة وهي الذنوب.

وقوله: فقطّعوا علائق الدنيا.

أمر بالزهد الحقيقيّ فيها والتخفيف منها بترك الفضول والاستكثار من متاعها، واستظهروا بزاد التقوى: أي اتّخذوه ظهيراً لكم على مشاقّ السفر إلى الآخرة، وبالله التوفيق.

١٩٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

كلَّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا [عليه] من ترك مشورتهما، والاستعانة في الأمور بهما:

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً، أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ لَكُمَا فِيهِ حَقٌ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ؟ وَأَيُّ قِسْمٍ آسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ آلْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ أَمْ جَهِلْتُهُ أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ؟

وَآللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ، وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ آللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ؛ فَآتَّبَعْتُهُ، وَمَا آسْتَنَّ النَّبِيُّ، (صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فَآقْتَدَيْتُهُ. فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلَا

وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ، فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِيَ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَلَـوْ كَانَ ذٰلِـكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَـا، وَلاَ عَنْ غَيْرِكُمَـا. وَأَمَّا مَـا ذَكَرْتُمَـا مِنْ أَمرِ الأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذٰلِـكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُم أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلاَ وُلِّيتُهُ هَـوًى مِنِّي، بَلْ وَجَـدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَـا مَا جَـاءَ بِهِ رَسُـولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، قَدْ فُـرِغَ مِنْهُ فلم أَحْتَـجْ إِلَيْكُما فِيمـا قَدْ فَـرَغَ الله مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيه حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، والله، عِنْدِي وَلاَ لِغَيْرِكُمَا فِي هـذا عُتْبَى. أَخَذَ الله بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ الى الحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ الله امْرَءاً رأىٰ حَقّاً فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رأىٰ جَوْراً فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ.

أقول: أرجأتما: أخّرتما. واستأثر: استبدّ. الإربة: الحاجة. وأفضت: وصلت. والعتبى: الرجوع عن الإساءة.

واعلم أنّ الرجلين كانا يؤمّلان الأمـر لأنفسهما فلمّـا صار إليـه عليه السلام عادا إلى رجـاء أن يداخلهمـا في أمره وأن يـزد لهما في العـطاء على غيرهمـا كمـا فضّـل بعض الأئمّة من قبله وأن يشـاركهمـا في أكثـر الآراء المصلحيّـة محبّـة منهما للجاه ونظراً إلى محلّهما وشرفهما لكنّ الـرجل لمّـا جعل دليله الكتـاب العزيز والسنّـة النبويّـة وكان هـو القويّ على تفـريع الأحكـام منهما دون غيـره وصاحب أسرارهما كما علمت رجـوع أكابـر الصحابـة والخلفاء السـابقين إليه في كثير من الاحكام لا جرم لم يكن به حاجة الى الاستشارة فيما يقع اليه من الوقائع، وأشار باليسير الذي نقماه إلى ترك مشورتهما وتسويتهمـا بغيرهمـا في العطاء وإن كان عندهما صعباً فهو لكونه عنده غير حقٍّ في غاية من السهـولة، والكسيـر الّذي أرجـاه ما أخّـراه من حقّه ولم يـوفياه إيّـاه، وروي كثيراً بـالثـاء بثلاث نقط، وأشار به إلى ما يعود إلى صلاح المسلمين من الآراء الّتي ينبغي أن يتحـدّث فيها، ويحتمـل أن يريـد أنَّ الّذي أبـديـاه ونقمـاه بعض ممّـا في أنفسهمـا، وقد دلّ ذلـك على أنّ في أنفسهما أشيـاء كثيـرة وراء مـا ذكـراه لم يقولاه.

وقوله: ألا تخبراني. إلى قوله: بابه.

استفسار عن الحقّ الّذي نقما تركه، وأشار إلى وجوه الحقّ وجهاته المتعارفة المعتادة، وتلخيصه أنّ الحقّ الّذي تنقمان على تركه إمّا أن يكون متعلّقا بكما أو بغيركما من المسلمين، والأوّل إمّا أن يكون قسماً استأثرت به أو غيره من الحقوق دفعتكما عنه ظلماً، والثاني إمّا أن يكون تركه منّي ضعفاً أو جهلاً به أو خطأ لدليل الحكم فيه، والاستفهام في الأقسام كلّها استفهام إنكار لها ومستند منعه وإنكاره لها ظاهر فإنّ التسوية في العطاء سنّة الرسول فيجب اتّباعها، والاستشارة في الحوادث ونحوها إنّما يجب مع عدم الحكم في الواقعة أو مع جهله ولم يكن عادماً لأحكام الوقائع الواردة عليه ولا جاهلا بها، وكذلك لم يترك حقّاً لأحد من المسلمين عن ضعف منه لأنّه كان خليفة الوقت ولا عن جهل بحكم ولا بدليله لأنّه كان أعلم الأُمّة بأحكام الله، ولمّا كان الّذي نقماه عليه في تلك الحال من الأقسام المذكورة إنّما هو ترك مشورتهما والتسوية في العطاء بينهما وبين غيرهما أشار إلى الجواب عن الأوّل بقوله: والله ما كانت. إلى قوله: ولا عن غيركما.

فقوله: والله. إلى قوله: حملتموني عليها.

كالمقدّمة في الجواب المكاسرة من توهّمها رغبته في الخلافة ومحبّته للملك والسلطان لاستئثار عليهما ونحو ذلك فإنّه إذا انكسر ذلك الوهم لم يبق علّة طلبه للولاية إلّا نصرة الحقّ وإقامته كما صرّح هو به في غير موضع وحينئذ تندفع شبهتها عنه.

وقوله: فلمّا أفضت. إلى قوله: فاقتديته.

وجه الجواب دلّ به على صغرى القياس فيه، وخلاصته: أي إنّما أحكم بالكتاب فأتّبعه وأقتدى بالسنّة، وتقدير الكبرى وكلّ من فعل ذلك فلا حاجة به في الحكم إلى الرأي.

وقوله، فلم أحتج. إلى قوله، غيركما.
كالنتيجة.

وقوله: ولا وقع حكم جهلته.

أحد الأقسام الّتي استفهم عنها على سبيل الإنكار أوّلا قد صرّح بإنكاره هيهنا ومنعه على تقدير دعواهم له. ثمّ بتسليمه تسليم جدل أنّه لو وقع لم يكن يرغب عنهما ولا عن غيرهما من المسلمين والاستشارة فيه. ثمّ ذكر الأمر الثاني ممّا نقماه عليه فقال: وأمّا ما ذكرتما من الأمر الأسوة: أي أسوتكما بغيركما في العطاء، وأجاب عنه بقوله: فإنّ ذلك أمر. إلى قوله: حكمه.

فقوله: ولا ولّيته هوى منّي.

أي لم أجعل الحاكم في ذلك هواي، وروي ولا ولّيته هوىً منّي على أن يكون هوى مفعولاً له: وخلاصته أنّ حكمي بالتسوية في القسمة لم يكن عن رأي منّي ولا هوى اتبعته ولكن وجدته أنا وأنتم قد فرغ الله منه: أي من القضاء به في اللوح المحفوظ وإنزاله، ويقال للأمر الثابت الّذي لا يحتاج إلى إيجاد أو تكميل مفروغ منه، ونسبة الفراغ إلى الله مجاز لمناسبته ما قضاه بفعل العبد الّذي فرغ من عمله.

وقوله: فلم أحتج إليكما. إلى قوله: حكمه.

أي لمّا وجدته كذلك لم أمل إليكما بما يرضيكما مع مخالفته لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وروي فلم أحتجّ إليكما: أي في الإرشاد إلى أحكام الله بعد فراغه منها.

وقوله: فليس لكما. إلى قوله. عتبى.

لازم بنتيجتي قياسيّة في الجوابين فإنّه لمّا ثبت أنّه لا حقّ لهما فيما نقماه عليه لم يكن عليه أن يعتب. ثمّ أخذ في الدعاء لهما ولنفسه بأخذ الله قلوبهم إلى الحقّ وإلهامهم الصبر عن الميول الباطلة وعلى الحقّ. ثمّ دعا برحمة الله لرجل رأى حقّاً وعدلاً وأعان على العمل به، أو رأى جوراً وظلماً فردّه وأعان على صاحبه جذبا لهما إلى ذلك. وبالله التوفيق.

١٩٧ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وقد سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين.

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلٰكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ

حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمْ احْقِنْ دِمَاءنا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الحقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ.

أقول: لهج به. أولع وحرص عليه.

وحاصل الفصل تأديب قومه وإرشادهم إلى السيرة الحسنة وجذب لهم عن تعويدها وتمرينها بكلام الصالحين، ونبّه بكراهته للسبّ والنهي عنه على تحريمه، ونحوه إشارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ما بعثت لعّانا ولا سبّاباً. وقوله: اللهم إنّي بشر فإذا دعوت على إنسان فاجعل دعائي له لا عليه واهده إلى الصراط المستقيم.

وقوله: لو وصفتم. إلى قوله: في العذر.

أي لو عدلتم عن السباب إلى وصف أعمالهم وتذكيرهم بكونهم ظالمين لكم وضالّين عن السبيل ذكراً على وجه النصيحة والهداية لهم. ثمّ قلتم مكان سبّكم إيّاهم هذا الدعاء لكان أصوب في القول ممّا ذكرتموه من رذيلة السباب ولأنّ في تذكيرهم بأحوالهم ونصيحتهم إيّاهم فائدة وهي رجاء أن يعودوا إلى الحقّ ولأنّ ذلك أبلغ في العذر إليهم من غيره. إذ لكم أن تقولوا بعد ذلك إنّكم نصحتموهم وطلبتم منهم العتبى فلم يستعتبوا.

وقوله: وقلتم.

عطف على قوله: وصفتم ولو مقدّرة عليه وجوابها مقدّر بعد تمام الدعاء وحذفا لدلالة الأولى عليهما، والتقدير لو قلتم هذا الدعاء لكان أصوب وأبلغ في العذر، والدعاء الذي علّمهم عليه السلام إيّاه مطابق لصورة حال الحرب، واشتمل على طلب حقن الدماء أوّلاً لأنّ سفك الدماء هو الخوف الحاضر، وعلى طلب علّته وهي إصلاح ذات البين: أي ما بيننا وبينهم من الأحوال الموجبة للافتراق حتّى تكون أحوال أُلفة واتّفاق، ولمّا كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: ذات البين كقولك: اسقني ذا إنائك: أي ما في إنائك من الشراب،

وقيل ذات البين حقيقة الفرقة: أي صلح حقيقة الفرقة بيننا وبينهم وبدّلها بالألفة. ثمّ على طلب العلّة الحاسمة للفرقة الموجبة لاصلاحها وهي هداهم من ضلالتهم بمعرفة من جهل الحقّ له وارعوى به من غباوته، وهي طرف التفريط من فضيلة الحكمة، وعداوته وهو طرف الإفراط من فضيلة العدل، وقد كانت الرذيلتان في اصحاب معاوية فإنّه لما قصرت وطأتهم عن وجه الحق وغلبت عليهم الشبهة بغوا وتعدّوا ولهجوا بعدوانهم، وروي عوض الغيّ العمى وهو عمى البصيرة وغباوتها.

١٩٨ ـ وقال (عليه السلام)

في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن عليه السلام يتسرع إلى الحرب.

آمْلِكُوا عَنِّي هٰذَا الْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي، فَإنَّنِي أَنْفَسُ بِهٰذَيْنِ (يعني الحسن والحسين عليهما السلام) عَلَى ٱلْمَوْتِ؛ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُول ٱلله صَلَّى ٱلله عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ.

قال الرضي أبو الحسن: قوله: عليه السلام «املكوا عني هذا الغلام» من أعلى الكلام وأفصحه.

أقول: املكوه: شدّوه واضبطوه. ويهدّني: يكسرني. ونفست بالكسر أنفس بالفتح: أي أضنّ وأبخل.

ولمّا كان وجود الولد المنتفع ممّا يشدّ القوّة وتقوى به النفس خصوصاً مثل الحسن عليه السلام كنّى بقوله: لا يهدّني على تقدير هلاكه عن إضعافه لركنه وانكسار نفسه بذلك. ثمّ على علّة أُخرى لوجوب المحافظة عليه مع أخيه عليهما السلام وهي المحافظة على نسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

١٩٩ ـ وقال (عليه السلام)

لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة:

أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّـهُ لَمْ يَـزَلْ أَمْـرِي مَعَكُمْ عَلَى مَـا أُحِبُّ حَتَّى نَهَكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَٱلله، أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ.

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاء، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ.

أقول: نهكتكم: خلقتكم.

فقوله: على ما أحب.

أي من الطاعة لي، ولفظ النهك واستناده إلى الحرب استعارة لإضعافها لهم ملاحظة لشبههم بالثوب الّذي أخلقه اللبس، وتشبّهها بمستعملة في كونها سبباً لذلك الإضعاف: أي لم أزل كذلك إلى تلك الغاية.

وقوله: والله أخذت منكم وتركت.

كناية عن تصرّفها فيهم بوجوه التصرّف وهو كالعذر لهم، وإرادته بقوله: وهي لعدوّكم أنهك لكي لا يتعاجزوا بعذر إنهاكها لهم. ثمّ أخذ في التشكّي منهم إليهم وعتابهم على عصيانهم له وحكمهم عليه بالرجوع إلى التحكيم حتّى صار مأموراً لهم ومنهيّاً بعد كونه آمراً فيهم وناهياً، وذلك من معكوس الحكم ومضادّ لما ينبغي لهم.

وقوله: وقد أحببتم البقاء.

أي بترك القتال وهو كالتوبيخ لهم على ذلك.

وقوله: وليس. إلى آخره.

أي ليس لي قدرة على ذلك وإن كان له ذلك بحسب المصلحة والشرع.

٢٠٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

بالبصرة، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي ـ وهو من أصحابه ـ يعوده، فلما رأى سعة داره قال:

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هٰذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا؟ أَمَا أَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟! وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ: تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ

فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ.

فقال له العلاء. يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال: عليّ به، فلما جاء قال:

يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ، أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ، أَتَرَى ٱللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا؟ أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى ٱللهِ مِنْ ذٰلِكَ!

قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك! قال: وَيْحَكَ، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ ٱللهَ فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ.

أقول: استهام بك: أي أذهبك لوجهك، وزيّن لك الهيام، وهو الذهاب في التيه. وجشوبة المأكل: غلظته وخشونته، وقيل: الطعام الجشب: الّذي لا إدام معه. وتبيّغ: تهيّج.

وقد استفهمه عن غرضه في توسعة داره استفهام توبيخ وإنكار لما أنّ ذلك ينافي الزهد في الدنيا والحرص في الآخرة. ثمّ عن كونه أحوج إليها في الآخرة استفهام تثبيت وتقرير، وأراد أنّك لو كنت أنفقت ما أخرجته على بنائها من المال في سبيل الله لكان أولى ولكنت إليه أحوج منها، وفي رواية بإثبات الهمزة مع ما في قوله: ما أنت.

وقوله: وبلى. إلى آخره.

هداية له إلى وجوه استعمالها في مرضاة الله والتقرّب بها إليه بعد التفريط في بنائها، وعدّ وجوه المبارّ المتعلّقة بها. ومطالع الحقوق وجوهها الشرعيّة المتعلّقة به كالزكاة والصدقة وغيرهما، وظاهر كونها مبلّغه إلى الآخرة عند إخراج تلك الحقوق منها وفيها، ومقرّبه إلى الله.

وقوله: عليّ به.

ينوب مناب فعل الأمر: أي جيئوا به، وعديّ تصغير عدوّ، وأصله

عديوو فحذفوا إحدى الواوين وقلّبوا الثانية ياء تخفيفاً وادغموا فيها ياء التصغير، وإنّما صغّره استصغاراً له باعتبار أن شيطانه لم يعدّه إلى كبيرة بل قاده إلى أمر وإن كان خارجاً به عن الشريعة إلّا أنّه قريب من السلامة، ودخل عليه بالخدعة في رأي الصالحين، وكان شيطانه بذلك الاعتبار صغيراً بالنسبة إلى شيطان آخر وهو باعتبار القيادة لذلك الوسواس عديّ نفسه، وقيل: بل صغّره من جهة حقارة فعله ذلك لكونه عن جهل منه وإنّما منعه من هذه الطريقة لكونه لم يترك الدنيا على وجه الترك بل كان لمشاركة هواه لعقله، وكان تركه ذلك مستلزماً لإهمال حقوق تجب عليه في الشريعة وتلزمه فنبّه بقوله: لقد استهام بك الخبيث على أنّ فعله ذلك عن مشاركة الشيطان ولم يكن عن عقليّة خالصة، وبقوله: أما رحمت أهلك وولدك على الحقوق اللازمة له من قبلهم، وقد أهملها بفعله ذلك.

فقوله: أترى الله. إلى قوله: ذلك.

في مقام التوبيخ له على ذلك الترك وهو كقوله تعالى: ﴿**قل من حرّم زينة الله الّتي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق**﴾[1] الآية، والحاصل أنّ ترك الدنيا بالكلّيّة ليس هو مطلوب الشارع من الزهد فيها والتخلّي عنها لأنّ الشارع يراعي نظام العالم باشتراك الخلق في عمارة الدنيا وتعاونهم على المصالح بقاء النوع الإنساني وترك الدنيا وإهمالها بالكلّيّة يعدم ذلك النظام وينافيه بل الّذي يأمر به الشارع القصد في الدنيا واستعمال متاعها على القوانين الّتي وردت بها الرسل والوقوف فيها عند الحدود المضروبة في شرايعهم دون تعدّيها كما أشار إليه عليه السلام من منع هذا الرجل، وأمّا السالكون من الصوفيّة بعد عصر الصحابة فهم على الطريقين: فمنهم من يختار التقشف وترك الطيّبات وهجر اللذّات رأساً، ومنهم من يؤثر الترف، والّذي يفعله المحقّقون من السالكين من التقشّف فلا ينافي الشريعة لعلمهم بأسرارها وطريقتهم تلك أقرب إلى السلامة من طريق المترفين لكون الترف مجال الشيطان، وقد كان سلوك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام وجماعة من أكابر الصحابة

(١) ٧ - ٣٠.

أميل إلى طريق التقشّف لكن مع مشاركتهم لأهل الدنيا في تدبير أحوال المدن وصلاح العالم غير منقطعين عن أهلها ولا منعزلين فأما اعتراض عاصم على عليّ عليه السلام في نهيه له فحاصله أنّه قاس نفسه في ترك الدنيا عليه، وتقديره إنّك إذا نهيتني عن ذلك فكيف بك؟: أي فكيف بما أرى من هذه الحال وأنت المقتدى به، أو فكيف أصنع بك مع الحال الّتي أنت عليها، وإنّما ينبغي لي أن أقتدي بك فأجابه عليه السلام بجواب إقناعيّ بيّن فيه الفرق بينه وبينه، وهو إنيّ إنّما فعلت ذلك لكوني إماماً وكلّ إمام فرض الله عليه أن يقدّر نفسه بضعفة الناس: أي ليسوّيها بهم في حالهم كيلا يهيّج بالفقير فقره فيضعف عن حمله فيكفر أو يفسق وقد كان عليه السلام قبل الخلافة كذلك، والجواب المحقّق هو ما قلناه من كون هذه الطريق أسلم، وأمّا الفرق بينهما فيرجع إلى أنّ عاصما سلك على غير علم بكيفيّة السلوك مع ترك الحقوق الّتي تلزمه لأهله وولده فكانت حاله الّتي فارقها أولى له. وبالله التوفيق.

٢٠١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وقد سأله سائل عن أحاديث البدع، وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر فقال عليه السلام:

إنَّ في أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحفْظاً وَوَهْماً. وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ آللهِ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، عَلَى عَهْدِهِ حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»

وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ آللهِ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مُتَعَمِّداً؛ فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلٰكِنَّهُمْ قَالُوا صَاحِبُ رَسُولِ آللهِ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: رَآهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ فَيَأْخُذُونَ

بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ آللهُ عَنِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِمَا أخبرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ ـ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلاَمُ ـ فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلاَلَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوْهُمُ ٱلأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاس مَعَ الْمُلُوكِ والدُّنْيَا إِلاَّ مَنْ عَصَمَ آللهُ فَهٰذَا أَحَدُ ٱلأَربَعَةِ.

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ شَيْئاً يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ في يَدَيْهِ وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ.

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ: سَمِعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ ثُمَّ نَهَى عَنْهُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، فَحَفِظَ المَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

وَآخَرُ رَابِعٌ: لَمْ يَكْذِبْ عَلَى آللهِ، وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ؛ وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى سَمْعِهِ: لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ؛ فَحَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وَعَرَفَ الْمُتَشَابِهَ وَمُحْكَمَهُ.

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ آللهِ، صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، الْكَلاَمُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلاَمٌ خَاصٌّ، وَكَلاَمٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ مَا عَنَى آللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ، وَلاَ مَا عَنَى بِهِ رَسُولُ آللهِ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ آللهِ، صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِيءُ فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حَتَّى يَسْمَعُوا

وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذٰلِكَ شَيءٌ إلاَّ سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ، فَهٰذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي آخْتِلَافِهِمْ، وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

أقول: أحاديث البدع: أي الأحاديث المبتدعة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المنقولة عنه، وما يبتني عليها من الأفعال المبتدعة في الدين بدعة أيضاً. وتبوّء مقعده: نزله واستقرّ فيه. ولقف عنه: تناول بسرعة. ووهم بالكسر: غلط، وبالفتح ذهب وهمه إلى شيء وهو يريد غيره. وجنّب عنه: أخذ عنه جانباً.

وقوله: إنَّ في أيدي الناس. إلى قوله: وحفظاً ووهماً.

تعديد لأنواع الكلام الواقع إلى الناس نقلاً عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والصدق والكذب من خواصّ الخبر، والحقّ والباطل أعمّ منهما لصدقهما على الأفعال وعلى الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ والمتشابه، وقد مضى تفسير هذه المفهومات، وأمّا الحفظ فهو ما حفظ عن رسول الله كما هو، والوهم ما غلط فيه ووهم مثلاً أنّه عامّ وهو خاصّ أو أنّه ثابت وهو منسوخ إلى غير ذلك.

وقوله: قد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عهده. إلى قوله: النار.

فذلك الكذب نحو ما روي أنّ رجلاً سرق رداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخرج إلى قوم وقال هذا رداء محمّد أعطانيه لتمكّنوني من تلك المرأة واستنكروا ذلك فبعثوا من سأل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقام الرجل الكاذب فشرب ماء فلدغته حيّة فمات، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حين سمع بتلك الحال قال لعليّ: خذ السيف وانطلق فإن وجدته وقد كفيت فاحرقه بالنار فجاءه وأمر بإحراقه فكان ذلك سبب الخبر المذكور، واعلم أنّ العلماء ذكروا في بيان أنّه لا بدّ أن يكذّب عليه دليلا فقالوا: قد نقل عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: سيكذّب عليّ فإن كان الخبر صدقاً فلا بد أن يكذّب عليه، وإن كان كذباً فقد كذّب عليه. ثمّ شرع في قسمة رجال الحديث وقسّمهم إلى أربعة أقسام، ودلّ الحصر بقوله: ليس لهم خامس، ووجه الحصر في الأقسام الأربعة أنّ الناقل للحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم المتّسمين بالإسلام إمّا منافق أو لا، والثاني إمّا أن يكون قد وهم

فيه أو لا، والثاني إمّا أن لا يكون قد عرف ما يتعلّق به من شرائط الرواية أو يكون. فالأول وهو المنافق ينقل كما أراد سواء كان أصل الحديث كذباً أو أنّ له أصلاً حرّفه وزاد فيه ونقص بحسب هواه فهو ضالّ مضلّ تعمّداً وقصدا، والثاني يرويه كما فهم ووهم فهو ضالّ مضلّ سهواً، والثالث يروي ما سمع فضلاله وإضلاله عرضيّ، والرابع يؤدّيه كما سمعه وكما هو فهو هادٍ مهديّ فأشار عليه السلام إلى القسم الأوّل بقوله: رجل منافق. إلى قوله: فهذا أحد الأربعة.

فقوله: متصنّع بالإسلام.

أي يظهره شعاراً له.

وقوله: لا يتأثّم.

أي: لا يعرف بالإثم ولزوم العقاب عليه في الآخرة فلا يحذر منه، ووجه دخول الشبهة في قبوله قوله: كونه ظاهر الإسلام والصحبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسماع قوله مع كون الناس لا يعلمون باطنة ونفاقه وما أخبر به الله تعالى عن المنافقين كقوله: **﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾**[1] وما وصفهم به كقوله تعالى: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنّك لرسول الله﴾**[2]الآية دلّت على وصفهم بالكذب في مطابقة عقائدهم لألسنتهم في الشهادة بأنّه رسول حقّ ومن كان يعتقد أنّه غير رسول فإنّه مظنّة الكذب عليه، وأئمّة الضلالة بنو أُميّة، ودعاتهم إلى النار دعاتهم إلى اتّباعهم فيما يخالف الدين، وذلك الاتّباع مستلزم لدخول النار، والزور والبهتان إشارة الى ما كانوا يتقربون به إلى بني أُميّة من وضع الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في فضلهم وأخذهم على ذلك الأجر من أولئك الأئمّة وتوليتهم الأعمال والإمرة على الناس.

وقوله: وإنّما الناس. إلى قوله: إلاّ من عصم.

---

(١) ٤ - ١٤٤.

(٢) ٦٣ - ١.

إشارة إلى علّة فعل المنافق لما يفعل فظاهر أنّ حبّ الدنيا هو الغالب على الناس من المنافقين وغيرهم لقربهم من المحسوس وجهلهم بأحوال الآخرة وما يراد بهم من هذه الحياة إلّا من هدى الله فعصمه بالجذب في طريق هدايته إليه عن محبّة الأمور الباطلة، وفيه إيماء إلى قلّة الصالحين كما قال تعالى: ﴿إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾ وقوله: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وإنّما قال: ثمّ بقوا بعده عليه السلام ثمّ حكى حالهم مع أئمة الضلال وإن كانت الأئمة المشار اليهم لم يوجدوا بعد إمّا تنزيلاً لما لا بدّ منه من ذلك المعلوم له منزلة الواقع أو إشارة إلى من بقي منهم بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتقرّب إلى معاوية لأنّه إذ ذاك إمام ضلالة، وأشار إلى القسم الثاني بقوله: ورجل سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً لم يحفظه. إلى قوله: لرفضه، وذلك أن يسمع من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كلاماً فيتصوّر منه معنى غير ما يريده الرسول. ثمّ لا يحفظ اللفظ بعينه فيورده بعبارته الدالّة على ما تصوّره من المعنى فلا يكون قد حفظه وتصوّره على وجهه المقصود للرسول فوهم فيه ولم يتعمّد كذباً لوهمه فهو في يديه يرويه ويعمل به على وفق ما تصوّر منه ويسنده إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلّة دخول الشبهة على المسلمين فيه هي عدم علمهم بوهمه، وعلّة دخولها عليه في الرواية والعمل هو وهمه حين السماع حتّى لو علم ذلك لترك روايته والعمل به، وأشار إلى القسم الثالث بقوله: ورجل سمع. إلى قوله: لرفضه، وعلّة دخول الشبهة على الراوي وعلى المسلمين واحدة وهو عدم علمهم بأنّه منسوخ، وأشار إلى القسم الرابع بقوله: وآخر رابع. إلى قوله: ومحكمه.

فقوله: وعرف الخاصّ والعامّ فوضع كلّ شيء موضعه.

أي عمل بالعامّ فيما عدا صورة التخصيص.

وقوله: وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخره.

تنبيه على صحة القسم الثالث وداخل فيه فإنّ منهم من كان يسمع الكلام ذي الوجهين منه خاصّ ومنه عامّ فلا يعرف أنّ أحدهما مخصّص الآخر

أو يسمع العامّ دون الخاصّ فينقل العامّ بوجهه على غير معرفة معناه أو أنّه خرج على سبب خاصّ فهو مقصور عليه وانتقل سببه فيعتقده عامًا أو أنّه عامّ فيعتقده مقصوراً على السبب ولا يعمل به فيما عدا صورة السبب فيتّبعه الناس في ذلك. وكان قوله: وليس كلّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إلى آخره جواب سؤال مقدّر كأن يقال: فكيف يقع الاشتباه عليهم في قوله مع كثرتهم وتواضعه لهم فلا يسألونه فأجاب أنّهم ليسوا بأسرهم كانوا يسألونه لاحترامهم له وتعظيمه في قلوبهم، وإنّما كان يسأله آحاده حتّى كانوا يحبّون أن يجيء الأعرابي أو الطارىء فيسأله حتّى يسمعوا ويفتح لهم باب السؤال، ونبّه على أنّه عليه السلام كان يستقصي في سؤاله صلى الله عليه وآله وسلم عن كلّ ما يشتبه ويحفظ جوابه ليرجع الناس إلى فضيلته والاقتباس من أنواره.

٢٠٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَكَانَ مِنِ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ؛ أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمٰوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ، وَأَرْسَى أَرْضاً يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ، قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ، وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَتَهَا. فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ. وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى).

أقول: تعاصفه: تراد أمواجه وتلاطمها وكسر بعضها بعضاً. والمثعنجر: السيال الكثير الماء. والقمقام: البحر. قيل: سمّي بذلك لاجتماعه. وجبل: خلق. وجلاميدها: صخورها. وأنهد: رفع. وأساخ: أدخل. وأنصابها: جمع نصب وهو ما انتصب فيها. والأنشاز: جمع نشز وهو العوالي منها. وأرّزها فيها: أي وكّرها وغرزها، وروي أرزها مخفّفة: أي أثبتها، وعليه نسخة الرضيّ والاولى أصحّ وأظهر. وأكنافها: أقطارها. وتكركره: تردّده وتصرّفه.

وقد أشار في هذا الفصل إلى أنّ أصل الأجرام الأرضية والسماويّة ومادّتها هو الماء، ووصف كيفيّة خلقتها عنه وكيفيّة خلقة الأرض والسماوات والجبال، وقد مرّ بيان كلّ ذلك مستقصى في الخطبة الاولى، وفي هذا الفصل فوائد:

الأولى: أنّه لمّا كانت هذه الأجرام في غاية القوّة والعظمة ومع ذلك ففيها من عجائب الصنع وبدائعه ما يبهر العقول ويعجزها عن كيفيّة شرحه لا جرم نسبها إلى اقتدار جبروته وعظمته وبديع لطائف صنعته تنبيهاً بالاعتبار الأولى على أنّه الأعظم المطلق، وبالثاني على لطفه وحكمته التامّة، وكنّى باليبس الجامد عن الأرض.

الثانية: الضمير في منه للبحر وفي حدّه إمّا لله أو لأمره وقيامها على حدّه كناية عن وقوفها على ما حدّه من المقدار والشكل والهيئة والنهايات ونحوها وعدم خروجها عن ذلك وتجاوزها له، والضمير المنصوب في يحملها لمعنى اليبس الجامد وهو الأرض، وكذلك في جلاميدها وما بعده في أرساها وما بعده للجبال، وفي جبالها وسهولها وأقطارها للأرض، وفي قواعدها وقلالها وأنشازها للجبال، وقد عرفت كيفيّة ذلك الخلق فيما حكاه عليه السلام في الخطبة الأولى من ثوران الزبد بالريح وارتفاعه إلى الجوّ الواسع وتكوين السماوات عنه.

الثالثة: ذلّة البحر لأمره وإذعانه لهيبته دخوله تحت الإمكان والحاجة إلى قدرته وتصريفها له، وهو من باب الاستعارة.

الرابعة: قوله: على حركتها: أي حال حركتها لأن على تفيد الحال،

وقوله: تسيخ بحملها يفهم منه أنّه لولا الجبال كونها أوتاداً للأرض لمادّت وساخت بأهلها. فأمّا كونها مانعة لها من الميدان فقد عرفت وجهه في الخطبة الأولى وأمّا كونها تسيخ لولاها فلأنها إذا مادّت انقلبت بأهلها فغاص الوجه الّذي هم عليه وذلك مراده بسيخها فالمانع بها من الميدان هو المانع بها أن تسيخ أو تزول عن موضعها.

الخامسة: أشار بإجمادها بعد رطوبة أكنافها إلى أنَّ أصلها من زبد الماء كما أشير اليه من قبل، ويحتمل أن يشير بذلك إلى ما كان مغموراً بالماء منها. ثم سال الماء عنه الى مواضع أسفل منه فخلا وجفّ وهي مواضع كثيرة مسكونة وغير مسكونة.

السادسة: قوله: تمخضه الغمام الذوارف إشارة إلى أنّ البحر إذا وقع فيه المطر يريح ويتمخض ويضطرب كثيراً وذلك لتحريك أوقع المطر له بكثرته وقوّته أو لكثرة اقتران المطر بالرياح فتموّجه، وأغلبها تحريكاً له الرياح الجنوبيّة لانكشافه لها، وقد شاهدنا ذلك كثيراً.

السابعة: لمّا عدّد المخلوقات المذكورة وتصريف القدرة الربّانيّة لها قال: إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى تنبيهاً على وجوه الاعتبار بها لمن يخشى الله، وأراد العلماء لانحصار الخشية فيهم بقوله تعالى: **﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[1] وبالله التوفيق.

٢٠٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

اَلّٰلهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ، وَالْمُصْلِحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ في الدِّينِ وَالدُّنْيَا فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إلاَّ النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إعْزَازِ دِينِكَ؛ فَإنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ بِأَكْبَرِ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَنْ أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ، ثُمَّ أنتَ بَعْدَهُ اَلْمُغْني عَنْ نَصْرِهِ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

---

(١) ٣٥ ـ ٢٥.

أقول: النكوص: الرجوع على الأعقاب.

وهذا الفصل من خطبة كان يستنهض بها أصحابه إلى جهاد أهل الشام قال بعد تقاعد أكثرهم عن نصرته. استشهد فيه الله تعالى وملائكته وعباده على من سمع مقالته العادلة المستقيمة الّتي هي طريق الله القائدة للناس إلى الرشاد في دينهم ودنياهم المصلحة غير المفسدة لهم وهي دعوته إيّاهم إلى جهاد أعداء الدين والبغاة عليه. ثمّ أعرض عنها وقعد عن نصرته وتباطىء عن إعزاز دينه وأبى إلّا التأخّر عن طاعته، وفي ذلك الاستشهاد ترغيب إلى الجهاد وتنفير عن التأخّر عنه. إذ كان كأنّه إعلام لله بحال المتخاذلين عن نصرة دينه وقعودهم عمّا أمرهم به من الذبّ عنه فتتحرّك أوهامهم لذلك بالفزع إلى طاعته، وكذلك في وصفه لمقالته بالعدل والإصلاح ترغيب في سماعها وجذب إليها. وفي قوله: ثمّ أنت بعد: أي بعد تلك الشهادة عليه المغني لنا عن نصرته تنبيه على عظمة ملك الله، وتحقير للنفوس المتخاذلة عن نصرة الدين، وفي ذلك الأخذ بالذنب تذكير بوعيد الله وأنّ في ذلك التخاذل ذنب عظيم يؤخذ به العبد. وبالله التوفيق.

٢٠٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الحَمْدُ للهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ، الغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِلاَ اكْتِسَابٍ، وَلاَ ازْدِيَادٍ، وَلاَ عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ بِلاَ رَوِيَّةٍ وَلاَ ضَمِيرٍ، الَّذِي لاَ تَغْشَاهُ الظُّلَمُ، وَلاَ يَسْتَضِيءُ بِالأَنْوَارِ، وَلاَ يَرْهَقُهُ لَيْلٌ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ، لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالأَبْصَارِ، وَلاَ عِلْمُهُ بِالأَخْبَارِ.

أقول: حمد الله تعالى باعتبارات إضافية وسلبيّة:

أولها: العليّ عن شبه المخلوقين: أي في ذاته وصفاته وأفعاله وأقواله، وقد علمت كيفيّة ذلك من غير مرّة.

الثاني: الغالب لمقال الواصفين،وذلك الغلب اشارة الى تعاليه عن احاطة الأوصاف به وفوته لها وعدم القدرة على ذلك منه، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً.

الثالث: الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين بأعين بصايرهم وأبصارهم.

الرابع: الباطن بجلال عزّته عن فكر المتوهّمين. وقد مرّ بيان هذين الوصفين وفايدة قوله: بجلال عزّته تنزيه بطونه عن الفكر باعتبار جلالته وعزّته عن أن تناله لا باعتبار حقارة وصغر، وإنّما قال: فكر المتوهّمين لأنّ النفس الانسانيّة حال التفاتها إلى استحالة الأمور العلويّة المجرّدة لا بدّ أنّ يستعين بالقوّة المتخيّلة بباعث الوهم في أن تصوّر تلك الأمور بصورة خياليّة مناسبة لتشبيهها بها وتحطّها إلى الخيال، وقد علمت أنّ الوهم إنّما يدرك ما كان متعلّقا بمحسوس أو متخيّل من المحسوسات فكلّ أمر يتصوّره الإنسان وهو في هذا العالم سواء كان ذات الله سبحانه أو صفاته أو غير ذلك فلا بدّ أن يكون مشوباً بصورة خياليّة أو معلّقاً بها وهو تعالى منزّه بجلال عزّته عن تكيّف تلك الفكر له وباطن عنها.

الخامس: العالم المنزّه في كيفيّة علمه عن اكتساب له بعد جهل أو ازدياد منه بعد نقصان أو استفادة له عن غير كما عليه علم المخلوقين.

السادس: المقدّر لجميع الأمور: أي الموجد لجميع الأمور على وفق قضائه كلًّا بمقدار معلوم تنزّه فيه عن التفكّر والضمير، وأراد بالضمير ما أُضمر من الرويّة.

السابع: الّذي لا تغشاه الظلم، ولا يستضيء بالأنوار لتنزّهه عن الجسميّة ولواحقها.

الثامن: ولا يرهقه: أي لا يدركه ليل. ولا يجري عليه نهار، وذلك لتنزّهه عن إحاطة الزمان.

التاسع: ليس إدراكه بالأبصار لتقدّس ذاته عن الحاجة إلى الآلة في الإدراك وغيره.

العاشر: ولا علمه بالأخبار: أي كما عليه كثير من علومنا لتقدّسه عن حاسّة السمع. وبالله التوفيق.

ومنها في ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ في الاِصْطِفَاءِ، فَرَتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ، وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلاَلَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

أقول: المساورة: المواثبة. وسرّح فرّق.

وقد أشار إلى بعض فضائل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبعض فوائده فمن فضائله إرساله بالضياء، ولفظ الضياء مستعار لأنوار الإسلام الهادية في سبيل الله إليه، ومنها تقديمه على سائر الأنبياء في الفضيلة وإن كان الكلّ منهم مصطفى، وذكر من فوائده كونه رتق به المفاتق، وكنّى بها عن أمور العالم المتفرّقة وتشتت مصالحه زمان الفترة، ورتقها به كناية عن نظمها به بعد تفرّقها كناية بالمستعار، ومنها كونه ساور به المغالب، وأسند المساورة إلى الله مجازاً باعتبار بعثه للنبيّ بالدين عن أمره لمواثبة مغالبه من المشركين وغيرهم، ومنها كونه ذلّل به الصعوبة: أي صعوبة أهل الجاهليّة وأعداء دين الله، ومنها كونه سهّل به الحزونة: أي حزونة طريق الله بهدايته فيها إلى غاية أن سرّح الضلال والجهل عن يمين النفوس وشمالها، وهو إشارة إلى إلقائه رذيلتي التفريط والإفراط عن ظهور النفوس كسريح جنبتي الحمل عن ظهر الدابة، وهو من ألطف الاستعارات وأبلغها، وبالله التوفيق.

٢٠٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَحَكَمٌ فَصَلَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَسَيِّدُ عِبَادِهِ كُلَّمَا نَسَخَ آللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ، جَعَلَهُ في خَيْرِهِمَا، لم يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلاَ ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلاَ وَإِنَّ آللهَ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً، وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ آللهِ: يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ، فِيهِ كَفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ، يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ، وَيَتَلَاقَونَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ، وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ، لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ، عَلَى ذٰلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ، فَلْيَقْبَلِ ٱمْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرِ ٱمْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ، فِي مَنْزِلِهِ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ، فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ، وَٱسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ. فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

أقول: نسخ: أزال وغيّر. والعاهر: الزاني ويصدق على الذكر والأنثى وكذلك الفاجر. والكفاء: الكفاية والمكافأة. والريّة بالكسر: الفعلة منه الري وهي الهيئة الّتي عليها المرتوي. والريبة: الدغل والغلّ. والتمحيص: الابتلاء والاختبار. والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر. ويرديه: يوقعه في الردى. وأماط: أزال. والحوبة: الإثم.

وأطلق لفظ العدل على العادل مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه، والباري تعالى عادل بالنظر إلى علمه وقضائه: أي لا يقضي في ملكه بأمر إلّا وهو على وفق النظام الكلّيّ والحكمة البالغة، ويدخل في ذلك جميع أقواله وأفعاله فإنّه لا يصدر منها شيء إلّا وهو كذلك، وأمّا الجزئيّات المعدودة شروراً وصورة جور في هذا العالم فإنّها إذا اعتبرت كانت شروراً بالنسبة ومع ذلك فهي من لوازم الخير والعدل لا بدّ منها ولا يمكن أن يكون العدل والخير من دونها كما لا يمكن أن يكون الإنسان إنساناً إلّا وهو ذو شهوة وغضب تلزمها الفساد والشرّ الجزئيّ، ولمّا كان الخير أكثر وكان ترك الخير الكثير لأجل الشرّ القليل شرّاً كثيراً في الجود والحكمة وجب وجود تلك الشرور

الجزئيّة لوجود ملزوماتها، وأشار بقوله: عدل إلى إيجاد العدل بالفعل، وبقوله في وصف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: سيّد عباده إلى قوله: أنا سيّد ولد آدم ولا فخر.

وقوله: كلّما نسخ الله الخلق فرقتين.

فنسخ الخلق قسمة كلّ قرن وفرقة إلى خيار وأشرار، والقسمة تغيّر للمقسوم وإزالة عن حال اتحاده.

وقوله: جعله في خيرهما.

إشارة إلى ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال المطّلب ابن أبي وداعة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب إنّ الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم. ثمّ جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم. ثمّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم. ثمّ جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً.

وقوله: لم يسهم فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر.

أي لم يضرب فيه العاهر بسهم ولم يكن للفجور في أصله شركة يقال: ضرب في كذا بنصيب إذا كان له فيه شرك، وهو إشارة إلى طهارته من قبل أصله عن الزنا كما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل ينقلنى الله تعالى من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: لمّا خلق الله آدم أودع نوري في جبينه فما زال ينقله من الآباء الأخيار إلى الأمهات الطواهر حتّى انتهى إلى عبد المطّلب، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ولدت من نكاح لا من سفاح.

وقوله: ألا وإنّ الله. إلى قوله: عصما.

ترغيب للسامعين أن يكونوا أهل الجنّة ودعائم الحقّ وعصم الطاعة، وكذلك قوله: وإنّ لكم. إلى قوله: من الله. جذب لهم إلى طاعته بذكر العون منه وكأنّه عنّى بالعون القرآن الكريم.

وقوله: يقول على الألسنة، ويثبّت الأفئدة.

تفصيل لوجوه العون منه تعالى، وعونه من جهة القول على الألسنة وعده المطيعين بالثواب العظيم على الطاعة، ومدحه لهم، وتبشيرهم بالجنّة

والرضوان منه على ألسنة الرسل فإنّ كلّ ذلك مقوّ على الطاعة ومعين عليها، وأمّا تثبيت الأفئدة فمن جهة الاستعداد لطاعة الله واستلاحة أنواره من كتابه العزيز واستكشاف أسراره كما قال تعالى: ﴿**ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب**﴾[1] وقوله: ﴿**كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا**﴾[1] وإنّ في القرآن الكريم من المواعظ والزواجر المخوّفة ما يوجب الفزع إلى الله وتثبّت القلوب على طاعته للخلاص منها.

وقوله: فيه كفاء لمكتف.

أي في ذلك القول كفاية لطالبي الاكتفاء: أي الكمالات النفسانيّة، وشفاء لمن طلب الشفاء من أمراض الرذائل الموبقة. ثمّ نبّه على عباد الله الصالحين وصفاتهم ليقتفوا آثارهم ويكونوا منهم فأعلمهم أنّهم هم الّذين استحفظهم علمه وأسرار خلقه فمن صفاتهم أمور:

أحدها: أنّهم يصرفون ما وجب صرفه من غير أهله، ولا يضعون أسراره إلاّ في أهله.

الثاني: يفجّرون عيونه، ولفظ العيون مستعار إمّا لمعادنه وهي أذهان الأنبياء والأولياء وأئمة العلماء، وإمّا لأصوله الطيّبة وحملته الّتي علموها، ويكون لفظ التفجير مستعار لافادتها وتفريقها وتفصيلها.

الثالث: ويتواصلون بالولاية التي هي نصرة بعضهم لبعض في دين الله وإقامة ناموس شريعته.

الرابع: يتلاقون بالمحبّة فيه التي هي مطلوب الشارع من شريعته حتى يصيروا كنفس واحدة.

الخامس: ويتساقون بكأس رويّة. واستعار لفظ الكأس للعلم: أي يستفيد بعضهم من بعض. ورشّح بذكر الرويّة، وأراد بها تمام الإفادة.

---

(١) ١٣ ـ ٢٨.
(٢) ٢٥ ـ ٣٤.

السادس: ويصدرون بريّة: أي يصدر كلّ منهم عن الآخر بفائدة قد ملأت نفسه كمالاً. ولفظ الريّة مستعار.

السابع: كونهم لا تشوبهم الريبة؛ أي لا يتداخل بعضهم شكّ في بعض، ولا يهمّه بنفاق أو بسوء باطن له من غلّ أو حسد.

الثامن: ولا تسرع فيهم الغيبة. وإنّما نفى عنهم سرعة الغيبة لأنّ فيهم من ليس بمعصوم فلم يكن نفيها عنهم بالكلّيّة بل استبعد وقوعها منهم، ويحتمل أن يريد أنّهم لقلّة عيوبهم لا يكاد أحد يتسرّع فيهم بغيبة.

التاسع: كونهم على ذلك عقد الله خلقهم: أي على ذلك الوصف والكمال قد خلقهم على وفق قضائه لهم بذلك وأوجدهم. فعليه: أي فعلى ما عقد خلقهم عليه من الكمال يتحابّون، وبه يتواصلون.

العاشر: كونهم في ذلك كتفاضل البذر. أي فكانوا في فضلهم بالقياس إلى الناس كتفاضل البذر، وأشار إلى وجه الشبه بقوله: ينتقي. إلى قوله: التمحيص، وتقريره أنّهم خلاصة الناس ونقاوتهم الذين صفاهم منهم وميّزهم عنهم تخليص عناية الله لهم بإفاضة رحمته وهدايته إلى طريقه، وخلّصهم ابتلاؤه واختباره بأوامره.

وقوله: فليقبلِ امرء كرامةً بقبولها. إلى آخره.

عود إلى النصيحة والموعظة، وأراد كرامة الله بطاعته وما استلزمه من المواهب الجليلة، وأراد بقبولها قبولها الحقّ التامّ على الوجه الذي ينبغي من مراعاة مصلحتها ومراقبتها عن آثار النفاق كما قال تعالى: ﴿**فتقبّلها ربّها بقبول حسن**﴾[1] وبالقارعة التي حذّر منها قبل حلولها قارعة الموت. ثمّ أمر أن يعتبر المرء قصر أيّام حياته وقلّة مقامه في منزل يستلزم الإقامة القليلة فيه هذه العناية وهي أن يستبدل به منزلاً آخر: أي يحلّ محلّ عبرته إقامته القصيرة في الدنيا المستلزمة لانتقاله منها إلى الآخرة فإنّ في تصوّره قلّة المقام في هذا المنزل للعبور إلى منزل آخر عبرة تامّة، ويحتمل أن تكون حتى غاية من أمره

(١) ٣ ـ ٤٢.

بالنظر في الاعتبار: أي فلينظر في ذلك المنزل يستبدل به غيره، وإذا كان كذلك فينبغي أن يعمل لذلك المنزل المتحوّل إليه، ولمعارف منتقلة: أي للمواضع التي يعرف انتقاله إليها. وطوبى فعلى من الطيب قلّبوا ياءها واواً للضمّة قبلها، وقيل: هي اسم شجرة في الجنّة، وقلب سليم: أي لم يتدنس برذيلة الجهل المركّب ولا بنجاسات الأخلاق الرديئة، ومن يهديه إشارة إلى نفسه عليه السلام وأئمّة الدين، ومن يرديه في مهاوي الهلاك المنافقون وأئمّة الضلالة، وإصابته لسبيل السلامة وقوفه على سبيل الله عند حدوده بهداية من هداه وطاعته لها وأمره بسلوكها، ومبادرته للهدى مسارعته إليه قبل غلق أبوابه، واستعار لفظ الأبواب له ولأئمّة الدين من قبله، ورشّح بذكر الغلق وأراد به عدمهم أو موت الطالب، وكذلك استعار لفظ الأسباب لهم، ووجه الاستعارة كونهم وصلا إلى المراد كالجبال، ورشّح بذكر القطع وأراد به أيضاً موتهم، واستفتاح التوبة استقبالها والشروع فيها، وإماطة الحوبة إزالة الإثم عن لوح نفسه بتوبته.

وقوله: فقد أقيم. إلى آخره.

إشعار منه بإقامة أعلام الله وهم العلماء والكتاب المنزل والسنّة النبويّة والهداية بها إلى واضح سبيله ليقتدي الناس بها ويسلكوا على بصيرة. وبالله التوفيق والعصمة.

٢٠٦ ـ ومن دعائه (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلاَ سَقِيماً، وَلاَ مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ وَلاَ مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي، وَلاَ مَقْطُوعاً دَابِرِي، وَلاَ مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَلاَ مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلاَ مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَلاَ مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَلاَ مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلاَ حُجَّةَ لِي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلاَّ مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلاَ أَتَّقِيَ إِلاَّ مَا وَقَيْتَنِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ.

أقول: الدابر: بقيّة الرجل وولده ونسله. والدابر: الظهر. والالتباس: الاختلاط. واضطهد: أظلم. والتتابع: التهافت في الشرّ وإلقاء النفس فيه.

وقد حمد الله تعالى باعتبار ضروب من النعم اعترف بها وعدّ منها عشرة: وهي الحياة، والصحّة، والسلامة من آفات العروق وأمراضها. ومن الأخذ بالجريمة. وقطع النسل، ويحتمل أن يريد بالدابر الظهر، وكنّى بالقطع عن الرمي بالدواهي العظيمة التي من شأنها قصم الظهر وقطع القوّة. ثمّ عن الارتداد. ثمّ عن جحود ربوبيّة الله. ثمّ عن الاستيحاش من الإيمان واستثقاله والنفرة عنه. ثمّ من اختلاط العقل. ثمّ من التعذيب بعذاب الأمم السالفة بالصواعق والخسف ونحوها. وعقّب ذلك الحمد بالإقرار على نفسه وصفات الخضوع والذلّة المستلزمة لاستنزال الرحمة وعدّ منها خمسة: وهي كونه عبداً مملوكاً لله تعالى. ثمّ كونه ظالماً لنفسه. ثمّ كونه معترفاً بحجّة الله عليه مقطوع الحجّة في نفسه. ثمّ كونه معترفاً بعدم استطاعة أن يأخذ إلّا ما قسّم الله له وسبّب له الوصول إليه، وأنّه لا يقدر أن يتّقي من المضارّ إلّا ما وقاه الله إيّاه. ثمّ لمّا أعدّ نفسه بهذه الإقرارات بقبول الرحمة من الله استعاذ به من أموره: وهي أن يفتقر في غناه تعالى: أي أن يفتقر مع أنّه الغنيّ المطلق، وأن يضلّ في هداه: أي مع أنّ له الهدى الذي لا اختلال معه، وأن يظلم في سلطانه: أي مع أنّ له السلطان الظاهر، وأن يضطهد وله الأمر القاهر. ثمّ سأله أن يجعل نفسه أوّل كريمة ينتزعها من كرائمه. وأراد بكرائمه قواه النفسانيّة والبدنيّة واعضاءه، وغرض السؤال تمتعه بجميعها سليمة من الآفات إلى حين الممات فتكون نفسه أوّل منتزع من كرائمه قبل أن يفقد شيء منها. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم متّعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني: أي اجعلهما باقيين صحيحين الى حين وفاتي. واستعار لفظ الوديعة للنفس

باعتبار أنّها في معرض الاسترجاع كالوديعة. ثمّ استعاذ به من الذهاب عن قوله تعالى: والافتتان عن دينه. وقد روى الرضي ـ رضوان الله عليه ـ يفتتن بالبناء للفاعل على أن تكون الفتنة من النفس الأمّارة. وروى ويفتتن بالبناء للمفعول المستعار منه الفتنة بالغير. ثمّ من الانخراط في سلك الأهواء وتتابعها في مرامي الشقاوات دون الهدى الذي جاءت به الكتب الإلهيّة من عند الله. وبالله التوفيق.

٢٠٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)
خطبها بصفين

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً للهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ؛ لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى العِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ المَزِيدِ أَهْلُهُ.

ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلاَ يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ الحُقُوقِ حَقُّ الوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاَحِ الْوُلاَةِ، وَلاَ يَصْلُحُ الْوُلاَةُ إِلاَّ بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا؛ عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلاَلِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ؛ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ ٱلإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ

ٱلْأَحْكَامُ وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ!! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ ٱلْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ ٱلْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ ٱللهِ عِنْدَ الْعِبَادِ، فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذٰلِكَ وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ؛ فَلَيْسَ أَحَدٌ - وَإِنِ ٱشْتَدَّ عَلَى رِضَا ٱللهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ - بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا ٱللهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ [لَهُ] وَلٰكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ ٱللهِ عَلَى الْعِبَادِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ، وَلَيْسَ ٱمْرُؤٌ - وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ - بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ ٱللهُ مِنْ حَقِّهِ، وَلَا ٱمْرُؤٌ - وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَٱقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ - بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذٰلِكَ، أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له، فقال عليه السلام:

إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلَالُ ٱللهِ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ - لِعِظَمِ ذٰلِكَ - كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ حَقَّ مَنْ كَانَ كَذٰلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ ٱللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا ٱزْدَادَ حَقُّ ٱللهِ عَلَيْهِ عِظَماً، وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ ٱلإِطْرَاءَ، واسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ - بِحَمْدِ ٱللهِ - كَذٰلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذٰلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً لله سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ لإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى ٱللهِ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي؛ فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا عَلَيْهِ أَثْقَلَ، فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشْوَرَةٍ بِعَدْلٍ؛

فَإنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلَا آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي إلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي؛ فَإنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ: يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى.

أقول: أذلالها: وجوهها وطرقها. وأجحف بهم: ذهب بأصلهم. والإدغال: الإفساد. واقتحمته: دخلت فيه بالاحتقار والازدراء. وأسخف: أضعف وأصغر. والبادرة: الحدّة.

وغرض الفصل جمع كلمتهم واتّفاقهم على أوامره فأشار أوّلا إلى أنّ لكلّ،منه ومنهم على الآخر حقّ يجب ان يخرج اليه منه فحقّه عليهم هو حقّ ولايته لأمرهم، وحقهم عليه حقّ الرعيّة على الوالي، وهو مثله في وجوب مراعاته وفي استلزامه اللوازم الّتي سيذكرها.

وقوله: فالحقّ أوسع. إلى قوله: قضائه.

تقرير لوجوب حقّه عليهم، وكالتوبيخ لهم على قلّة الإنصاف فيه. ومعناه أنّه إذا أخذ الناس في وصف الحقّ وبيانه كان له في ذلك مجال واسع لسهولته على ألسنتهم، وإذا حضر الناصف بينهم وطلب منهم ضاق عليهم المجال لشدّة العمل بالحقّ وصعوبة الانصاف لاستلزامه ترك بعض المطالب المحبوبة لهم، وإطلاق السعة والضيق على الحقّ استعارة ملاحظةً لتشبيه ما يتوهّم فيه من اتّساعه للقول وضيقه عن العمل بالمكان الّذي يتّسع لشيء أو يضيق عمّا هو أعظم منه.

وقوله: لا يجري لأحد إلّا جرى عليه.

تقرير للحقّ عليهم وتوطين لنفوسهم عليه،ولا يجري عليه إلّا جرى له تسكين لنفوسهم بذكر الحقّ لهم. ثمّ أعاد تقرير الحقّ عليهم بحجّة في صورة متّصلة؛ وهي لو كان لأحد أن يجري له الحقّ ولا يجري عليه لكان الله تعالى هو الأولى بخلوص ذلك له دون خلقه. ثمّ بيّن الملازمة بقوله: لقدرته. إلى قوله: صروف قضائه: أي لكونه قادراً على عباده وعلى الانتصاف منهم

مع كونه لا يستحقّ عليه شيء لهم لعدله فيهم في كلّ ما جرت به مقاديره الّتي هي صروف قضائه فكان أولى بخلوص ذلك دونهم، وبيّن استثناء نقيض التالي باستثناء ملزومه وهو قوله: ولكنّه تعالى جعل. إلى قوله: أهله، ومعناه لكنّه تعالى جعل لنفسه على عباده حقّاً هو طاعتهم له ليثبت لهم بذلك حقّا يكون جزاء طاعتهم له فقد ثبت أنّه لم يخلص ذلك لله تعالى بل كما أوجب على عباده حقّاً له أوجب لهم على نفسه بذلك حقّا. فإذن لا يجري لأحد حقّ إلاّ جرى عليه وهو نقيض المقدّم، وفي قوله: مضاعفة الثواب. إلى قوله: أهله تنبيه لهم على أنّ الحقّ الّذي أوجبه على نفسه أعظم ممّا أوجب لها مع أنّه ليس بحقّ وجب عليه بل بفضل منه عليهم ممّا هو أهله من مزيد النعمة ليتخلّقوا بأخلاق الله في أداء ما وجب عليهم من الحقّ بأفضل وجوهه ويقابلوا ذلك التفضّل بمزيد الشكر، وتلك المضاعفة كما في قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾[1] ونحوه.

وقوله: ثمّ جعل سبحانه. إلى قوله: ببعض.

كالمقدّمة لما يريد أن ينبّه من كون حقّه عليهم واجباً من قبل الله تعالى وهو حقّ من حقوقه ليكون أدعى لهم إلى أدائه. وبيّن فيها أنّ حقوق الخلق بعضهم على بعض من حقّ الله تعالى من حيث إنّ حقّه على عباده هو الطاعة، وأداء تلك الحقوق طاعات لله كحقّ الوالد على ولده وبالعكس، وحقّ الزوج على الزوجة، وحقّ الوالي على الرعيّة وبالعكس.

وقوله: فجعلها تتكافأ في وجوهها.

أي جعل كلّ وجه من تلك الحقوق مقابلاً لمثله فحقّ الوالي وهو الطاعة من الرعيّة مقابل لمثله منه وهو العدل فيهم وحسن السيرة، ولا يستوجب كلّ من الحقّين إلاّ بالآخر. ثمّ قال: وأعظم ما افترض الله من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعيّة وحقّ الرعيّة على الوالي لأنّ هذين الحقّين أمرين كلّيين تدور عليها أكثر المصالح في المعاش والمعاد، وأكّد ذلك

(١) ٦ - ١٦١.

بقوله: فريضة فرضها الله سبحانه لكلّ على كلّ: أي ذلك فريضة.

وقوله: فجعلها نظاماً. إلى قوله: عند العباد.

إشارة إلى لوازم حقّ الوالي على الرعيّة وحقّ الرعيّة على الوالي:

(أ) أنّ الله تعالى جعل تلك الحقوق سبباً لأُلفتهم إن أدّى كلّ إلى كلّ حقّه، وقد بيّنا فيما سلف غير مرّة أنّ ألفتهم من أعزّ مطالب الشارع، وأنّها مطلوبة من اجتماع الخلق على الصلاة في المساجد: في كلّ يوم خمس مرّات، وفي كلّ اسبوع مرّة في الجمعة، وفي كلّ سنة مرّتين في الأعياد. والتناصف والاجتماع في طاعة الإمام العادل من موجبات الأنس والألفة والمحبّة في الله حتّى يكون الناس كلّهم كرجل واحد عالم بما يصلحه ومتّبع له وبما يفسده ومجتنب عنه.

(ب) أنه جعل تلك الحقوق عزّاً لدينهم، وظاهر أنّ الاجتماع إذا كان سبباً للألفة والمحبّة كان سبباً عظيماً للقوّة ولقهر الأعداء وإعزاز الدين. ثمّ أكّد القول في أنّ صلاح الرعيّة منوط بصلاح الولاة، وهو أمر قد شهدت به العقول وتوافقت عليه الآراء الحقّة، وإليه أشار القائل: تهدى الرعيّة ما استقام الرئيس. وقول الآخر:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولّت فبالأشرار تنقاد

وكذلك صلاح حال الولاة منوط بصلاح الرعيّة واستقامتهم في طاعتهم، وفساد أحوالهم بعصيانهم ومخالفتهم. فإذا أدّى كلّ من الوالي والرعيّة الحقّ إلى صاحبه عزّ الحقّ بينهم ولم يكن له مخالف.

(ج) من لوازم ذلك قيام مناهج الدين وطرقه بالاستقامة على قوانينه والعمل بها.

(د) واعتدال معالم العدل ومظانّه بحيث لا جور فيها.

(هـ) وجريان السنن على وجوهها ومسالكها بحيث لا تحريف فيها.

(و) صلاح الزمان بذلك ونسبة الصلاح إليه مجاز. إذ الصلاح في الحقيقة يعود إلى حال أهل الزمان وانتظام أمورهم في معاشهم ومعادهم، وإنّما

يوصف بالصلاح والفساد باعتبار وقوعهما فيه وكونه من الأسباب المعدّة لهما.

(ز) من لوازم ذلك الطمع في بقاء الدولة ويأس مطامع الأعداء في فسادها وهدمها.

وقوله: فإذا غلبت. إلى قوله: عند العباد.

إشارة إلى ما يلزم عصيان الرعيّة للإمام أو حيفه هو عليهم وإجحافه بهم في الفساد:

(أ) إختلاف الكلمة، وكنّى به عن اختلاف الآراء والتفرّق بسببه.

(ب) ظهور معالم الجور وعلامته، وهو ظاهر لعدم العدل بعدم أسبابه.

(ج) كثرة الفساد في الدين، وذلك لتبدّد الأهواء وتفرّقها عن رأي الإمام العادل الجامع لها، وأخذ كلّ فيما يشتهيه ممّا هو مفسد للدين ومخالف له.

(د) ترك محاجّ السنن وطرقها. فمن الإمام لجوره، ومن الرعيّة لتبدّد نظام آرائها.

(هـ) العمل بالهوى. وعلّته ما مرّ.

(و) تعطيل الأحكام الشرعيّة، وهو لازم للعمل بالهوى.

(ز) وكثرة علل النفوس، وعللها أمراضها بملكات السوء كالغلّ والحسد والعداوات والعجب والكبر ونحوها، وقيل: عللها وجوه ارتكابها للمنكرات فيأتي في كلّ منكر بوجه وعلّة ورأي فاسد.

(ح) فلا يستوحش بعظيم حقّ عطّل، وذلك للأنس بتعطيله، ولا بعظيم باطل فعل، وذلك لاعتياده والاتّفاق عليه وكونه مقتضى الأهويه.

(ط) فهنالك تذلّ الأبرار لذلّة الحقّ المعطّل الّذي هم أهله وكان غيرهم بغيره.

(ى) وتعزّ الأشرار لعزّة الباطل الّذي هم عليه بعد ذلّهم بعزّة الحقّ.

(يا) وتعظم تبعات الله على العباد: أي عقوباته بسبب خروجهم عن طاعته. ولمّا بيّن لوازم طاعته وعصيانه قال: فعليكم بالتناصح في ذلك: أي

في ذلك الحقّ، وحسن التعاون عليه.

وقوله: فليس أحد. إلى قوله: من الطاعة له.

تأكيد لأمره بالمبالغة في طاعة الله: أي قليل من الناس يبلغ بطاعته لله تعالى ما هو أهله منها وإن اشتدّ حرصه على إرضائها بالعمل وطال فيه اجتهاده، ولكن على العباد من ذلك مبلغ جهدهم في النصيحة والتعاون على إقامة حقّ الله بينهم بقدر الإمكان لا بقدر ما يستحقّه هو تعالى فإنّ ذلك غير ممكن.

وقوله: وليس امرؤ وإن عظمت. إلى قوله: حمّله الله تعالى من حقه.

أي أنه وإن بلغ المرء أيّ درجة كانت من طاعة الله فهو محتاج إلى أن يعان عليها، وليس هو بأرفع من أن يعان على ما حمّله الله منها، وذلك أنّ تكليف الله تعالى بطاعته بحسب وسع المكلّف، والوسع في بعض العبادات قد يكون مشروطاً بمعونة الغير فيها فلا يستغني أحد منها.

وقوله: ولا امرء وإن صغّرته النفوس. إلى قوله: أو يعان عليه.

إشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يزدرى أحد عن الاستعانة في طاعة الله أو أن يعان عليها فإنّه وإن احتقرته النفوس فليس بدون أن يعين على طاعة الله وأداء حقّه ولو بقبول الصدقات ونحوها أو تعاونوا عليها بإعطاء ما يسدّ خلّتهم أو يدفع عنهم ضرراً كالجاه، ولفظ الاقتحام استعارة، ووجهها أنّ الّذي تحتقره النفوس تجبّراً عليه وتعبره العيون عبور الاحتقار فكأنّها قد اقتحمته. وغرض هذا الكلام الحثّ على استعانة بعض ببعض وعلى الألفة والاتّحاد في الدين، وأن لا يزدرى فقير لفقره ولا ضعيف لضعفه، وأن لا يستغني غنيّ عن فقير فلا يلتفت إليه ولا قويّ عن ضعيف فيحتقره بل أن يكون الكلّ كنفس واحدة. وأمّا قوله لمن أكثر عليه الثناء فحاصله التأديب على الإطراء أو النهي عن الغلوّ في الثناء على الإنسان في وجهه بالفضائل وإن كانت حقّه، وسرّه أنّ ذلك يستلزم في كثير من الناس الكبر والعجب بالنفس والعمل.

فقوله: إنّ من حقّ من عظم. إلى قوله: إحسانه إليه.

مقدّمة في الجواب بيّن فيها أنّ من عظمت نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه فحقّه أن يصغر عنده كلّ ما سواه بقياس من الشكل الأوّل، وتقدير صغراه أنّ من عظمت نعم الله عليه ولطف إحسانه إليه فهو أحقّ الناس بتعظيم جلال الله في نفسه وإجلال موضعه من قلبه، وتقدير كبراه وكلّ من كان أحقّ بذلك فمن حقّه أن يصغر كلّ ما سواه عنده، ودلّ على الكبرى بقوله: لعظم ذلك: أي لعظم جلال الله في قلبه يجب أن يصغر عنده كلّ شيء سواه، وهذه المقدّمة وإن كانت عامّة إلّا أنّ الإشارة الحاضرة بها إلى نفسه، وذلك أنّ أعظم نعمة الله في الدنيا خلافة المسلمين، وفي الآخرة ما هو عليه من الكمالات النفسانيّة فكان أحقّ الناس بتعظيم جلال الله في نفسه، وكان بذلك من حقّه أن يصغر كلّ ما سوى الله في قلبه. ثمّ قال: ومن أسخف حالات الولاة. الى قوله: والكبرياء. فكأنه قال: ومن كان حقّه أن يصغر كلّ ما سوى الله في قلبه فكيف يليق به أن يحبّ الفخر أو يصنع أمره على الكبر الذين لا يليقان إلّا بعظمة الله، أو يظنّ به ذلك ويعامل بما يعامل به الجبابرة من الخطاب به، وصرّح بأنّ المراد نفسه في قوله: وقد كرهت، إلى آخره.

وقوله: ولو كنت أُحبّ أن يقال فيّ ذلك.

يجري مجرى تسليم الجدل: أي وهب إنّي أُحبّ أن يقال ذلك فيّ باعتبار ما فيه اللذّة لكنّي لو كنت كذلك لتركته باعتبار آخر، وهو الانحطاط والتصاغر عن تناول ما هو الله أحقّ به من العظمة والكبرياء، ونبّه في ذلك على أنّ الإطراء يستلزم التكبّر والتعظيم فكان تركه له وكراهته لكونه مستلزماً لهما.

وقوله: وربّما استحلى الناس الثناء بعد البلاء.

يجري مجرى تمهيد العذر لمن أثنى عليه فكأنّه يقول: وأنت معذور في ذلك حيث رأيتني أُجاهد في الله وأحثّ الناس على ذلك. ومن عادة الناس أن يستحلوا الثناء عند من يبلو بلاءً حسناً في جهاد أو غيره من سائر الطاعات. ثمّ أجاب عن هذا العذر في نفسه بقوله: فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء، إلى قوله: من إمضائها، وأراد فلا تثنوا عليّ لأجل ما ترونه منّي من

طاعة الله فإنّ ذلك إنّما هو إخراج لنفسي إلى الله من الحقوق الباقية عليّ لم أفرغ بعد من أدائها وهي حقوق نعمه، ومن فرائضه الّتي لا بدّ من المضي فيها، وكذلك إليكم من الحقوق الّتي أوجبها الله عليّ لكم من النصيحة في الدين والإرشاد إلى الطريق الأقصد والتعليم لكيفيّة سلوكه، وفي خطّ الرضي ـ رحمه الله ـ من التقيّة بالتاء، والمعنى فإنّ الّذي أفعله من طاعة الله إنما هو إخراج لنفسي إلى الله وإليكم من تقيّة الحقّ فيما يجب عليّ من الحقوق إذ كان عليه السلام إنّما يعبد الله لله غير ملتفت في شيء من عبادته وأداء واجب حقه الى أحد سواء خوفاً منه أو رغبة اليه، وكأنه قال: لم أفعل شيئاً إلاّ وهو ذا حقّ وجب عليّ وإذا كان كذلك فكيف أستحقّ أن يثنى عليّ لأجله بثناء جميل وأقابل بهذا التعظيم، وهو من باب التواضع لله وتعليم كيفيّته وكسر النفس عن محبّة الباطل والميل إليه.

وقوله: فلا تكلّموني. إلى قوله: بعدل.

إرشاد لهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من السيرة عنده ونهاهم من أمور:

(أ) أن لا يكلّموه بكلام الجبابرة لما فيه من إغراء النفس، ولأنّه عليه السلام ليس بجبّار فيكون ذلك منهم وصفاً للشيء في غير موضعه.

(ب) أن لا يتحفظوا منه بما يتحفّظ به عند أهل البادرة وسرعة الغضب من الملوك وغيرهم، وذلك التحفّظ كتكلّف ترك المساورة والحديث إجلالاً وخوفاً منه أو كترك مشاورته أو إعلامه ببعض الأمور أو كالقيام بين يديه فإنّ ذلك التحفّظ قد يفوت به مصالح كثيرة، ولأنّه ممّا يغري النفس بحبّ الفخر والعجب، ولأنّه وضع للشيء في غير موضعه.

(ج) أن لا يخالطوه بالمصانعة والنفاق لما فيه من فساد الدين والدنيا.

(د) أن لا يظنّوا به استثقالاً لحقّ يقال له وإن كان فيه مرارة، واستعار لفظ المرار لشدّة الحقّ وصعوبته فإنّ عدله عليه السلام وما يستلزمه من قبول الحقّ كيف كان يرشد إلى أن لا يظنّوا به أنّه يلتمس الإعظام لنفسه، وذلك لمعرفته

بمن هو أهله دونه وهو الله تعالى.

وقوله: فإنّه من استثقل. إلى قوله: أثقل.

قياس ضمير من الشكل الثاني بيّن فيه أنّه لا يستثقل قول الحقّ له وعرض العدل عليه ليزول ظنّ من ظنّ ذلك به، والمذكور هو صغرى القياس وتلخيصها أنّ من استثقل قول الحقّ له وعرض العدل عليه كان العمل الحقّ والعدل عليه ثقيلاً بطريق أولى، وتقدير الكبرى ولا شيء من العمل بهما بثقيل عليّ أمّا الصغرى فظاهرة لأنّ تكلّف فعل الحقّ أصعب على النفس من سماع وصفه، وأمّا الكبرى فلأنّه عليه السلام يعمل بهما من غير تكلّف واستثقال كما هو معلوم من حاله فينتج أنّه لا شيء من قول الحقّ له وعرض العدل عليه بثقيل.

(هـ) أن لا يكفّوا عن قول حقّ ومشورة بعدل لما في الكفّ عن ذلك من المفسدة.

وقوله: فإنّي لست. الى قوله: منّي.

من قبيل التواضع الباعث لهم على الانبساط معه بقول الحق، وفي قوله: إلّا أن يكفي الله من نفسي: أي من نفسي الأمّارة بالسوء ما هو أقوى منّي على دفعه وكفايته من شرورها، وهو إسناد العصمة إلى الله تعالى.

وقوله: فإنّما أنا وأنتم. إلى آخر.

تأديب في الانقياد لله وتذليل لعظمته، وظاهر كونه تعالى يملك من أنفسنا وميولها وخواطرها. إذ الكلّ منه وهو مبدء فيضه والاستعداد له.

وقوله: وأخرجنا ممّا كنّا فيه.

أي من الضلالة في الجاهليّة وعمى الجهل فيها عن إدراك الحقّ وسلوك سبيل الله إلى ما صلحنا عليه: أي من الهدى بسبيل الله والبصيرة لما ينبغي من مصالح الدارين، وذلك ببعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وظهور نور النبوّة عنه.

٢٠٨ - ومن كلام له (عليه السلام)

اللّهُمَّ إنّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ، فَإنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَأُوا

إنَائِي، وأجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا ألا إنَّ في الحَقِّ أن تَأْخُذَهُ وَفِي الحَقِّ أن تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أوْ مُتْ مُتَأسِّفاً. فَنَظَرْتُ فَإذا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَلاَ ذَابٌّ، وَلاَ مُسَاعِدٌ، إلَّا أهْلَ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ المَنِيَةِ فَأغْضَيْتُ عَلَى القَذَى، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَى، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الغَيْظِ عَلَى أمَرَّ مِنَ العَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ حَزِّ الشِّفَارِ.

قال الرضي: وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة إلا أني كررته ههنا لاختلاف الروايتين.

أقول: أستعديك: أستعينك. والاسم العدى وهي الإعانة، وأكفأت الإناء وكفأته: كببته. والرافد المعاون. والقذى: ما يسقط في العين فيؤذيها. والشجى: ما يعرض في الحلق عند الغمّ والحزن من الأثر فيكون الإنسان كالمغتصّ بلقمة ونحوها. والعلقم: شجر مرّ. والشفار: جمع شفرة وهي السكّين.

وغرض الفصل التظلّم والتشكّي والاستعانة بالله على قريش فيما دفعوه عنه من حقّ الإمامة الّذي هو أولى به، وكنّى عن ذلك بقطع الرحم، وكذلك كنّى بقلب إنائه عن إعراضهم وتفرّقهم عنه فإنّ ذلك من لوازم قلب الإناء كما إنّ من لوازم نصبهم له وتعديله إقبالهم واجتماعهم عليه.

وقوله: وأجمعوا. إلى قوله: غيري.

قالت الشيعة: الإشارة بالمجتمعين إلى قريش حين وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك الغير الّذي كان هو أولى منه هم الخلفاء الثلاثة قبله، وقال غيرهم: بل أشار بالمجمعين إليهم وقت الشورى واتّفاقهم بعد الترديد الطويل على عثمان فلا يدخل الشيخان الأوّلان في هذه الشكاية، والقول الثاني ضعيف. إذ صرّح بمثل هذه الشكاية من الأئمّة الثلاثة قبله في الخطبة الشقشقيّة كما بيّناه، وبالجملة مراده من هذا الكلام وأمثاله بعد استقراء أقواله وتصفّح أحواله لا يخفى على عاقل، ويشبه أن يكون صدور هذا الكلام منه حين خروج طلحة والزبير إلى البصرة تظلّماً عليهما فيكون المفهوم من قوله: وأجمعوا على منازعتي حقّا كنت أولى به من غيري إنكاراً لإجماعهم منازعته

ذلك الحقّ فإنّه إذا كان أولى به ممّن سبق من الأئمّة على جلالة قدرهم وتقدّمهم في الإسلام فكيف بهؤلاء مع كونهم أدون حالاً منهم، وهو كقوله فيالله وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأوّل منهم حتّى صرت أقرن إلى هذه النظائر.

وقوله: وقالوا: ألا إنّ في الحقّ. إلى قوله: متأسّفاً.

حكاية لقولهم بلسان حال فعلهم لا أنّهم قالوا له ذلك.

وقوله: فنظرت. إلى آخره.

قد مضى تفسير من الآلام الحسيّة من حز السكين وغيره.

ومن طالع الفصلين المتقدّمين علم التفاوت في الرواية لهما ولهذا الفصل.

٢٠٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في ذكر السائرين الى البصرة لحربه عليه السلام

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدِي وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً، وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ.

أقول: عضّوا على أسيافهم: أي لزموها، وأشار بالمصر إلى البصرة، وبالّذين قدموا على عمّاله إلى طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم فأمّا حالهم مع عمّاله وما فعلوا بهم وبخزّان بيت المال بالبصرة فقد مرّ ذكره مستوفى، وبالله التوفيق.

٢١٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لما مر بطلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل:

لَقَدْ أصْبَحَ أبُو مُحَمَّدٍ بِهَذا المَكَانِ غَرِيباً! أمَا وَالله لَقَدْ كُنْتُ أكْرَهُ أنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الكَوَاكِبِ، أدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأفْلَتَنِي أعْيَانُ بَنِي جُمَحَ، لَقَدْ أتْلَعُوا أعْنَاقَهُمْ إلَى أمْرٍ لَمْ يَكُونوا أهْلَهُ، فَوُقِصُوا دُونَهُ.

أقول: هو عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ابن أبي العاص بن أميّة شهد واقعة الجمل وقتل بها، وروي أنّ عقاباً احتمل كفّه فأصيب باليمامة في ذلك اليوم، وعرفت بخاتمه وكان يدعى يعسوب قريش. وأعيان: جمع عين: هم سادات القوم وأوتادهم. وجمح: قبيلة، وأتلعوا: مدّوا أعناقهم كالمتطلّعين الى الامر. ووقصوا كسرت أعناقهم. وأبو محمّد كنية طلحة. وفي الفصل إشارات:

فالأولى: أنّ قتله عليه السلام لمن قتل من مخالفيه ومن قتل من عسكره لم يكن إلّا إقامة للدين ونظام العالم.

فإن قلت: إنّ قتل هؤلاء على كثرتهم فساد حاضر.

قلت: إنّه وإن كان فساداً إلّا أنّه جرى بالنسبة الى صلاح جمع المسلمين في مصرٍ جزئيّة بالنسبة إلى صلاح أكثر بلاد المسلمين، وفعل ما هو بصورة جزئيّة من الفساد لمصلحة كلّيّة واجب في الحكمة فهو كقطع عضو فاسد لإصلاح باقي البدن.

الثانية: قوله: تحت بطون الكواكب كناية لطيفة عن الفلوات، وأراد أنّي كنت أكره أن يكونوا بهذه الحالة في الفلوات لا كنّ ولا ظلّ يواريهم.

الثالثة: لقائل أن يقول: لم قال عليه السلام: أدركت وتري من بني عبد مناف؟ والوتر الحقد وهو رذيلة فكيف يجوز منه عليه السلام أن ينسبه إلى نفسه ويقول: قد أدركته. والجواب أنّ الحقد تعود حقيقته إلى ثبات الغضب وبقائه

ببقاء صورة المؤذي في الخيال، ومن حيث إنّ ثبات ذلك الغضب بتصوّر المؤذي في الدين لا يكون رذيلة، فلا يكون أخذ الحقّ به ونصرته مكروهة.

الرابعة: أنّ طلحة والزبير كانا من بني عبد مناف من قبل الأُمّ دون الأب فإنّ أبا الزبير من بني عبد العزّى بن قصي بن كلاب، وأمّا طلحة من بني جعد بن تميم بن مرّة، وكان في زمن أمير المؤمنين عليه السلام من بني جمح عبد الله بن صفوان بن أُميّة بن خلف، وعبد الرحمن بن صفوان، وقيل: كان مروان بن الحكم منهم أُخذ أسيراً يوم الجمل واستشفع بالحسين إلى أبيه عليه السلام، ورُوي عوض أعيان أغيار بني جمح وهم السادات أيضاً.

والخامسة: إتلاع رقابهم استعارة كنّى بها عن تطاولهم لأمر الخلافة مع كونهم ليسوا أهلاً لها. ووقصهم كناية عن قتلهم دون ذلك الأمر وقصورهم عنه.

٢١١ - ومن كلام له (عليه السلام)

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَه لاَمِعٌ كَثِيرُ البَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ ٱلْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلاَمَةِ، وَدَارِ الإقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ ٱلْأَمْنِ وَٱلرَّاحَةِ: بِمَا ٱسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

أقول: هذا الفصل من أجلّ كلام له في وصف السالك المحقّق إلى الله، وفي كيفيّة سلوكه المحقّق وأفضل أموره. فأشار بإحياء عقله الى صرف همّته في تحصيل الكمالات العقلية من العلوم والأخلاق واحياء عقله النظري والعملي بها بعد الرياضة بالزهد والعبادة، وأشار بإماتة نفسه الى قهر نفسه الأمّارة بالسوء، وتطويعها بالعبادة للنفس المطمئنّة بحيث لا يكون لها تصرّف على حدّ طباعها إلاّ بارسال العقل وباعثه فكانت في حكم الميّت عن الشهوات والميول الطبيعية الذي لا تصرّف له من نفسه.

وقوله: حتّى دقّ جليله.

أي حتّى انتهت به إماتته لنفسه الشهويّة إلى أن دقّ جليله، وكنّى

بجليله عن بدنه فإنّه أعظم ما يرى منه، ولطف غليظه إشارة إلى لطف بدنه أيضاً، ويحتمل أن يشير به إلى لطف قواه النفسانيّة بتلك الرياضة وكسر الشهوة فإنّ إعطاء القوّة الشهويّة مقتضى طباعها من الانهماك في المآكل والمشارب ممّا يثقل البدن ويكدّر الحواسّ، ولذلك قيل: البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة والغلظة. فإذا قصرت على حدّ العقل لطفت الحواسّ عن قلّة الأبخرة المتولّدة عن التملّؤ بالطعام والشراب، ولطف بلطف ذلك ما غلظ من جوهر النفس بالهيئات البدنيّة المكتسبة من متابعة النفس الأمّارة بالسوء كلطف المرآة بالصقال حتّى يصير ذلك اللطف مسبّباً لاتّصالها بعالمها واستشراقها بأنوار من الملأ الأعلى.

وقوله: وبرق له لامع كثير البرق.

أشار باللامع إلى ما يعرض للسالك عند بلوغ الإرادة بالرياضة به حدّاً من الخلسات إلى الجناب الأعلى فيظهر له أنوار إلهيّة لذيذة شبيهة بالبرق في سرعة لمعانه واختفائه، وتلك اللوامع مسمّاة بالأوقات عند أهل الطريقة، وكلّ وقت فإنّه محفوف بوجد إليه قبله ووجد عليه بعده لأنّه لمّا ذاق تلك اللذّة ثمّ فارقها وصل فيه حنين وأنين إلى ما فات منها. ثمّ إنّ هذه اللوامع في مبدء الأمر تعرض له قليلاً فإذا أمعن في الارتياض كثرت، فأشار باللامع إلى نفس ذلك النور، وبكثرة برقه إلى كثرة عروضه بعد الإمعان في الرياضة. ويحتمل أن يكون قد استعار لفظ اللامع للعقل الفعّال، ولمعانه ظهوره للعقل الإنسانيّ، وكثرة بروقه إشارة إلى كثرة فيضان تلك الأنوار الشبيهة بالبروق عند الإمعان في الرياضة.

وقوله: فأبان له الطريق.

أي ظهر له بسبب ذلك أنّ الطريق الحقّ إلى الله هي ما هو عليه من الرياضة، وسلك به السبيل: أي كان سبباً لسلوكه في سبيل الله إليه.

وقوله: وتدافعته الأبواب.

أي أبواب الرياضة، وهي أبواب الجنّة أعني تطويع النفس الأمّارة، والزهد الحقيقيّ، والأسباب الموصلة إليهما كالعبادات وترك الدنيا فإنّ كلّ

تلك أبواب يسير منها السالك حتّى ينتهي إلى باب السلامة وهو الباب الّذي إذا دخله السالك تيقّن فيه السلامة من الانحراف عن سلوك سبيل الله بمعرفته أنّ تلك هي الطريق وذلك الباب هو الوقت الّذي أشرنا إليه، وهو أوّل منزل من منازل الجنّة العقليّة.

وقوله: وثبتت رجلاه. إلى قوله: والراحة.

ففي قرار الأمن متعلّق ثبتت، وهو إشارة إلى الطور الثاني للسالك بعد طور الوقت ويسمّى طمأنينة وذلك أنّ السالك ما دام في مرتبة الوقت فإنّه يعرض لبدنه عند لمعان تلك البروق في سرّه اضطراب وقلق يحسّ بها خلسة لأنّ النفس إذا فاجأها أمر عظيم اضطربت وتقلقلت فإذا كثرت تلك الغواشي ألفتها بحيث لا تنزعج عنها ولا تضطرب لورودها عليها بل تسكن وتطمئنّ لثبوت قدم عقله في درجة أعلى من درجات الجنّة الّتي هي قرار الأمن والراحة من عذاب الله.

وقوله: بما استعمل. إلى آخره.

فالجار والمجرور متعلّق بثبتت أيضاً: أي وثبتت رجلاه بسبب استعمال قلبه ونفسه في طاعة الله وإرضائه بذلك الاستعمال، وبالله التوفيق.

٢١٢ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قاله بعد تلاوته: ﴿الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾:

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ، وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ، وَخَطَراً مَا أَفْظَعَه، لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكَرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ!! أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ؟! يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ، وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ!! لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعُشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ؛ لَقَالَتْ ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً،

تَطَأُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا الأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

أُولئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمُ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ ٱلْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً، سَلَكُوا فِي بُطُونِ ٱلْبَرْزَخِ سَبِيلاً، سُلِّطَتِ الأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ، لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ ٱلْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ ٱلْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ، غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَأُلَّافاً فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِم وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ٱرْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ، جِيرَانٌ لَا يَتَآنَسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ، بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَى التَّعَارُفِ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ ٱلْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً، أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ، فَأَتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا، وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ، وَٱنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ؛ لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ الأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَٱنْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً! فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِ فَاسْتَكَّتْ،

وَآكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاَقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلىً سَمَّجَهَا، وَسَهَّلَ طُرُقَ الآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلاَ أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلاَ قُلُوبٌ تَجْزَعُ؛ لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ مِنْ كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لاَ تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لاَ تَنْجَلِي، وَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ، وَرَبِيبَ شَرَفٍ، يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ؟! فَبَيْنَمَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَنَقَضَتِ الأَيَّامُ قُوَاهُ وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لاَ يَعْرِفُهُ، وَنَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ، فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلاَّ ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَلاَ حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلاَّ هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلاَ آعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلاَّ أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ، حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ: فَقَائِلٌ هُوَ لِمَا بِهِ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ؛ إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ: مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ، وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

أقول: المرام: المطلوب. والزور: الزائرون. والخطر: الإشراف على الهلاك. والفظيع: الشديد الّذي جاوز الحدّ في شدّته. واستحلوا: أي اتّخذوا تحلية الذكر دأبهم وشأنهم، وقيل: استخلوا: أي وجدوه خالياً.

والتناوش: التنازل. وأحجى: أولى بالحجىٰ وهو العقل. والعشوة: ركوب الأمر على جهل به. وترتعون: يتنعمون. ولفظوا: أرموا وتركوا. والفارط: السابق إلى الماء والمورد. وحلبات الفخر: جماعاته. والسوق: جمع سوقة وهي الرعيّة. والبرزخ: ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث. والفجوات: جمع فجوة وهي المتّسع من الأرض. والضمار: الغايب الّذي لا يرجى إيابه. ويحفلون: يبالون. والرواجف: الزلازل. ويأذنون: يسمعون. وارتجال الصفة: انتشاؤها. والسبات: النوم، وأصله الراحة. وأفظع: أشدّ. والمباءة: الموضع يبوء الإنسان إليه: أي يرجع: وعيّ عن الكلام: أي عجز عنه. والكلوح: تكشّر في عبوس. والأهدام: جمع هدم، وهو الثوب البالي. وتكاءدنا: شقّ علينا وصعب. وتهكّعت: تهدّمت. وارتسخت: ثبتت في قرارها الهوام. واستكّت: انسدّت. وذلاقة اللسان: حدّته وسهولة الكلام به. وهمدت: سكنت وبليت. وعاث: انسدّ وسمّجها: قبّحها. والأشجان: الاحزان. والأنيق: العجب للناظر. وغضارة العيش: طيّبه. والكثب: القرب. والبثّ: الحال من همّ وحزن. والقارّ والقرور: الماء البارد.

وفي الفصل فوائد:

فالأولى: اللام في قوله: يا له. لام الجرّ للتعجّب كقولهم: يا للدواهي، والجارّ والمجرور في محلّ النصب لأنّه المنادى ويروى: يا مراما. ومراماً وزوراً وخطراً منصوبات على التميز لمعنى التعجّب من بعد ذلك المرام وهو التكاثر فإنّ الغاية المطلوبة منه لا يدركها الإنسان لأنّ كلّ غاية بلغها ففوقها غاية أخرى قد أدركها غيره فنفسه تطمح إليها، وذلك التعجب من شدّة غفلة الزور: أي الزائرين للمقابر لأنّ الكلام خرج بسبب الآية، وظاهر أنّ غفلة الإنسان عمّا يزور ويقدم بعد تلك الزيارة عليه غفلةٌ عظيمةٌ وهي محلّ التعجّب، وكذلك التعجّب من فظاعة الخطر والاشراف على شدائد الآخرة فإنّ كلّ خطر دنيائي يستحقر في جنبه، والضمير في قوله: استحلوا للأحياء، وفي منهم للأموات، وعنّى بالذكر عمّا خلّفوه من الآثار الّتي هي محلّ العبرة.

وقوله: أيّ مدّكر.

استفهام على سبيل التعجّب من ذلك المذّكر في أحسن إفادته للعبر لأولى الأبصار، وتناوشوهم من مكان بعيد: أي تركهم ما ينتفعون به وهو المذّكر من جهة الاعتبار به وتناولوهم من جهة بعيدة، والّذي تناولوه هو افتخار كلّ منهم بأبيه وقبيلته، ومكاثرته بالماضين من قومه الذّين هم بعد الموت أبعد الناس عنه أو الّذين كمالاتهم أبعد الكمالات عنه، وكنّى بالمكان البعيد عن ذلك الاعتبار فإنّ الأموات وكمالاتهم في أبعد الاعتبارات عن الأحياء والأبناء، ولذلك استفهم عن ذلك استفهام إنكار وتوبيخ فقال: أفبمصارع آبائهم يفخرون. إلى قوله: سكنت، وذلك الإرتجاع بالمفاخرة بهم فكأنّهم بذكرهم لهم في الفخر قد ارتجعوهم بعد موتهم، ويحتمل أن يكون ذلك مستفهماً عنه أيضاً على سبيل الإنكار وإن لم يكن حرف الاستفهام، والتقدير أيرتجعون منهم بفخرهم لهم أجساداً خوت.

وقوله: ولأن يكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً.

مؤكّد لتوبيخه لهم ترك العبرة بالمذّكر الّذي هو وجه النفع وأخذهم بالوجه البعيد وهو الافتخار، وكشف لمعناه. وكذلك قوله: لأن يهبطوا بهم جناب ذلّة: أي بالاعتبار بمصارعهم فإنّه يستلزم الخشوع لعزّة الله والخشية منه. وذلك أولى بالعقل والتدبير من أن يقوموا بهم مقام عزّة بالمفاخرة والمكاثرة، وأضاف الأبصار إلى العشوة لنسبتها إليها: أي نظروا إليها بأبصار قلوب غطّى عليها الجهل بأحوالهم فساروا في تلك الأحوال بجهالة غامرة لهم.

وقوله: ولو استنطقوا. إلى قوله: لقالت.

أي لو طلبت منها النطق لقالت بلسان حالها كذا وكذا. إلى قوله: وتسكنون فيما خرّبوا، ويحتمل أن يكون باقي الفصل كلّه مقولاً بلسان حال تلك الديار، والنصب في قوله: ضلّالاً وجهّالاً على الحال: أي ذهبوا في الأرض هالكين وذهبتم بعدهم جاهلين بأحوالهم تطأون رؤسهم وتستنبتون الأشجار في أجسادهم وذلك في المواضع الّتي بليت فيها الأجساد، واستعار لفظ البواكي والنوائح لأيّام الحياة ملاحظة لشبهها في مفارقتهم لها بالأمّهات

الّتي فارقها أولادها بالموت.

وقوله: أولئك سلف غايتكم وفرّاط مناهلكم.

السابقون لكم إلى غايتكم وهي الموت وما بعده، وإلى مناهلكم وهي تلك الموارد أيضاً، ومقاوم: جمع مقام لأنّ ألفه عن واو، وملوكاً وسوقاً نصب على الحال، وبطون البرزخ ما غاب وبطن منه عن علومنا ومشاهداتنا، والسبيل فيه هي مسلك القدر بهم الى غاياتهم الأخروية من سعادة أو شقاوة، ونسبة الأكل والشرب إلى الأرض مجاز يقارب الحقيقة في كثرة الاستعمال، وإنّما سلب عنهم النموّ والفزع من ورود أهوال الأرض عليهم، والحزن من تغيّر الأحوال بهم، والحفلة بزلازل الأرض وسماع الرياح القاصفة، لكون انتظار ذلك من توابع الحياة وصفاتها.

فإن قلت: فهذا ينافي ما نقل من عذاب القبر فإنّه يستلزم الفزع والحزن.

قلت: إنّما سلب عنهم الفزع والحزن من أحوال الدنيا المشاهدة لنا، وكذلك الحافلة بأهوالها وسماعها. وعذاب القبر ليس من ذلك القبيل بل من أحوال الآخرة وأهوالها، ولا يلزم من سلب الفزع الخاصّ سلب العامّ، ونبّه على أنّ غيبتهم وشهودهم ليس كغيبة أهل الدنيا وشهودهم. إذ كان الغائب في الدنيا من شأنه أن ينتظر والشاهد فيها حاضر وهم شاهدون بأبدانهم مع صدق الغيبة عليهم عنّا: أي بأنفسهم، ولمّا امتنع ذلك العود لا جرم صدق أنّهم غيّب لا ينتظرون وشهود لا يحضرون.

وقوله: وما عن طول عهدهم. إلى قوله: سكونا.

أي عدم علمنا بأخبارهم وصمم ديارهم عند ندائنا ليس لأجل طول عهد بيننا وبينهم ولا بعد محلّتهم ومستقرّهم فإنّ الميّت حال موته وهو بعد مطروح الجسد مشاهد لنا تعمى علينا أخباره ولا يسمع نداءنا دياره، ولكن ذلك لأجل أنّهم سقوا كأس المنيّة فبدلتهم بالنطق خرساً وبالسمع صمما وبالحركات سكونا وإسناد العمى إلى الأخبار والصمم إلى الديار مجاز كقولهم: نهاره صائم وليله قائم.

وقوله: فكأنّهم. إلى قوله: سبات.

أي إذا أراد أحد ينشيء صفة حالهم، شبّههم بالصرعى عن النوم، ووجه الشبه عدم الحركات والسماع والنطق مع الهيئة المشاهدة من المستغرق في نومه. ثمّ نبّه على أنهم في أحوالهم الأخروية من تجاورهم مع وحدتهم وتهاجرهم ليس كتلك الأحوال في الدنيا. إذ من شأن الجيران فيها أن يأنس بعضهم ببعض، والأحياء أن يتزاوروا، والواحد أن لا يكون في جماعة. وأشار بالجوار إلى تقارب أبدانهم في القبور، وبالمحابّة إلى ما كانوا عليه من التحابّ في الدنيا، وبهجرهم إلى عدم تزاورهم، وكذلك خلالهم إلى ما كانوا عليه من المودّة في الدنيا، وكونهم لا يتعارفون لليل صباحاً ولا لنهار مساءً لكون الليل والنهار من لواحق الحركات الدنيويّة الفانية عنهم فتساوى الليل والنهار بالنسبة إليهم، وكذلك قوله: أيّ الجديدين. إلى قوله: سرمداً، والجديدان الليل والنهار لتجدّد كلّ منهما أبداً. واستعار وصف الظعن لانتقالهم إلى الدار الآخرة، وكون ذلك الجديد الّذي ظعنوا فيه سرمداً عليهم ليس حقيقة لعدم عوده بعينه بل إسناد السرمديّة إليه لكونه جزءً من الزمان الّذي يلزمه السرمديّة لذاته حقيقة.

وقوله: شاهدوا. إلى قوله: عاينوا.

إشارة إلى صعوبة أهوال الآخرة وعظمة أحوالها بالنسبة إلى ما يخاف منها في الدنيا، وذلك أمر عرف بأخبار الشريعة الحقّة وتأكّد باستقراء اللذّات والآلام العقليّة ونسبتها إلى الحسيّة. ثم إنّ الخوف والرجاء لأمور الآخرة إنّما يبعثان منّا بسبب وصف تلك الأمور، وإنما يفعل من تلك الأوصاف ما كان فيه مناسبة وتشبّه بالأمور المخوفة والمرجوّة في الدنيا فنحن نتصور تلك على قياس هذه فذلك سبب سهولتها علينا وضعف خوفنا منها ورجائنا لها حتى لو شاهدنا أخطار تلك الدار لشاهدنا أشد ممّا نخافه الآن ونتصوره ونقدره بأوهامنا. فلا جرم لما وصل السابقون شاهدوا أفظع مما خافوا، ولو أمكنهم النطق لعيّوا بصفة ما شاهدوا منها وعجزوا عن شرحها.

وقوله: فكلتا الغايتين.

أي غاية المؤمنين والكافرين من سعادة وشقاوة مدّت: أي مدّ لهم أجل ينتهون فيه إلى غاية ومرجع وهو الجنة أو النار، وذلك المرجع يفوت مبالغ خوفنا ورجاءنا: أي هو أعظم ممّا نخافه ونرجوه، وأسند المدّ إلى الغاية مجازاً.

وقوله: لقد رجعت. إلى قوله: النطق.

من أفصح الكلام وأبلغه، وأبصار العبر أبصار البصائر التي يعتبر بها، وآذان العقول مجاز في علمها بأحوالهم التي من شأنها أن تسمع إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب.

وقوله: وتكلّموا من غير جهات النطق.

أي من غير أفواه وألسنة لحمانيّة ولكن بألسنة أحواليّة.

وقوله: فقالوا. إلى قوله: متّسعا.

إشارة إلى ما تنطق به ألسنة أحوالهم وتحكيه منها في القبور، وروي عوض خلت خوت، واستعار لفظ الأهدام للتغيّر والتقشّف والتمزيق العارض لجسم الميّت لمشابهتها العظم البالي، ويحتمل أن يريد بها الأكفان، والمضجع: القبر. وتوارث الوحشة: أي وحشة القبر، واستعار لفظ التوارث لكون تلك الوحشة كانت لآبائهم قبلهم فحصلت لهم بعدهم، والربوع الصموت: أيضاً القبور. وكذلك مساكن الوحشة. ومعارف صورهم: ما كان معروفاً منها في الدنيا.

وقوله: فلو مثّلتهم بعقلك.

أي تخيّلت صورهم واستحضرتها في خيالك وكشف عنهم محجوب الغطاء لك: أي ما حجب بأغطية التراب والسواتر لأجسادهم عن بصرك. والواو في قوله: وقد ارتسخت. للحال، ويقظة قلوبهم استعارة لحياتهم وحركاتها، وإسناد العبث إلى جديد البلى مجاز، ومستسلمات حال للجوارح والعامل عاث وسهل، واللام في قوله: لرأيت. جواب لو، وأحسن بقوله: لهم في كلّ فظاعة صفة حال لا تنتقل وغمرة لا تنجلي. وصفاً إجماليّاً. فإنّه

لا مزيد عليه في البلاغة اللذيذة، وأراد بالغمرة من الفظاعة ما يغمرهم من الشدائد، والغذيّ فعيل بمعنى مفعول: أي مغذى بالترف.

وقوله: ويفزع إلى السلوة.

أي عن المصيبة النازلة له إلى المسرات والمتنزهات، وضحكه إلى الدنيا كناية عن ابتهاجه بها وما فيها من القينات وغاية إقباله عليه لأنّ غاية المبتهج بالشيء أن يضحك له، وكذلك ضحك الدنيا مجاز في إقبالها عليه إطلاقاً لأسم السبب الغائي على مسبّبه، وأصل بينا بين والألف عن إشباع الفتحة، والعيش الغفول الّذي يكثر الغفلة فيه لطيبه. واستعار لفظ الحسك للآلام والأمراض ومصائب الدهر، ووجه المشابهة استلزامها للأذى كاستلزام الحسك له، ورشح بذكر الوطي، وكذلك استعار وصف النظر لإقبال الحتوف إليه لاستعداد لها فشابهت في ذلك الراصد للشيء المصوب إليه نظره ليقتنصه، والبثّ والنجيّ من الهمّ الحال التي يجدها الانسان عند وهم الموت من الوسواس والتخيّلات والغموم والأحزان التي لم تكن تعرض له.

وقوله: فتولّدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحّته.

وانتصاب آنس على الحال، وما بمعنى الزمان، وكان تامّة، وبصحّته متعلّق بآنس: أي حال ما هو آنس زمان مدّة صحّته، وقيل: ما مصدريّة، والتقدير آنس كونه على أحواله لصحّته.

وقوله: فلم يطفىء ببارد إلاّ ثور حرارة. إلى قوله: ذات داء.

إشارة إلى لوازم العلاج عند سقوطه العلّة من المرض الحار والبارد المقاوم لها، وليس العلاج بالبارد هو المثوّر للحرارة ولا بالعكس لأنّ الدواء معين للطبيعة على مقاومة المرض فلا يكون مثوّراً له، ولكن ما كان مع ذلك العلاج وتلك الإعانة لغلب الحرارة والبرودة ويظهر بسبب ذلك: أي الدواء، وكذلك قوله: ولا اعتدل بممازج لتلك الطبايع إلاّ أمدّ منها كلّ ذات داء: أي ولا اعتدل المريض في علاجه نفسه بما يمازج تلك الطبايع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة إلاّ كان مادّة لداء، وليس مادّة على الحقيقة ولكن

لمّا كان يغلب معه المرض على القوة فكأنّه مادّة له فنسب إليه وهي أمور عرفيّة يقال كثيراً، والكلام فيها على المتعارف.

وقوله: حتى فتر معلّله.

غاية تلك اللوازم. ومعلّله: طبيبه وممرّضه. وخرس أهله عن جواب السائل: إشارة إلى سكوتهم عند السؤال من حاله، وذلك أنهم لا يخبرون عن عافية لعدمها، وتكره نفوسهم الإخبار عنه بما هو عليه من الحال لشدّتها عليهم، فيكون شأنهم في ذلك السكوت عن حاله المشبه للخرس في جوابه. فذلك استعارة له.

وقوله: وتنازعوا. إلى قوله: من قبله.

إشارة إلى ما يتحاوره أهل المريض المشرف على الموت من أحواله وصوره بما العادة جارية أن يقولوه.

وقوله: فبينا هو كذلك.

صفة حال الأخذ في الموت المعتاد للناس.

وقوله: إنّ للموت. إلى آخره.

تلك الغمرات وكونها، أفظع من أن يحيط بها وصف الإنسان أو يستقيم شرحها على الإنسان كما يخبر عليه السلام. ويعلم ذلك على سبيل الجملة وبالحدس والقياس الى الامراض الصعبة التي يمارسها الناس ويشتدّ عليهم فيعرف عند مقاساتها ومعاناة شدائدها. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول في سكرات موته: اللهم أعني على سكرات الموت. وما يستعين عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع كمال اتّصاله بالعالم الأعلى فلا شكّ في شدّته. وبالله التوفيق.

٢١٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قاله عند تلاوته: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ﴾.

إنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاَءَ الْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعِشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ للهِ ـ عَزَّتْ آلاؤُهُ ـ في الْبُرْهَةِ

بَعْدَ الْبُرْهَـةِ وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَـرَاتِ عِبَادٌ نَـاجَاهُمْ فِي فِكْـرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ يُـذَكِّرُونَ بِـأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ، مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الـطَّرِيقَ وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُـوا كَذٰلِـكَ مَصَابِيـحَ تِلْكَ الظُّلُمَـاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَـاتِ، وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْـهُ: يَقْطَعُـونَ بِـهِ أَيَّامَ الْحَيَـاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِـرِ عَنْ مَحَـارِمِ اللهِ فِي أَسْمَـاعِ الْغَـافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِـالْقِسْطِ وَيَأْتَمِـرُونَ بِهِ، وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَـاهَوْنَ عَنْـهُ، فَكَأَنَّمَـا قَـطَعُوا الـدُّنْيَا إِلَى الآخِـرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَـاهَدُوا مَـا وَرَاءَ ذٰلِكَ، فَكَـأَنَّمَا اطَّلَعُـوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيـهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَـةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهـا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذٰلِكَ لِأَهْلِ الدُّنيا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لا يَسْمَعُونَ. فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمْ المَحْمُودَةِ، وَمَجالِسِهِمُ المَشْهُودَةِ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيـرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِـرُوا بِهَا فَقَصَّـرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُـوا عَنْهَا فَفَـرَّطُـوا فِيهَـا، وَحَمَّلُوا ثِقَـلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُـورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الإِسْتِقْلَالِ بِهَا، فَنَشَجُـوا نَشِيجاً، وَتَجَـاوَبُوا نَحِيبـاً، يَعِجُّونَ إِلى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ؛ لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدىً، وَمَصَابِيحَ دُجىً قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ المَلَائِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ، فِي مَقَامٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ، يَتَنَسَّمُـونَ بِدُعَائِـهِ رَوْحَ التَّجَـاوُزِ، رَهَـائِنُ فَـاقَـةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ، لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَـدٌ قَارِعَـةٌ، يَسْأَلُـونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْـهِ الْمَنَادِحُ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ، فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ؛ فَـإِنَّ غَيْرَهَـا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

أقـول: الوقـرة: الغفلـة من الوقـر وهـو الصمم. والعشـوة: الغفلة من العشـاء وهو ظلمـة العين بـالليـل دون النهـار. والبـرهـة: المـدّة الـطويلة من الـزمان. ويهتفـون: يصيحون. والبـرزخ: ما بعـد الموت من مكـان وزمـان.

والنشج: الصوت في ترديد النفس عند البكاء. والمنادح: جمع مندح وهو المتّسع.

فقوله: إنّ الله سبحانه. إلى قوله: بعد المعاندة.

إنّما يتضح بالإشارة إلى الذكر وفضيلته وفائدته: الذكر هو القرآن الكريم لقوله تعالى **﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾**[١] ونحوه، وقيل: هو إشارة إلى تحميده تعالى وتسبيحه وتكبيره وتهليله والثناء عليه ونحو ذلك، وأمّا فضيلته فمن القرآن قوله تعالى **﴿فاذكروني أذكركم﴾**[٢] وقوله **﴿اذكروا الله ذكراً كثيرا﴾**[٣] وقوله **﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله﴾**[٤] الآية، وقوله **﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله﴾**[٥] الآية. وأمّا من الأخبار فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل في الفارين. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله: أنا مع عبدي ماذكرني وتحركت بي شفتاه، وقوله: ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله. قالوا: يارسول الله ولا الجهاد في سبيل الله. قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلّا أن تضرب بسيفك إلى أن ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ـ ثلاثاً ـ وقوله: من أحب أن يرتع في رياض الجنّة فليكثر منه ذكر الله. ونحو ذلك. فأمّا فائدته: فاعلم أنّ المؤثّر من الذكر والنافع منه ما كان على الدوام أو في أكثر الأوقات مع حضور القلب، وبدونهما فهو قليل الجدوى. وبذينك الاعتبارين هو المقدم على ساير العبادات بل هو روح العبادات العمليّة وغاية ثمرتها، وله أوّل يوجب الأنس بالله وآخر يوجبه الأنس بالله، وذلك أنّ المريد في مبدء أمره قد يكون متكلّفاً لذكر أمر ليصرف إليه قلبه ولسانه عن الوسواس فإنّ وفّق للمدوامة أنس به وانغرس في قلبه حبّ المذكور، وممّا ينبّه على ذلك أنّ أحدنا يمدح بين يديه شخص ويذكر بحميد الخصال فيحبّه ويعشقه بالوصف وكثرة الذكر ثمّ إذا عشق بكثرة الذكر اضطرّ

---

(١) ٢١ ـ ٥١.
(٢) ٢ ـ ١٤٧.
(٣) ٣٣ ـ ٤١.
(٤) ٢ ـ ١٩٨.
(٥) ١٢ ـ ١٩٦.

إلى كثـرة الذكـر آخراً بحيث لا يصبـر عنه فـإنّ من أحبّ شيئاً أكثر ذكره ومن أكثر من ذكر شيء وإن كان متكلّفاً أحبّه ؛ وقد شاهدنا ذلك كثيراً . كذلـك أوّل ذكر الله متكلّف إلى أن يثمر الأنس به والحبّ له .

ثمّ يمتنع الصبر عنه آخراً فيثمر الثمرة ، ولـذلك قـال بعضهم : كابـدت القـرآن عشرين سنـة . ثمّ تنعّمت به عشـرين سنـة . ولا يصـدر التنعّم إلاّ عن الأنس والحبّ ولا يصـدر الأنس إلاّ من المداومة على المكابـدة حتّى يصيـر التكلّف طبعـا . ثمّ إذا حصل الأنس بـالله انقطع عن غيـر الله ، وما سـوى الله يفارقه عند الموت فلا تبقى معه في القبـر أهل ولا مـال ولا ولد ولا ولايـة ولا يبقى إلاّ المحبوب المذكور فيتمتّع به ويتلذّذ بانقطاع العـوائق الصارفة عنه من أسباب الدنيا ومحبوباتها .

إذا عـرفت ذلك فقـوله : جعله جـلاء . إشارة إلى فـائدتـه وهي استعداد النفوس بمداومتـه على الوجـه الّذي ذكـرناه لمحبّـة المذكـور والإعراض عمّـا سواه ، واستعار لفظ الجلاء لإزالة كلّ ما سوى المذكور عن لوح القلب بالذكر كما يزال خبث المرآة بالصقال ، وتجوّز بلفظ السمع في إقبالهـا على ما ينبغي أن يسمع من أوامر الله ونواهيه وساير كلامه ، والوقرة لإعراضها عنها ، وكذلـك بلفظ البصـر في إدراكها للحقـايق ومـا ينبغي لهـا ، ولفظ العشـوة لعـدم ذلـك الادراك اطلاقاً في المجـازات الأربعة لاسم السبب على المسبّب . وانقيـادها له : أي للحقّ ، وسلوك طريقه بعد المعاندة فيه والانحراف عنه .

وقوله : وما برح . إلى قوله : عقولهم .

إشارة إلى أنّه لم يخلو المُدد وأزمان الفترات قطّ من عباد الله وأوليـاء له وألهمهم معرفته وأفاض على أفكارهم وعقولهم صور الحقّ وكيفيّة الهداية إليه مكاشفة ، وتلك الإفاضة والإلهام هو المراد بالمناجاة والتكلّم منه .

وقوله : فاستصبحوا . إلى قوله : والأفئدة .

أي استضـاؤا بمصباح نـور اليقـظة ، واليقـظة في الأفئـدة فـطانتهـا واستعدادها الكامل لما ينبغي لها من الكمالات العقليّة ، ونور تلك اليقظة هـو

ما يفاض عليها بسبب استعدادها بتلك الفطانة ويقظة الأبصار والأسماع بتتّبعها لإبصار الأمور النافعة المحصّلة منها عبرة وكمالاً نفسانيّاً وسماع النافع من الكلام، وأنوار اليقظة فيهما ما يحصل بسبب ذلك الإبصار والسماع من أنوار الكمالات النفسانيّة.

ثمّ شرع في وصف حالهم في هديهم لسبيل الله بأيّامه، وهي كناية عن شدايده النازلة بالماضين من الأمم، وأصله أنّها تقع في الأيّام، ويحتمل أن يكون مجازاً إطلاقاً لاسم المحلّ على الحالّ، ومقام الله كناية عن عظمته وجلالته المستلزمة للهيبة والخوف. وشبّههم بالأدلة في الفلوات، ووجه الشبه كونهم هادين لسبيل الله كما تهدى الأدلّة، وكما أن الأدلّة تحمد من أخذ القصد في الطريق طريقه وتبشّره بالنجاة ومن انحرف عنها يميناً وشمالاً ذمّوا اليه طريقه وحذّروه من الهلكة كذلك الهداة إلى الله من سلك سبيل الله العدل اليه وقصد فيها حمدوا اليه طريقه وبشّروه بالنجاة من المهالك، ومن انحرف عنها يميناً وشمالاً: أي سلك احد طرفي الإفراط والتفريط ذمّوا اليه مسلكه وحذّروه من الهلاك الأبدي.

وقوله: وكانوا كذلك.

أي كما وصفناهم، واستعار لفظ المصابيح باعتبار إضائتهم بكمالاتهم بطريق الله، ولفظ الأدلّة باعتبار هداهم إلى الحقّ وتمييزه عن شبهات الباطل.

وقوله: وإن للذكر لأهلاً. إلى قوله: أيّام الحياة.

فأهله هو من ذكرنا أنّهم اشتغلوا به حتّى أحبّوا المذكور ونسوا ما عداه من المحبوبات الدنيويّة، وإنّ من حبّ محبّة المذكور محبّة ذكره وملازمته حتّى اتّخذوه بدلاً من متاع الدنيا وطيّباتها ولم يشغلهم عنه تجارة ولا بيع وقطعوا به أيّام حياتهم الدنيا.

وقوله: ويهتفون. إلى قوله: ويتناهون عنه.

إشارة إلى وجوه طاعتهم لله وعبادتهم له وهي من ثمرات الذكر ومحبّة المذكور لأنّ من أحبّ محبوباً سلك مسلكه ولم يخالف رسمه وكان له في ذلك الابتهاج واللذّة.

وقوله: فكأنّما قطعوا. إلى قوله: عداتها.

تشبيه لهم في ثقتهم بالله وبما جاءت به كتبه ورسله، وتحقّقهم لأحوال القيامة ووعدها ووعيدها بعين اليقين عن قطع الدنيا من أحوال أهل البرزخ وطول إقامتهم فيه فكشفوا غطاء تلك الأحوال لأهل الدنيا بالعبادات الواضحة والبيانات اللايحة حتّى كأنهم في وصفهم لها عن صفاء سرائرهم وصقال جواهر نفوسهم بالرياضة التامّة يرون بأبصارهم ما لا يرى الناس، ويسمعون بآذانهم ما لا يسمعون الناس. إذ يخبرون عن مشاهدات ومسموعات لا يدركها الناس، ولمّا كان السبب في قصور النفوس عن إدرك أحوال الآخرة هو تعلّقها بهذه الأبدان واشتغالها بتدبيرها والانغماس في الهيئات الدنيويّة المكتسبة عنها، وكان هؤلاء الموصوفون قد غسلوا درن تلك الهيئات عن ألواح نفوسهم بمداومة ذكر الله وملازمة الرياضة التامّة حتّى صارت نفوسهم كمرآة مجلوّة حوذى بها شطر الحقائق الإلهيّة فتجلّت وانتقشت بها لا جرم شاهدوا بعين اليقين سبيل النجاة وسبيل الهلاك وما بينهما فسلكوا على بصيرة وهدوا الناس على يقين وأخبروا عن أمور شاهدوها بأعين بصائرهم وسمعوا بآذان عقولهم فكأنّهم في وضوح ذلك لهم وظهوره وإخبارهم عنه قد شاهدوا ما شاهده الناس بحواسّهم فشاهدوا ما لم يشاهده الناس وسمعوا ما لم يسمعوه.

وقوله: فلو مثّلتهم بعقلك.

أي استحضرت صورهم وأعمالهم في مقاومهم المحمودة ومجالسهم المشهودة وهي مقامات العبادة ومجالسها. ودواوين أعمالهم: أذهانهم وما ثبت فيها من أفعالهم. ونشرها: تتبّع نفوسهم بأفكارها وتخيّلاتها لصور تلك الأعمال وتصفّحها لها المشبّهة لتصفّح الأوراق. والواو في قوله: وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كلّ صغيرة وكبيرة للبيان. ليستدعي بيان معنى المحاسبة، ولمّا كان معناها ليستدعي محاسباً حتى يكون النظر معه في رأس المال في الربح والخسران ليبيّن له الزيادة والنقصان، وإن كان من فضل حاصل استوفاه وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلّفه تداركه في المستقبل فكذلك العبد معامله

نفسه الأمّارة بالسوء، ورأس ماله الفرائض وربحه النوافل والفضائل، والخسران المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار فينبغي أن يكون للعبد في آخره ساعة يطالب بها نفسه ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها فإن كان قد أدّى الفرائض على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغّبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها كلّفها بالقضاء، وإن أدّتها ناقصة كلّفها بالجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها وتعذيبها ومعاتبتها واستوفى منها ما يتدارك به تفريطها كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنّه ينقش في حساب الدنيا عن الحبّة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان كذلك ينبغي أن تتقي خدعة النفس ومكرها فإنّها مخادعة مكّارة فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عمّا تكلّم به طول نهاره وليتولّى من حسابها بنفسه ما سيتولاّه غيره في محفل القيامة، وكذلك عن نظره وخواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه، وحتّى عن سكونه وسكوته. فإذا عرف أنّها أدّت الحقّ في الجميع كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر بها الباقي ويقرّره عليها ويكتبه على صحيفة قلبه. ثمّ إنّ النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون أمّا بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلاّ بعد تحقّق الحساب وتميّز باقي الحقّ الواجب عليه.

ثم يشتغل بعده بالمطالبة. وينبغي أن يحاسب الإنسان النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقّة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوماً فإذا هو ستّين سنة فحسب أيّامها فإذا أحد وعشرون ألف يوم وخمس مائة يوم فصرخ فقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب. ثمّ خرّ مغشيّاً عليه فإذا هو ميّت فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى. فهكذا ينبغي أن تكون المحاسبة، ولو رمى العبد بكلّ معصية حصاة في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة من عمره ولكنّه يتساهل في حفظها والملكان يحفظان عليه كما قال تعالى **﴿أحصاه الله ونسوه﴾**(١).

إذا عرفت ذلك فقوله: وفرغوا لمحاسبة أنفسهم. إلى قوله: ندم

---

(١) ٥٨ ـ ٧.

واعتراف. إشارة إلى حال وجدانهم عند محاسبة أنفسهم لتقصيرها والخسران في رؤوس أموالهم الّتي هي الطاعات ونشيجهم ونحيبهم وعجّهم في الندم والاعتراف بالذنب إشارة إلى حالهم في تدارك ذلك الخسران بالشروع في الجبران. فأوّل مقاماته التوبة ولوازمها المذكورة، ثمّ العمل.

وقوله: لرأيت. إلى قوله: الراغبون.

صفات أحوالهم المحمودة، واللام في قوله: لرأيت. جواب لو في قوله: فلو مثّلهم، واستعار لهم لفظة الأعلام والمصابيح باعتبار كونهم أدّلة إلى طريق الله وذوى أنوار يستضاء بها فيها، وحفوف الملائكة بهم كناية عن إحاطة عنايتهم به، وذلك لكمال استعدادهم لقبول الأنوار عن الله بواسطة الملائكة الكروبيّة ووجوب فيضها عليهم عنهم، وفي ذلك الإشارة إلى إكرامهم بذلك.

وقوله: وتنزّلت عليهم السكينة.

إشارة إلى بلوغ استعداد نفوسهم لإفاضة السكينة عليها وهي المرتبة الثالثة من أحوال السالك بعد الطمأنينة، وذلك أن تكثّر تلك البروق واللوامع الّتي كانت تغشاه حتّى يصير ما كان مخوفاً منها مألوفاً، وكانت تحصل لا لمشيئة السالك فيصير حصولها بمشيئته وإرادته. وفتح أبواب السماء لهم إشارة إلى فتح أبواب سما ء الجود الإلهي بإفاضة الكمالات عليهم كما قال تعالى﴿**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر**﴾[1]ومقاعد الكرامات مراتب الوصول إليه. وتلك المقاعد التي اطّلع الله تعالى عليهم فيها فرضي سعيهم بالأعمال الصالحة المبلّغة اليها، وحمد مقامهم فيها.

وقوله: يتنسّمون بدعائه روح التجاوز.

أي يدعونه ويتوقعون بدعائه تجاوزه عن ذنوبهم، وأن لا يجعل تقصيرهم فيما عساهم قصروا فيه سبباً لانقطاع فيضه، وقد علمت أنّ سيئات هؤلاء يعود الى ترك الاولى بهم. ثمّ استعار لهم لفظ الرهائن لكونهم في

---

(١) ٥٤ - ١١.

محلّ الحاجة الى فضله لا معدول ولا ملجأ لهم عنه كالرهائن في يد المسترهن، وكذلك لفظ الأسارى، ووجه المشابهة كونهم في مقام الذلّة بحسب عظمته كالأسير بالنظر الى عظمة من أسّره.

وقوله: جرح. إلى قوله: عيونهم.

فذلك الجرح من لوازم اطّلاعهم على خيانة أنفسهم وخسرانهم في معاملتهم لها بعد محاسبتها.

وقوله: لكلّ باب. إلى قوله: يد قارعة.

أشار بقرعهم لكل باب من أبواب الرغبة الى الله إلى توجيه أسرارهم وعقولهم إلى القبلة الحقيقية استشراقاً لأنوار الله واستسماحاً لجوده.

وقوله: يسألون. إلى قوله: المنادح.

إشارة إلى سعة جوده وفضله وأنّه أكرم الأكرمين ليتبيّن أنّه أحقّ مسؤول بإعطاء سؤل وأولى مرغوب إليه بإسداء مرغوب.

وقوله: فحاسب نفسك. إلى آخره.

أي فتولّ أنت حساب نفسك. فإنّ حساب غيرها من النفوس وهي الّتي لم يحاسبها صاحبها يتولّاه غيرك وهو أسرع الحاسبين، وذلك في معنى تهديد الإنسان على ترك محاسبة نفسه. وبالله التوفيق.

٢١٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قاله عند تلاوته (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم)

أَدْحَضُ مَسْؤُولٍ حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً، لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ. يا أيُّها الانْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا آنَسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقْظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ؟ فَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلِي بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ، فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ، فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ بِمُصَابِكَ، وَعَزَّاكَ عَنِ

الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْكَ؟وَكَيْفَ لاَ يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ، فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى الغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقْظَةٍ، وَكُنْ للهِ مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً، وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إقْبَالَهُ عَلَيْكَ: يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ، وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ! فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ، وَآيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ، مُتَوَازِنَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ؛ لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الأَخْلاَقِ، وَمَسَاوِىءِ الأَعْمَالِ. وَحَقّاً أَقُولُ مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتُ، وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ، وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلاَءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ؛ أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تُكْذِبَكَ، أَوْ تَغُرَّكَ، وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ، وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ؛ لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلاَغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ بِكَ، وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلاًّ! وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ.

إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلاَئِلِهَا الْقِيَامَةُ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلاَ هَمْسُ قَدَمٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلاَئِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ، فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لاَ تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ، وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ، وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

أقول: حجّة داحضة: باطلة. وأبرح جهالةً بنفسه: أي بالغ في

تحصيل جهالتها وأعجبه ذلك؛ والبلول: الصحّة. والضاحي: البارز للشمس. والممضّ: المؤلم. والسطوة: البطش والقهر، والسطوة المرّة منه والجمع سطوات. والتجلّد: التقوّي والتصبّر. والورطة: الهلاك. وتعمّدك: قصدك. والكنف: الحياطة. والكنف: الجانب. وآذنك: أعلمك. والمنسك: موضع العبادة، وأصله كلّ موضع يتردّد إليه ويقصد. والتحرّى: طلب الأحرى والأولى. وشم برق النجاة: أي أنظر إليه.

فقوله: أدحض.

خبر مبتدإ محذوف والتقدير الإنسان عند سؤال ربّه له ما غرّك بربّك الكريم أدحض مسؤل حجّة، وأشدّه انقطاعا في عذره. ومبالغته في تجهيل نفسه: كثرة إمهالها في متابعة هواها وتركها عن الإصلاح، والمنصوبات الثلاثة مميّزات.

وقوله: يا أيّها الإنسان. إلى قوله: بهلكة نفسك.

استفهامات عن أسباب جرأته على الذنوب وأسباب غرّته بربّه وغفلته عن شدّة بأسه وعن أسباب أنسه بهلكة نفسه بتوريطها في المعاصي معها استفهاماً على سبيل التقريع والتوبيخ، ويحتمل أن يكون قوله: ما آنسك. تعجّباً، وكذلك الاستفهام عن بلوله من داء الجهل ويقظته من نوم الغفلة ورحمته لنفسه كما يرحم غيرها إلّا أنّ الاستفهامات الثلاثة الأولى يطلب فيها تصوّر تلك الأسباب وفهم حقيقتها على سبيل تجاهل العارف، وفي هذه الثلاثة الأخيرة يطلب فيها التصديق. ثمّ نبّه على وجوب رحمته لنفسه كما يرحم غيرها بقوله: فلربّما ترى الضاحي. إلى قوله: رحمة له، وهي في قوّة صغرى قياس احتجّ به، ووجه ذلك أنّك قد ترحم من تراه في حرّ الشمس فتظلّه أو مبتلى بألم فتبكي رحمةً له، وكلّ من كان كذلك فأولى أن يرحم لنفسه بانقاذها من بلاء تقع فيه. ينتج إنّك أولى أن ترحم نفسك من دائها.

وقوله: فما صبّرك. إلى قوله: الأنفس عليك.

استفهام عن أسباب صبره على دائه وتجلّده على مصائبه الّتي تلحقه بسبب ذلك الداء وتعزّيه عن البكاء على نفسه وعلى أعزّ الأنفس عليه استفهام

توبيخ ولائمة حسنها بعد ذلك الاحتجاج ظاهر، ونبّه بقوله: **وكيف لا يوقظك**. إلى قوله: سطواته. على بعض أسباب اليقظة لعظمة الله عن الغفلة عنها وهي خوف بيات نقمة أن يوقعها به ليلا كقوله تعالى ﴿**أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون**﴾[1] ومدارج سطواته مجارى بطشه وقهره وهي محالّ المعاصي وأسبابها. والتورّط فيها: الحصول فيها المستلزم للهلاك الأخرويّ.

وقوله: فتداو. إلى قوله: بيقظة.

تنبيه على الدواء من الفترة في القلب عن ذكر الله وهو العزيمة على طاعته والإجماع على ملازمة ذكره، ومن نوم الغفلة في ناظر القلب عن ذلك باليقظة له. ثمّ أمر بما ينبغي أن يكون تلك العزيمة عليه وتلك اليقظة له وهما طاعة الله وتحصيل الأنس بدوام ذكره.

وقوله: وتمثّل. إلى قوله: يصرفها عنك.

تنبيه له على ضروب نعم الله عليه ومقابلته لها بالكفران والمعصية لعله يتذكر أو يخشى فأمره أن يتمثل في ذهنه في حال إعراضه عن ربّه وانهماكه في معصيته إقباله عليه بضروب نعمه من دعوته له بكلامه على ألسنة خواص رسله إلى عفوه وتعمّده إياه بفضله وإقامته في كنف ستره وتقلّبه في سعة فضله لم يمنعه فضله ولا هتك عنه ستره لمقابلته تلك النعم بالكفران والمعصية بل لم يخل من لطفه مقدار طرفة عين، وذلك اللطف في نعمة يحدثها له أو سيّئة يسترها عليه أو بليّة يصرفها عنه. فأحسن بهذا التنبيه فإنّ استحضار ذهن العاقل بضروب هذه النعم في حال الاقبال على المعصية من أقوى الجواذب إلى الله عنها، وإنّما قال: وتمثّل. لأنّ الحاضر في الذهن ليس هو نفس إقبال الله على العبد بل معناه ومثاله. ويدعوه: في موضع الحال، وكذلك الواو في قوله: وأنت. والملازمة أنّ فضله كان عليك حال معصيتك له كثيراً كما تقدّم بيانه فبالطريق الأولى أن يتّم فضله عليك حال طاعتك إيّاه وحسن ظنّك به.

---

(1) ٧ - ٩٥.

وقوله: وأيم الله. إلى قوله: الأعمال.

أي لو كان هذا الوصف الّذي ذكرناه من إقبال الله عليك بضروب نعمه ومقابلتك له بالإعراض عنه والإقبال على معاصيه وصف مثلين من الناس في القوّة والقدرة والمنزلة وكنت أنت المسيء منهما لكان فيما ينبغي لك من الحياء والأنفة أن تكون أول حاكم على نفسك بتقصيرها وذميم أخلاقها ومقابح أعمالها. وهو صورة احتجاج يقرر عليه مساوىء أعماله ويجذبه بذلك إلى تبديلها بمحاسنها في قياس ضمير من الشكل الأول ذكر في الكلام صغراه. تلخيصها: أنّك أوّل حاكم على نفسك بتقصيرها على تقدير أن يكون موليك هذه النعم مثلاً لك، وتقدير الكبرى وكلّ من كان كذلك فأولى به أن يكون أوّل حاكم عليها بتقصيرها على تقدير أن يكون موليه تلك النعم خالقه ومالك رقّه، وينتج أنّ الأولى بك أن يكون أوّل حاكم على نفسك بتقصيرها على تقدير أن يكون مولى تلك النعم خالقك ومالك رقّك.

وقوله: وحقّاً أقول: ما الدنيا غرّتك ولكن بها اغتررت.

تقدير منع لما عساه أن يجيب به الناس سؤاله تعالى اياهم بقوله: ما غرّك بربّك، وهو كثير في كلامهم: إنّ الدنيا هي الغارة، وكما نسب القرآن الكريم اليها ذلك بقوله ﴿وغرّتهم الحياة الدنيا﴾ وكلامه عليه السلام حقّ من وجهين: أحدهما: أنّ الاستغرار من لواحق العقل وليست الدنيا لها العقل، والثاني: أنّها لم تخلق لأنْ يستغر بها. إذ كان مقصد العناية الإلهية بوجود الإنسان فيها فلا يجوز أن ينسب إليها الاستغرار حقيقة لكن لمّا كانت سبباً مادّياً للاغترار بها جاز أن ينسب إليها الاستغرار مجازاً، وصدق قوله أيضاً: ولكن بها اغتررت.

وقوله: ولقد كاشفتك العظات.

تقرير لمنع نسبة الاستغرار إليها بنسبة ضدّه إليها وهو النصيحة له بما كاشفته بالمواعظ وهي محالّ الاتعاظ من تصاريفها وعبرها، وبمجاهرتها وإعلامها على عدل منها. إذ خلقت لذلك التغيير والإعلام وعلى ذلك التصريف ولم يمكن أن يكون إلاّ كذلك فلم يكن تصاريفها بك جوراً عليك.

وقوله: ولهي بما تعدك. إلى قوله: تغرّك.

زيادة تأكيد لنصيحتها وتخويف منها، واستعار لفظ الوعد لإشعارها في تغييراتها بما يتوقّع من مصائبها كما أنّ الوعد إشعار بإعطاء مطلوب، واستعمل الوعد في مكان الوعيد مجازاً إطلاقاً لاسم أحد الضدّين على الآخر كتسمية السّيئة جزاء، وكذلك استعار لها لفظ الصدق والوفاء ملاحظة لشبهها بالصادق الوفيّ في أنّه لا بدّ من إيقاع ما وعد به.

وقوله: أصدق وأوفى. مع قوله: من أن تكذبك أو تغرك.

من باب اللف والنشر وفيه المقابلة.

وقوله: ولربّ. إلى قوله: مكذّب.

تقرير لبعض لوازم الغفلة عليه وهي تهمته للمناصح منها وتكذيبه لصادق خبرها، وأطلق لفظ التهمة والتكذيب مجازاً في عدم الالتفات إلى نصيحتها بتصاريفها وما يعلم من صادق تغيّراتها وعدم اعتبار ذلك منها إطلاقاً لاسم ذي الغاية على غايته، وكانت غاية التهمة والتكذيب عدم الالتفات إلى المتهم والمكذّب والإعراض عنها.

وقوله: ولئن تعرفتها. إلى قوله: الشحيح بك.

صورة احتجاج نبّه فيه على صدقها في نصيحتها كي تستنصح ولا تتّهم، وهو بقياس شرطيّ متّصل، وتقريره ولئن تعرفتها: أي طلبت معرفة حالها في نصيحتها وغشها من الديار الخاوية والربوع الخالية للأمم السالفة والقرون الماضية لتعرفتها بمنزلة الشفيق عليك والشحيح بك، ووجه شبهها بذلك حسن تذكّرها لك وبلاغ موعظتك وعبرتك منها كما أنّ الناصح الشفيق عليك، وبيان الملازمة بحال الوجدان بعد تعرفها. والاستثناء في هذه المتّصلة لعين المقدّم لينتج عين التالي.

وقوله: ولنعم. إلى قوله: محلاً.

مدح للدنيا باعتبار استعمالها على الوجه المقصود بالعناية الإلهية وهو الاعتبار بها دون الرضا بها لذاتها واتّخاذها وطناً ودار إقامة واسم نعم هو دار

من لم يرض، والمخصوص بالمدح هو الدنيا، وداراً ومحلاً منصوبان على التميز يقومان مقام اسم الجنس الّذي هو اسم نعم إذا حذف، وهيهنا مسئلتان:

إحديهما: أنّ اسم الجنس الّذي هو اسم نعم وبئس تضاف في العادة إلى ما فيه الألف واللام كقولك: نعم صاحب القوم، وقد أضافه هيهنا إلى ما ليس فيه الألف واللام، وقد جاء مثله في الشعر كقوله: فنعم صاحب قوم لا سلاح لهم.

الثانية: أنّه جمع بين اسم الجنس والنكرة الّتي تبدل منه، وقد جاء مثله في قوله: فنعم الزاد زاد أبيك زادا، وإنّما أضاف داراً إلى من لم يرض بها، ومحلاً إلى من لم يوطّنها لأنّ الدنيا إنّما يكون داراً ممدوحة باعتبار كونها دار من لم يرض بها ولم يوطّنها لاستلزام عدم رضاهم بها الانتفاع بالعبر بها واتّخاذ زاد التقوى، وأولئك هم المتّقون السعداء بها. ويحتمل أن يكون داراً ومحلاً منصوبين على التميز عن قوله: لم يرض بها ولم يوطّنها.

وقوله: وإنّ السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم.

فوجه سعادتهم بها استثمارهم للكمالات المسعدة في الآخرة منها، ولن يحصل ذلك إلاّ بالهرب منها اليوم، وكنّى بالهرب منها عن الإعراض الحقيقي عن لذّاتها، والتباعد من اقتنائها ولذّاتها لاستلزام الهرب عن الشيء التباعد عنه والزهد فيه، وظاهر أنّ التباعد منها بالقلوب إلاّ ما دعت الضرورة اليه واتّخاذها مع ذلك سبباً الى الآخرة من أسباب السعادة ومستلزماتها كما أشار اليها سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم من حاله فيها بقوله: ما أنا والدنيا إنّما مثلي فيها كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقعد في ظلّها ساعة ثمّ راح وتركها. ودلّ بقوله: إذا رجفت. على الوقت المذكور المدلول عليه بقوله: غدا. وهو يوم القيامة لقوله تعالى ﴿**يوم ترجف الراجفة**﴾[1] قال المفسّرون: الراجفة: هي النفخة الاولى في الصور وهي صيحة عظيمة فيها تردّد واضطراب كالرعد يصعق فيها الخلائق «وتتبعها الراجفة» وهي النفخة

(1) ٧٩ ـ ٦.

الثانية تردف الأوّل. وجلائل القيامة: محنها الجليلة العظيمة.

وقوله: ولحق بكلّ منسك أهله.

إشارة إلى لحوق كلّ نفس يوم القيامة لمعبودها ومطاعها وما ألفته وأحبّته من أمر دنيوي أو أخروي فأقبلت عليه وعملت له، ونحوه أشار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: يحشر المرء مع من أحبّ، ولو أحبّ أحدكم حجراً لحشر معه.

وقوله: فلم يجز. إلى قوله: بحقّه.

تقرير لعدله تعالى في ذلك اليوم. والمعنى أن كلّ حركة ولو طرفة عين في الهواء أو همس قدم في الأرض فإنّها لا تجرى في عدله إلّا بحقّها لا يزاد عليه ولا ينقص عنه. ثمّ أشار إلى كثرة الحجج الباطلة يومئذ والأعذار المنقطعة ترغيباً في تحصيل الكمالات البرهانيّة ولزوم آثار المرسلين والأولياء الأبرار في سلوك سبيل الله، وإنّما ذكر مخاوف ذلك اليوم وأهواله بعد ذكر السعداء فيه وتعيين أنّهم هم الهاربون من الدنيا اليوم ليرغب إلى الاقتداء بهم في ذلك الهرب لغاية تلك السعادة. ثمّ أمر أن يطلب الإنسان من أموره وأحواله أحراها وأولاها ممّا يقوم به عذره في ذلك اليوم وتثبت به حجتّه في محفل القيامة، وذلك الأمر هو ما أشرنا إليه من البرهان واقتفاء أثر المرسلين، وكذلك أمره أن يأخذ ما يبقى له من الكمالات المسعدة في الآخرة ممّا لا يبقى له وهو الدنيا ومتاعها، وقد بيّنا كيفيّة ذلك الأخذ غير مرّة، وأن تيسّر لسفره: أي يستعد لسفره إلى الله بالرياضة بالزهد والعبادة، وأن يشيم برق النجاة: أي يوجه سرّه إلى الله تعالى بعد الزهد الحقيقي والعبادة الكاسرة للنفس الأمّارة بالسوء لتشرق لوامع الأنوار الإلهية وبروقها الّتي هي بروق النجاة وأبواب السلامة كما أشار إليه فيما قبل هذا الفصل بفصلين بقوله: وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، وأن يرحل مطايا التشمير وهو إشارة إلى الجدّ في سلوك سبيل الله والاجتهاد في العمل لما بعد الموت، واستعار لفظ المطايا لآلات العمل، ولفظ الإرحال لإعمالها، وبالله التوفيق.

٢١٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَٱللهِ لَأنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، وَأُجَرَّ فِي ٱلْأَغْلاَلِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى ٱللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشيءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أحداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إلى الْبِلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا؟!

وَٱللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً، وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى ٱسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ ٱلْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ؛ وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً؛ فَأَصْغَيْتُ إلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ، مُفَارِقاً طَرِيقَتِي؛ فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا. فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ، أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إنْسَانُهَا لِلَعبِهِ، وَتَجُرُّنِي إلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ؟ أَتَئِنُّ مِنَ ٱلْأَذَى وَلَا أَئِنّ مِنْ لَظَى؟!وَأعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟؟؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ، أَعَنْ دِينِ ٱللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ، أَمْ ذُو جِنَّةٍ، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَٱللهِ لَوْ أُعْطِيتُ ٱلْأَقَالِيمَ السَّبْعَةِ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ ٱللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُ، وَإنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا، مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَى نَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

أقول: السعدان: نبت شوكيّ ذو حسك لها ثلاث أرؤس محدّدة على أيّ وجه وقعت من الأرض كان لها رأسان قائمان. والمصفّد: الموثوق شدّاً بغلّ أو قيد ونحوهما. والقفول: الرجوع من السفر. والإملاق: الافتقار. والاستماحة: طلب المنح وهو العطاء. والعظلم: نبت وهو بالعربيّة النيل،

وقيل: نبت آخر يصبغ به. والدنف: شدّة المرض. والميسم: المكواة. وسجّرها: وقدها وأحماها. وشنئتها: أبغضتها. وهبلته الهبول: ثكلته الثواكل. والخباط: مرض كالجنون وليس به، والمختبط: الّذي يطلب معروفك من غير سبب سابق بينكما من رحم أو معروفة سابقة أو سابقة معروف لك عنده. والجنّة: الجنون. والهجر: الهذيان. وجلب الشعيرة: قشرها.

وغرض الفصل التبرّي من الظلم، وذلك أنّ أحدهم كان يأتيه فيسأله العطاء وهو عليه السلام لم يكن ليستبقي لنفسه شيئاً ولا يرى ان يعطي من بيت المال أحداً دون غيره. فيحرمه، وربّما كان في غاية الحاجة فينسبه الى الظلم والتخصيص بالمال دونه. فتبرأ بهذا الكلام مما نسب اليه من ذلك.

فقوله: والله. إلى قوله: الحطام.

بيان لمقدار نفرته عن الظلم وغايتها. وعلّة ترجيحه أو اختياره لأحد الأمرين المذكورين على الظلم مع ما يستلزمانه من التألّم والعذاب أنّ ما يستلزمه الظلم من عذاب الله أشدّ خصوصاً في حقّ من نظر بعين بصيرته تفاوت العذابين، مؤكّداً لذلك البيان بالقسم البارّ. ولفظ الحطام مستعار لمتاع الدنيا باعتبار حقارته، وأصله ما تكسر من نبت الأرض. وظالماً وغاصباً حالان.

وقوله: وكيف. إلى قوله: حلولها.

استفهام عن وجه ظلمه لأحد استفهام إنكار على من نسب إليه ذلك مع ذكر سببين يمنعان العاقل من الظلم؛ وهما الرجوع إلى البلى من السفر في الدنيا، وطول الحلول في الثرى.

وقوله: والله لقد رأيت إلى قوله: لظى.

تنبيه لنفي الظلم عنه ببلوغه في المحافظة على بيت المال ومراعاة العدل إلى الحدّ الذي فعله مع أخيه عقيل على شدّة فاقته وفاقة عياله وكونه ذا حقّ في بيت المال، ومعلوم أنّ من لم تدعه هذه الاسباب الثلاثة؛ وهي الأخوّة والفاقة والحقّ الموجود لذي الفاقة. إلى أن يدفعه إليه أو بعضه خوفاً من شبهة الظلم

فهو أنزه الناس أن يظلم أو يحوم حول الظلم بوجـه، واستعار لفظ السمـع لما يوهم من استعاضة لذّة العطاء للأخ الفقير بما يفـوت من الدين لسبب الـظلم في عطيّته على غير الوجه الشرعيّ، وقيادة ما يقوده به من الاستعطاف والرحم عن طريقة العدل، وإنّما أحمى له الحديدة لينبّهه بهـا على النار الأخـرويّة. ، ولذلك احتجّ عند أنينه من حرّها بقوله: أتئنّ من حديدة. إلى قولـه: لغضبه، ووجـه الاحتجاج أنّـك إذا كنت تئنّ من هذه فبـالأولى أن تئنّ من تلك النـار، وغاية ذلك أن تترك الظلم بطلب ما لا تستحقّه لاستلزام الأنين من نار الله ترك الـظلم، ولمّا أثبت عليـه وجوب تـرك الظلم بـذلك الـطلب أعقبه بـالاحتجاج لنفسـه على وجوب تـركها للظلم بـاعطائـه بقولـه: أتئنّ من الأذى ولا أئنّ من لظى: أي إذا كنت تئنّ من الأذى فبالأولى أن أئنّ من لـظى. وإنّما قـال: ولا أئنّ من لظى مع أنّ لظى غير حاصلة الآن تنزيلاً للمتوقّع الذي لا بدّ منه بسبب الـظلم منزلـة الواقـع ليكون أبلغ في المـوعـظة، وإنّمـا أضـاف الإنسـان إلى الحديدة لأنّه أراد إنساناً خاصّاً هو المتولّي لأمر تلك الحديدة فعـرّفه بـإضافتـه إليها، وكذلك الإضافة في جبّارها، وإنّما قال: للعبه، استسهـالاً وتحقيراً لمـا فعل لغرض أن يكبّر فعل الحارّ من سجر النـار، وكذلـك جعل العلّة الحـاملة على سجر النار هو غضب الجبّار تعظيماً لشأنه.

وقوله: وأعجب من ذلك. إلى قوله: أم تهجر.

أي وأعجب من عقيل وحاله طارق طرقنا. والطارق: الآتي ليلاً، وكنّى بالملفوفة في وعائها عن الهديّـة. وقيل: كـان شيئاً من الحلواء كـالفالوذج أو الخبيص ونحـوه، ونبّه بقـوله: شنئتهـا. على بغضه لـلأمور اللذيـذة الدنيـويّة ونفرته عنها زهداً فيها، ووجه تشبيهها بما عجن بريق الحيّة أو قيئها هو مـا في تصوّره في قبولهـا من الفسـاد ومـا قصـد بهـا مهـديهـا في طلب الميـل إليـه المستلزم للظلم والجـور عن سبيل الله فـإنّ القصد الّـذي اشتمل عليـه كالسمّ المهلك، وأمّا كون وجه كون المهدي أعجب من عقيل فإنّ عقيلاً جـاء بثلاث وسايل كلّ منها يستلزم العـاطفة عليـه: وهي الأخوة والفـاقة وكـونه ذا حقّ في بيت المال، وهذا المهدي إنّما أدلى بهديته. فأمّا قوله في جوابه: فقلت له. إلى قوله: أهل البيت. فانّه أراد به حصر وجوب البر في العرف لأن التقرب إلى

الله ببذل المال لعباده إمّا صلة رحم أولا، والثاني فإما على وجه الصدقة أو الزكاة الواجبة ولم يذكر الهديّة لأنّه لم يكن في وهم عاقل قبول عليّ عليه السلام لها خصوصاً زمان خلافته، وذلك أنّ مطلوب العاقل منه بالهديّة إمّا حقّ أو باطل، والحقّ لا يحتاج فيه إلى الهديّة والباطل لا يفعله بوجه، ولذلك لمّا قال له الطارق: إنّها هديّة. دعا عليه ونسبه إلى الجنون والهذيان، ولمّا قسّم عليه وجوب البرّ أبطل قسمين منها بقوله: فذلك محرّم علينا أهل البيت. وأراد الصدقة والزكاة.

وأمّا صلة الرحم فلم يحتجّ إلى ابطالها لأن الطارق لم يكن ذا رحم له، وقول الطارق: لا هذا ولا ذاك. يجري في مجرى إبطال الحصر بإبراز قسم رابع هو الهديّة.

وقوله: هبلتك الهبول. إلى قوله: تهجر.

جواب لقوله: ولكنّها هديّة. قررّ عليه فيه ما فهمه من غرضه بالهديّة، وهو خداعه عن دينه. إذ الهديّة لغرض حرام صورة استغرار وخداع، وذكر الخداع عن الدين تنفيراً لصاحب الهدية عن فعله ذلك، ولمّا كان ذلك الأمر لو تمّ الغرض به يستلزم نقصان الدين كالخداع عن الدين فأطلق عليه لفظة الخداع استعارة.

وقوله: أمختبط أم ذو جنّة أم تهجر.

استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ على ذلك الخداع بعد تقريره عليه. إذ كان المخادع لمثله عليه السلام عن دينه لا يكون إلاّ على أحد الوجوه المذكورة غالباً ولا يتصوّر أن يصدر منه ذلك الخداع عن رويّة صحيحة، وقد ذكر وجوه الخروج عن الصواب ممّا يتعلّق بالعقل.

وقوله: والله. إلى قوله: ما فعلت.

يحتمل أن يكون ردّاً لوهم الطارق فيه أنّه يفعل مطلوبه الحرام بتلك الهديّة، وإبطال لذلك الوهم عنه. والأقاليم السبعة: أقسام الأرض، وهو دليل منه على غاية العدل.

وقوله: وإنّ دنياكم. إلى قوله: تقضمها.

دليل على غاية الزهد منه في الدنيا كقوله في الشقشقيّة: ولألفيتم دنياكم هذه أهون عندي من عفطة عنز.

وقوله: ما لعليّ ولنعيم يفنى ولذّة لا تبقى.

استفهام إنكار لملامته نعيم الدنيا ولذّاتها الفانية، والمعنى أنّ حال عليّ ينافي ذلك النعيم، واختياره يضادّ تلك اللذّة. ثمّ تعوّذ بالله من سبات العقل وهي اختياراته لتلك اللذّات ولذلك النعيم وميله في مطاوعة النفس الأمّارة بالسوء، ومن قبح الزلل وهو الانحراف عن سبيل الله الموقع في مهاوي الهلاك، واستعان به على دفع ما تعوّذ به منه. وبالله التوفيق والعصمة.

٢١٦ ـ ومن دعاء له (عليه السلام)

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالإِقْتَارِ، فَأَسْتَرزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ (إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ).

أقول: اليسار بالفتح: الغنى. والإقتار: ضيق الرزق والفقر.

وحاصل الفصل التجاء إلى الله في طلب الغنى وعدم الابتلاء بالفقر ولوازمه.

واعلم أنّ الغنى المطلوب لمثله عليه السلام هو ما دفع ضرورة حاجته بحسب الاقتصاد والقناعة لا المفهوم المتعارف بين أرباب الدنيا من جمع المال وادّخاره والاتساع به فوق الحاجة، وطلب الغنى على ذلك الوجه محمود، وعلى الوجه الثاني هو المذموم، والفقر هو ما احتاج الإنسان معه إلى سؤال الناس ويلزمه بذلك الاعتبار لوازم صارفة عن وجه الله وعبادته:

أوّلها: ابتذال الجاه ونقصان الحرمة، ولمّا كان الجاه والغنى كالمتلازمين لا يليق أحدهماإلّا بالآخر جعل مزيل الجاه الفقر لأنّه مزيل

الغنى، وإلى وجوب تلازمهما أشار ابو الطيّب بقوله:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

والجاه أيضاً له اعتبارات فما أريد لله منه كان شرفاً به واعتزازاً بدينه، وما أريد الاستعانة به على أداء حقوق الله وطاعته فهو الوجه المحمود الّذي سأل الله حفظه عليه بالغنا عن الناس، وهو الّذي امتن الله تعالى به على الانبياء في قوله ﴿**يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة**﴾[1] وما أريد به الفخر والترؤس في الدنيا فهو المذموم.

الثاني: من لوازمه استرزاق الخلق الّذين من شأنهم أن يسألوا الرزق لا أن يطلب منهم وفي ذلك من الذلّ والخضوع للمطلوب منه ومهانة النفس واشتغالها عن التوجّه إلى المعبود ما يجب أن يستعاذ بالله منه، ومن أدعية زين العابدين عليه السلام: تمدّحت بالغنى عن خلقك وأنت أهل الغنى عنهم، ونسبتهم إلى الفقر وهم أهل الفقر إليك فمن حاول سدّ خلّته من عندك ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته من مظانّها وأتى طلبته من وجهها، ومن توجّه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك فقد تعرّض للحرمان واستحقّ من عندك فوت الإحسان. وإنّما حكم عليه باستحقاق فوت الإحسان لعدم استعداده لنفحات الله بالتوجّه إلى غيره واشتغال نفسه بذلك الغير، ونبّه بقوله: طالبي رزقك على عدم أهليّتهم لأن يطلب منهم.

الثالث: استعطاف شرار خلقه، وظاهر أنّ الحاجة قد تدعو إلى ذلك، والتجربة تقضي بأنّ طلب العاطفة من الأشرار والحاجة اليهم يستلذّ معه ذو المروّة طعم العلقم ويستحلي مذاق الصبر.

الرابع: الابتلاء بحمد المعطي والافتتان بذمّ المانع، وذلك مستلزم للصرف عن الله والتوجّه إلى القبلة الحقيقيّة، والواو في قوله: وأنت. للحال:

---

(١) ٣ ـ ٤٠.

أي لا تبذل جاهي بالإقتار فيلحقني بسببه ما يلحقني من المكاره المعدودات وأنت من وراء ذلك كلّه أولى من أعطى ومنع بأن تعطى وتمنع لقدرتك على كلّ شيء، ومفهوم كونه وراء ذلك كلّه إحاطته وكونه مستند الغنى وأهله المحتاج إليهم من الخلق وأولى بإزالة الفقر ولوازمه لقدرتك على صرفه والإغناء عن الخلق لأنّ كونه محيطاً وكونه مستنداً مستلزمان للورائيّة فالمستند الوراء المعقول للمعقول والمحسوس للمحسوس، وبالله التوفيق.

٢١٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ، لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلَا تَسْلَمُ نُزَّالُهَا، أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ؛ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ، مِنْكُمْ أَعْمَاراً وأَعْمَرَ دِيَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً، أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً، فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالْأَحْجَارَ الْمُسْنَدَةَ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ بِالْخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشِيدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا، فَمَحَلُّهَا، مُقْتَرِبٌ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى؟ وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، وَآرْتَهَنَكُمْ ذٰلِكَ الْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذٰلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ، فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ؟ (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

أقول: التارة: المرّة. والمستهدفة: الّتي جعلت هدفاً نصبت لترمى.

وعفت الآثار: انمحت. والنمارق: جمع نمرق ونمرقة، وهي وسادة صغيرة. والكلكل الصدر. وبعثرت القبور، وبعثرتها: إخراج ما فيها ونبشها. يقال: بعثر الرجل متاعه إذا فرّقه وقلّب أعلاه أسفله.

وغرض الفصل التحذير من الدنيا والاشتغال بها عن الله، والتنفير عن ذلك بذكر معايبها، والجذب به إلى استعمالها على الوجه المطلوب الّذي لأجله وجدت.

فقوله: دار.

خبر مبتدأ محذوف هو الدنيا، وذكر من معايبها عدّة:

أحدها: كونها مقرونة بالبلاء وملازما لها فكنّى عن ذلك بالحفوف الّذي هو الإحاطة من الجوانب لأنّه أبلغ.

الثاني: كونها معروفة بالغدر، واستعار لفظ الغدر لغيرها عمّا يتوهّم الانسان دوامها عليه في حقّه من أحوالها المعجبة له كالمال والصحّة والشباب فكأنّه في مدّة بقاء تلك الأحوال عليه قد أخذ منها عهداً فكان التغيّر العارض لها المستلزم لزوال تلك الأحوال عنه أشبه شيء بالغدر ولمّا كان كثر منها ذلك صارت معروفة به.

وثالثها: كونها لا تدوم أحوالها.

ورابعها: لا تسلم نزّالها من آفاتها.

وخامسها: اختلاف أحوالها، وأحوال خبر مبتدء محذوف تقديره: أحوالها أحوال كذلك.

وسادسها: تصرّف تاراتها؛ وهو تغيّر أحوالها تارة بعد أخرى

وسابعها: كون العيش فيها مذموماً، ولمّا كان العيش فيها كناية عن الالتذاذ بها والتنعّم فيها واستلزم ذلك العاقبة المهلكة لا جرم لزم الذمّ، ولأنّه مشوب بتكدير الأمراض والأعراض فلا يزال مذموماً في الألسنة حتّى في لسان صاحبه والمستريح إليه عند معاناته بعض مراتب الكدر.

وثامنها: عدم الأمان فيها: أي من مخاوفها، وما يلزم تصرّفاتها من البلاء وكلّ ذلك من ضرورتها واختلاف استعدادات القوابل فيها عن حركات الأفلاك وكواكبها، وكون المبادي المفارقة مفيضة على كلّ قابل منها ما استعد له.

وتاسعها: كون أهلها فيها أغراضاً مستهدفة، واستعار لفظ الأغراض، ورشّح بذكر الاستهداف، كذلك استعار لفظ الرمي لإيقاع المصائب بهم ورشّح بذكر السهام.

وعاشرها: كونها معهم على سبيل من قد مضى من القرون الخالية ممّن كان أطول أعماراً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً: أي كانت آثارهم لا يقدر عليها ولا تنال لعظمها، وكونها معهم على ذلك السبيل إشارة إلى إقبالها لهم كإفناء أولئك وإلحاقهم بأحوالهم.

وقوله: أصبحت أصواتهم. إلى قوله: والثرى.

تفصيل لأحوال أولئك ووعيد للسامعين بلحوقها لهم. إذ كان سبيل الدنيا مع الجمع واحداً، وركود رياحهم كناية عن سكون أحوالهم وخمول ذكرهم بعد العظمة في الصدور.

وقوله: قد بني بالخراب فناؤها.

أي على خراب ما كان معموراً من الأبدان والمساكن، وظاهر أنّ القبور أسّست على ذلك وبنيت عليه، وراعى في قوله: فناؤها وبناؤها ومغترب ومقترب السجع المتوازي مع المطابقة في القرينتين الاخريين، وأراد أنّ ساكنها وإن اقترب محلّه فهو غريب عن أهله، ونبّه بقوله: موحشين ومتشاغلين وكونهم لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على أن أحوالهم من تجاورهم وفراغهم ليس كأحوال الدنيا المألوفة لهم ليخوف بها وينفر عنها. ثم أشار إلى عدم علّة المزاورة، واستعار لفظ الطحن لإفساد البلى لأجسادهم ورشّح بلفظ الكلكل، وكذلك استعار لفظ الأكل لإفنائها.

وقوله: وكأن قد صرتم. إلى قوله: المستودع.

فكأن المخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والتقدير فيشبه أنّكم قد صرتم إلى مصيرهم وأحوالهم ويقرب من ذلك لأنّ مشابهة الأحوال يستلزم قرب بعضها من بعض، وارتهنكم ذلك المضجع: أي صار لكم دار إقامة واتّخذكم سكّانه المقيمين به، وأطلق عليه لفظ المستودع باعتبار كونهم سيخرجون منه يوم القيامة.

وقوله: فكيف بكم. إلى قوله: القبور.

سؤال لهم عن كيفيّة حالهم عند تناهي أمورهم وأحوالهم في يوم البعث سؤالاً على سبيل التذكير بتلك الأحوال والتخويف بتلك الأهوال ليذكروا شدّتها فيفزعوا إلى العمل، وذكر منها أمراً واحداً وهو اطّلاع النفوس على ما قدّمت وأسلفت في الدنيا من خير وشرّ والرّد إلى المولى الحقّ الّذي ضل مع الرجوع إليه كلّ ما كان يفترى من دعوى حقيقة سائر الأباطيل المعبودة. وبالله التوفيق.

٢١٨ ـ ومن دعاء له (عليه السلام)

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الاسْتِجَارَةِ بِكَ عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

اللَّهُم إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

أقول: الفهاهة: العيّ. والعمه: التحيّر.

وقد ضرع إلى الله تعالى باعتبارات من الصفات الإضافية والحقيقيّة:

الأوّل: كونه آنس الآنسين لأوليائه. وقد علمت أنّ أولياءَه هم السالكون لطريقه عن المحبّة الصادقة له والرغبة التامّة عمّا عداه، ولمّا كان الأنيس هو الذي يرفع الوحشة وتسكن إليه النفس في الوحدة والغربة وكانت أولياء الله في الحياة الدنيا غريباً في أبنائها منفردين عنهم في سلوك سبيل الله مولّين وجوههم شطر كعبة وجوب وجوده مبتهجين بمطالعة أنوار كبريائه لا جرم كان أشدّ الآنسين لهم أُنساً. إذ ما من عبد تعبّد لغير الله واستأنس به كالولد بوالده وبالعكس إلاّ كان لكلّ واحد منهما مع صاحبه نفرة من وجه واستيحاش باعتبار. فلم يكن لهم أنيس في الحقيقة إلاّ هو إن كانوا في الالتفات إليه منقطعين عمّا عداه مستوحشين من غيره

الثاني: كونه تعالى أحضرهم بالكفاية للمتوكّلين عليه. إذ كان تعالى هو الغنىّ المطلق والجواد الّذي لا بخل من جهته ولا منع، والعالم المطلق بحاجة المتوكّلين وحسن استعدادهم فإذا استعدّ المتوكّلون عليه لحسن توكّلهم لقبول رحمته أفاض على كلّ منهم قدر كفايته من الكمالات النفسانيّة والبدنيّة بلا تعويق عائق أو تردّد في استحقاق مستحق أو مقدار كفايته أو حاجة إلى تحصيل ذلك المقدار. إلى غير ذلك ممّا هو منسوب إلى غيره تعالى من سلوك الدنيا. فلا جرم أقوم من توكّل عليه بكفاية المتوكّلين وأسرعهم إحضاراً لما استعدّ كلّ منهم له من الكمال.

الثالث: كونه تعالى يشاهدهم. إلى قوله: مكشوفة. إشارة الى علمه تعالى بأحوالهم الباطنة الّذي هو من لوازم كونه أحضر لكفايتهم كما بيّناه. واطّلاعه عليهم في ضمائرهم اعتبار لكمال علمه تعالى وبراءته عن النقصان، وكذلك علمه بمبلغ بصائرهم: أي بمقادير عقولهم وتفاوت استعداد نفوسهم لدرك الكمالات، وأكّد بقوله: فأسرارهم لك مكشوفة. ما سبق من الإشارة إلى إحاطة علمه تعالى بأحوالهم الباطنة في معرض الإقرار بكمال العبوديّة والخضوع له والاعتراف بأنّه لا يخفى عليه منهم شيء، ولهف قلوبهم إليه تحسّرها على الوصول إليه والحضور بين يديه، وهو اعتبار لكمال محبّتهم له ورغبتهم فيما عنده.

وقوله: إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك.

أي الغربة في هذه الدار كما هنا، وهو اعتبار لحصول الاستيناس من جهتهم به، والأول اعتبار لكونه تعالى أنيساً لهم.

وقوله: وإن صبّت. إلى قوله: بك.

اعتبار لتحقّق توكّلهم عليه تعالى في دفع ما يكرهون من مصائب الدنيا عند نزولها بهم. إذ سبق اعتبار كونه تعالى أحضر من توكّل عليه لكفاية المتوكّلين. ولجوؤهم إلى الاستجارة به يعود إلى توجيه وجوه نفوسهم إليه تعالى في دفع ذلك المكروه دون غيره وهو التوكّل الخالص.

وقوله: علماً. إلى قوله: قضائك.

فعلماً مفعول له: أي لأجل علمهم بأنّ الأمور كلّها مربوطة بأسبابها تحت تصريف قدرتك، وأنّ مصادرها وهي أسبابها القريبة منتهية إلى قضائك، وهو حكم علمك، إذ به ومنه كانت أسباباً ومصادر لتلك المصائب كان لجوؤهم في الاستجارة بك. ويحتمل أن يكون علماً مصدراً سدّ مسدّ الحال، وهو يستلزم كونهم في عباداتهم وأحوالهم مقطوعي النظر عن غيره تعالى، ولفظ الأزمّة مستعار لأسباب الأمور، ووجه المشابهة كونها ضابطة لها وبها يحرز نظام وجودها كالأزمّة، ولفظ اليد مجاز في القدرة.

وقوله: اللّهمّ. إلى آخره.

شروع في المطلب على وجه كلّيّ، وهو طلب دلالته على مصالحه في أي أمر كان وجذب قلبه بالهداية إلى مواضع رشده من العقائد والآراء الصحيحة التامّة على تقدير إن عيّ عن مسألته أو تحيّر في وجه معرفة مصالحه.

وقوله: فليس ذلك. إلى قوله: كفاياتك.

استعطاف بما في العادة أن يستعطف به أهل العواطف والرحمة من الكلام: أي أنّ هداياتك لخلقك إلى وجوه مصالحهم وكفاياتك لهم ما يحتاجون إليه أمور متعارفة جرت عادتك بها، وألفها منك عبادك.

وقوله: اللّهمّ احملني. إلى آخره.

سؤال أن يحمله تعالى على عفوه عمّا عساه صدر عنه من ذنب، ولا

يحمله على عدله فيحرمه بما فعل حرماناً أو عقوبة، وهو من لطيف ما تستعدّ به النفس لاستنزال الرحمة الإلهيّة، وبالله التوفيق.

٢١٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لله بَلاَءُ فُلاَنٍ، فَقدْ قَوَّمَ ٱلأَوَدَ، وَدَاوَى الْعَمَدَ، أَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ، ذَهَبَ نَقِيُّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ، أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا، أَدَّى إلَى ٱللهِ طَاعَتَهُ، وَٱتَّقَاهُ بِحَقِّهِ، رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ: لاَ يَهْتَدِي فِيهَا الضَّالُّ، وَلاَ يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي.

أقول: الأود: العرج. والعمد: مرض، وهو انسداخ داخل سنام البعير من الحمل ونحوه مع صحّة ظاهره.

وقوله: لله بلاء فلان.

لفظ يقال في معرض المدح كقولهم: لله درّه، ولله أبوه. وأصله أنّ العرب إذا أرادوا مدح شيء وتعظيمه نسبوه إلى الله تعالى بهذا اللفظ، وروي: لله بلاء فلان: أي عمله الحسن في سبيل الله، والمنقول أنّ المراد بفلان عمر، وعن القطب الراوندي أنه إنما اراد بعض أصحابه في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممّن مات قبل وقوع الفتن وانتشارها، وقال ابن أبي الحديد ـ رحمه الله ـ: إنّ ظاهر الاوصاف المذكورة في الكلام يدلّ على أنّه أراد رجلاً ولّي أمر الخلافة قبله. لقوله: قوّم الأود وداوى العمد. ولم يرد عثمان لوقوعه في الفتنة وتشعّبها بسببه، ولا أبا بكر لقصر مدّة خلافته وبعد عهده عن الفتن فكان الأظهر أنّه أراد عمر، واقول: إرادته لأبي بكر أشبه من إرادته لعمر لما ذكره في خلافة عمر وذمّها به في خطبته المعروفة بالشقشقية كما سبقت الاشارة اليه.

وقد وصفه بأمور:

أحدها: تقويمه للأود، وهو كناية عن تقويمه لاعوجاج الخلق عن سبل الله إلى الاستقامة فيها.

الثاني: مداواته للعمد، واستعار لفظ العمد للأمراض النفسانيّة باعتبار استلزامها للأذى كالعمد، ووصف المداواة لمعالجة تلك الأمراض بالمواعظ

البالغة والزواجر القارعة القوليّة والفعليّة.

الثالث: إقامته للسنّة ولزومها.

الرابع: تخليفه للفتنة. أي موته قبلها. ووجه كون ذلك مدحاً له هو اعتبار عدم وقوعها بسببه وفي زمنه لحسن تدبيره.

الخامس: ذهابه نقيّ الثوب، واستعار لفظ الثوب لعرضه، ونقاه لسلامته عن دنس المذامّ.

السادس: قلّة عيوبه.

السابع: إصابة خيرها وسبق شرّها، والضمير في الموضعين يشبه أن يرجع إلى المعهود ممّا هو فيه من الخلافة أي أصاب ما فيها من الخير المطلوب وهو العدل وإقامة دين الله الّذي به يكون الثواب الجزيل في الآخرة والشرف الجليل في الدنيا، وسبق شرّها: أي مات قبل وقوع الفتنة فيها وسفك الدماء لأجلها.

الثامن: أداؤه إلى الله طاعته.

التاسع: اتّقاه بحقّه. أي أدّى حقّه خوفاً من عقوبته.

العاشر: رحيله إلى الآخرة تاركاً للناس بعده في طرق متشعبة من الجهالات لا يهتدي فيها من ضلّ عن سبيل الله ولا يستيقن المهتدي في سبيل الله أنّه على سبيله لاختلاف طرق الضلال وكثرة المخالف له إليها. والواو في قوله: وتركهم. للحال.

واعلم أنّ الشيعة قد أوردوا هنا سؤالاً فقالوا: إنّ هذه الممادح الّتي ذكرها عليه السلام في حقّ أحد الرجلين تنافي ما أجمعنا عليه من تخطئتهم وأخذهما لمنصب الخلافة. فإمّا أن لا يكون هذا الكلام من كلامه عليه السلام أو أن يكون إجماعنا خطأً. ثمّ أجابوا من وجهين:

أحدهما: لا نسلّم التنافي المذكور فإنّه جاز أن يكون ذلك المدح منه عليه السلام على وجه استصلاح من يعتقد صحّة خلافة الشيخين واستجلاب قلوبهم بمثل هذا الكلام.

الثاني: أنه جاز أن يكون مدحه ذلك لأحدهما في معرض توبيخ عثمان بوقوع الفتنة في خلافته واضطراب الأمر عليه واستئثاره ببيت مال

المسلمين هو وبنو أبيه حتّى كان ذلك سببا لثوران المسلمين من الأمصار إليه وقتلهم له، ونبّه ذلك بقوله: وخلّف الفتنة وذهب نقيّ الثوب قليل العيب أصاب خيرها وسبق شرّها.

وقوله: وتركهم في طرق متشعبّة. إلى آخره.

فإنّ مفهوم ذلك يستلزم أنّ الوالي بعد هذا الموصوف قد اتّصف بأضداد هذه الصفات، والله أعلم.

٢٢٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في وصف بيعته بالخلافة، وقد تقدم مثله بألفاظ مختلفة

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُم عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وُرُودِهَا، حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ.

أقول: التداك: الازدحام القويّ. والهيم: العطاش. والتحامل: تكلّف المشي مع مشقّة. والكعاب: الجارية نهد ثديها. وحسرت: كشفت وجهها.

وحاصل الفصل الاحتجاج على من خالفه من أهل البغي فذكر حال الناس في بيعتهم له وكيفيّتها الدالة على شدّة حرصهم عليه واجتماعهم عن رضى واختيار على تسليم الأمر إليه، وشبّه ازدحامهم عليه بازدحام الإبل العطاش يوم ورودها على الحياض، ووجه الشبه شدّة الازدحام، ويمكن أن يلاحظ في وجه هذا الشبه كون ما عنده من الفضائل الجمّة العلميّة والعمليّة تشبه الماء وكون المزدحمين عليه في حاجتهم وتعطّشهم إلى استفادة تلك الفضائل النافعة لغليلهم كالعطاش من الإبل حين ورودها.

وقوله: حتّى. إلى قوله: وطىء الضعيف.

كقوله: في الشقشقيّة حتّى لقد وطىء الحسنان وشقّ عطفاي. وباقي

الفصل ظاهر. وهو في قوّة صغرى قياس ضمير من الشكل الأول، وتلخيصها أنّكم بلغتم في طلبكم لي وحرصكم على بيعتي إلى هذه الغاية حتّى أجبتكم. وتقدير الكبرى وكلّ من كان كذلك فليس له أن ينكث ويغدر، وبالله التوفيق.

ومن خطبة له (عليه السلام)

فَإِنَّ تَقْوَى ٱللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ، فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَالْحَالُ هَادِئَةٌ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْراً نَاكِساً، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ، زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ، قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ، وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوُّ إِطْبَاقِهِ، وَجُشُوبَةُ مَذَاقِهِ، فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً، فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ، وَعَفَّى آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالاِجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُّبِ وَالاِسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا، أَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً، لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلَا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلَا يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ، فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَلَا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا. وَلَا يَرْكُدُ بَلَاؤُهَا.

أقول: الحابس: المانع. والخالس: المختطف. والتكنّف: الإحاطة والطيّات: جمع طيّة بالكسر؛ وهي منزل السفر. والواتر: الّذي يوجب لغيره الوتر وهو الذحل والحقد. والغوائل: المصايب تأتي على غرّة، جمع غائلة.

والمعابل: جمع معبل بكسر الميم وهي نصل طويل عريض. وعدوته بفتح العين: ظلمه. ونبا السيف: إذا لم يؤثّر في الضربة. والظلل: جمع ظلّة، وهو السحاب. والاحتدام: شدّة الحدّة والغيظ. والإرهاق: الإعجال، ويروى بالزاي. والجشوبة بالجيم: غلظ الطعام. والنجيّ: القوم يتناجون. والنديّ: القوم يجتمعون في النادي، وهو المجتمع. ولا يحفلون: لا يبالون، والاحتفال بالشيء: الاعتناء به.

وفي الفصل مقاصد:

الأوّل التنبيه على فضيلة تقوى الله بأوصاف:

الأوّل: كونها مفتاح سداد، ولمّا كان السداد هو الصواب والعدل في القول والعمل، وكان ذلك هو غاية الدين والطريق المسلوك الى الله، وكانت تقوى الله تعود الى خشيته المستلزمة للإعراض عن مناهيه استعار لها لفظ المفتاح باعتبار كونها سبباً للاستقامة على الصواب والقصد في صراط الله المستقيم الى ثوابه المقيم الذي هو افضل المطالب كما أنّ المفتاح سبب الوصول الى ما يخزن من الاموال النفيسة.

الثاني: كونها ذخيرة معاد، وظاهر أنّ الاستعداد لخشية الله وما يستلزمه من الكمالات النفسانيّة من أنفس الذخائر المشفّع بها في المعاد.

الثالث: كونها عتقاً من كل ملكة. استعار لفظ العتق لخلاص النفس العاقلة من استيلاء حكم شياطينها المطيفة بها كخلاص العبد من استيلاء سيده. ثم جعل التقوى نفسها عتقاً مجازاً إطلاق لاسم السبب على المسبّب. إذ كانت التقوى سبباً لذلك الخلاص المستعار له لفظ العتق.

الرابع: ونجاة من كلّ هلكة. أطلق عليها لفظ النجاة مجازاً كالعتق لكونها سبباً لنجاة الناس من المهلكات الأخرويّة وعقوبات الآثام، وربّما كانت التقوى سبباً للنجاة من مخاوف دنيويّة لولاها لحقت.

الخامس: بها ينجح الطالب. أمّا لثواب الله في الآخرة فظاهر، وأمّا في الدنيا فلما نشاهده من اتّخاذ كثير من الناس شعار المتّقين ذريعة إلى مطالبها ونجاح مساعيهم وإقبال الدنيا عليهم.

السادس: وينجو الهارب: أي من عذاب الله وهو ظاهر.

والسابع: وتنال الرغائب، وهو كقوله: وينجح الطالب، وفي كلّ قرينتين من القرائن الستّ من أوّل الفصل السجع المتوازي.

المقصد الثاني: التنبيه على وجوب العمل الصالح المطلوب لله. ومبادرته باعتبارات:

الاول: انهم في وقت العمل وإمكان رفعه الى الله دون ما بعد الموت، والواو في قوله: والعمل للحال.

الثاني: في وقت قبول التوبة منهم والإقلاع من موبقات الآثام.

الثالث: في وقت استماع الدعاء وقبوله فإنّ شيئاً من ذلك لا ينفع بل لا يمكن بعد الموت.

الرابع: والحال هادئة. أي حال الإنسان في الدنيا فإنّ حاله حين الموت وما بعده في غاية الاضطراب.

الخامس: والأقلام جارية: أي أقلام الحفظة، وفائدة الإعلام بالعمل في حال جريان الأقلام التنبيه على وقت الأعمال الخيريّة وإمكانها حين تكتب وترفع الى الله: أي فاعملوا في الحال المذكورة ما دامت أقلام الكرام الكاتبين جارية لتكتب أعمالكم.

المقصد الثالث: حثّهم على المبادرة إلى الأعمال الخيريّة باعتبارات:

أحدها: أنّ أعمارهم التي هي محل الاعمال في معرض الانتكاس والرجوع الى الحالة المنافية للتكليف وهي الهرم المستلزم لضعف العقل والبنية ونقصانهما والرجوع الى حال الطفل في ذلك كقوله تعالى: ﴿**ومن نعمّره ننكّسه في الخلق**﴾[1] فينبغي أن يبادر ذلك بالاعمال الصالحة الممكنة فيه.

الثاني: أنّ أبدانهم في معرض التغيير والتبديل بالصحة الّتي هي مظنّة العمل مرضاً وهو مظنّة بطلان العمل وامتناعه فينبغي أن يبادر الصحّة بالعمل قبل الحبس عنه بالمرض.

الثالث: أن يبادر ما هو أعظم من ذلك وهو الموت الّذي لا بدّ منه،

(١) ٣٦ ـ ٦٨.

واستعار لفظ الخالس له باعتبار أخذه للأعمار على غرّة وغفلة من أهلها كالمختلس للشيء عن يد غيره. ثمّ نبّه على وجوب العمل للموت ولما بعده بأوصافه المخوّفة:

أحدها: كونه هادم لذاتهم الدنيوية وهو ظاهر، ونحوه، قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أكثروا من ذكر هادم اللذات.

الثاني: كونه مكدّر شهواتهم.

الثالث: كونه مباعد طيّاتهم، واستعار لفظ الطيّات لمنازل السفر إلى الآخرة بالموت عن الدنيا وأهلها فإنّ الآخرة أبعد منزل عن الدنيا.

الرابع: استعار لفظ الزائر باعتبار هجومه على الإنسان، ولمّا كان من شأن الزائر أن يكون محبوباً ميّزه بكونه غير محبوب لتحصل النفرة عنه وتفرغ إلى العمل له.

الخامس: استعار له لفظ القرن بوصف كونه غير مغلوب ليهتمّ بالاستعداد له.

السادس: استعار لفظ الواتر بوصف كونه غير مطلوب: أي من شأنه أن يوتر القلوب ولا يمكن أن يطلب بوتر ولا ينتصف منه ملاحظة لشبهه بالرجل البالغ في الشجاعة بحيث لا يغلب.

السابع: استعار لفظ الحبائل للأوصاب والأمراض البدنيّة الّتي هي داعية الموت ومؤدّية إليه كحبالة الصايد، ورشّح بوصف الإعلاق.

الثامن: وتكنّفتكم غوائله: أي أحاطت بكم مصائبه.

التاسع: استعار لفظ المعابل للآفات الداعية إلى الموت أيضاً باعتبار كونها مؤذية أو قاتلة كالنصال، ورشّح بذكر الإقصاد.

العاشر: استعار لفظ السطوة له ملاحظة لشبهه بالسلطان القاهر أو السبع الضاري في قوّة أخذه وشدّة بطشه.

الحادي عشر: كذلك لفظ العدوة له باعتبار كون أخذه على غير حقّ له كالظالم.

فإن قلت: إذا كانت حقيقة الظلم هي الأخذ بغير حقّ وهذا الحدّ

صادق في محلّ الموت فوجب أن يكون لفظ العدوة هنا حقيقة لا استعارة.

قلت: لفظ الأخذ إنّما يصدق حقيقة على ذي الحياة وإن سلّمنا صدقه على غيره لكنّ الأخذ بغير حقّ ليس هو حقيقة الظلم بل الأخذ بغير حقّ لمن يكون من شأنه أن يكون له حقّ، وذلك مختصّ بالعقلاء فسلب الحقّ عمّن له اللفظ حقيقة هو سلب الملكة. وعمّا له اللفظ مستعاراً هو السلب المطلق.

الثاني عشر: وكذلك لفظ النبوة لعدم تأثيره ملاحظة لشبهه بالسيف القاطع ووصفها بالقلّة. وراعى في كلّ ثلاث قرائن من هذه التسع السجع المتوازي.

الثالث عشر: استعار لفظ الظلّ للأمراض والعلل الداعية إلى الموت استعارة لفظ المحسوس بالبصر للمتخيّل ملاحظة لشبهها بالسحاب المظلّ واصفاً بالدواجي.

إذ كان الكلام في معرض التخويف، والسحاب المظلم أشدّ رهبة في القلوب من غيره ويقرب منه قوله تعالى **﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله﴾**[1] وهو شروع في التخويف بنزول الموت.

الرابع عشر: وكذلك استعار وصف الاحتدام لعلله ملاحظة لشبهها في نزولها بالرجل المستشيط غضباً في قوّة الأخذ.

الخامس عشر: استعار لفظ الحنادس لما يتوهّمه الإنسان من الظلم في غمرات الموت وسكراته.

السادس عشر: وكذلك لفظ الغواشي لما يعرض عند سكرات الموت من العوارض المانعة من الإدراك، المغشية لآلاته.

السابع عشر: وأليم إرهاقه: أي إعجاله المؤلم.

الثامن عشر: ودجوّ إطباقه. استعار لفظ الإطباق لحالاته المتزايدة وسكراته المتضاعفة الّتي بتضاعفها تزداد آلات إداركه بعداً وانقطاعاً عن

---

(١) ٣١ - ٣١.

المـدركات الـدنيويّـة، وباعتبـار انقطاع الإدراك بسبب تلك الحـالات وصفها بالدجوّ وشدّة الظلمة، ويحتمل أن يريد بإطباقه إطباق القبور.

التاسع عشر: استعار لفظ مذاقه لوجدانه باعتبار المشاركة في الإدراك، وباعتبار شدّة ايلامه وصفه بالجشوبة.

العشـرون: التخويف بإتيانه بغتـةً، وكأن هي المخفّفة من كـأنّ والاسم ضمير الشأن، ولمّا كانت كأنّ للتشبيه وكان التشبيه يستلزم المقاربة بين المشبّه والمشبّه به في وصف ما هو وجه الشبه كان المشبّه هنا هو حال الموت من جهة ما هو منتظر لا بدّ منه، والمشبّه به هو باعتبار إتيانه وموافاته لهم، ووجه الشبه هو القرب: أي قرب المنتظر الّذي لا بدّ منه من الواقع الموجود. إذ كل ما هو آت قـريب. ثمّ أردف التخويف منه بذكـر لوازمـه المخـوّفـة، وهي إسكـات المتناجين، وتفريق المجتمعين، وتعفية الآثار. وتعطيل الديار، وبعث الوارث لاقتسام التراث. وأسند إليه البعث باعتبار أنّه سبب يلزمه انبعاث دواعي الورثة إلى اقتسام التراث لزوماً عرضيًا.

وقوله: بين حميم.

متعلّق بأتاكم بغتةً مع ما بعده من الأفعال: أي كأنّه قد أتاكم بغتةً ففعل بكم ما فعل من إسكات المتناجين وغيره بين خاصّ لأحدكم لا تنفع صداقته حينئـذ؛ وقريب محـزون لا ينفع حزنه ولا يقدر على المنـع عنه، وآخـر عـدوّ شامت لا يجزع عليه. ثمّ أردف ذكر الموت ولوازمه بالحثّ على العمل والجدّ فيه والتأهّب والاستعداد لنزول الموت وما بعده والتزوّد: أي بالتقوى في منزل الزاد والدنيا لأنها المنزل الذي لا يمكن تحصيل الزاد الى الآخرة الا فيه، ولذلك أضافه إليه، ثمّ بالنهي عن الانخداع لغرور الدنيا كانخداع السـابقين والقرون الماضين، واستعار لفظ الدرّة لمنافع الدنيا وخيراتها، ولفظ الاحتلاب لجمعها واقتنائها: أي الّذين فازوا بخيراتها وحصلوا عليها، ولذلـك استعار لفظ الغـرّة لعـدم وصول حـوادثها إليهم في مـدّة استمتاعهم بهـا فكـأنّهـا غـافلة عنهم لا ترميهم بشيء من المصائب فلما وجدوا ذلك منها أخذوا ما أخذوا وحصّلوا على ما حصّلوا. وإفناؤهم لما تعدد فيها من مأكول وملبوس وغيرهما مما يستمتع به

فيغني، وكذلك إخلاقهم لجدّتها كناية عن استمتاعهم بما أخذوا منها من صحّة ومال وغيرهما إلى انقضائه وانتهاء مدّته حتّى كأنهم لم يبقوا من محاسنها شيئاً إلّا أخلقوه. ولمّا وصف حالهم فيها بما وصف أردف ذلك بذكر غايتهم منها وهي الأحوال المذكورة بقوله: أصبحت مساكنهم أجداثاً. إلى قوله: دعاهم. وخلاصة الكلام أنّكم لا تغترّوا بالدنيا كما اغترّ بها من كان قبلكم فإنّ أولئك مع أنّهم كانوا قد صادفوا غرّتها وحصّلوا منها على ما حصّلوا من خيراتها كانت غايتهم منها أن وصلوا إلى ما وصلوا من العدم فكذلك أنتم بطريق أولى. ثمّ أكّد التحذير منها بذكر أوصافها المنفّرة عنها فاستعار لها لفظ الغرارة باعتبار كونها سبباً ماديّاً للاغترار كما سبق.

ولمّا كان الخداع هو المشورة بأمر ظاهره مصلحة وباطنه مفسدة وكان ظهور زينة الحياة الدنيا للناس يشبه الرأي المحمود في الظاهر اتّباعها، وكانت تلك الزينة واتّباعها لما فيها من الفتنة بها عن سبيل الله الذي هو عين المفسدة تشبه المفسدة في باطن الرأي لا جرم أشبه ظهور زينتها الخداع فاستعار لها لفظ الخدوع بذلك الاعتبار، وكذلك استعار لفظ المعطية، ولفظ المنوع باعتبار كونها سبباً ماديّاً للانتفاع بما فيها من خيراتها وسبباً ماديّاً لمنعه، وكذلك لفظ الملبسة النزوع، وراعى في هاتين القرينتين المقابلة، وفائدتها ههنا التنفير عمّا يتوهّم فيها خيراً ممّا تعطيه وتلبسه بذكر استعقابها لمقابلتهما من منعها لما تعطيه ونزعها ممّا تلبسه، ولذلك أكّد بقوله: لا يدوم رخاؤها. إلى آخره، ولمّا كان رخاؤها من صحّة وشباب ومال وجاه ونحوها من سائر الملذّات البدنيّة حوادث مشروطة باستعدادات سابقة عليها ومعدّات غير مضبوطة كثيرة حادثة وغير حادثة سريعة التغيّر أو بطيئة لا جرم كان من شأن ذلك الرخاء التغيّر والانقطاع، وظاهر أنّ انقطاع رخائها حالاً فحالاً مستلزم لعدم انقضاء عنائها ومتاعبها، وتواتر بلائها. واستعار لبلاء الدنيا وصف عدم الركود ملاحظة لشبهه بالريح دائمة الحركة لكونه دائماً.

منها في صفة الزهاد:

كَانُوا قَوْماً مِنْ أهل الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أهلِهَا، فَكَانُوا فِيها كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا:

عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الآخِرَةِ، يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ، وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

أقول: ظهراني: بفتح النون. والإشارة إلى بعض أصحابه الذين درجوا قبله وقوله: كانوا قوماً. إلى قوله: أهلها.

قضيتان ظاهرهما التناقض لكن قد علمت أنّ المطلقتين لا يتناقضان، واختلافهما يحتمل أن يكونا بالموضوع أو بالإضافة فإنّهم من أهل الدنيا بأبدانهم ومشاركتهم الضروريّة لأهلها في الحاجة إليها وليسوا من أهلها بقلوبهم. إذ خرجوا عن ملاذّها ونعيمها واستغرقوا في محبّة الله وما أعدّ لأوليائه الأبرار في دار القرار فهم أبداً متطلّعون إليه وشاهدون لأحوال الآخرة بعيون بصائرهم كما قال عليه السلام فيما قبل في صفتهم: فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها متنعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون. ومن كان كذلك فحضوره القلبيّ إنّما هو في تلك الدار فكان بالحقيقة من أهلها.

وقوله: عملوا فيها بما يبصرون.

أي كان سعيهم وحركاتهم البدنيّة والنفسانيّة في سبيل الله ببصيرة ومشاهدة لأحوال تلك الطريق وما تفضي إليه من السعادة الباقية، وعلم بما يستلزمه الانحراف عنها من الشقاوة اللازمة الدائمة، والباء للتسبّب. وما مصدريّة، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي: أي بالذي يبصرونه ويشاهدونه من تلك الاحوال فإن علمهم اليقين بها هو السبب القائد والحامل لهم في تلك الطريق وعلى سلوكها. وقوله: وبادروا فيها ما يحذرون.

والمبادرة المسابقة والمعاجلة وهي من الطرفين، والمراد أنّهم سابقوا ما يحذرون من عذاب الله المتوعّد في الآخرة كأنّه سابق لهم إلى أنفسهم وهم مسابقوه الى خلاصها فسبقوه إلى النجاة. إذ كانوا راكبين لمطاياها، ومتمسّكين بعصمها وهي أوامر الله وحدوده.

وقوله: تقلّب. إلى قوله: الآخرة.

أي تتقلّب. فحذف إحدى التائين تخفيفاً. فالمعنى أنّ دأبهم معاشرة

أهل الآخرة والعاملين لها دون أهل الدنيا، وقيل: يحتمل أن يريد بأهل الآخرة سائر الناس لأنّ مستقرّهم الأصلي ودار قرارهم هي الآخرة كما قال تعالى ﴿وإنّ الآخرة هي دار القرار﴾[1] والمعنى على هذا الوجه أنّهم مع الناس بأبدانهم فقط تتقلّب بينهم وأرواحهم في مقام آخر.

وقوله: يرون. إلى آخره.

الغرض الفرق بينهم وبين أهل الدنيا. إذ كان أهل الدنيا لا يرون أنّ وراء أبدانهم كمالاً آخر فكانوا غافلين عن أحوال الآخرة من سعادة أو شقاوة فكان أعظم محبوباتهم بقاء أجسادهم وتكميلها، وأعظم منفور عنه لهم نقصانها وموتها: أما المتّقون فهم وإن كانوا يرونهم بتلك الحال الا انهم يرون أفضل ممّا يرون، وهو أنّ موت قلوبهم وفقدانها للحياة بالعلم والحكمة أعظم من موت أجسادهم، وذلك لعلمهم بفساد الحياة البدنيّة وانقطاعها وكدرها بعوارض الأمراض وسائر المغضبات الدنيويّة، وبقاء الحياة النفسانيّة وشرف كمالها وصفاء لذّاتها عن الأقدار والأكدار. وإنّما قال: قلوب أحيائهم، ولم يقل: قلوبهم لأنّ موت القلوب قد يكون حقيقة بموت الأجساد، وقد يكون مجازاً وهو موتها بفقدان العلم ونور الحكمة مع حياة أجسادها فكان ذكر الأحياء كالقرينة المعيّنة لمراده بذلك الموت مجازاً، والضمير في قوله: أحيائهم يعود إلى أهل الدنيا لأنّ موت القلوب هو الواقع بهم حال حياة أبدانهم، ويحتمل عوده إلى قوله: وهم. الذي هو ضمير المتّقين. وبالله التوفيق.

٢٢٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

خطبها بذي قار، وهو متوجه إلى البصرة، ذكرها الواقدي في كتاب الجمل.

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ ٱللهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ

---

(١) ٤٠ ـ ٤٢.

الْفَتْقَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ ذَوِي الْأَرْحَامِ، بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ.

أقول: ذو قار: موضع قريب من البصرة، وفيه كانت وقعة العرب مع الفرس قبل الإسلام. والصدع: الشقّ. والواغرة: ذات الوغرة: وهي شدّة توقّد الحر، وفي صدره وغر: أي عداوة وضغن توقد من الغيظ. وعداوة واغرة: شديدة. والضغائن الأحقاد.

والإشارة إلى أوصاف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

فالأوّل: استعار له لفظ الصدع بما أمر به من تبليغ الوحي، ووجه المشابهة أنه شقّ بما جاء به الرسالة عصا الكفر وكلمة أهله، وفرّق ما اتصل من أغشية الجهل على رؤوس الكافرين وحجب الغفلة التي رانت على قلوبهم كما يصدع الحجر بالمعول ونحوه.

الثاني: ذكر تبليغه لرسالة ربّه في معرض مدحه لكونه أداء أمانة عظم تبليغها وقدرها، وذلك فضيلة تحت ملكة العفّة.

الثالث: كونه قد لمّ الله به الصدع، ورتق به الفتق، واستعار لفظي الصدع والرتق لما كان بين العرب من الافتراق وتشتت الأهواء واختلاف الكلمة والعداوات والأحقاد حتّى أنّ أحدهم كان يقتل أباه وابنه وذوي رحمه لهوى يقوده أو ضغن يحمله فجمع الله بمقدمه صلى الله عليه وآله وسلم أشتاتهم وألف بين قلوبهم حتّى جعل ذلك في معرض امتنانه عليه. إذ يقول: ﴿**وألّف بين قلوبهم ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم**﴾ وكذلك استعار لفظ القادحة للضغائن لاستلزامها إثارة الغضب والفتن والشرور كما يثير القادح النار. وبالله التوفيق.

٢٢٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

كلم به عبد الله بن زمعة، وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا، فقال عليه السلام:

إنَّ هٰذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

أقول: هو عبد الله بن زمعة بفتح الميم بن أسود بن المطّلب ابن أسود بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب. وكان من أصحاب عليّ وشيعته. والجلب: المال المجلوب، وروي بالخا. وجناة الثمر: ما يجنى منه.

وظاهر الكلام يقتضي أنّه استماحه عليه السلام مالاً فاعتذر إليه، ووجه العذر أنّه لم يكن ليجمع لنفسه مالاً يخصّه وإنّما يجمع له معه ما كان لبيت مال المسلمين من فيئهم؛ وهو جلبة أسيافهم من مال الكفّار غنيمة، ونطق القرآن الكريم بقسمة خمسه بين من ذكر في قوله ﴿**واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل**﴾(١) والأقسام الأربعة الباقية للقائمين الذين باشروا القتال. فعند الشافعي للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم، وعند أبي حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم، وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام. ويحمل منعه عليه السلام له من الخمس على أنّه طلب من مال المقاتلة أو على أنّ الخمس كان قد قسّم أو على أنّه لم يكن من المساكين وهم أهل الفاقة والفقر ولا ابن السبيل وهو المنقطع في سفره، وأمّا سهم الله فأجمع المفسّرون على أنّ ذكر الله هنا للتعظيم وإن اختلفوا في قسمة الخمس. فمنهم من قال: يقسّم خمسة أقسام لأنّ سهم الله وسهم الرسول للرسول فهو قسم واحد، وهو المروي عن ابن عبّاس وقتادة وجماعة من أهل التفسير، ومنهم من قال: يقسّم أربعة أقسام، ومنهم من قال: ثلاثة أقسام والمرويّ عن أهل البيت عليهم السلام أنّه ينقسم ستّة أقسام فسهم الله وسهم رسوله للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهما بعده مع سهم ذوي القربى للقائم مقامه ينفقها على نفسه وأهل بيته من بني هاشم.

والثلاثة الأسهم الباقية لليتامى والمساكين وأبناء السبيل من أهل بيت الرسول لا يشركهم فيها باقي الناس عوضاً من الصدقات المحرّمة عليهم.

(١) ٨ - ٢٤.

والأئمّة الأربعة على أنّ سهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان تصرف بعد عهده إلى ما أهمّ به من مصالح المسلمين من السلاح والكراع. فإذن لم يكن أن يعطيه من سهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وظاهر أنّه ليس من أولي القربى ولا اليتامى، وأمّا منعه من الأخماس الأربعة فلأنّها كانت للمقاتلة خاصّة ولم يكن هو منهم، ولذلك قال له: وإنّما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظّهم، وقد نطق كلامه عليه السلام هنا بأنّ الفيء والغنيمة واحد وإن كان قد يختصّ الفيء عند بعضهم بما أخذ من مال الكفّار بغير قتال وهو قول الشافعي والمرويّ في أخبار الإمامية.

وقوله: وإلّا: أي وإن لا تكن قد شركتهم، واستعار لفظ الجناة لما اكتسبوه بأيديهم من ذلك المال ملاحظة لمشابهته باقتطاف الثمرة واجتنائها وهو من أفصح الاستعارات، ويجري مجرى المثل يضرب لمن يطلب مشاركة غيره في ثمرة فعل فعله ذلك الغير وتعب فيه، ولمّا كان قوله: وإلّا. دالاً على مقدّم شرطيّة متّصلة تقديره وإلّا تكن قد شركتهم في حربهم. ونبّه بقوله: فجناة أيديهم. إلى آخره على تاليها. إذ كان مفهوم هذا القول دالاً على عدم استحقاق غير الجاني نصيباً ممّا جنته يد الجاني فكأنّه قال: وإلّا شركتهم في حربهم فلا يكون لك نصيب فيما كسبته أيديهم. والفاء لجواب الشرط المقدّر. وبالله التوفيق.

٢٢٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أَلَا إِنَّ اللِّسَانَ بِضْعَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ، وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ، وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ.

وَاعْلَمُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى الْإِدْهَانِ فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ، لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

أقول: روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال هذا الكلام في واقعة اقتضت ذلك، وهي أنّه أمر ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي يوماً أن يخطب الناس فصعد المنبر فحصرفلم يستطع الكلام فقام عليه السلام : وتسنّم ذروة المنبر. ثمّ خطب خطبة طويلة. ذكر الرضى ـ رحمه الله ـ منها هذا الفصل.

والبضعة: القطعة. ونشّبت : تعلّقت. وتهدّلت: تدلّت. والعارم: الشرس سيّء الأخلاق. والمماذق: الذي يمزج الودّ ولا يخلصه، وهو نوع من النفاق. والضمير في يسعده ويمهله للسان، وفي امتنع واتّسع للإنسان.

والمعنى أنّ اللسان لمّا كان آلة للإنسان يتصرّف بتصريفه إيّاه فإذا امتنع الإنسان عن الكلام لشاغل أو صارف لم يسعد اللسان القول ولم يواته، وإذا دعاه الداعي إلى الكلام وحضره واتّسع الإنسان له لم يمهله النطق بل يسارع إليه، ويحتمل أن يعود الضمير في امتنع إلى القول، وفي اتّسع إلى النطق: أي فلا يسعد القول اللسان إذا امتنع القول من الإنسان ولم يحضره لوهم أو نحوه أوجب حصره وعيّه ولم يمهله النطق إذا اتّسع عليه وحضره.

وقوله: وإنّا لأمراء الكلام.

استعار لفظ الأمراء لنفسه وأهل بيته ملاحظة لكونهم مالكين لأزمّة الكلام يتصرّفون فيه تصرّف الأمراء في ممالكهم، واستعار لفظ العروق لموادّ الكلام وأصوله وملكاته المتمكّنة في قلوبهم، واستعار لفظ التنشّب، وكذلك استعار لفظ الغصون لما أمكنهم من تناوله، ورشّح بذكر التهدّل لأنّ من شأن الغصن ذلك. ثمّ عقّب بذكر الزمان وأهله، ويشبه أن يكون هذا فصلاً منقطعاً عمّا قبله، وذكر أوصافاً:

أحدها: قلّة القائلين فيه بالحقّ، وذلك من الشرور اللاحقة لأهل الزمان فيه، وقد علمت ما قلناه في وصف كون الزمان سبباً ما للشرّ والخير عند قوله: أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود.

الثاني: كون اللسان فيه كليلاً عن الصدق، والسبب القريب للوصفين استيلاء الجهل والظلم على أكابره وأهل الدنيا فيه.

الثالث: ذلّ اللازمين للحقّ فيه، وهو لازم عن قلّتهم وضعفهم بالنسبة إلى الباقين.

الرابع: كون أهله معتكفين على العصيان، وأراد الأكثرين من الناس.

الخامس: كونهم مصطلحين على الإدهان: أي المصانعة باللسان دون الإتّفاق بالقلوب، ويحتمل أن يريد بالإدهان الغشّ، وهو لغة قوم.

السادس: وصفهم بحسب أصنافهم: فشابهم شرس الأخلاق لنشوه على غير أدب، وشائبهم آثم لجهله وغفلته عمّا يراد به، وعالمهم منافق لاستعماله فطنته في طرف الشرّ وإعراضه عن أوامر الله وطريق الآخرة، وقارئهم مماذق يظهر التودّد إلى الناس وليس به.

السابع: كونهم لا يعظّم صغيرهم كبيرهم، وذلك لنشوهم على قلّة الآداب الشرعيّة وعدم التفاتهم اليها.

الثامن: ولا يعول غنيّهم فقيرهم وصف لهم بالجفاوة والبخل. وبالله التوفيق.

٢٢٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

روى ابو محمد اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية قال: كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكر عنده اختلاف الناس فقال:

إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِي طِينِهِمْ، وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ، نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ، قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَذَاكِي الْعَمَلِ، قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ، بَعِيدُ السَّبْرِ، وَمَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ، مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ، مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ، حَدِيدُ الْجَنَانِ.

أبو محمّد ذعلب اليمانيّ وأحمد وعبد الله ومالك من رجال الشيعة

ومحدّثيهم. والفلقة: القطعة، والشقّ من الشيء. والرواء: المنظر الجميل. وسبرت الرجل أسبره: اختبرت باطنه وغوره. والضريبة: الخلق والطبيعة. والجليبة: ما يجلبه الإنسان ويتكلّفه.

والكلام إشارة إلى السبب الماديّ لاختلاف الناس في الصور والأخلاق.

فقوله: إنّما فرّق بينهم. إلى قوله: يتفاوتون.

فطينهم إشارة إلى التربة الّتي أشار إلى جمع الله لها في قوله: في الخطبة الأولى: ثمّ جمع سبحانه من سهل الأرض وحزنها وسبخها وعذبها تربة. إلى قوله: وأصلدها حتّى استمسكت. والمعنى أنّ تقاربهم في الصور والأخلاق تابع لتقارب طينهم وتقارب مبادئه وهي السهل والحزن والسبخ والعذب، وتفاوتهم فيها تابع لتفاوت طينهم ومبادئه المذكورة. قال أهل التأويل: إضافة المبادي هنا إلى الطين إضافة بمعنى اللام: أي المبادي لطينهم، والإشارة بطينهم إلى أصولهم، وهي الممتزجات المنتقلة في أطوار الخلقة كالنطفة وما قبلها من موادّها وما بعدها من العلقة والمضغة والعظم، والمزاج الإنسانيّ القابل للنفس المدبّرة. قالوا: ولمّا كانت مبادي ذلك الطين في ظاهر كلامه عليه السلام هي السبخ والعذب والسهل والحزن كان ذلك كناية عن الأجزاء العنصريّة الّتي هي مبادي الممتزجات ذوات الأمزجة كالنبات والغذاء والنطفة وما بعدها. إذ كلّ ممتزج منها لا بدّ فيه من أجزاء متفاعلة فيحصل بواسطتها استعداداتها، وتفاعلها ذو مزاج هو نطفة وغيرها فتلك الأجزاء المتفاعلة المستعدّة لمزاجٍ مزاجٌ هي مبادىء تلك الأمزجة والممتزجات ولمّا كانت السبخيّة والعذوبة والسهولة والحزونة أموراً تلحق الممتزجات الأرضيّة الّتي هي مبادىء الطين ولها أثر في اختلاف مزاجه وسائر الأمزجة المركّبة منه، وكان اختلاف استعدادات تلك الأمور الممتزجة لقبول الأمزجة الّتي هي السبب في اختلاف الأمزجة واستعدادتها لقبول الأخلاق والصور هو السبب في اختلاف الأخلاق والصور لا جرم كان السبب في تفرق الناس في أخلاقهم وخلقهم إنما هو اختلاف مبادىء طينهم، وقد علمت ممّا سلف في الخطبة الأولى لميّة تخصيصه عليه السلام بعض الأجزاء العنصريّة بالتركّب عنها، ويحتمل أن يشير بالسبخ

والعذب والسهل والحزن إلى الأجزاء الأرضيّة من حيث هي ذوات أمزجة متعادلة الكيفيّات. فالسبخ كناية عن الحارّ اليابس منها، والعذب كناية عن الحارّ الرطب، والسهل كناية عن البارد الرطب، والحزن كناية عن البارد اليابس قالوا: وعلى هذا حمل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الله سبحانه لمّا أراد خلق آدم أمر أن يؤخذ قبضة من كلّ أرض فجاء بنو آدم على قدر طينها الأحمر والأبيض والسهل والحزن والطيّب والخبيث. فالقبضة من كلّ أرض إشارة إلى الأجزاء الأرضية المذكورة، وكون الناس مختلفين عنها بالأبيض والأحمر إشارة إلى اختلاف خلقهم، وكونهم مختلفين بالسهولة والحزونة والطيّب والخبيث إشارة الى اختلاف تلك الاستعدادات السابقة على كلّ مزاج في أطوار خلقهم قالوا: وقد بان بذلك معنى قوله: فهم على حسب قرب ارضهم يتقاربون: أي على حسب قرب مبادىء طينهم المذكورة وتشابهها في استعداداتها وإعدادها يتقاربون ويتشابهون في الصور والأخلاق، وعلى قدر اختلاف تلك المبادىء وتباينها في ذلك يتفاوتون وتتضادّ أخلاقهم وتتباين خلقهم. قالوا: ويجب التأويل هنا لأنّا لو حملنا الكلام على ظاهره لاقتضى أنّ كلّا منهم قد خلق من الطين.

قوله: فتامّ الرواء. إلى آخره.

تفصيل لهم في تفاوتهم. وذكر أقساماً سبعة فبدء بالأقسام التّي تضادّ خلقها لأخلاقها أو بعض أخلاقها لبعض وهي خمسة:

الأوّل: من استعد مزاجه لقبول صورة كاملة حسنة وعقل ناقص فهو داخل في رذيلة الغباوة.

الثاني: المستعدّ لامتداد القامة وحسنها أيضاً لكنّه ناقص في همّته فهو داخل في رذيلة الجبن، وكلاهما يشتركان في مخالفة ظاهرهما لباطنهما، ويتفاوتان في الاستعداد الباطن.

الثالث: المستعدّ لقبح صورته الظاهرة وحسن باطنه باعتدال مزاج ذهنه المستلزم للأعمال الذاكية.

الرابع: قريب القعر: أي قصير بعيد السبر: أي داهية ببعد اختيار باطنه والوقوف على أسراره، ومخالفة ظاهر هذين القسمين لباطنهما ظاهر.

الخامس: معروف الضريبة منكر الجليبة: أي يكون له خلق معروف

يتكّلف ضدّه فيستنكر منه، ويظهر عليه تكلّفه كأن يكون مستعداً للجبن فيتكلّف الشجاعة أو بخيلاً فيتكلّف السخاوة فيستنكر منه ما لم يكن معروفاً منه. فهذه هي الأقسام الخمسة، والقسم الأوّل والثالث قليلان فإنّ الأغلب على المستعدّ لحسن الصورة وجمالها واعتدال الخلقة أن يكون فطناً ذكيّاً لدلالة تلك العوارض على استواء التركيب واعتدال المزاج، والأغلب على المستعد لقبح الصورة عكس ذلك، وأما القسم الثاني والرابع فهو أكثر فإنّ الأغلب على طويل القامة نقصان العقل والبلادة ويتبع ذلك فتور العزم وقصور الهمة، وعلى القصير الفطنة والذكاء وحسن الآراء والتدابير، وقد نبّه بعض الحكماء على علّة ذلك فقال حين سئل ما بال القصار من الناس أدهى وأحذق؟: لقرب قلوبهم من أدمغتهم. ومراده أنّ القلب لمّا كان مبدءً للحار الغريزيّ وكانت الأعراض النفسانية من الفطنة والفهم والإقدام والوقاحة وحسن الظنّ وجودة الرأي والرجاء والنشاط ورجوليّة الأخلاق وقلّة الكسل وقلّة الانفعال عن الأشياء كلّ ذلك يدلّ على الحرارة وتوفّرها، وأضداد هذه الأمور يدلّ على البرودة لا جرم كان قرب القلب من الدماغ في القصير لكونه سبباً لتوفّر الحرارة في الدماغ وجودة استعداد القوى النفسانيّة فيه للأعراض المذكورة، وكان بعده منه في الطويل سبباً لقلّة الحرارة فيه وضعف استعداد القوى النفسانيّة فيه للأعراض المذكورة، واستعدادها لأضدادها وإن كانت الحرارة ليست هي كمال السبب الماديّ، والقسم الخامس أكثري وذلك لمحبّة النفوس للكمالات فترى البخيل يحبّ أن يعدّ كريماً فيتكلف الكرم، والجبان يحبّ أن يعدّ شجاعاً فيتكلّف الشجاعة، وقد راعى في هذه القرائن المطابقة فالتامّ بإزاء الناقص، وماذّ القامة بإزاء القصير، والذكي بإزاء القبيح، والقريب بإزاء البعيد، والمعروف بإزاء المنكر، وأمّا القسمان الباقيان فأحدهما: تائه القلب متفرّق اللبّ، وهم العوام. والعامة أتباع كل ناعق التائهون في تيه الجهل المتفرقة أهواؤهم بحسب كل سانح من المطالب الدنيوية والخواطر الشيطانية، والثاني: طليق اللسان حديد الجنان، وهو اللسن الذكي، وهذان القسمان مخالفان للاقسام الاولى في مناسبة ظاهرهما لباطنهما، وراعى في كلّ قرينتين من هذين القسمين السجع المتوازي. وبالله التوفيق.

٢٢٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتجهيزه

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَقَدِ ٱنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَٱلْأَنْبَاءِ، وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ، خَصَصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسْلِياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً.

وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ؛ لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّالَكَ، وَلٰكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، ٱذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَٱجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ.

أقول: روي عوض الأنباء الأنبياء، وهي الأخبار. والشؤون: مواصل قطع الرأس المشعوب بعضها مع بعض، وملتقاها. والعرب تقول: إنّ الدموع تجيء منها. وقال ابن السكّيت: الشأنان: عرقان ينحدران من الرأس إلى الحاجبين ثمّ إلى العينين. والكمد: الحزن المكتوم. والمحالف: الملازم. والبال. القلب.

وقوله: بأبي أنت وأمّي يتعلّق بمحذوف تقديره أفديك. وإنّما قال له: لقد انقطع بموتك. إلى قوله: السماء لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء، وأراد بأخبار السماء الوحي، قال أهل التأويل: ولفظ السماء مستعار لما علا في المعنى من سماء عالم الغيب ومقامات الملإ الأعلى.

وقوله: خصصت. إلى قوله: سواء.

أي خصصت في مصيبتك من حيث إنها مصيبة خاصة عظيمة لا يصاب الناس في الحقيقة بمثلها فلذلك كانت مسلّية لهم عن المصائب بمن سواك وعمّتهم بمصيبتك حتى استووا فيها. وأضاف الخصوص والعموم اليه وإن كانا للمصيبة لكونها بسببه.

وقوله: ولولا. إلى قوله: وقلّالك.

إشارة إلى العذر في ترك البكاء الكثير ومماطلة الداء وملازمة الحزن، وهو أمره ﷺ بالصبر في مواطن المكروه والنهي عن الجزع عند نزول الشدائد. وكنى عن كثرة البكاء بإنفاد ماء الشؤون، وبالداء عن ألم الحزن بفقده ﷺ واستعار له لفظ المماطلة كأنّ الحزن وألمه لثباته وتمكّنه لا يكاد يفرق مع أنّ من عادته أن يفارق فهو كالمماطل بالمفارقة، والضمير في قوله: وقلّالك يعود إلى إنفاد ماء الشؤون الذي دلّ عليه أنفدنا، وإلى الكمد المحالف. ولمّا كان هو الداء المماطل أتى بضمير الاثنين، ويحتمل أن يعود إلى الداء المماطل والحزن الملازم ترجيحاً للقرب، والضمير في قوله: ولكنّه ما لا يملك يعود إلى الموت في قوله: بموتك، وتقديره ولكنّ الموت الذي لأجله البكاء والحزن ما لا يمكن ردّه ولا يستطاع دفعه فلم يكن في البكاء والجزع فائدة وكان لزومه الصبر أولى. ثمّ عاد إلى التفدية وهي كلمة معتادة للعرب تقال لمن يعزّ عليهم.

فإن قلت: كيف تحسن التفدية هنا بعد الموت وهي غير ممكنة.

قلت: إنّه لا يشترط في إطلاقها في عرفهم إمكان التفدية. إذ ليس الغرض منها تحقيق التفدية بل تخييل التفدية وإيهامها للاسترقاق وتخييل المقول له أنّه عزيز في نفس القائل إلى غاية أنّه أرجح من أبيه وأمّه بحيث يفديه بهما. والظاهر أنّها كانت تعطي [أنّها كانت تعطي خ] في الطبع ميلاً من المقول. ثمّ سأله أن يذكره عند ربّه وأن يجعله من باله. إذ هو السابق إليه مع كونه رئيس الخلق وشفيعهم فكان أولى من سأل ذلك منه. وأراد: اذكرنا عنده بما يجب علينا من طاعته. فهو كأمير بعثه الملك إلى أهل مدينة ليصلح حالهم وينظّمهم في سلك طاعة الملك بالترهيب من وعيده والترغيب فيما عنده من الكرامة فلابدّ أن يعرّف طاعة المطيع وعصيان العاصي إذا حان رجوعه إلى حضرة الملك. وأحبّ الفضلاء وأهل الطاعة منهم أن يذكر طاعتهم عند الملك بين يديه فيشكرونه إلى قلب أميرهم ويسألونه أن يجعلهم من باله: أي من مهمّاته. يقال: هذا من بال فلان: أي ممّا يباليه ويهتمّ به. ويحتمل أن يريد من مهمّات بالك بحذف المضاف. وقبض ﷺ بعد الهجرة بعشر سنين،

وكان مولده عام الفيل، وبعث وهو ابن أربعين سنة بعد بنيان الكعبة، وهاجر إلى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وكان سنّه يوم قبض ثلاث وستّين سنة، ويقال: إنّه ولد يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، وقبض يوم الإثنين، ودفن ليلة الأربعاء بحجرة عائشة وفيها قبض، وتولّى تغسيله عليّ عليه السلام والعبّاس بن عبد المطّلب وولده الفضل. وقد أشرنا إلى ذلك في كيفيّة دفنه صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ولقد علم المستحفظون، وبالله التوفيق.

٢٢٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالِّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ؛ الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ، مُسْتَشْهِدُ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ، دَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ. تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّى لَهَا وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَعَظُمَ سُلْطَاناً.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ، صلى الله عليه وآله وسلم، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ، وَإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالّاً عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْاهْتِدَاءِ، وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً.

أقول: المشاهد: المحاضر والمجالس. والمرائي: جمع مرآة بفتح الميم وهي المنظر يقال: فلان حسن في مرآة العين وفي رأي العين: أي في المنظر. والفلج: الظفر وأصله بسكون اللام. والأمراس: جمع مرس بفتح الراء وهي جمع مرسة وهي الحبل.

وقد حمد الله تعالى باعتبارات من التنزيه:

الأوّل: كونه لا تدركه الشواهد، وأراد الحواسّ، وسمّاها شواهد لكونها تشهد ما تدركه وتحضر معه، وقد علمت تنزيهه عن إدراك الحواسّ غير مرّة.

الثاني: ولا تحويه المشاهد، وقد علمت تنزيهه تعالى عن الأمكنة والأحياز.

الثالث: ولا تراه النواظر: أي نواظر الأبصار، وإنّما خصّص البصر بالذكر بعد ذكر الشواهد لظهور تنزيهه تعالى عن ساير الحواسّ ووقوع الشبهة وقوّتها في أذهان كثير من الخلق في جواز إدراكه تعالى بهذه الحاسة حتى أنّ مذهب كثير من العوام أن تنزيهه تعالى عن ذلك ضلال بل كفر. تعالى الله عمّا يقول العادلون.

الرابع: ولا تحجبه السواتر، وقد علمت أنّ السواتر الجسمانيّة إنّما تعرض للأجسام وعوارضها، وعلمت تنزيهه تعالى عن ذلك.

الخامس: كونه دالّاً على قدمه بحدوث خلقه، واعلم أنّه عليه السلام جعل حدوث خلقه هنا دالّاً على الأمرين:

أحدهما: قدمه تعالى.

والثاني: وجوده. وقد سبق تقرير ذلك في قوله عليه السلام الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه وبحدوث خلقه على أزليّته. غير أنّه جعل هناك الدليل على الوجود هو نفس الخلق وجعله هنا هو الحدوث، ولمّا كان مجرّد الوجود للممكنات وخلقها يدلّ على وجود صانع لها فأولى أن يدلّ حدوثها عليه. وقدمه وأزليّته واحد.

السادس: وكذلك مرّ تقرير قوله: وباشتباههم على أن لا شبيه له. في الفصل المذكور.

السابع: الذي صدق في ميعاده، وصدقه تعالى يعود إلى مطابقة ما نطقت به كتبه على ألسنة رسله الصادقين عليهم السلام للواقع في الوجود ممّا وعد به أمّا في الدنيا كما وعد به رسوله والمؤمنين بالنصر أو الاستخلاف في الأرض

كقوله تعالى ﴿**وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها**﴾[1] الآية وقوله ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض**﴾[2] وأمّا في الآخرة كما وعد عباده الصالحين بما أعدّ لهم في الجنّة من الثواب الجزيل، والخلف في الوعد كذب وهو على الله سبحانه محال، وهو كقوله تعالى ﴿**إنّ الله لا يخلف الميعاد**﴾[3].

الثامن: وارتفع عن ظلم عباده وهو تنزيه له عن حال ملوك الأرض الذين من شأنهم ظلم رعيّتهم إذا رأوا أنّ ذلك أولى بهم، وأنّ فيه منفعة ولذة أو في تركه ضرر وتألّم، وكلّ ذلك من توابع الأمزجة وعوارض البشريّة المحتاج إلى تحصيل الكمال الحقيقي أو الوهميّ. وجناب الحقّ تعالى منزّه عن ذلك.

التاسع: وقام بالقسط في خلقه فقيامه بالقسط وهو العدل فيهم وإجراؤه لأحكامه في مخلوقاته على وفق الحكمة والنظام الأكمل وهو أمر ظاهر وكذلك عدله عليهم في حكمه.

العاشر: كونه يستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته. والاستشهاد الاستدلال، وكرّره هنا تأكيداً باختلاف العبارة.

الحادي عشر: وبما وسمها به من العجز عن قدرته. العجز عبارة عن عدم القدرة عمّا من شأنه أن يقدر. إذ لا يقال مثلاً للجدار: إنّه عاجز، وقد علمت أنّ كلّ موجود سواه فهو موصوف وموسوم بعدم القدرة على ما يختصّ به قدرته تعالى من الموجودات بل بعدم القدرة على شيء أصلاً إذ كلّ موجود فهو منته في سلسلة الحاجة اليه وهو تعالى مبدء وجوده. وسائر ما يعدّ سبباً له فإنّما هو واسطة معدّة كما علم تحقيقه في موضع آخر فإذن لا قدرة في الحقيقة إلّا له ومنه. ووجه الاستدلال أنّه لو كان موسوماً بالعجز عن شيء لما

---

(1) ٤٨ ـ ٢٠.
(2) ٢٤ ـ ٥٤.
(3) ٦ ـ ٧.

كان مبدء له لكنّه مبدء لكلّ موجود فهو ثابت القدرة تامّها.

الثاني عشر: وبما اضطرها إليه من الفناء دوامه. واضطراره لها إلى الفناء حكم قدرته القاهرة على ما استعدّ منها للعدم بإفاضة صورة العدم عليه حين استعداده لذلك على وفق قضائه تعالى بذلك، وهو المشار إليه بقوله تعالى ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله**﴾[1] ووجه الاستدلال أنّه تعالى لو كان مضطراً إلى الفناء كساير الأشياء لكان جائز الفناء فكان ممكنا لكن التالي باطل فهو واجب الوجود دائماً.

الثالث عشر: كونه تعالى واحداً لا بعدد: أي أنّه ليس واحداً بمعنى أنّه مبدء لكثرة يكون عاداً لها ومكيالا، وقد سبق بيان ذلك، وبيان إطلاق وجه الوحدة عليه، وبأي معنى هو غير مرّة. فلا معنى لإعادته.

الرابع عشر: كونه دائماً لا بأمد، وقد سبق أيضاً بيان أنّ كونه دائماً بمعنى أنّ وجوده مساوق لوجود الزمان. إذ كان تعالى هو موجد الزمان بعد مراتب من خلقه، ومساوقة الزمان لا يقتضي الكون في الزمان، ولمّا كان الأمد هو الغاية من الزمان ومنتهى المدّة المضروبة لذى الزمان من زمانه، وثبت أنّه تعالى ليس بذي زمان يعرض له الأمد ثبت أنّه دائم لا أمد له.

الخامس عشر: كونه قائماً لا بعمد: أي بعمد ثابت الوجود من غير استناد إلى سبب يعتمد عليه ويقيمه في الوجود كسائر الموجودات الممكنة، وذلك هو معنى كونه واجب الوجود، وقد أشرنا إلى برهان ذلك في قوله: الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه. وكثير من قرائن هذا الفصل موجود هناك.

السادس عشر: كونه تتلقّاه الأذهان لا بمشاعرة، وتلقّى الأذهان له يعود إلى استقبالها وتقبّلها لما يمكنها أن يتصوره به من صفاته السلبيّة والإضافيّة، وكون ذلك لا بمشاعرة: أي ليس تلقّيها لتلك التصوّرات من طريق المشاعرة وهي الحواسّ، ولا على وجه شعورها بما يشعر به منها؛ بل تتلقّاها على وجه

---

(1) ٣٩ - ٦٨.

أعلى وأشرف بتعقّل صرف بريّ عن علائق الموادّ مجرّد عن إدراك الحواسّ وتوابع إدراكاتها من الوضع والأين والمقدار والكون وغير ذلك.

السابع عشر: كونه وتشهد له المرائي لا بمحاضرة. إشارة إلى كون المرائي والنواظر طرقاً للعقول إلى الشهادة بوجوده تعالى في آثار قدرته ولطائف صنعته وما يدرك بحسّ البصر منها، ولوضوح العلم به تعالى وشهادة العقول بوجوده في المدركات بهذه الآلة صار كأنّه تعالى مشاهد مرئي فيها وإن لم تكن هذه الآلة محاضرة له ولا يتعلّق إدراكها به، ويحتمل أن يريد بالمرائي المرئيّات التي هي مجال أبصار الناظرين ومواقعها. وذلك أنّ وجودها وما اشتملت عليه من الحكمة شاهد بوجود الصانع سبحانه من غير حضور ومحاضرة حسيّة كما عليه الصنّاع في صنايعهم من محاضرتها ومباشرتها.

الثامن عشر: كونه تعالى لم تحط به الأوهام. لمّا كان تعالى غير مركب لم يمكن الإحاطة به بعقل أو وهم البتّة، والأوهام أولى بذلك. إذ كانت إنّما يتعلّق بالمعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوسات والموادّ الجسمانيّة فيترتّب في تنزيهه تعالى عن إحاطة الأوهام به قياس هكذا: لا شيء من مسمّى واجب الوجود بمدرك بمادّة ووضع. وكلّ مدرك للوهم فهو متعلّق بذي مادّة ووضع. ينتج لا شيء ممّا هو واجب الوجود بمدرك للأوهام أصلاً فضلاً أن يحيط به ويطّلع على حقيقته. وقد مرّ ذلك مراراً.

التاسع عشر: كونه تعالى تجلّى لها. ولمّا ثبت أنّها لا تدرك إلاّ ما كان معنى جزئياً في محسوس فمعنى تجلّيه لها هو ظهوره لها في صورة وجود سائر مدركاتها من جهة ما هو صانعها وموجدها. إذ كانت الأوهام عند اعتبارها لأحوال أنفسها من وجوداتها وعوارض وجوداتها والتغيّرات اللاحقة لها مشاهدة لحاجتها إلى موجد ومقيم ومغيّر ومساعدة للعقول على ذلك، وأنّ إدراكها لذلك في أنفسها على وجه جزئيّ مخالف لإدراك العقول، وكانت مشاهدة له بحسب ما طبعت عليه وبقدر إمكانها وهو متجلّى لها كذلك. والباء في ـ بها ـ للسببيّة. إذ وجودها هو السبب الماديّ في تجلّيه لها، ويحتمل أن يكون بمعنى في: أي تجلّى لها في وجودها. وبل هنا للإضراب عمّا امتنع منها من

الإحاطة به، والإثبات لما أمكن ووجب في تجلّيه لها.

العشرون: وبها امتنع منها: أي لمَّا خلقت قاصرة عن إدراك المعاني الكلية وعن التعلّق بالمجرّدات كانت بذلك مبدءاً لامتناعه عن إدراكها له وإن كان لذلك الامتناع اسباب أخر أولها: كونه بريئاً عن أنحاء التراكيب، ويحتمل أن يريد بقوله:بها: أي أنّها لمّا خلقت على ذلك القصور وكان هو تعالى ممتنع الإدراك بالكنه اعترفت عند توجّهها اليه وطلبتها لمعرفته بالعجز عن ادراكه وأنّه ممتنع عنها فيها: أي باعترافها امتنع منها.

الحادي والعشرون: كونه إليها حاكمها: أي جعلها حكما بينها وبينه عند رجوعها من توجّهها في طلبه منجذبة خلف العقول حسرة معترفة بأنّه لا تنال بجود الاعتساف كنه معرفته، ولا يخطر ببال أولي الرويّات خاطر من تقدير جلاله مقرّة بحاجتها واستغنائه ونقصانها وكماله ومخلوقيّتها وخالقيّته. إلى غير ذلك بما لها من صفات المصنوعيّة، وله من صفات الصانعيّة موافقة للعقول في تلك الأحكام. واستناد المحاكمة إليها مجاز لمناسبته ما ذكرناه، وقال بعض الشارحين: أراد بالأوهام هيهنا العقول، وظاهر أنّها لا تحيط به لكونه غير مركّب محدود. وتجلّيه لها هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافيّة والسلبيّة.

وقوله: وبها امتنع منها.

أي بالعقول ونظرها علم أنّها لا تدركه.

وقوله: إليها حاكمها: أي جعل العقول المدّعية أنّها أحاطت به وأدركته كالخصوم له سبحانه. ثمّ حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة. فحكمت له العقول السليمة على المدّعية لما ليست أهلاً له. وما ذكره هذا الفاضل محتمل إلاّ أنّ إطلاق لفظ الأوهام على العقول إن صحّ فمجاز بغير قرينة وعدول عن الحقيقة من غير ضرورة، وقال غيره: أراد لم تحط به أهل الأوهام. فحذف المضاف وعند تأمّل ما بيّناه يلوح أنّه هو مراده عليه السلام أو قريب منه، وهذه الألفاظ اليسيرة من لطائف إشاراته عليه السلام وإطلاقه على أسرار الحكمة.

الثاني والعشرون: كونه تعالى ليس بذي كبر. إلى قوله: تجسيماً. الكبير يقال لعظيم الحجم والمقدار، ويقال لعالي السنّ من الحيوان، ويقال لعظيم القدر ورفيعه. ومراده نفي الكبر عنه بالمعنى الأوّل. إذ من لوازم ذلك كون الكبر ممتدّاً في الجهات الثلاث طولاً وعرضاً وعمقاً فيحصل الكبير الجسميّ، وقد تقدّس تعالى عن ذلك، وتقدّسه عن الكبر بالمعنى الثاني ظاهر. وتجسيماً مصدر في موضع الحال: أي فكبّرته مجسّماً له أو مجسّمة، وإنّما أسند الامتداد به إلى النهايات لأنّها غاية الطبيعة بالامتداد يقف عندها وينتهي بها فكانت من الأسباب الغائية فلذلك أسند إليها، وكذلك إسناد التكبير إليها. إذ كان التكبير من لوازم الامتداد إليها.

الثالث والعشرون: ولا بذي عظم، إلى قوله: تجسيداً، والعظيم يقال على الكبير بالمعنى الأوّل والثالث دون الثاني، ومراده سلب العظيم عنه بالمعنى الأوّل لما مرّ، وإسناد التناهي إلى الغايات ظاهر. إذ كانت سبباً لوقوفه وبها انقطع وإليها يبلغ، وكذلك إسناد التعظيم إليها كإسناد التكبير وإن أسند التناهي إليه بها جاز.

الرابع والعشرون: كونه كبر شأناً.

الخامس والعشرون: كونه عظم سلطانا. لمّا سلب الكبر والعظم عنه بالمعنيين الأوّلين أشار إلى أنّ إطلاقهما عليه بالمعنى الثالث. ونصب شأناً وسلطانا على التمييز. فهو الكبير شأناً إذ لا شأن أعلى من شأنه، والعظيم سلطاناً إذ لا سلطان أرفع من سلطانه، وهو مبدء شأن كلّ ذي شأن، ومنتهى سلطان كلّ ذي سلطان لا إله إلّا هو الكبير المتعال ذو الكبرياء والعظمة والجلال. ثمّ أردف تمجيده تعالى بما هو أهله بالكلمة المتمّمة لكلمة الإخلاص والشهادة التي هي مبدء لكمال القوّة العلميّة من النفوس البشريّة بعد كمال قوّتها النظريّة بالشهادة الأولى.

وظاهره كونه صلّى الله عليه وآله وسلّم صفيّاً لله وأميناً على وحيه ومرتضى لذلك. ثمّ أردف ذلك بالإشارة إلى كونه رسولاً، وإلى وجوه ما أرسل به وهو وجوب الحجج، وأراد بها إمّا المعجزات أو ما هو أعمّ من ذلك وهو ما يكون حجّة لله على

خلقه في تكليفهم أن يقولوا لو لا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك. ويدخل في ذلك دلائل الأحكام وطرق الدين التفصيليّة. وكونه أرسل بوجوبها: أي وجوب قبولها على الخلق ووجوب العمل على وفقها، وظهور الفلج وهو الظهور على سائر الأديان والظفر بأهلها وبالعادلين بالله والجاحدين له، وإيضاح المنهج وهي طريق الله وشريعته. وظاهر كونه موضحاً لها ومبيّناً، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه﴾**[1] فالهدى هو إيضاح المنهج، وقوله: ليظهره على الدين كلّه إشارة إلى بعض غايات بعثته وهي المراد بظهور الفلج، وروي بضمّ الفاء واللام وهو بضمّ الفاء وسكون اللام للفوز، ويجوز ضمّ اللام للشاعر والخطيب.

وقوله: فبلّغ الرسالة. إلى آخره.

إشارة الى أدائه الأمانة فيما حمّل من الوحي، وصدعه بالرسالة إظهارها والمجاهرة بها، وقد علمت أن أصل الصدع الشقّ فكأنّه شقّ بالمجاهرة بها عصا المشركين وفرّق ما اجتمع من شرّهم، وحمله على المحجّة ـ وهي طريق الله الواضحة وشريعته ـ دعوته إليها وجذبه للخلق إلى سلوكها بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ثمّ بالسيف لمن لم تنفعه المجادلة. وأراد بأعلام الاهتداء أدلّته وهي المعجزات وقوانين الدين الكلّيّة، وكذلك منار الضياء وإقامته له إظهارها وإلقاؤها إلى الخلق، ولفظ المحجّة والأعلام والمنار مستعارة كما سبق غير مرّة. وصادعاً ودالاً نصب على الحال. واستعار لفظ الأمراس والعرى لما يتمسّك به من الدين والإيمان، ورشّح بذكر المتانة والوثاقة، وأشار بجعله كذلك إلى تثبيت قواعد الإسلام وغرسها في قلوب الخلق واضحة جليّة بحيث تكون عصمة للتمسّك بها في طلب النجاة من مخاوف الدارين، وسبباً لا ينقطع دون الغاية القصوى. وبالله التوفيق.

---

(١) ٩ - ٣٣.

منها: في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوانات:

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ؛ لَرَجَعُوا إلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلٰكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ، وَالأَبْصَارَ مَدْخُولَةٌ! أَلاَ يَنْظُرُونَ إلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ؟

أُنْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَتْ عَلَى رِزْقِهَا! تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا؛ تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وُرُودِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا؛ لاَ يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ، وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذْنِهَا؛ لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً، فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا؛ وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ فِي خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ!! وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ؛ فِي خَلْقِهِ إلاَّ سَوَاءٌ!! وَكَذٰلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ فَانْظُرْ إلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلاَفِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِه الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هٰذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هٰذِهِ الْقِلاَلِ، وَتَفَرُّقِ هٰذِهِ اللُّغَاتِ، وَالأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ. زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ؛ وَلاَ لاِخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ! وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا؛ وَلاَ تَحْقِيقٍ لِمَا أُوعُوا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ؛ أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ؟

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا

حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا! وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لاَ يَكُونُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً.

فَتَبَارَكَ آللهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً. فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لأَمْرِهِ أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسِ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَىٰ وَالْيَبَسِ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا: فَهٰذَا غُرَابٌ، وَهٰذَا عُقَابٌ وَهٰذَا حَمَامٌ، وَهٰذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ، وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

أقول: الدخل: العيب. والبشرة: ظاهر الجلد. والجامس: الجامد. والشراسيف: أطراف الأضلاع المشرفة على البطن. والضرب في الأرض: السياحة فيها. والحدقة: سواد العين. والقمر: بياضها وضياؤها، يقال: حدقة قمراء: مضيئة. وأجلبوا: جمعوا. والنزوات: الوثبات. والتعفير: التمريغ في العفر وهو التراب.

وقوله: ولو فكّروا. إلى قوله: مدخولة.

وضع حرف لو ليدلّ على امتناع الشيء لامتناع غيره لكن الأغلب عليه أن يستعمل للدلالة على امتناع اللازم لامتناع ملزومه، وذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك اللازم مساوياً لملزومه إمّا حقيقة أو وضعاً.

والثاني: أن يكون الملزوم علّة لذلك ليلزم من رفع الملزوم رفع اللازم ويمكن الاستدلال به فأمّا إذا لم يكونا كذلك جاز أن يدلّ به على امتناع الملزوم لامتناع لازمه كما في قوله تعالى: **﴿لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا﴾**(1) وقد استعمله عليه السلام هنا بالوجه الثاني من الوجهين الأوّلين،

(1) ٢١ - ٢٢.

واستدلّ على أنّ الخلق لم يرجعوا إلى طريق الله عن غيّهم وجهالاتهم ولم يخافوا من وعيده بعذاب الحريق في الآخرة لأنّهم لم يفكّروا فيما عظم من قدرته في خلق مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وما جسم من نعمته على عباده، ويحتمل أن يريد بالقدرة المقدور مجازاً إطلاقاً لاسم المتعلّق على المتعلّق، وكان ذلك من باب الاستدلال بعدم العلّة على عدم المعلول. إذ كان الفكر في ذلك سبباً عظيماً في الجذب لهم إلى اتّباع شريعته وسلوك سبيله إليها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾**[1] وقوله: **﴿أولم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾**[2] الآية ونحوه.

وقوله: ولكنّ القلوب. إلى قوله: مدخولة.

بيان لعدم العلّة المذكورة منهم وهو الفكر، وأشار إلى عدمها بوجود ما ينافي وجود شرطها. إذ كان كون القلوب عليلة وكون الأبصار معيبة ينافيان صحّتها وسلامتها اللّذين هما شرطان في وجود الفكر الصحيح، ومع وجود المنافي لصحّة قلوبهم وسلامة إبصار بصائرهم لا يحصل الصحّة التي هي شرط الفكر فلا يحصل الفكر فلا يحصل معلوله وهو الرجوع إلى الله، وعلل القلوب وما يلحق إبصار البصائر من العيوب يعود إلى الجهل وأغشية الهيئات البدنيّة والأخلاق الرديئة المكتسبة من جواذب الشهوات إلى خسائس اللذّات المغطّية لأنوار البصائر الحاجبة عن إدراك واضح الطريق الحقّ.

وقوله: ألا ينظرون. إلى قوله: البشر.

تنبيه لهم على بعض مخلوقاته تعالى ومقدوراته التي أشار إلى عظمة القدرة فيها. وأحسن بهذا الترتيب والتدريج الحسن فإنّك علمت من آداب الخطيب إذا أراد القول في أمر نبّه عليه أوّلاً على سبيل الإجمال بقول كلّيّ ليستعدّ السامعون بذلك لما يريد قوله وبيانه. ثمّ يشرع في تفصيله، ولمّا أراد عليه السلام أن ينبّه على عظمة الله بتفصيل بعض مخلوقاته كالنمل والجراد

---

(١) ٧ ـ ١٨٤.

(٢) ٥٠ ـ ٦.

ونحوه أشار أوّلاً إلى عظيم القدرة، ووبّخ السامعين على إغفالهم الفكر فيها ليعلم أنّه يريد أن ينبّه على تفصيل أمر. ثمّ تلاه بالتنبيه على لطيف الصنع في صغير ما خلق وكيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه على صغره وفلق له البصر وسوّى له العظم ولم يعيّن إلى أن استعدّت بذلك لتعظيم الله القلوب وأقبلت بإفهامها النفوس فتلاه بذكر النملة.

وذلك قوله: انظروا إلى النملة. إلى قوله: تعباً. وهيئتها: كيفيّتها التي عليها صورتها وصورة أعضائها، وظاهر أنّ الإنسان لا يدركها بلحظ البصر إلى أن يعيد إليها بعناية، ولا يكاد عند مراجعة فكره واستدراك أوّله وباديه يعلم حقيقتها وكيفيّة خلقتها وتشريح أعضائها؛ بل بإمعان فيه وتدقيق لا بدّ أن ينظر في ذلك. والباء في قوله: بمستدرك يتعلّق بتنال.

ولا ينبغي أن يفهم من قوله: ولا ينال بمستدرك الفكر: أي في صورتها الظاهرة التي يدركها البصر فربّما يسبق ذلك إلى بعض الأفهام لمكان العطف بل ما ذكرناه من شرح حقيقتها فإنه ليس حظّ الفكر أن يدرك صورتها المحسوسة بالبصر بل أن يبحث عن عجائب صنعتها ليستدلّ بذلك على حكمة صانعها ـ جلّت عظمته ـ ومحلّ قوله: لا تكاد تنال يحتمل أن يكون نصباً على الحال والعامل أنظروا، ويحتمل أن يكون مستأنفاً، وكيف في محلّ الجرّ بدل من النملة، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً وفيه معنى التعجّب. وكيف صبّت: أي ألقيت على رزقها وبعثت عليه بهداية وإلهام، وقيل: ذلك على العكس: أي صبّ عليها رزقها، ولفظ الصبّ مستعار لحركتها في طلبه ملاحظاً لشبهها بالماء المصبوب.

فإن قلت: كيف جعل دبيبها على الأرض محلّ التعجّب والفكر مع سهولته ووجوده لسائر الحيوان؟

قلت: لم يجعل محلّ التعجّب هو دبيبها من حيث هو دبيب فقط بل مع الاعتبارات الأخر المذكورة فإنّك إذا اعتبرتها من حيث هي في غاية اللطافة ثمّ اعتبرت قوائمها وحركات مفاصلها وخفضها ورفعها وبعد ذلك من استثبات الحسّ له ونسبتها إلى جرمها وإلى أجزاء المسافة التي تقطعها بل

جزء من حركتها، وكذلك انصبابها على رزقها بهداية تامّة إليه ونقلها إلى جحرها وغير ذلك من الاعتبارات المذكورة فإنّك إذا اعتبرت ذلك منها وجدت لنفسك منه تعجّباً وتفكّراً في لطف جزئيّات صنعتها وحكمة خالقها ومدبّرها.

وقوله: تجمع في حرّها لبردها: أي في الصيف للشتاء، وفي ورودها لصدرها: أي في أيّام ورودها وتمكنها من الحركة لأيام صدورها ورجوعها عن الحركة للعجز فإنّها تعجز في أيام الشتاء عن ملاقاة البرد فتطلب بطن الأرض لكمون الحرارة فيه.

ومن العجائب التي حكاها أهل التجارب من أفعال النمل وإلهاماتها ما حكاه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب «الحيوان» بفصيح عباراته. قال: إن النملة تدّخر في الصيف للشتاء فتقدم في أيّام المهلة ولا تضيّع أوقات إمكان الحزم، وتبلغ من تفقّدها وصحّة تميزها والنظر في عواقب أمورها أنّها تخاف على الحبوب التي ادّخرتها للشتاء أن تعفّن وتسوس في بطن الأرض، فتخرجها إلى ظهرها لتنشرها وتعيد إليها جفافها ويضربها النسيم فينفى عنها العفن والفساد. قال: وربّما تختار في الأكثر أن يكون ذلك العمل ليلاً ليكون أخفى، وفي القمر لأنّها فيه أبصر. فإن كان مكانها نديّا وخافت أن تنبت الحبّة نقرت موضع الطمير من وسطها لعلمها أنّها من ذلك الموضع تنبت، وربّما فلقت الحبّة بنصفين. فأمّا إن كان الحبّ من الكزبرة فإنّها تفلقه أرباعاً لأنّ أنصاف حبّ الكزبرة ينبت من بين جمع الحبّ. فهي بهذا الاعتبار مجاوزة لفطنة جميع الحيوان. قال: ونقل إليّ بعض من أثق به أنّه احتفر بيت النمل فوجد الحبوب التي جمعتها كلّ نوع وحده. قال: ووجدنا في بعضها أنّ بعض الحبوب فوق بعض وبينها فواصل حائلة من التبن ونحوه. ثمّ إنّ لها مع لطافة شخصها وخفّة حجمها في الشمّ والاسترواح ما ليس لسائر الحيوان، وذلك أنّه ربّما سقط من يد الإنسان جرادة أو عضو منها مثلاً في موضع ليس بقربه ذرّ ولا عهد لذلك المنزل به فلا يلبث أن يقبل ذرّة قاصدة إلى تلك الجرادة فتروم حملها فإذا أعجزتها بعد أن تبلى عذراً مضت إلى جحرها راجعة فلا يلبث الإنسان أن يجدها وقد أقبلت وخلفها كالخيط

الأسود من أخواتها حتّى يتعاونّ عليها ليحملنها فأعجب من صدق شمّها لما يشمّه الإنسان الجائع. ثمّ انظر إلى بعد همّتها في ذلك وجرأتها على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرّة وأضعافها، وليس من الحيوان ما يحمل أضعاف وزنه مراراً كثيرة كالنملة. قال: والذي ينبّه على إعلامها لأخواتها وإشعارها بمثل ما أشرنا اليه قصة سليمان عليه السلام مع النمل حيث حكى القرآن الكريم عنها: ﴿**قالت نملة يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسّم ضاحكاً من قولها**﴾[1] فإنّ القول المشار إليه منها وإن لم يحمل على حقيقته فهو محمول على مجازه، وهو إشعارها، لأخواتها بالحال المخوّفة للنمل من سليمان وجنوده. قال: ومن عجيب ما يحكى عن النمل ما حكي عن بعض من يعمل الأُصطرلاب أنّه أخرج طوقاً من صفر من الكير بحرارته فرمى به على الأرض ليبرد فاشتمل على نملة فكانت كلّما طلبت جانباً منه لتخرج منعتها الحرارة فكانت مقتضى هروبها من الجوانب أن استقرّت ثم ماتت فوجدها قد استقرّت في موضع رجل البركار من نقطة المركز وما ذاك إلّا للطف حسّها وقوّة وهمها أنّ ذلك الموضع هو أبعد الأمكنة عن الخطّ المحيط. قال: ومن عجائبها إلهامها أنّها لا تعرض لجعل ولا جرادة ولا خنفساء ولا نحوها ما لم يكن بها خبل أو عقر أو قطع يد أو رجل فإذا وجدت شيئاً من ذلك وثبت عليها حتّى لو أنّ حيّة بها ضربة أو خدش ثمّ كانت من ثعابين مصر لو ثبت عليها الذرورة حتّى تأكلها، ولا تكاد الحيّة تسلم من الذّر إذا كان بها أدنى عقر. وكلّ ذلك من الإلهامات التي إذا فكّر اللبيب فيها كاد أن يحكم بكونها أعلم بقوانين معاشها وتدبير أحوال وجودها من كثير من الناس فإنّ الإنسان قد يهمل ذلك التدبير فلا يضبطه، ويستمر فيه على قانون واحد.

وقوله: مكفولة ومرزوقة. نصب على الحال.

وقوله: رزقها ووفقها: أي موافق ومطابق لقوّتها وعلى قدر كفايتها. ويروى مكفول برزقها مرزوقة لوفقها. ثمّ ذكر نسبة ذلك إلى ربّها. فأشار إلى

---

(١) ٢٧ - ١٨.

أنّه لا يغفلها: أي لا يتركها من لطفه وعنايته فإنّه باعتبار ما هو منّان على خلقه لا يجوز في حكمته إهمال بعضها من رزق يقوم به في الوجود، وكذلك لا يحرمها باعتبار كونه ديّاناً: أي مجازيا، ووجه ذكر المجازاة هنا أنّها حيث دخلت في الوجود طائعة لأمره وقامت فيه منقادة لتسخيره وجب في الحكمة الإلهيّة جزاؤها ومقابلتها بما يقوم بوجودها فلا تكون محرومة من مادّة بقائها على وفق تدبيره، ولو كانت في الصفا اليابس والحجر الجامس؛ بل يفتح لها أبواب معاشها في كلّ مكان. ثمّ نبّه على محال أخرى للفكر في النملة: فمنها مجاري أكلها ما تأكله وتلك المجاري كالحلق والأمعاء، ومنها علوها وسفلها وعلوها بسكون اللام نقيض سفلها وهو رأسها وما يليه إلى الجزء المتوسّط منها وسفلها هو ما جاوز الجزء من طرفها الآخر، ومنها ما اشتمل عليه جوفها من شراسيف بطنها أو ما يقوم مقامه فأطلق عليه أنّه شراسيف بالمجاز، ومنها ما في رأسها من عينها وأذنها وهي محل القوة السامعة منها فإنّ كلّ ذلك على غاية صغره ولطافته محلّ العجب ومحلّ النظر اللطيف المستلزم للشهادة بحكمة الصانع ولطف تدبيره الذي يقضي الإنسان من تأمله عجباً، والقضاء هيهنا بمعنى الأداء: أي لأدّيت عجباً، ويحتمل أن يكون بمعنى الموت: أي لقضيت نحبك من شدّة تعجّبك، ويكون عجباً نصب على المفعول له؛ ثمّ لمّا نبّه على محال الفكر ووجوه الحكمة فيها أردف ذلك بتنزيه صانعها وتعظيمه تعالى، وقرن ذلك التعظيم والتنزيه بنسبته إلى بعض صنعه بها؛ وهو إقامته لها على قوائمها وبناها على دعائمها، وأراد بدعائمها ما يقوم به بدنها من الأمور التي مقام العظام والعصب والأوتار ونحوها ليحصل التنبيه على عظمته من لطف تلك القوائم واعتبار ضعف تلك الدعائم مع ما ركّب فيها من لطائف الصنعة وأودعها من عجائب الحكمة من غير أن يشركه في فطر تلك الفطرة فاطر أو يعينه على لطيف خلقها قادر فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه.

وقوله: ولو ضربت. إلى قوله: النخلة.

أي لو سارت نفسك في طرق فكرها ومذاهب نظرها، وهي الأدلّة وأجزاء الأدلّة من المقدّمات وأجزائها المستنبطة من عالم الخلق والأمر لتصل

إلى غايات فكرك في الموجودات لم يمكن أن يدلّك دليل إلاّ على أنّ خالق النملة على غاية صغرها وخالق النخلة على عظمها وطولها واحد وهو المدبّر الحكيم.

وقوله: لدقيق تفصيل كلّ شيء. إلى قوله: حيّ.

إشارة إلى أوسط الحجّة على ما ادّعاه من اشتراك النملة والنخلة في الاستناد إلى صانع واحد مدبّر حكيم، ومعنى ما ذكر أنّ لكلّ شيء من الموجودات الممكنة تفصيل لطيف دقيق واختلاف شكل وهيئة ولون ومقدار ووجوه من الحكمة تدلّ على صانع حكيم خصّصه بها دون غيره، وتقرير الحجّة أنّ وجود النملة والنخلة اشتمل كلّ منهما على دقيق تفصيل الخلقة وغامض اختلاف شكل وهيئة وكلّ ما اشتمل على ذلك فله صانع مدبّر حكيم خصّصه بذلك فينتج أنّهما يشتركان في الحاجة إلى صانع مدبّر حكيم خصّ كلًّا منهما بما يشتمل عليه، وهذه الحجّة هي المسمّاة في عرف المتكلمين بالاستدلال بإمكان الصفات كما بيّناه قبل في قوله: الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه.

وقوله: وما الجليل واللطيف. إلى قوله: سواء.

مؤكّد لما سبق من الدعوى، وكاسر لما عساه يعرض لبعض الأوهام من استبعاد نسبة الخلقة العظيمة والخلقة اللطيفة الحقيرة كالنملة إلى صانع واحد. فأشار إلى أنّ كل المخلوقات وإن تباينت اوصافها وتضادّت صورها وأشكالها فإنه لا تفاوت بالنظر الى قدرته وكمالها بين ان يفيض عن صورة النخلة أو صورة الذرّة، وليس بعضها بالنسبة اليه أولى وأقرب من بعض، ولا هو أقوى بعضها من بعض وإلاّ لكان ناقصاً في ذاته، وكان بما هو أولى به مستفيداً كما لا يفوته بعدمه عنه، وقد ثبت تنزيه جنابه المقدّس عن ذلك في مظانه من الكتب الحكميّة والكلاميّة بل إن كان فيهما تفاوت واختلاف فمن جانب القابل واختلاف استعدادات الموادّ بالشدّة والضعف والأقدم والأحدث على ما أشرنا إليه غير مرّة، واللطيف كما يراد به صغر الخلقة كذلك قد يراد به دقيق الصفة، وقد يراد به الشفّاف كالهواء، والأوّل هو مراده ولذلك جعله مقابلا للجليل.

وقوله: وكذلك السماء. إلى قوله: والماء.

فالمشبّه به هو الأمور المضادّة السابقة والمشبّه هو السماء والهواء والرياح والماء، ووجه الشبه هو حاجتها في خلقها وتركيبها وأحوالها المختلفة والمتّفقة إلى صانع حكيم، وأشار إلى الأمور الأولى المتضادّة أوّلاً ونسبها إلى قدرته تعالى باعتبار كلّيّتها ومن جهة تضادّها لأنّها أدلّ على كمال قدرته، وأشار إلى الثانية وهي السماء وما عدّده معها لا لاعتبار تضادّها بل باعتبار ما اشتمل عليه كلّ منها من الحكمة والمنفعة وكونها موادّ الأجسام المركّبات، والهواء أعمّ من الرياح لتخصيص مسمّى الرياح بالحركة دون الهواء.

وقوله: فانظروا. إلى قوله: المختلفات.

أمر باعتبار حال ما عدّد من المخلوقات وما اختصّ به كلّ منها من الصفات والأشكال والمقادير والأضواء والألوان والمنافع إلى غير ذلك ممّا يدلّ على حاجة كلّ منها إلى مخصّص حكيم يخصّصه بما هو أليق به وأوفق للحاجة اللازمة له وأنسب إلى استعداده بعد اشتراك جميعها في الجسميّة، وهو أمر بتقرير الحجّة التي ذكرناها في كلّ واحد من الأمور المذكورة، ولمّا كان حال أكثر الأمور المذكورة مفتقراً إلى تقديم النظر البصري لغاية التفكر والاعتبار فيها أمر به، وأمّا وجوه الاعتبارات فأكثر من أن يحصر فإنك إذا اعتبرت حال الشمس والقمر في عظم أجرامهما والضياء الصادر عنهما وحركاتهما وتنقّلهما في منازلهما، وما تستلزمه تلك الحركات من التأثيرات والإعدادات لوجود المركّبات العنصريّة من المعدن والنبات والحيوان ثمّ اعتبرت ما ينفصل به أحدهما عن الآخر من الجرم وزمان السير وكون القمر مستفيداً للنور من الشمس وغير ذلك ممّا لا يعلم تفصيله إلّا الله سبحانه، وكذلك إذا نظرت إلى النبات والشجر وجواهرهما وأشكالهما واختلاف أجزائهما في الألوان والمقادير والثمار ومايستلزمه من المنفعة لوجود الحيوان والمضرّة لبعضها إلى غير ذلك ممّا علمته فيما سلف، وكذلك الماء في كونه على غاية من الرقّة واللطافة وكون الحجر بعكس الوصفين مع أنّ أكثر المياه إنّما تنبع من الأحجار ثمّ نظرت إلى المنافع الموجودة فيهما والمضارّ العارضة عنهما، وكذلك النظر إلى هذا الليل والنهار واختلافهما في هذا العالم

وتعاقبهما، وما يستلزمانه من المنفعة المختصّة بكلّ منهما ممّا امتنّ الله تعالى على عباده بها حيث قال ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾[1] وقال ﴿**ينبت لكم به الزرع والزيتون**﴾[2] الآية وقال ﴿**قتل الإنسان ما أكفره**﴾. إلى قوله ﴿**متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات وقال ﴿**أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض**﴾[4]وقال ﴿**وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشا**﴾ إلى قوله ﴿**ألفافا**﴾[5] وكذلك إذا اعتبرت تفجير هذه البحار وما تستلزمه من المنفعة كما قال تعالى ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾[6] وقال ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾[7] وكذلك إذا اعتبرت كثرة الجبال وقلالها وعروضها وأطوالها وما اشتملت عليه من معادن الجواهر وغيرها، وكذلك تفرّق اللغات واختلاف الألسنة وجدت ذلك النكر والاختلاف شاهداً بوجود صانع حكيم. وتقريرها كما علمت أن تقول: إنّ هذه الأجسام كلّها مشتركة في الجسميّة واختصاص كلّ منها بما يميّز به من الصفات المتعددة ليس للجسمية ولوازمها وإلّا وجب لكلّ منها ما وجب للآخر ضرورة اشتراكها في علّة الاختصاص فلا مميّز له. هذا خلف، ولا لشيء من عوارض الجسميّة لأنّ الكلام في اختصاص كلّ منها بذلك العارض كالكلام في الأوّل ويلزم التسلسل فيبقى أن يكون لأمر خارج عنها هو الفاعل الحكيم المخصّص لكلّ منها بحدّ من الحكمة والمصلحة، وقد مر تقرير هذه الحجّة مراراً. ثمّ لمّا نبّه على وجود الصانع سبحانه أردف ذلك بالدعاء على من جحده، أو الإخبار عن لحوق الويل له. قال سيبويه: الويل مشترك بين الدعاء والخبر، ونقل عن عطاء بن يسار أنّ الويل واد في جهنّم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حرّه. ورفعها بالابتداء،

---

(١) ١٠-٥.
(٢) ١٦-١١.
(٣) ٨٠-١٧.
(٤) ٣٩-٢٢.
(٥) ٧٨-١٠.
(٦) ٥٥-١٩.
(٧) ٥٥-٢٢.

والخبر لمن أنكر. والمدبّر: هو العالم بعاقبة الأمر وما يشتمل عليه من المصلحة ويعود إلى القضاء، والقدر هو الموجد على وفق ذلك العلم كما سبق بيانه، وتأخير الدعاء على الجاحدين بعد إيضاح الحجّة عليهم هو الترتيب الطبيعي، والإشارة بالجاحدين إلى صنف من العرب أنكروا الخالق والبعث، وقالوا بالدهر المفنى. كما حكيناه عنهم في الخطبة الأولى، وهم الذين أخبر القرآن المجيد عنهم بقوله ﴿**ما هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلّا الدهر**﴾[1].

وقوله: زعموا. إلى قوله: صانع.

إشارة الى شبهتهم وهي من باب التمثيل فالأصل فيها هو النبات، والفرع أنفسهم، والحكم هو ما توهموه من كونهم بلا صانع كما أنّ النبات بلا زارع، ولعلّ الجامع في اعتبارهم هو اختلاف الحياة والموت عليهم كما أشار إليه القرآن الكريم حكاية عنهم «نموت ونحيى» أو نحوه من الأمور المشتركة وإن كانوا لا يلتفتون لفتاً إلى هذا الجامع. إذ مراعاة هذه الأمور وتحقيق أجزاء التمثيل من صناعة هم عنها بمعزل، وقد علمت أنّ التمثيل بعد تمام أجزائه إنّما يفيد ظنّاً يختلف بالشدّة والضعف، وعلمت وجوه الفساد فيه.

وقوله: ولم يلجأوا. إلى قوله: جان.

إنكار ومنع لما ادّعوه وأنّهم لم يأتوا فيه بحجّة ولا تحقيق برهان، ويحتمل أن يكون قوله: وهل يكون. إلى قوله: جان. تنبيهاً على وجود نقيض الحكم المدّعى، وهو كون خلقهم وخلقة النبات شاهدة بوجود صانع لها، وذلك التنبيه بالإشارة إلى أوسط قياس من الشكل الأوّل، وكبراه في صورة الاستفهام.

وتقرير القياس: أنّهم صنعة ولا شيء ممّا هو صنعة بلا صانع ينتج فلا شيء منها بلا صانع وهو نقيض المدّعى، ولمّا كانت الكبرى ضروريّة اقتصر على التنبيه عليها بامتناع وجود البناء من غير بان والجناية من غير جان فإنّ

---

(١) ٤٥ - ٢٣.

ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر من غير مرجّح محال بالبديهة وممتنع في فطن الصبيان والبهائم. إذ كان الحمار عند صوت الخشبة يعدو خوفاً من الضرب، وذلك لما تقرّر في فطرته أنّ حصول صوت الخشبة بدونها محال. ثمّ لو سلّم لهم ثبوت الحكم في الأصل وهو كون النبات بلا زارع فلم كان عدم الزارع يدلّ على أنّ النبات لا فاعل له؟. وإنّما يلزم ذلك أن لو كان الفاعل إنّما هو الزارع وذلك من الاوهام الظاهرة كذبها بأدنى تأمل إذا استعقب بالبذر. إذ كان الزارع ليس الا اعداداً ما للأرض والبذر، وأما وجود الزرع والنبات فمستند الى مدبّر حكيم متعال عن الحسّ والمحسوس لا تدركه الابصار ولا تكتنفه الاوهام والافكار سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

وقوله: إن شئت قلت في الجرادة. إلى قوله: مستدقّة.

تنبيه آخر على وجود الصانع الحكيم ـ جلّت عظمته ـ في وجود بعض جزئيّات مخلوقاته وصغيرها وهي الجرادة: أي وإن شئت قلت فيها ما قلت في النملة وغيرها قولاً بيّنا. كاشفاً عن وجوه الحكمة فيها بحيث يشهد ذلك بوجود صانع حكيم لها فنبّه على بعض دقائق الحكمة في خلقها وهي خلق العينين الحمراوين مع كون حدقتها قمراوين، واستعار لفظ السراج للحدقتين باعتبار الحمرة النارية والإضاءة.

ثمّ خلق السمع الخفيّ: أي عن أعين الناظرين، وقيل: أراد بالخفي اللطيف السامع لخفيّ الأصوات فوصفه بالخفاء مجازاً إطلاقاً لاسم المقبول على قابله. ثمّ فتح الفم السويّ. السويّ: فعيل بمعنى مفعول: أي المسوّى. والتسوية: التعديل بحسب المنفعة الخاصّة بها. ثمّ خلق الحسّ القويّ، وأراد بحسّها قوّتها الوهميّة وبقوّته [بقوّة خ] حذقها فيما ألهمت إيّاه من وجوه معاشها وتصرّفها. يقال: لفلان حسّ حاذق إذا كان ذكيّاً فطناً درّاكاً. ثمّ خلق النابين، واستعار لفظ المنجلين ليديها، ووجه المشابهة تعوّجهما وخشونتهما، وقرن بذكر النابين والمنجلين ذكر غايتهما وهما القرض والقبض، ومن لطيف حكمته تعالى في الرجلين أن جعل نصفهما اللذين تقع عليها اعتمادها وجلوسها شوكاً كالمنشار ليكون لها معيناً على الفحص ووقاية لذنبها عند جلوسها وعمدة لها عند الطيران.

وقوله: يرهبها الزرّاع. إلى قوله: شهواتها.

أي أنّها إذا توجّهت بعساكرها من أبناء نوعها إلى بقعة وهجمت على زرعها وأشجارها أمحته ولم يستطع أحد دفعها حتّى لو أنّ ملكاً من الملكوت أجلب عليها بخيله ورجله ليحمي بلاده منها لم يتمكّن من ذلك، وفي ذلك تنبيه على عظمة الخالق سبحانه وتدبير حكمته. إذ كان يبعث أضعف خلقه على أقوى خلقه ويهيّىء الضعيف من أسباب الغلبة ما لا يستطاع دفعه معها حتى ترد ما تريد وروده وتقضى منه شهواته فيحلّ باختيار منه وترحل باختيار، ومن عجائب الخواصّ المودعة في الجراد أنّها تلتمس لبيضها الموضع الصلد والصخور الملس ثقة بأنّها إذا ضربت فيها بأذنابها انفرجت لها، ومعلوم أنّ ذلك ليس بقوّة إذ ليس في ذنب الجرادة من القوّة أن يخرق الحجر الذي يعجز عنه المعول بمجرّد قوّته لولا خاصّية لها هناك ثمّ إذا ضربت في تلك البقاع وألقت بيضها وانضمّت عليها تلك الأخاديد التي أحدثتها وصارت لها كالأفاحيص صارت حاضنة لها ومربّية وحافظة وواقية حتّى إذا جاء وقت دبيب الروح خرجت من البيض صهياً إلى البياض. ثم تصفرّ وتتلوّن فيه خطوط إلى السواد. ثمّ يصير فيه خطوط سود وبيض، ثمّ يبدو حجم جناحيه. ثمّ يستقلّ فيموج بعضه في بعض، وقيل: إنّ الجراد إذا أراد الخضرة ودونه نهر جار صار بعضه جسر البعض ليعبر إليها فمن الناس من جعل ذلك حيلة لها ألهمت إيّاها. وأباه قوم وقالوا: بل الزحف الأوّل من الدبى إذا أراد الخضرة ولا يقدر عليها إلاّ بالعبور إليها عبر فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافية صارت للزحف الثاني الذي يريد الخضرة كالأرض، وربّما نقل لها خواصّ أخرى لا تعلّق لها بما نحن بصدده.

وقوله: وخلقها كلّه لا يكون إصبعاً مستدقّة.

الواو للحال: أي أنّه تعالى خلقها على ما وصفت وأودعها من عجائب الصنع ما ذكرت بحيث يخاف منها الزراع مع أنّ خلقها كلّه دون الإصبع المستدقّة، وهذه الكلمة مستلزمة لتمام التعجب من خلق الله فيها الأمور الموصوفة حتى لو قدّرنا أنها وصفت لمن لم يرها فربّما اعتقد أنّ لها خلقاً عظيماً تستند اليه هذه الأوصاف ولم يكن عنده تعجّب حتّى نتبيّن مقدار خلقها وصغر صورتها

ثمّ لما بيّن بعض مبدعاته ومكوّناته نوّه بزيادة عظمته تعالى وبركته باعتبار كونه معبوداً لمن في السماوات ومن في الأرض فله يسجدون طوعاً وكرهاً كلّ بعبادة تخصّه وسجود لا يمكن من غيره مع اشتراك الكلّ في الدخول تحت ذلّ الحاجة إلى كمال قدرته وخضوع الإمكان بين يدي رحمته. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾[1] وكذلك قوله: ويعفّر له خدّاً ووجهاً. فما كان ذا وجه وخدّ حقيقة فلفظ التعفير صادق عليه حقيقة، وما لم يكن السجود صادق عليه استعارة لخضوعه الخاصّ به، ولفظ التعفير والخدّ والوجه ترشيحات على أنّ موضوع السجود في اللغة هو الخضوع وكذلك إطلاق إعطاء القياد ووصف الرهبة والخوف، ونصبهما على المفعول له.

وقوله: فالطير مسخّرة لأمره.

كقوله تعالى ﴿**أولم يروا إلى الطير مسخّرات في جوّ السماء ما يمسكهنّ إلّا الله**﴾[2] وكونها مسخّرة يعود إلى دخولها تحت حكم تصرّفه العامّ فيها قدرة وعلماً والخاصّ تخصيصاً وتعييناً، وإحصاء الريش منها والنفس باعتبار تسخيرها تحت تصرّفه العامّ بعلمه تعالى. وإرساؤها: أي تثبّتها على قوائمها في الندى كطير الماء واليبس كطير البرّ باعتبار دخولها تحت قدرته وخلقها كذلك، وتقديره لأقواتها وما يصلح منها وما يكفيه باعتبار دخولها تحت قدرته وعلمه معها. إذ كان التقدير هو إنزال تلك المقادير وإعدادها على وفق العلم الإلهيّ، وإحصاء أجناسها باعتبار علمه تعالى.

وقوله: فهذا غراب. إلى قوله: نعام.

تفصيل لأنواعها. ولم يرد الجنس بالاصطلاح الخاصّ بل اللغويّ وهو النوع في المصطلح العلميّ، وراعى في كلّ قرينتين من الأربع السجع المتوازي.

وقوله: دعا كلّ طائر باسمه.

---

(١) ١٤ - ١٦.

(٢) ١٦ - ٨١.

فالدعاء استعارة في أمر كلّ نوع بالدخول في الوجود، وقد عرفت أنّ ذلك الأمر يعود إلى حكم القدرة الإلهيّة العظيمة عليه بالدخول في الوجود، ووجه الاستعارة ما يشترك فيه معنى الدعاء، والأمر من طلب دخول مهية المطلوب بالدعاء والأمر في الوجود وهو كقوله تعالى ﴿**فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضيهنّ**﴾(١) الآية، ولما استعار لفظ الدعاء رشّح بذكر الاسم لأنّ الشيء إنّما يدعى باسمه، ويحتمل أن يريد الاسم اللغويّ وهو العلامة فإنّ لكلّ نوع من الطير خاصّة وسمة ليست للآخر، ويكون المعنى أنّه تعالى أجرى عليها حكم القدرة بمالها من السمات والخواصّ في العلم الإلهيّ واللوح المحفوظ، وقال بعض الشارحين: أراد أسماء الأجناس، وذلك أنّ الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ كلّ لغة تواضع عليها العباد في المستقبل، وذكر الأسماء التي يتواضعون عليها، وذكر لكلّ اسم مسمّاه فعند إرادة خلقها نادى كلّ نوع باسمه فأجاب دعواه وأسرع في إجابته، واعلم أنّك إذا تأمّلت حكمة الصانع في خلق الطائر شاهدت عجباً. حين اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون طائراً في الجوّ خفّف جسمه وأدمج خلقه فاقتصر من القوائم على اثنتين ومن الأصابع على أربع من منفذين للزبل والبول على منفذ. ثمّ خلقه تعالى على جؤجؤ محدّب ليسهل عليه خرق الهواء كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشقّ الماء، وخلق في جناحيه وذنبه ريشات طوال لينهض بها إلى الطيران، وكسى جسمه كلّه ريشاً ليتداخله الهواء فيقيله، ولمّا كان طعامه الحبّ أو اللحم يبلعه بلعاً من غير مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقاراً صلباً، وأعانه بفضل حرارته في جوفه يستغني بها عن المضغ.

ثمّ خلقه تعالى يبيض بيضاً ولا يلد لكيلا يثقل بكون الفراخ في جوفه عن الطيران، وجعل عوض استعداد الولد في البطن استعداده في البيضة بحرارة الحضن بمشاركة من الذكر والأنثى في ذلك، ومن العناية الإلهية بدوام نسله وبقائه أن ألهمه العطف على فراخه فيلتقط الحبّ فيغذو به فراخه

---

(١) ٤١ - ١٠.

بعد استقراره في حوصلته ليلين، وإذا فكّرت في الحوصلة وجدتها كالمخلاة المعلّقة أمامه فهو يعبّي فيها ما أراد من الطعم بسرعة ثمّ ينفذ إلى القانصة على مهل، وذلك أنّ مسلك الطعم إلى القانصة ضيّق لا ينفذ فيه الطعم إلّا قليلاً فلو كان هذا الطائر لا يلتقط حبّة ثانية حتّى تصير الأولى إلى القانصة لطال ذلك عليه فخلق تعالى له الحوصلة لذلك. ثمّ انظر إلى الريش الذي تراه في الطواويس والدراريج وغيرها عن استواء ومقابلة على نحو ما يخطّ بالأقلام، وكذلك انظر إلى العمود الجامع للريشة الذي يجري مجرى الجدول الممدّ للريشة والمغذّي لها، وخلق عصبيّ الجوهر صلباً متيناً ليحفظ الريش ويمسكه لصلابته. فسبحان الذي خلق الأزواج كلّها، وأحصى كلّ شيء عدداً، وأحاط بكلّ شيء علماً.

وقوله: وأنشأ السحاب. إلى آخره.

إشارة إلى كمال قدرته باعتبار خلقه السحاب الثقال بالماء، وإرسال ديمها وهي أمطارها، وتعديد قسمها وهو ما يصيب كلّ بلد وأرض منها من القسم. وظاهر أنّه تعالى يعدّ الأرض بتلك البلّه بعد الجفاف لأن يخرج منها النبات بعد الجدب وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿**أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون**﴾[1] وبالله التوفيق.

٢٢٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ؛ وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ؛ وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ؛ فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ؛ غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ. لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، والِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ.

---

(١) ٣٢ ـ ٢٧.

بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاَ مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ، ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لاَ يُشْمَلُ بِحَدٍّ وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ؛ وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الآلاَتُ إِلَى نَظَائِرِهَا.

مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدَمِيَّةَ، وَحَمَتْهَا قَدِ الأَزَلِيَّةَ؛ وَجَنَّبَتْهَا لَوْلاَ التَّكْمِلَةَ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ، لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيُحْدِثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ؟! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ! وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ! وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ.

الَّذِي لاَ يَحُولُ، وَلاَ يَزُولُ، وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الأُفُولُ؛ وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ النِّسَاءِ؛ لاَ تَنَالُهُ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ؛ وَلاَ تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ؛ وَلاَ تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلاَ تَلْمِسُهُ الأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. لاَ يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلاَ يَتَبَدَّلُ بِالأَحْوَالِ، وَلاَ تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ، وَلاَ يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلاَمُ، وَلاَ يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الأَجْزَاءِ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ وَلاَ بِعَرَضٍ مِنَ الأَعْرَاضِ وَلاَ بِالْغَيْرِيَّةِ وَالأَبْعَاضِ. وَلاَ يُقَالُ لَهُ حَدٌّ وَلاَ نِهَايَةٌ، وَلاَ انْقِطَاعٌ وَلاَ غَايَةٌ.

وَلاَ أَنَّ الأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ، فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيهِ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يَعْدِلَهُ. لَيْسَ فِي الأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ، وَلاَ بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لاَ بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لاَ بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلاَ يَلْفِظُ وَيَحْفَظُ وَلاَ يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ، يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ

أَراد كَوْنَهُ «كُنْ» فيَكُونُ! لا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإنَّما كَلاَمُهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ، وَمِثْلُهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إلهاً ثَانِياً.

لاَ يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُن فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ وَلاَ يَكُونُ بَيْنَها وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدِعُ وَالْبَدِيعُ. خَلَقَ الْخَلاَئِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوَدِ وَالاِعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْانفِرَاجِ، أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا، فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلاَ ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ.

هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلاَلِهِ وَعِزَّتِهِ، لاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ. خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاَ تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ، هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا.

وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا، بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا! وَكَيْفَ وَلَو اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلاَ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إلى إيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهتْ، وَعَجزتْ قُوَاهَا وَتَنَاهتْ، وَرَجعتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً عَارِفَةً بِأَنَّها مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا.

وَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ: كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ

زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذٰلِكَ الآجَالُ وَالْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَالسَّاعَاتُ، فَلاَ شَيْءَ إلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ. بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الامْتِنَاعِ دَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَاهُ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلاَ لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ، وَلاَ لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلاَ لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ؛ وَلاَ لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إلَيْهَا. ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لاَ لِسَأْمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلاَ لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إلَيْهِ، وَلاَ لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَمْ يُمِلَّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إلَى سُرْعَةِ إفْنَائِهَا؛ لٰكِنَّهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إلَيْهَا، وَلاَ اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلاَ لانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلاَ مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمىً إلَى حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ، وَلاَ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إلَى غِنىً وَكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

أقول: صمده: أي قصده. وترفده: تعينه. والوضوح والوضح: البياض والبهمة: السواد. والحرور هنا: الحرارة. والصرد: البرد. والأفول: الغيبة. والوالج: الداخل. وخلا: مضى وسبق. والأود: الاعوجاج. والتهافت: التساقط. والأسداد: جمع سدّ ـ وقد يضمّ ـ وهو كلّ ما حال وحجز بين شيئين. وخدّ: شقّ. ومراحها: ما يراح منها في مرابطها ومعاطنها. وسائمها: ما أرسل منها للرعى. وأسناخها: أصولها. والمتبلّدة: ذو البلادة وهي ضدّ الذكاء. والأكياس: ذوو الذكاء والفهم. وتكاءده الأمر: شقّ عليه وصعب. وآده: أثقله، والمثاور: المواثب.

واعلم أنّ مدار هذه الخطبة على التوحيد المطلق والتنزيه المحقّق، وقد أشار إلى توحيده تعالى وتنزيهه باعتبارات من الصفات الإضافيّة والسلبيّة:

فالأوّل: قوله: ما وحّده من كيّفه. دلّت هذه الكلمة بالمطابقة على

سلب التوحيد له تعالى عمّن وصفه بكيفيّة، وبالالتزام على أنه لا يجوز تكيّفه لمنافاة ذلك التوحيد الواجب له تعالى. ولنشر إلى معنى الكيفية ليتبيّن وصفه بها. فنقول: أمّا رسمها فقيل: إنّها هيئة قارّة في المحلّ لا يوجب اعتبار وجودها فيه نسبة إلى أمر خارج عنه ولا قسمة في ذاته ولا نسبة واقعة في أجزائه. وبهذه القيود يفارق سائر الأعراض، وأقسامها أربعة: فإنّها إمّا أن تكون مختصة بالكمّ من جهة ما هو كمّ كالمثلثيّة والمربعيّة وغيرها من الأشكال للسطوح. وكالاستقامة والانحناء للخطوط وكالفرديّة والزوجيّة للأعداد، وإمّا أن لا تكون مختصّة به وهي إمّا أن تكون محسوسة كالألوان والطعوم والحرارة والبرودة، وهذا ينقسم إلى راسخة كصفرة الذهب وحلاوة العسل، وتسمّى كيفيّات انفعالية إمّا لانفعال الحواسّ عنها وإمّا لانفعالات حصلت في الموضوعات عنها، أو غير راسخة إمّا سريعة الزوال كحمرة الخجل وتسمّى انفعالات لكثرة انفعالات موضوعاتها بسببها بسرعة، وهذا قسم ثاني، وإمّا أن لا تكون محسوسة، وهي إمّا لاستعدادات ما لكمالات كالاستعداد للمقاومة والدفع، وإمّا لانفعال ويسمّى قوّة طبيعيّة كالمصحاحيّة والصلابة، أو لنقائص مثل الاستعداد بسرعة الإذعان والانفعال، ويسمّى ضعفاً ولا قوّة طبيعية كالممراضيّة، وإمّا أن لا يكون استعداد لكمالات أو نقائص بل يكون في أنفسها كمالات أو نقائص، وهي مع ذلك غير محسوسة بذواتها فما كان منها ثابتاً يسمّى ملكة كالعلم والعفّة والشجاعة، وما كان سريع الزوال يسمّى حالاً كغضب الحليم ومرض الصحاح. فهذه أقسام الكيف. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّما قلنا: إنّه يلزم من وصفه بالكيفيّة عدم توحيده لما نبّه في الخطبة الأولى من قوله عليه السلام في وصف الله سبحانه: فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه. وكما سبق تقريره فينتج أنّ من وصف الله سبحانه فقد ثنّاه. وحينئذ تبيّن أنّ من كيّفه لم يوحّده لأنّ توحيده وتثنيته ممّا لا يجتمعان.

الثاني: ولا حقيقته أصاب من مثّله. أي جعل له مثلاً، وذلك أنّ كلّ ماله مثل فليس بواجب الوجود لذاته لأنّ المثليّة إمّا أن يتحقّق من كلّ وجه فلا تعدّد إذن لأنّ التعدّد يقتضي المغايرة بأمرٍ ما وذلك ينافي الاتّحاد والمثليّة من

كلّ وجه هذا خلف، وإمّا أن يتحقّق من بعض الوجوه وحينئذ ما به التماثل إمّا الحقيقة أو جزؤها أو أمر خارج عنها فإن كان الأوّل كان ما به الامتياز عرضيّاً للحقيقة لازماً أو زائلاً لكن ذلك باطل لأنّ المقتضي لذلك العرضيّة إمّا المهيّة فيلزم أن يكون مشتركاً بين المثلين لأنّ مقتضى المهيّة الواحدة لا يختلف فما به الامتياز لأحد المثلين عن الآخر حاصل للآخر هذا خلف. أو غيرها فتكون ذات واجب الوجود مفتقرة في تحصيل ما يميّزها من غيرها إلى غير خارجي هذا محال، وإن كان ما به التماثل والاتّحاد جزء من المثلين لزم كون كلّ منهما مركّباً فكلّ منهما ممكن هذا خلف. وبقي أن يكون التماثل بأمر خارج عن حقيقتهما مع اختلاف الحقيقتين لكن ذلك باطل أمّا أوّلاً فلامتناع وصف واجب الوجود بأمر خارج عن حقيقته لاستلزام إثبات الصفة له تثنيته وتركّبه على ما مرّ، وأمّا ثانياً فلأنّ ذلك الأمر الخارجي المشترك إن كان كمالاً لذات واجب الوجود فواجب الوجود لذاته مستفيد للكمال من غيره هذا خلف، وإن لم يكن كمالاً كان إثباته له نقصاً لأنّ الزيادة على الكمال نقص. فثبت أنّ كلّ ماله مثل فليس بواجب الوجود لذاته فالطالب لمعرفته إذا أصاب ماله مثل فقد أصاب ما ليس بواجب الوجود لذاته فلم يصب صانع العالم، ومقصود الكلمة نفي المثل له تعالى في مقام التوجّه إليه والنظر لطلب معرفته.

الثالث: ولا إيّاه عنى من شبّهه، ومعنى هذه القرينة كالّتي قبله.

الرابع: ولا صمده من أشار إليه وتوهّمه، وذلك لأنّ الإشارة إليه إمّا حسيّة أو عقليّة. والأولى مستلزمة للوضع والهيئة والشكل والتحيّز كما علم في غير هذا الموضع، وذلك على واجب الوجود محال، وأمّا الثانية فقد علمت أنّ النفس الإنسانية ما دامت في عالم الغربة إذا توجّهت لاقتناص أمر معقول من عالم الغيب فلا بدّ أن تستتبع القوّة الخياليّة والوهميّة للاستعانة بهما على استثبات المعنى المعقول وضبطه فإذن يستحيل أن يشير العقل الإنسانيّ إلى شيء من المعاني الإلهية إلّا بمشاركة من الوهم والخيال واستثباته حدّاً وكيفيّة يكون عليها لكن قد علمت تنزيهه تعالى عن الكيفيّات والصفات والحدود والهيئة فكان المشير إليه والمدّعى لإصابة حقيقته قاصداً في تلك الإشارة إلى ذي كيفيّة وحال ليس هو واجب الوجود فلم يكن قاصداً لواجب الوجود، وقد

بيّنا فيما سلف امتناع الإشارة إليه.

الخامس: قوله: كلّ معروف بنفسه مصنوع. صغرى ضمير من الشكل الأول استغنى معها عن ذكر الدعوى لدلالتها عليها، وهي أنّه تعالى ليس معلوماً بنفسه: أي ليس معلوم الحقيقة بالكنه. وتقدير الكبرى: ولا شيء مما هو مصنوع بإله للعالم واجب الوجود لذاته دائماً. ينتج أنه لا شيء من المعلوم بنفسه بواجب الوجود وإله العالم دائماً، وينعكس لا شيء من واجب الوجود معلوم بنفسه. أو من الشكل الثاني، ويكون تقدير الكبرى: ولا شيء مما هو واجب الوجود بمصنوع. وينتج النتيجة المذكورة، وينعكس. ويحتمل أن تكون المقدمة المذكورة هي الكبرى من الشكل الأوّل ولا حاجة إلى العكس المذكورة. ويحتمل أن يبيّن المطلوب المذكور بقياس استثنائي متّصل وتكون المقدمة المذكورة تنبيهاً على ملازمة المتّصلة وبياناً لها وتقديرها: لو كان تعالى معلوماً بنفسه لكان مصنوعاً لأنّ كلّ معلوم بنفسه مصنوع لكن التالي باطل فالمقدم كذلك فأمّا بيان أنّ كلّ معلوم بنفسه مصنوع فهو أنّ كلّ معلوم بحقيقته فإنّما يعلم من جهة أجزائه، وكلّ ذي جزء فهو مركّب فكلّ مركّب فمحتاج إلى مركّب يركّبه وصانع يصنعه فإذن كلّ معلوم الحقيقة فهو مصنوع، وأمّا بطلان التالي فلأنّه تعالى لو كان مصنوعاً لكان ممكناً مفتقراً إلى الغير فلا يكون واجب الوجود لذاته هذا خلف.

السادس: وكلّ قائم في سواه معلول كالمقدمة التي قبلها في أنّها يحتمل أن تكون صغرى قياس ضمير من الشكل الأوّل أو الثاني دلّ به على أنّه تعالى ليس بقائم في سواه: أي ليس لعرض فيحتاج إلى محلّ يقوم. تقديره أنّ كلّ قائم سواه فهو معلول، ولا شيء من المعلول بواجب الوجود أولا شيء من واجب الوجود بمعلول فينتج أنه لا شيء من القائم في سواه بواجب الوجود، وينعكس كنفسها لا شيء من واجب الوجود بقائم في سواه. ويحتمل أن يكون كبرى القياس ولا حاجة إلى عكس النتيجة، ويحتمل أن يكون ذكرها تنبيهاً على ملازمة قياس استثنائي: أي لو كان قائماً في سواه لكان معلولاً ولكن التالي باطل فالمقدم كذلك، وبيان الملازمة أنّ القائم

بغيره مفتقر إلى محلّ وكلّ مفتقر إلى غيره ممكن وكلّ ممكن معلول في وجوده وعدمه، وأمّا بطلان التالي فلأنّه لو كان معلولاً لما كان واجب الوجود.

السابع: فاعل لا باضطراب آلة. أمّا أنه فاعل فلأنه موجد العالم، وأمّا أنه منزّه في فاعليته عن اضطراب الآلة فلتنزّهه عن الآلة التي هي من عوارض الاجسام. وقد سبق بيانه.

الثامن: مقدّر لا بحول فكرة، ومعنى كونه مقدّراً كونه معطيا لكلّ موجود المقدار الذي يستحقه من الكمال من الوجود ولواحق الوجود كالأجل والرزق ونحوهما على وفق القضاء الإلهي، وكون ذلك لا بحول فكرة لأنّ الفكر من لواحق النفوس البشريّة بآلة بدنيّة، وقد تنزّه قدسه تعالى عن ذلك.

التاسع: كونه غنيّاً لا باستفادة، وكونه غنيّاً يعود إلى عدم حاجته في شيء ما إلى شيءٍ ما. إذ لو حصل له شيء باستفادةٍ من خارج كسائر الاغنياء لزم كونه ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ذلك المستفاد موقوفاً على حصول سببه فكان ممكنا هذا خلف وهو تنزيه له عن الغنى المشهور المتعارف.

العاشر: كونه لا تصحبه الأوقات، وذلك أنّ الصحبة الحقيقية تستدعي المعيّة والمقارنة اللذين هما من لواحق الزمان الذي هو من لواحق الحركة التي هي من لواحق الجسم المتأخر وجوده عن وجود بعض الملائكة المتأخّر وجوده عن وجود الصانع الأول - جلّت عظمته - فكان وجود الزمان والوقت متأخراً عن وجوده تعالى بمراتب من الوجود فلم تصدق صحبة الاوقات لوجوده ولا كونها ظرفاً له وإلاّ لكان مفتقراً إلى وجود الزمان فكان يمتنع استغناؤه عنه لكنّه سابق عليه فوجب استغناؤه عنه. نعم قد يحكم الوهم بصحبة الزمان للمجردات ومعيّته لها حيث تقسمها إلى الزمانيّات. إذ كان لا تعقل المجردات إلاّ كذلك.

الحادي عشر: كونه لا ترفده الأدوات، وظاهر أنّ المفتقر إلى المعونة بأداة وغيرها ممكن لذاته فلا يكون واجب الوجود لأنّه تعالى خالق الأدوات فكان سابقاً عليها في تأثيره فكان غنيّاً عنها فيمتنع عليه الحاجة إلى الاستعانة بها.

الثاني عشر: سبق الأوقات كونه: أي وجوده. وقد مرّ بيانه.

الثالث عشر: والعدم وجوده: أي وسبق وجوده العدم، وبيانه أنّه تعالى مخالف لسائر الموجودات الممكنة فإنّها محدثة فيكون عدمها سابقاً على وجودها. ثمّ إن لم تكن كذلك، وجودها وعدمها بالنسبة إلى ذواتها على سواء كما بيّن في مظانّه ولها من ذواتها أنّها لا تستحق وجوداً وعدماً لذواتها وذلك عدم سابق على وجودها. فعلى كلّ تقدير فوجودها يكون مسبوقاً بعدم. بخلاف الموجود الأوّل ـ جلّت عظمته ـ فإنّه لمّا كان واجب الوجود لذاته كان لما هو هو موجوداً فكان لحوق العدم له محالاً فكان وجوده سابقاً على العدم المعتبر لغيره من الممكنات، ولأنّ عدم العالم قبل وجوده كان مستنداً إلى عدم الداعي إلى إيجاده المستند إلى وجوده فكان وجوده تعالى سابقاً على عدم العالم. ثمّ تبيّن.

الرابع عشر: والابتداء أزله، وذلك أنّ الأزل عبارة عن عدم الأوّليّة والابتداء وذلك أمر يلحق واجب الوجود لما هو هو بحسب الاعتبار العقليّ وهو ينافي لحوق الابتداء والأوّليّة لوجوده تعالى فاستحال أن يكون له مبدء لامتناع اجتماع النقيضين بل سبق في الأزليّة ابتداءً ما كان له ابتداء وجود من الممكنات إذ هو مبدأها ومَصْدرها.

الخامس عشر: بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وذلك أنّه تعالى لمّا خلق المشاعر وأوجدها وهو المراد بتشعيره لها امتنع أن يكون له مشعر وحاسّة وإلّا لكان وجودها له إمّا من غيره وهو محال: أمّا أوّلا فلأنّه مشعّر المشاعر وأمّا ثانياً فلأنّه يكون محتاجاً في كماله إلى غيره فهو ناقص بذاته هذا محال، وإمّا منه وهو أيضاً محال لأنّها إن كانت من الكمالات الوهميّة كان موجداً لها من حيث هو فاقد كمالاً فكان ناقصاً بذاته هذا محال، وإن لم يكن كمالاً كان إثباتها له نقصاً لأنّ الزيادة على الكمال نقصان فكان إيجاده لها مستلزماً لنقصانه وهو محال.

السادس عشر: وبمضادته بين الأمور عرف أنْ لا ضدّ له لأنّه لمّا كان خالق الأضداد فلو كان له ضدّ لكان خالقاً لنفسه ولضدّه وذلك محال، ولأنّك لمّا علمت أنّ المضادّة من باب المضاف وعلمت أنّ المضاف ينقسم إلى

حقيقيّ وغير حقيقي فالحقيقي هو الذي لا تعقل مهيّته إلاّ بالقياس إلى غيره، وغير الحقيقي هو الذي له في ذاته مهيّة غير الإضافة تعرض لها الإضافة وكيف ما كان لا بدّ من وجود الغير حتى يوجد المضاف من حيث هو مضاف فيكون وجود أحد المضافين متعلّقاً بوجود الآخر فلو كان لواجب الوجود ضدّ لكان متعلّق الوجود بالغير فلم يكن واجب الوجود لذاته هذا خلف، ولأنّ الضدّين هما الأمران الثبوتيان اللذان يتعاقبان على محلّ واحد، ويمتنع اجتماعهما فيه فلو كان بينه وبين غيره مضادّة لكان محتاجاً إلى محلّ يعاقب ضدّه عليه، وقد ثبت أنّه تعالى غني من كلّ شيء.

السابع عشر: وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، وبرهانه أمّا أوّلاً فلأنّه تعالى خلق المقترنات ومبدء المقارنة بينها فلو كان تعالى مقارناً لغيره لكان خالقاً لنفسه ولقرينه وذلك محال، ولأنّ المقارنة من باب المضاف ويمتنع أن يلحقه. على ما تقدّم.

الثامن عشر: كونه تعالى مضادّاً بين الامور. المضادة تأكيد لقوله: ولمضادّته للأشياء. فمنها النور والظلمة وفي كونهما ضدّين خلاف بين العلماء مبني على كون الظلمة أمراً وجودياً أو عدمياً والأقرب أنّها أمر وجودي مضادّ للنور، وقال بعضهم: إنّها عبارة عن عدم الضوء عما من شأنه أن يضيء وليست على هذا القول عدماً صرفاً فجاز أن يطلق عليها أنّها ضدّ مجازاً، ومنها البياض والسواد والجمود والبلل: أي اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة. ومضادّته بينها خلقه لها على ما هي عليه من الطبائع المتضادة.

التاسع عشر: كونه مؤلّفاً بين متعادياتها في أمزجة المركّبات من العناصر الأربعة فإنّه جمع بينها على وجه الامتزاج حتى حصل بينها كيفيّة متوسطة على ما مرّ بيانه في الخطبة الأولى.

العشرون: كونه مقارناً بين متبايناتها.

الحادي والعشرون: كونه مقرّباً بين متباعداتها، ومرّ نظير هاتين الفقرتين في الخطبة الأولى.

الثاني والعشرون: كونه مفرّقا بين متدانياتها: أي بالموت والفناء لهذه المركّبات في هذا العالم. وأشار إلى استناد فسادها إليه أيضاً إذ هو مسبّب الأسباب. وقد طاوعته عليه السلام المطابقة في هذه القرائن فالتأليف بإزاء المعاداة، والمقارنة بإزاء المباينة، والقرب بإزاء البعد، والتفريق بإزاء التداني.

الثالث والعشرون: كونه تعالى لا يشمله حدّ، والمراد: إمّا الحدّ الاصطلاحي وظاهر كونه تعالى لا حدّ له، إذ لا أجزاء له فلا تشمل وتحاط حقيقة بحدّ، وإمّا الحدّ اللغويّ وهي النهاية التي تحيط بالجسم مثلاً فيقف عندها وينتهي بها وذلك من لواحق الكمّ المتصل والمنفصل وهما من الأعراض ولا شيء من واجب الوجود سبحانه بعرض أو محلّ له فامتنع أن يوصف بالنهاية. وأمّا وصفه باللانهاية فعلى سبيل سلب النهاية عنه مطلقا بسلب معروضها كالمقدار مثلاً لا على سبيل العدول بمعنى أنّه معروض النهاية واللانهاية لكن ليست النهاية حاصلة له.

الرابع والعشرون: كونه لا يحسب بعدّ: أي لا يلحقه الحساب والعدّ فيدخل في جملة المحسوبات المعدودة، وذلك أنّ العدّ من لواحق الكمّ المنفصل الذي هو العدد كما هو معلوم في مظانّه والكمّ عرض، وقد ثبت أنّه تعالى ليس بعرض ولا محلّ له، واستحال أن يكون معدوداً.

وقوله: وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها.

فالأدوات إشارة إلى الآلات البدنيّة والقوى الجسمانيّة، وقد ثبت أنّها لا يتعلّق إدراكها إلّا بما كان جسماً أو جسمانيّاً على ما علم في موضعه فمعنى قوله: وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها. أي إنّما تدرك الأجسام والجسمانيّات ما هو مثلها من الأجسام والجسمانيّات، ومثل الشيء هو هو في النوع أو الجنس، ويحتمل أن يدخل في ذلك النوع الفكر لامتناع انفكاكه عن الوهم والخيال حين توجّهه إلى المعقولات لما بيّناه من حاجته إليهما في التصوير والشبح فكان لا يتعلّق إلّا بمماثل ممكن، ولا يحيط إلّا بما هو في صورة جسم أو جسمانيّ، وكذلك قوله: وتشير الأشياء إلى نظائرها.

وقوله: منعتها منذ القدميّة وحمتها قد الأزليّة وجنّبتها لولا التكملة.

الضمائر المتّصلة بالافعال الثلاثة تعود إلى الآلات والأدوات وهي مفعولات أولى. والقدميّة والأزلية والتكملة مفعولات ثانية، ومنذ وقد ولولا محلّها الرفع بالفاعليّة، ومعنى الكلمة الأولى أنّ إطلاق لفظة ـ منذ ـ على الآلات والأدوات في مثل قولنا: هذه الآلات وجدت منذ كذا يمنع كونها قديمة. إذ كان وضعها لابتداء الزمان وكانت لإطلاقها عليها متعيّنة الابتداء ولا شيء من القديم بمتعيّن الابتداء فينتج أنّه لا شيء من هذه الأدوات والآلات بقديم، وكذلك إطلاق لفظة ـ قد ـ عليها يحميها ويمنعها من كونها أزلية إذ كانت ـ قد ـ تفيد تقريب الماضي من الحال فإطلاقها عليها كما في قولك: قد وجدت هذه الآلة وقت كذا. يحكم بقربها من الحال وعدم أزليّتها ولا شيء من الأزلي بقريب من الحال فلا شيء من هذه الآلات بأزلي. وكذلك إطلاق لفظ ـ لولا ـ على هذه الآلات تجنّبها التكملة. إذ كان وضع لولا دالاً على امتناع الشيء لوجود غيره فإطلاقها عليها في مثل قولك عند نظرك إلى بعض الآلات المستحسنة والخلقة العجيبة والأذهان المتوقّدة: ما أحسنها وأكملها لولا أنّ فيها كذا. فيدلّ بها على امتناع كمالها لوجود نقصان فيها فهي مانعة لها من الكمال المطلق، وإنّما أشار إلى حدوثها ونقصانها ليؤكّد كونها غير متعلّقة بتحديده سبحانه، وأنّها في أبعد بعيد من تقديره والإشارة إليه. إذ كان القديم الكامل في ذاته التامّ في صفاته أبعد الأشياء عن مناسبته المحدث الناقص في ذاته فكيف يمكن أن يدركه أو يليق أن يطمع في ذلك، وقال بعض الشارحين: المراد بالأدوات والآلات أهلها. وقد روي برفع القدميّة والأزليّة والتكملة على الفاعلية. والضمائر المتصلة بالافعال مفعولات أولى، ومنذ وقد ولولا مفعولات ثانية، ويكون المعنى أنّ قدمه تعالى وأزليته وكماله منعت الادوات والآلات من إطلاق منذ وقد ولولا عليه سبحانه لدلالتها على الحدوث والابتداء المنافيين لقدمه وأزليته وكماله. والرواية الاولى اولى لوجودها في نسخة الرضي ـ رضي الله عنه ـ بخطّه.

وقوله: بها تجلّى صانعها للعقول.

أي بوجود هذه الآلات ظهور وجوده تعالى للعقول. إذ كان وجودها

مستلزماً لوجود صانعها بالضرورة، وإحكامها وإتقانها شاهد بعلمه وحكمته شهادة تضطر إلى الحكم بها العقول، وكذلك تخصيصها بما تخصّصت به من الكمالات شاهد بإرادته وكمال عنايته فيكون ما شهد به وجودها من وجود صانعها أجلى وأوضح من أن يقع فيه شك أو يلحقه شبهة، ويتفاوت ذلك الظهور والتجلي بحسب تفاوت صقال النفوس وجلائها فمنها من يراه بعد، ومنها من يراه مع، ومنها من يراه قبل، ومنها من يراه لا شيء معه وأولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

•قوله: وبها امتنع عن نظر العيون.

أي بإيجادها وخلقها بحيث تدرك بحاسّة البصر علم أنّه تعالى يمتنع أن يكون مرئيّاً مثلها، وبيانه أنّ تلك الآلات إنّما كانت متعلّقة حسّ البصر باعتبار أنّها ذات وضع وجهة ولون وغيره من شرائط الرؤية، ولمّا كانت هذه الامور ممتنعة في حقّه تعالى لا جرم امتنع أن يكون محلاً لنظر العيون، وقال بعض الشارحين في بيان ذلك: إنّه لمّا كان بالمشاعر والحواسّ التي هي الآلات المشار إليها أكملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدليل على أنه لا يصحّ رؤيته فإذن بخلق هذه الأدوات والآلات لنا عرفناه عقلاً وعرفناه أنّه يستحيل أن يعرف بغير العقل.

الخامس والعشرون: كونه تعالى منزّهاً أن يجرى عليه السكون والحركة، وقد أشار عليه‌السلام إلى بيان امتناعهما عليه من أوجه:

أحدها: قوله: وكيف يجري عليه. إلى قوله: أحدثه، وهو استفهام على سبيل الاستنكار لجريان ما أجراه عليه وعود ما أبداه وأنشأه إليه وحدوث ما أحدثه فيه. وبيان بطلان ذلك أنّ الحركة والسكون من آثاره سبحانه في الأجسام وكلّ ما كان من آثاره يستحيل أن يجري عليه ويكون من صفاته: أمّا المقدّمة الأولى فظاهرة، وأمّا الثانية فلأنّ المؤثّر واجب التقدّم بالوجود على الأثر فذلك الأثر إمّا أن يكون معتبراً في صفات الكمال فيلزم أن يكون تعالى باعتبار ما هو موجد له، ومؤثّر فيه ناقصاً بذاته مستكملاً بذلك الأثر، والنقص عليه تعالى محال، وإن لم يكن معتبراً في صفات كماله فله الكمال المطلق بدون ذلك الأثر فكان إثباته صفة له نقصاً في حقّه لأنّ الزيادة على الكمال

المطلق نقصان وهو عليه تعالى محال.

الثاني: لو كان كذلك للزم التغيّر في ذاته تعالى ولحوق الإمكان له، ودلّ على ذلك بقوله: إذن لتفاوتت ذاته: أي تغيّرت بطريان الحركة عليها تارة والسكون أخرى لأنّ الحركة والسكون من الحوادث المتغيّرة فيكون تعالى بقوله: لتعاقبهما محلاً للحوادث في التغيّرات فكان متغيّراً لكن التغيّر مستلزم للإمكان فالواجب لذاته ممكن لذاته هذا خلف.

الثالث: لو كان كذلك للزم حقيقته التجزية والتركيب لكنّ التالي باطل والمقدّم كذلك. أمّا الملازمة فلأنّ الحركة والسكون من عوارض الجسم الخاصّة به فلو يوصف تعالى بها لكان جسماً وكلّ جسم فهو مركّب قابل للتجزية، وأمّا بطلان التالي فلأنّ كلّ مركّب مفتقر إلى أجزائه وممكن فالواجب ممكن هذا خلف.

الرابع: أنّه لو كان كذلك للزم أن يبطل من الأزل معناه: أمّا على طريق المتكلّمين فظاهر لأنّ الحركة والسكون من خواصّ الأجسام الحادثة فكان الموصوف بهما حادثاً فلو كان تعالى موصوفاً بهما لبطل من الأزل معناه ولم يكن أزليّا. وأمّا على رأي الحكماء فلأنّه تعالى لكونه واجب الوجود لذاته يستحق الأزليّة، ولكون الممكن ممكناً لذاته فهو إنّما يستحقّ الأزليّة لا لذاته بل لأزليّة علّته وتمامها أزلاً حتّى لو توقفت علّته على أمر ما في مؤثريّتها لزم حدوث الممكن ولم يكن له من ذاته إلاّ كونه لا يستحقّ لذاته وجوداً ولا عدماً وهو معنى الحدوث الذاتيّ عندهم. فعلى هذا لو كان تعالى قابلاً للحركة والسكون لكان جسماً ممكناً لذاته فكان مستحقّاً للحدوث الذاتيّ بذاته فلم يكن مستحقّاً للأزليّة بذاته فيبطل من الأزليّة معناه وهو استحقاقه الأزليّة بذاته لكن التالي باطل لما مرّ.

الخامس: أنّه لو كان كذلك للزم أن يكون له وراء إذ وجد له أمام، ووجه الملازمة أنّه لو جرت عليه الحركة لكان له أمام يتحرّك إليه وحينئذ يلزم أن يكون له وراء إذ له أمام لأنّهما إضافيّتان لا تنفكّ إحديهما عن الأخرى لكن ذلك محال لأنّ كلّ ذي وجهين فهو منقسم وكلّ منقسم فهو ممكن على ما مرّ.

السادس: لو كان كذلك لا لتمس التمام إذ لزمه النقصان، وبيان الملازمة أنّ جريان الحركة عليه مستلزم لتوجّهه بها إلى غاية إمّا جلب منفعة أو دفع مضرّة. إذ من لوازم حركات العقلاء ذلك، وعلى التقديرين فهما كمال مطلوب له لنقصان لازم لذاته لكنّ النقصان بالذات والاستكمال بالغير مستلزم الإمكان فالواجب ممكن. هذا خلف.

السابع: لو كان كذلك لقامت آية المصنوع فيه، وبيان الملازمة أنّه حينئذ يكون قادراً على الحركة والسكون فقدرته عليهما ليست من خلقه وإلاّ لافتقر ايجاده لها الى قدرة أخرى سابقة عليها ولزم التسلسل وكان قادراً قبل أن كان قادراً وهما محالان فهي إذن من غيره فهو إذن مفتقر في كماله إلى غيره فهو مصنوع وفيه آيات الصنع وعلامات التأثير فليس هو بواجب الوجود. هذا خلف.

الثامن: لو كان كذلك لتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، وذلك أن يكون مصنوعاً على ما مرّ وكلّ مصنوع فيستدلّ به على صانعه كما هو المشهور في الاستدلال بوجود العالم وحدوثه على وجود صانعه، ولأنّه يكون جسماً فيكون مصنوعاً فكان دليلاً على الصانع لكنّه هو الصانع الأوّل للكلّ وهو المدلول عليه فاستحال أن يكون دليلاً من جهة آثار الصنع فيه فاستحال أن يكون قابلاً للحركة والسكون فاستحال أن يجريا عليه. فانظر إلى هذه النفس الملكيّة له عليه السلام كيف يفيض عنها هذه الاسرار الإلهية فيضاً. من غير تقدّم مزاولة الصنائع العقلية وممارسة البحث في هذه الدقائق الإلهية. واما قوله: وخرج بسلطان الامتناع. الى قوله: غيره. فقد يسبق الى الوهم عطفه على الادلة المذكورة، وظاهر انه ليس كذلك؛ بل هو عطف على قوله: امتنع. أي بها امتنع عن نظر العيون وخرج ذلك الامتناع: أي امتناع أن يكون مثلها في كونها مرئيّة للعيون ومحلاً للنظر إليها عن أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره من المرئيّات، وهي الأجسام والجسمانيّات، وظاهر أنّه تعالى لمّا امتنع عن نظر العيون إذ لم يكن جسماً ولا قائماً به فخرج بسلطان استحقاق ذلك الامتناع عن أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره من الأجسام والجسمانيّات وعن قبول ذلك. وقال بعض الشارحين: إنّه

عطف على قوله: تجلّى: أي بها تجلّى للعقول وخرج بسلطان الامتناع كونه مثلاً لها: أي يكون واجب الوجود ممتنع العدم عن أن يكون ممكناً فيقبل أثر غيره كما يقبل الممكنات.

السادس والعشرون: كونه تعالى لا يحول: أي لا ينتقل ويتغيّر من حال إلى حال لما علمت من استلزام التغيّر للإمكان الممتنع عليه.

السابع والعشرون: وكذلك لا يزول.

الثامن والعشرون: وكذلك لا يجوز عليه الأفول والغيبة بعد الظهور لما يستلزم من التغيّر أيضاً.

التاسع والعشرون: كونه لم يلد فيكون مولوداً ولم يولد فيكون محدوداً. فالجملة الأولىٰ تشتمل على دعوى والإشارة إلى البرهان، وهو في صورة قياس استثنائيّ تقديره: لو كان له ولد لكان مولوداً وحينئذ تكون الجملة الثانية وهي قوله: ولم يولد. في قوّة استثناء نقيض التالي، وقوله: فيكون محدوداً في قوّة قياس استثنائيّ يدلّ على بطلان التالي، وتقديره: لأنّه لو كان مولوداً لكان محدوداً. واعلم أنّه يحتمل أن يريد بقوله: مولوداً. ما هو المتعارف فيكون قد سلك في ذلك مسلك المعتاد الظاهر في بادىء النظر بحسب الاستقراء أنّ كل ماله ولد فإنه يكون مولوداً وإن لم يجب ذلك في العقل، وقد علمت أنّ الاستقراء ممّا يستعمل في الخطابة ويحتجّ به فيكون مقنعاً. إذ كانت غايتها الاقناع، ويحتمل أن يريدبه ما هو أعمّ من المفهوم المتعارف أعني التولّد عن آخر مثله من نوعه فإنّ ذلك غير واجب كما في أصول أنواع الحيوان الحادثة، وحينئذ يكون بيان الملازمة الأولى على الاحتمال الأوّل ظاهر، وأمّا على تقدير الثاني فنقول في بيانها: إنّ مفهوم الولد هو الذي يتولّد وينفصل عن آخر مثله من نوعه لكن أشخاص النوع الواحد لا يتعيّن في الوجود مشخصاً إلّا بواسطة المادّة وعلاقتها على ما علم ذلك في مظانّه من الحكمة، وكلّ ما كان مادّياً وله علاقة بالمادّة كان متولّداً عن غيره وهو مادّته وصورته وأسباب وجوده وتركيبه، وأمّا بيان الملازمة الثانية في برهان بطلان التالي فلأنّه لمّا لزم من كونه ذا ولد أن يكون مشاركاً في النوع

لغيره ثبت أنّه متولّد من مادة وصورة ومركّب عنهما وعن جزئين بأحدهما يشارك نوعه وبالآخر ينفصل. فهو إذن منته إلى حدود وهي أجزاؤه التي يقف عندها وينتهي في التحليل إليها. فثبت أنّه تعالى لو كان مولوداً لكان محدوداً لأنّه لو كان مولوداًلكان محاطاً ومحدوداً بالمحل المتولّد منه لكن كلّ محدود على الاعتبارين مركّب وكلّ مركّب ممكن. هذا خلف. فإذن ليس هو بمحدود فليس هو بمولود فليس هو بذي ولد، وإن شئت أن تجعل المقدمتين في قوّة قياس حمليّ مركّب من شرطيّتين متصلتين والشركة بينهما في جزء تام، وتقديره: لو كان تعالى ذا ولد لكان مولودا ولو كان مولوداً لكان محدوداً، والنتيجة لو كان ذا ولد لكان محدوداً. ثم يستنتج من استثناء نقيض تالي هذه النتيجة عن المطلوب. وبيان الملازمتين ونقيض تالي النتيجة ما سبق.

الثلاثون: كونه جلّ عن اتّخاذ الأبناء: أي علا وتقدّس عن ذلك، وهو تأكيد لما سبق. وبيانه أنّه يستلزم لحوق مرتبته بمراتب الأجسام التي هي في معرض الزوال وقبول التغيّر والاضمحلال.

الحادي والثلاثون: كونه طهر عن ملامسة النساء، وذلك لما يستلزمه الملامسة من الجسميّة والتركيب الذي تنزّه قدسه عنه، وطهارته تعودإلى تقدّسه عن الموادّ وعلائقها من الملامسة والمماسّة وغيرها.

الثاني والثلاثون: كونه لا تناله الأوهام فتقدّره: أي لو نالته الأوهام لقدّرته لكنّ التالي باطل فالمقدّم كذلك. بيان الملازمة: أنّك علمت أنّ الوهم إنّما يدرك المعاني المتعلّقة بالمادة ولا يرتفع إدراكه عن المعاني المتعلّقة بالمحسوسات، وشأنه فيما يدركه أن يستعمل المتخيّلة في تقديره بمقدار مخصوص وكميّة معيّنة وهيئة معيّنة ويحكم بأنّها مبلغه ونهايته. فلو أدركته الأوهام لقدّرته بمقدار معيّن وفي محلّ معيّن. فأمّا بطلان التالي فلأنّ المقدار محدود ومركّب ومحتاج إلى المادّة والتعلّق بالغير، وقد سبق بيان امتناعه.

الثالث والثلاثون: ولا يتوهّمه الفطن فتصوره. وفطن العقول: سرعة حركتها في تحصيل الوسط في المطالب، وإنّما قال: لا يتوهّمه الفطن لأنّ

القوّة العقليّة عند توجّهها في تحصيل المطالب العقليّة المجرّدة لا بدّ لها من استتباع الوهم والمتخيّلة والاستعانة بها في استثباتها بالشبح والتصوير بصورة يحطّها إلى الخيال على ما علم ذلك في موضعه. ولذلك ما كانت رؤيتها لجبرئيل في صورة دحية الكلبيّ. وكذلك المعاني المدركة للنفوس في النوم من الحوادث فإنّها لا يتمكّن من استثباتها عند اقتناصها من عالم التجريد وبقائها إلى حال اليقظة في صورة خياليّة مشاهدة كما علمت ذلك في صدر الكتاب. فظهر إذن معنى قوله: لا يتوهّمه الفطن فتصوّره: أي لو أدركته لكان ذلك بمشاركة الوهم فكان يلزم أن يصوّره بصورة خياليّة لكنّه تعالى منزّه عن الصورة فكان منزّهاً عن إدراكها.

الرابع والثلاثون: لا تدركه الحواس فتحسّه. وأراد لو أدركته الحواسّ لصدق عليه أنّها تحسّه ولزم كونه محسوساً، وبيان ذلك أنّ الإدراك وإن كان أعمّ من الإحساس لكن بإضافته إلى الحواسّ صار مساوياً وملازماً له.

فإن قلت: إنّه لا معنى للإحساس إلاّ. إدراك الحواسّ فيكون كأنّه قال: لا تحسّه الحواسّ فتحسه. وذلك تكرار غير مفيد.

قلت: ليس مقصوده أنّه يلزم من معنى الإدراك معنى الإحساس بل مراده أنّ الذي يصدق عليه أنّه إدراك الحواسّ هو المسمّى بالإحساس فيكون التقدير أنّ الحواس لو أدركته لصدق أنّها أحسّته أي لصدق هذا الاسم ولزم من صدقه عليها أن يصدق عليه كونه محسوسا، وإنّما ألزم ذلك كون الإحساس أشهر وأبين في الاستحالة عليه تعالى من الإدراك فجعله كالأوسط في نفي إدراكها عنه لشنعته، وأمّا بيان أنّه تعالى ليس بمحسوس فلأنّه تعالى ليس بجسم ولا جسمانيّ وكلّ محسوس فإمّا جسم أو جسمانيّ فينتج أنّه تعالى ليس بمحسوس.

الخامس والثلاثون: كونه تعالى لا تلمسه الأيدي فتمسّه: أي لو صدق عليها أنّها تلمسه لصدق أنّها تمسّه وهو ظاهر. إذ كان المسّ أعم من اللمس، وكلاهما ممتنعان عليه لاستلزامهما الجسميّة الممتنعة عليه تعالى.

السادس والثلاثون: كونه لا يتغيّر بحال: أي أبداً والبتّة وعلى وجه من الوجوه.

السابع والثلاثون: ولا يتبدل في الأحوال: أي لا ينتقل من حال إلى حال. وقد سبق بيان ذلك.

الثامن والثلاثون: كونه لا تبليه الليالي والأيّام: أمّا أوّلاً فلأنّه تعالى ليس بزمانيّ يدخل تحت تصريف الزمان حتّى تبليه، وأمّا ثانياً فلأنّ لحوق الإبلاء له تغير في ذاته. وقد علمت امتناع التغيّر عليه، وأمّا ثالثاً فلأنّ البالي من الأمور الماديّة. وكلّ ذي مادّة فهو مركّب على ما مرّ.

التاسع والثلاثون: كونه لا يغيّره الضياء والظلام، وذلك لامتناع التغيّر عليه.

الأربعون: كونه لا يوصف بشيءٍ من الأجزاء لأنّ كلّ ذي جزء مفتقر إلى جزء الذي هو غيره فكان مفتقراً إلى غيره فكان ممكناً في ذاته. هذا خلف.

الحادي والأربعون: ولا بالجوارح والأعضاء لما يلزم من الجسميّة والتركيب والتجزية.

الثاني والأربعون: ولا بعرض من الأعراض. أقول: الأعراض تنحصر في تسعة أجناس كما هو معلوم في مظانّه، وذلك أنّ كل الموجودات سوى الله تعالى مقسوم بعشرة أقسام واحد منها جوهر والتسعة الباقية أعراض، ويظهر بتقسيم هكذا: كلّ ما عداه سبحانه فوجوده زايد على مهيّته بالبراهين القاطعة فمهيّته إمّا أن تكون بحيث إذا وجدت كان وجودها لا في موضوع. وهذا المعنيّ بالجوهر، أو يكون وجودها في موضوع وهو المعنيّ بالعرض. ونعني بالموضوع المحلّ الذي لا يتقومّ بما يحلّ فيه بل تبقى حقيقته كما كانت قبل حلوله كالجسم الذي يحلّه السواد. ثمّ العرض ينقسم إلى أقسامه التسعة وهي الكم والكيف والمضاف وأين ومتى والوضع والملك وأن يفعل وأن ينفعل. وتسمّى هذه الأقسام مع القسم العاشر وهو الجوهر المقولات العشر والأجناس العالية، ولنرسم كلّ واحد منها ليظهر أنّه تعالى منزّه عن الوصف بشيء منها.

فنقول، أمّا الجوهر فقد عرفت رسمه، وأمّا الكمّ فرسم بأنّه العرض الذي يقبل لذاته المساواة واللا مساواة والتجزّي، ويقبل الجوهر بسببه هذه الصفات، وأمّا الكيف فقد عرفته وعرفت أقسامه، وأمّا الإضافة فهي حالة للجوهر تعرض بسبب كون غيره في مقابلته ولا يعقل وجودها إلاّ بالقياس إلى ذلك الغيركالأبوّة والبنوّة وقد عرفتها وعرفت أيضاً أقسامها من قبل، وأمّا الأين فهي حالة وهيئة تعرض للجسم بسبب نسبته إلى المكان وكونه فيه وليس مجرّد النسبة إليه، وأمّا متى فهي حالة تعرض للشيء بسبب نسبته إلى زمانه وكونه فيه أو في طرفه وهو الآن، وأمّا الوضع فهو هيئة تعرض للجسم بسبب نسبة أجزائه بعضها إلى بعض نسبة يختلف الأجزاء لأجلها بالقياس إلى سائر الجهات كالقيام والقعود، وأمّا الملك فقد عرفت بأنّه نسبة إلى ملاصق ينقل بانتقال ما هو منسوب إليه كالتسلّخ والتقمّص، وأمّا أن يفعل فهو كون الشيء بحيث يؤثّر في غيره ما دام مؤثّراً فيه كالتقطيع حالة التأثير، وأمّا أن ينفعل وهو كون الشيء متأثّراً عن غيره ما دام متأثّراً كالقطيع.

إذا عرفت ذلك فنقول: أمّا البرهان الجمليّ على امتناع اتّصافه تعالى بهذه الأعراض واستحالة كونه موضوعاً لها فما سبق بيانه عليه السلام بقوله: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه، وكذلك ما بيّناه من استلزام وصفه بشيء حصول التغيّر في ذاته وامتناع التغيّر عليه، وأمّا التفصيليّ فأمّا امتناع وصفه بالكمّ فلأنّه لو صدق عليه الكمّ لصدق عليه قبول المساواة والمقارنة والتجزّي وكلّما قبل التجزية كان متكثّراً وقابلاً للكثرة وقد ثبت أنّه تعالى واحد من كلّ وجه فيمتنع عليه الكمّ، وأمّا امتناع وصفه بالكيف فقد علمته في أوّل الخطبة، وكذلك امتناع وصفه بالمضاف، وأمّا وصفه بالأين فلأنّه يستلزم أن يكون متحيّزاً محويّاً لكن كونه كذلك محال فكونه في المكان محال، وأمّا وصفه بمتى فقد عرفته أنّه تعالى ليس بزمانيّ فاستحال أن يوصف بالنسبة إلى زمان يكون له، وأمّا وصفه بالوضع فلأنّ الوضع من خواصّ المحيّزات فإنّ الجسم المتناهي يحيط به سطح لا محالة أو سطوح ينتهي عندها فيكتنف حدّاً وحدوداً ونهايات ويكون له شكل وهيئة لكنّه تعالى ليس بمتحيّز فاستحال أن يكون ذا وضع، وأمّا الملك فلأنّه أيضاً من خواصّ

الأجسام المحاط بها إذ ما ليس بجسم ولا يحاط به بشيء ينتقل بانتقاله وقد تنزّه تعالى عن الجسميّة وأن يحيط به شيء، وأمّا أن يفعل فلأنّ الفعل لا يصدق عليه إلّا بطريق الإبداع ومحض الاختراع والإبداع هو أن يكون للشيء وجود من غيره متعلّق به فقط دون توسّط مادّة أو آلة أو زمان والفعل أعمّ من الإبداع إذ المفهوم من الفعل هو أن يوجد بسبب وجوده شيء آخر سواء كان ذلك لسبب حركة من الفاعل أو آلة أو مادّة أو زمان أو قصد اختياري فيقال للنجار: إنّه فاعل وللسرير إنّه فعل، ويقال: لا بتوسط شيء من ذلك بل بطبع وتولّد كالشمس فإنّها فاعلة للنور والنور فعلها فالفعل إذن ينقسم إلى ما يكون بقصد واختيار وإلى ما لا يكون كذلك بل يصدر عنه لأنّه ذات يفيض عنها ذلك الشيء. ثمّ إن كان عالماً بفيضان الشيء عنه سميّت تلك الإفاضة جوداً والفاعل بذلك الاعتبار جواداً وإن لم يكن عالماً به تسمّى تلك الإفاضة طبعاً وتولّداً كفيضان النور عن الشمس فالفاعل إمّا أن يفعل بالقصد والغرض أو بالجود المحض أو بالطبع المحض، والباري تعالى لا يجوز أن يفعل لغرض لأنّ الغرض والقصد إن كان أولى به لذاته كانت ذاته مستكملة بتلك الأوليّة ناقصة بعدمها هذا محال، وإن لم تكن أولى به كان ترجيحاً من غير مرجّح. ثمّ لا يجوز أن يكون أولى بالنظر إلى العبد لأنّ تلك الأوليّة وعدمها إن كانا بالنسبة إليه على سواء فلا ترجيح أو لا على سواء فيعود حديث النقصان والكمال فكان تعالى منزّهاً عن الفعل بهذا الوجه بل إنّما يصدر منه على وجه الإبداع بجوده المحض. وفي هذه المسألة بحث طويل ليس هذا موضعه، وأمّا وصفه بأن ينفعل فلأنّ الانفعال يستلزم التغيّر في ذاته المستلزم للإمكان وقد تنزّه قدسه عنه.

الثالث والأربعون: ولا بالغيريّة والأبعاض: أي ليس له أبعاض يغاير بعضها بعضاً لأنّ ذلك مستلزم للتجزية والتركيب الممتنعين عليه وامتناع اللازم يستلزم امتناع الملزوم.

الرابع والأربعون: ولا يقال له حدّ ولا نهاية لأنّ الحدود والنهايات من عوارض الاجسام ذوات الاوضاع ولواحقها. على ما سبق.

الخامس والأربعون: وكذلك ولا انقطاع ولا غاية: أي لا انقطاع لوجوده ولا غاية له، وذلك لأنّ الانقطاع عند الغايات من لواحق الأمور الزمانيّة المحدثة الكائنة الفاسدة، وقد بيّنا امتناع كونه تعالى زمانيّاً وكونه ماديّاً، ولأنّه تعالى واجب الوجود فيستحيل أن يلحقه العدم أو يتناهى وجوده وينقطع عند غاية.

السادس والأربعون: ولا أنّ الأشياء تحويه فتقلّه أو تهويه. روي ما بعد الفاء منصوباً وعليه نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ وذلك بإضمار أن عقيبها في جواب النفي، وروي مرفوعاً على العطف. والمعنى أنّه ليس بذي مكان يحويه فيرتفع بارتفاعه وينخفض بانخفاضه لما أنّ ذلك من لواحق الجسميّة، وكذلك أو أنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدله.

السابع والأربعون: ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج لأنّ الدخول والخروج من لواحق الأجسام أيضاً فما ليس بجسم ولا جسمانيّ فهما مسلوبان عنه سلباً مطلقاً لا السلب المقابل للملكة.

الثامن والأربعون: كونه يخبر بلا لسان ولهوات لأنّ اللسان واللهوات من لواحق الأجسام الحيوانيّة المنزّه قدسه عنها، والسلب هيهنا كالذي قبله. والإخبار هو النوع الأكثر من الكلام ولذلك خصّه هنا بالذكر، وزعمت الأشعريّة أنّ الخبر هو أصل الكلام كلّه وإليه يرجع أنواعه كالأمر والنهي والاستفهام والتمنّي والترجّي وغيرها. ثمّ اختلف المتكلّمون في حقيقة الكلام فاتّفقت المعتزلة على أنّه المركّب من الحرف والصوت، وجمهور الأشعريّة على أنّ وراء الكلام اللسانيّ معنى قائم بالنفس يعبّر عنه بالكلام النفسانيّ ولفظ الكلام حقيقة فيه وفي اللسانيّ مجاز، ومنهم من جعله حقيقة في اللسانيّ مجاز في النفسانيّ، ومنهم من جعله مشتركاً فيهما فكون الله تعالى متكلّماً يعود إلى خلقه الكلام في جسم الشيء عند المعتزلة، وعند الأشعرية أنّه معنى قائم بذاته وهذه الأصوات والحروف المسموعة دلالات عليه. وسيفسّر عليه السلام معنى كلامه تعالى.

التاسع والأربعون: يسمع بلا خروق وأدوات: أي ليس سمعه بأداة هي الأذن والصماخات كما يسمع الإنسان لتنزهه تعالى عن الآلات الجسمانيّة،

وقد كان هذا البرهان كافياً في منع إطلاق السميع عليه تعالى لكن لمّا ورد الإذن الشرعيّ بإطلاقه عليه ولم يمكن حمله على ظاهره وحقيقته وجب صرفه إلى مجازه وهو العلم بالمسموعات إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب. إذ كان السمع من أسباب العلم فإذن كونه تعالى سميعاً يعود إلى علمه بالمسموعات.

الخمسون: يقول ولا يلفظ. وإطلاق لفظ القول عليه كإطلاق الكلام. وأمّا التلفّظ فلمّا كان عبارة عن إخراج الحرف من آلة النطق وهي اللسان والشفة لا جرم لم يصدق في حقّه لعدم الآلة هنالك وكان الشارع لم يأذن في إطلاقه عليه تعالى لما أنّ دلالته على الآلة المذكورة أقوى من الكلام والقول.

الحادي والخمسون: كونه يحفظ ولا يتحفّظ. وحفظه يعود إلى علمه بالأشياء، ولمّا كان المعروف من العادة أنّ الحفظ يكون بسبب التحفّظ وكان ذلك في حقّه تعالى محالاً لاستلزامه الآلات الجسمانيّة لا جرم احترز عنه. وقال بعض الشارحين: إنّما يريد بالحفظ أنّه يحفظ عباده ويحرسهم ولا يتحفّظ منهم: أي لا يحتاج إلى حراسة نفسه منهم. وهذا بعيد الإرادة هنا.

الثاني والخمسون: يريد ولا يضمر فإرادته تعالى تعود إلى اعتبار كونه تعالى عالماً بما في الفعل من الحكمة والمصلحة الذي هو مبدء فعله، ولا فرق في حقّه تعالى بين الإرادة والداعي، ولمّا كان المتعارف من الإرادة أنّها ميل القلب نحو ما يتصوّر كونه نافعاً ولذيذاً وذلك الميل من المضمرات المستكنّة في القلب لا جرم كان إطلاق الإرادة في حقّه يستلزم تصوّر الإضمار ولمّا تنزّه سبحانه عن الإضمار لا جرم احترز عنه في إطلاق المريد عليه تعالى فكان ذلك الاحتراز كالقرينة الصارفة للّفظ عن حقيقته إلى مجازه وهو الاعتبار المذكور.

الثالث والخمسون: كونه يحبّ ويرضى من غير رقّة. فالمحبّة منه تعالى إرادة هي مبدأ فعل مّا فمحبّته للعبد إرادته لثوابه وتكميله وما هو خير له، وأمّا من العبد فهي إرادة تقوى وتضعف بحسب تصوّر المنفعة واللذّة واعتقاد كمالها ونقصانها، ومحبّته لله هي إرادة طاعته، وأمّا الرضا فقريب من

المحبّة ويشبه أن يكون أعمّ منها أنّ كلّ محبّ راض عمّا أحبّه ولا ينعكس. فرضاه تعالى عن العبد يعود إلى علمه تعالى بموافقته لأمره وطاعته له، والمفهوم منه في حقّ العبد هو سكون نفسه بالنسبة إلى موافقة وملائمة عند تصوّر كونه موافقاً وملائماً، ولمّا كان الرضا والمحبّة من الإنسان لغيره يستلزم الرقّة القلبيّة له والانفعال النفسانيّ عن تصوّر المعنى الذي لأجله حصلت المحبّة والميل إليه والداعي الى الرضا عنه وكان الباري سبحانه منزّهاً عن الرقّة والانفعال لتنزّهه عن قوابلها لا جرم احترز بقوله: من غير رقّة.

الرابع والخمسون: ويبغض ويغضب من غير مشقّة. فالبغض منه تعالى للعبد يضادّ محبّته له ويعود إلى كراهته لثوابه، وكراهته يعود إلى علمه بعدم استحقاقه للثواب وأنّه لا مصلحة في ثوابه ويلزمها إرادة إهانته وتعذيبه، والبغض من العبد هو كراهته للغير وميل نفسه عنه لتصوّر كونه مضرّاً ومؤلماً ويلزم ذلك النفرة الطبعيّة منه وثوران القوّة الغضبيّة عليه وإرادة إهانته. وأمّا الغضب فيعود من الله تعالى إلى علمه بمخالفة أوامره وعدم طاعته له، والمفهوم منه في حقّ العبد ثوران النفس وحركة قوّتها الغضبيّة عن تصوّر المؤذي والضارّ لإرادة مقاومته ورفعه. ولمّا كان البغض والغضب يستلزمان ثوران دم القلب وكان ذي النفس يستلزم مشقّة وكلفة لا جرم احترز عنها في إطلاق لفظ البغض والغضب عليه فقال: من غير مشقّة. واعلم أنّ إطلاق لفظ المحبّة والرضا على ما ذكرناه من الاعتبارات في حقّه مجاز. إذ كانت حقيقة الرضا هي سكون النفس الإنسانيّة والمحبّة ميلها إلى النافع فإطلاقهما على العلم إطلاق لاسم اللازم على الملزوم، وكذلك إطلاق لفظي البغض والغضب في حقّه تعالى على علمه المخصوص.

الخامس والخمسون: يقول لما أراد كونه كن فيكون. فإرادته لكونه هو عمله بما في وجوده من الحكمة، وقوله: كن. إشارة إلى حكم قدرته الأزليّة عليه بالايجاد ووجوب الصدور عن تمام مؤثريّته، وقوله: فيكون. إشارة إلى وجوده. ودلّ على اللزوم وعدم التأخّر والتراخي بالفاء المقتضية للتعقيب بلا مهلة.

السادس والخمسون: لا بصوت يقرع: أي ليس بذي حاسّة للسمع فيقرعهاالصوت، وذلك أنّ الصوت كيفيّة يحدث في الهواء عن قلع أو قرع وقوعه لما يصل إليه من الصماخ أو جسم آخر هو وقع عليه بشدّة وعنف، وذلك حال تعرض الأجسام فلو كان له تعالى آلة سمع لكان جسماً لكن التالي باطل فالمقدّم كذلك.

السابع والخمسون: ولا بنداء يسمع: أي لمّا بيّن في القرينة الأولى أنّه لا سمع له يقرع بصوت بيّن في الثانية أنّه لا يخرج منه الصوت لأنّ النداء صوت مخصوص والصوت مستلزم المصوّت وهو جسم لما مرّ من استلزام الصوت القرع أو القلع المستلزمين الجسميّة.

وقوله: وإنّما كلامه تعالى. إلى قوله: كايناً.

فاعلم أنّ هذا الكلام ممّا استفادت المعتزلة منه كون كلامه تعالى محدثاً، وفيه تصريح بغير ما ذهبوا إليه. فمعنى قوله: فعل منه أنشأه: أي أوجده في لسان النبيّ. فأمّا قوله: ومثله. فأراد صوّره في لسان النبيّ وسوّى مثاله في ذهنه. وقال بعض الشارحين: مثله لجبرئيل في اللوح المحفوظ حتّى بلّغه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الرسل عليهم السلام ودلّ بقوله: لم يكن من قبل ذلك كائناً. على أنّه محدث مسبوق الوجود بالعدم، وأشار بقوله: ولو كان. إلى قوله: ثانياً، إلى برهان حدوثه وهو قياس استثنائيّ وتقريره: لو كان كلامه تعالى قديماً لكان كلامه إلها ثانياً لكن التالي باطل فالمقدم كذلك. فأمّا بيان الملازمة فلأنّه لو كان قديماً لكان إمّا واجب الوجود وإمّا ممكن الوجود. والتالي باطل لأنّه لو كان ممكناً مع أنّه موجود فى الأزل لكان وجوده مفتقراً إلى مؤثّر فذلك المؤثر إن كان غير ذاته فهو محال لوجهين:

أحدهما: أنّه يلزم افتقاره تعالى في تحصيل صفته إلى غيره فهو محال.

الثاني: أنّه يلزم أن يكون في الأزل مع الله غيره يكون مستنداً إليه في حصول تلك الصفة فيكون إلهاً ثانياً بل هو أولى بالإلهيّة هذا محال. وإن كان المؤثر في كلامه ذاته فهو محال أيضاً لأنّ المؤثّر واجب التقدم بالوجود على الأثر فالكلام إمّا أن يكون من صفات كماله أو لا يكون فإن كان الأول فتأثيره

فيه إن كان ـ وكلّ كمال له حاصلاً له بالفعل ـ فقد كان وصف الكلام حاصلاً له قبل أن كان حاصلاً هذا خلف. وإن كان تأثيره في حال ما هو خال عن صفة الكلام فقد كان خالياً عن صفة كماله فكان ناقصاً بذاته وهذا محال، وأمّا إن لم يكن الكلام من صفات كماله كان إثباته له في الأزل إثباتاً لصفة زائدة على الكمال والزيادة على الكمال نقصان. فتعيّن أنّه لو كان قديماً لكان واجب الوجود لذاته فكان إلهاً ثانياً، وأمّا بطلان التالى فلمّا بيّنا من كونه تعالى واحداً. فثبت بهذا الدليل الواضح أنّه لا يجوز أن يكون كلامه قديماً.

الثامن والخمسون: لا يقال. إلى قوله: لم يكن. إشارة إلى أنّه ليس بمحدث لأنّ كون الشيء بعد أن لم يكن هو معنى حدوثه.

وقوله: فتجرى عليه الصفات المحدثات.

فالفاء في جواب النفي لتقدير الشرط: أي لو صدق عليه أنّه محدث للحقته الصفات المحدثة وإلّا لكانت صفاته قديمة فكان الموصوف بها قديماً. هذا خلف. والتقدير لكن لحوق الصفات المحدثة له باطل فكونه محدثاً باطل، وأشار إلى بطلان التالي بقوله: ولا يكون بينها وبينه فصل. إلى قوله: والبديع. والتقدير أنّه لو لحقته الصفات المحدثات وجرت عليه على تقدير كونه محدثاً لكانت ذاته مساوية لها في الحدوث المستلزم للامكان المستلزم للحاجة إلى الصانع فلم يكن بينها وبينه فصل في ذلك، ولا له عليها فضل لاشتراكه معها في الحاجة.

وقوله: فيستوي. إلى قوله: المبتدع.

إشارة إلى مايلزم تلك المساواة من المحال. إذ كان استواء الصانع ومصنوعه ظاهر الفساد. وأصل البديع من الفعل ما لم يسبق فاعله إلى مثله، وسمّى الفعل الحسن بديعاً لمشابهته ما لم يسبق إليه في كونه محلّ التعجب منه، والمبدع هو فاعل البديع، والمصدر الإبداع. وقد عرفت معناه فيما قبل. وفي نسخة الرضى المبدع بفتح الدال، وهو البديع بالمعنى الذي ذكرناه، ويكون مراده بالبديع الصانع وهو فعيل بمعنى فاعل كقوله تعالى

﴿بديع السماوات والأرض﴾[1] وإذاً ثبت أنّه لا يجري عليه الأمور المحدثة ولواحق الحدوث من سبق العدم والتغيّر والإمكان والحاجة إلى المؤثّر وغير ذلك وإلّا يلزم المحال المذكور أوّلاً. والنسخة الاولى بخط الرضي ـ رضي الله عنه ـ.

التاسع والخمسون: كونه تعالى خلق الخلق. إلى قوله: غيره، وقد سبق بيانه في الخطبة الأولى، وهو تنزيه له عن صفات الصانعين من البشر فإنّ صنائعهم تحذو حذو أمثلة سبقت من غيرهم أو حصلت في أذهانهم.

الستّون: كونه لم يستعن على خلق ما خلق بأحد من خلقه وإلّا لكان ناقصاً بذاته مفتقراً إلى ما كان هو مفتقراً إليه وهو محال.

الحادي والستون: كونه أنشأ الأرض فأمسكها: أي أوجدها فقامت في حيّزها بمساك قدرته، ولمّا كان شأن من تمسك شيئاً ويحفظه من سائر الفاعلين لا يخلو عن كلفة ومشقّة في حفظه واشتغال بحفظه عن غيره من الأفعال نزّه حفظه تعالى لها عمّا يلزم حفظ غيره لما يحفظه من تلك الكلفة والاشتغال بحفظها.

الثاني والستّون: كونه أرساها: أي أثبتها في حيّزها على غير قرار اعتمدت عليه فأمسكها، وكذلك رفعه لها بغير دعائم؛ بل بحسب قدرته التامّة.

الثالث والستّون: كونه خصّها من الأود والاعوجاج: أي من الميل إلى أحد جوانب العالم عن المركز الحقيقيّ وذلك ممّا ثبت في موضعه من الحكمة.

الرابع والستّون: كونه منعها عن التهافت والانفراج: أي جعلها كرة واحدة ثابتة في حيّزها، ومنعها أن تتساقط قطعاً أو ينفرج بعضها عن بعض.

الخامس والستّون: كونه أرسى أوتادها: أي أثبتها فيها. وأوتادها: جبالها. وقد بيّنا في الخطبة الأولى معنى كونها أوتاداً لها.

---

(١) ٦ - ١٠١.

السادس والستّون: كونه ضرب أعدادها. وأراد بأعدادها ما أحاط بها من الجبال أو التي يحجز بين بقاعها وبلادها.

السابع والستّون: كونه استفاض عيونها. واستفاض بمعنى أفاض كما قال تعالى **﴿وفجّرنا الأرض عيونا﴾**(١) وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

الثامن والستّون: كونه خدّ أوديتها: أي شقّها وبيّن جبالها وتلالها.

وقوله: فلم يهن ما بناه ولا ضعف ما قوّاه.

بعد تعديد ما عدد من الآثار العظيمة إشارة الى كمال هذه المخلوقات وقوّتها ليبيّن عظمة الله سبحانه بالقياس اليها.

التاسع والستّون: كونه هو الظاهر عليها سلطانه وعظمته. فأشار بقوله: هو. إلى هويّته التي هي محض الوجود الحقّ الواجب، ولمّا لم يكن تعريف تلك الهوية إلاّ بالاعتبارات الخارجة عنها اشار الى تعريفها بكونه ظاهراً عليها: أي غالباً قاهراً لها، ولمّا كان الظهور يحتمل الظهور الحسيّ لا جرم قيّده بسلطانه وعظمته. إذ كان ظهوره عليها ليس ظهوراً مكانيّاً حسيّاً بل بمجرد ملكه واستيلاء قدرته وعظمة سلطانه.

السبعون: قوله: وهو الباطن لها: أي الداخل في بواطنها بعلمه، ولمّا كان البطون يحتمل الحسّي قيّده بعلمه تنزيهاً له عن سوء الأفهام وأحكام الأوهام. والضمائر في قوله: عليها ولها يعود إلى الأرض وما فيها ممّا بناه وسوّاه.

الحادي والسبعون: كونه عالياً على كلّ شيء: أي من الأرض وسائر مخلوقاته بها بجلاله وعزّته: فجلاله وعزّته بالنسبة إليها هو اعتبار كونه تعالى منزّهاً عن كلّ ما لها من الصفات المحدثة والكمالات المستفادة من الغير المستلزمة للنقصان الذاتيّ، ولمّا كانت هذه الاعتبارات التي تنزّه عنها في حضيض النقصان كان هو باعتبار تنزيهه عنها في أوج الكمال الأعلى فكان

---

(١) ٥٤ - ٥٤ - ١٢.

عالياً عليها بذلك الاعتبار ولأنّه تعالى خالقها وموجدها فعلوّه عليها بجلال سلطان، وعزّته عن خضوع الحاجة وذلّتها.

الثاني والسبعون: كونه لا يعجزه شيء منها طلبه. إلى قوله: فيسبقه، وذلك لكونه تعالى واجب الوجود تامّ العلم والقدرة لا نقصان فيه باعتبار، وكون كلّ ما عداه مفتقراً في وجوده وجميع أحوال وجوده إليه فلا جرم لم يتصوّر أن يعجزه شيء طلبه أو يمتنع عليه شيء بقوّة فيغلبه، أويفوته سريع بحركته فيسبقه لما يستلزمه ذلك العجز عن الحاجة والإمكان الممتنعين عليه.

الثالث والسبعون: وكذلك كونه لا يحتاج إلى ذي المال فيرزقه لمايستلزمه الحاجة من الإمكان. وكلّ ذلك نفي الأحوال البشريّة عنه.

الرابع والسبعون: قوله: خضعت له الأشياء. إلى قوله. لعظمته فخضوعها وذلّها يعود إلى دخولها في ذلّ الإمكان تحت سلطانه وانقيادها في أسر الحاجة إلى كمال قدرته، وبذلك الاعتبار لم يستطع الهرب من سلطانه للزوم الحاجة لذواتها إليه واستناد كمالاتها إلى وجوده. فهو النافع لها بإفاضة كمالاتها والضارّ لها بمنع ذلك.

فإن قلت: إنّ النفع لا يهرب منه ولا يمتنع فكيف ذكره هنا.

قلت: المراد منه سلب قدرته عليها على تقدير امتناعها منه، وهذا كما تقول لمن عجز عنك: إنّ فلاناً لا يقدر على نفع ولا ضرّ، ولأنّ النفع جاز أن يمتنع منه لأنفة واستغناء بالغير، ولا شيء من الموجودات يمتنع من سلطانه ونفعه باستغناء عنه وأنفة ونحوها.

الخامس والسبعون: كونه لا كفء له يكافئه: أي ليس له مثل فيقابله ويفعل بإزاء فعله، وقد علمت تنزيهه تعالى عن المثل، وكذلك لا نظير له فيساويه.

السادس والسبعون: هو المفنى لها. إلى قوله: كمفقودها. عرّف هويّته باعتبار كونه معدماً للأشياء بعد وجودها، وقد ورد في القرآن الكريم إشارات إلى ذلك كقوله تعالى **﴿يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتب كما بدأنا أوّل**

خلق نعيده﴾[1] ومعلوم أنّ الإعادة إنّما تكون بعد العدم، وقوله ﴿**إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت**﴾[2] وأمثالها. وقد أجمعت الأنبياء على ذلك، وعلم التصريح من دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه سيكون، وهو الذي عليه جمهور المتكلّمين والخلاف في جواز خراب العالم مع الحكماء فإنّهم اتّفقوا على أنّ الأجرام العلويّة والعقول والنفوس الملكيّة، وكذلك هيولى العالم العنصريّ وأجرام العناصر، وما ثبت قدمه امتنع عدمه لا لذاته بل لدوام علّة وجوده، وما عدا ذلك فهو حادث وليس كلّه ممّا يعاد بالاتّفاق؛ بل الخلاف في المعاد الإنساني البدني فأنكره بعضهم. والإسلاميون منهم قالوا: ليس للعقل في الحكم بوجوده أو لا وجوده مجال؛ بل إنّما بالسمع. هذا مع اتّفاقهم على القول بامتناع إعادة المعدوم. فإن أمكن الجمع بين القول بجواز المعاد الجسمانيّ مع القول بامتناع إعادة المعدوم فليكن على ما ذهب إليه أبو الحسين البصري من المعتزلة وهو قوله: إنّ الأجزاء تتشذب وتتفرق بحيث تخرج عن حدّ الانتفاع بها ولا تدخل في العدم الصرف. لكن في ذلك نظر لأنّ بدن زيد مثلاً ليس عبارة عن تلك الأجزاء المتشذّبة والمتفرّقة فقط فإنّ القول بذلك مكابرة للعقل بل عنها مع سائر الأعراض والتأليفات المخصوصة والأوضاع فإذا شذب البدن وتفرّق فلا بدّ أن يعدم تلك الأعراض وتفنى وحينئذ يلزم فناء البدن من حيث هو ذلك البدن فعند الإعادة إن أعيد بعينه وجب إعادة تلك الأعراض بعينها فلزمت إعادة المعدوم، وإن لم يعد بعينه عاد غيره فيكون الثواب والعقاب على غيره وذلك مكذّب للقرآن الكريم في قوله: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[3] اللهم إلّا أن يقال: إنّ الإنسان المثاب والمعاقب إنّما هو النفس الناطقة وهذا البدن كالآلة فإذا عدم لم يلزم عوده بعينه بل جاز عود مثله. لكن هذا إنّما يستقيم على مذهب الحكماء القائلين بالنفس الناطقة، وأمّا على رأي أبي الحسين البصري فلا، ومذهب أكثر المحقّقين من علماء الإسلام يؤول إلى هذا القول.

---

(١) ٢١ ـ ١٠٤.
(٢) ٨٢ ـ ٢.
(٣) ٦ ـ ١٦٤.

وقوله: وليس فناء الدنيا. إلى قوله: اختراعها.

رفع لما يعرض لبعض الأذهان من التعجّب بفناء هذا العالم بعد ابتداعه وخلقه بالتنبيه على حال إنشائه واختراعه: أي ليس صيرورة ما خلق إلى العدم بقدرته بعد الوجود بأعجب من صيرورته إلى الوجود بعد العدم عنها. إذ كانت كلّها ممكنة قابلة للوجود والعدم لذواتها؛ بل صيرورتها إلى الوجود المشتمل على أعاجيب الخلقة وأسرار الحكمة التي لا يهتدى لها ولا يقدر على شيء منها أعجب وأغرب من عدمها الذي لا كلفة فيه.

وقوله: وكيف لو اجتمع. إلى قوله: إفنائها.

تأكيد لنفي كون عدمها بعد وجودها أعجب من إيجادها بالتنبيه على عظم مخلوقاته تعالى ومكوّناته وما اشتملت عليه من أسرار الحكمة المنسوبة إلى قدرته. والمعنى وكيف يكون عدمها أعجب وفي إيجاده أضعف حيوان وأصغره ممّا خلق كالبعوضة من العجائب والغرائب والإعجاز ما يعجز عن تكوينه وإحداثه قدرة كلّ من تنسب إليه القدرة، وتقصر عن معرفة الطريق إلى إيجادها ألباب الألبّاء، ويتحيّر في كيفيّة خلقها حكمة الحكماء، ويقف دون علم ذلك ويتناهى عقول العقلاء، وترجع خاسئة حسيرة مقهورة معترفة بالعجز عن الاطّلاع على كنه صنعه في إنشائها مقرّة بالضعف عن إفنائها.

فإن قلت: كيف تقرّ العقول بالضعف عن إفناء البعوضة مع إمكان ذلك وسهولته؟.

قلت: إنّ العبد إذا نظر إلى نفسه بالنسبة إلى قدرة الصانع الأوّل ـ جلّت عظمته ـ وجد نفسه عاجزة عن كلّ شيء إلّا بإذن إلهيّ، وأنّه ليس له إلّا الإعداد لحدوث ما ينسب إليه من الآثار. فأمّا نفس وجود الأثر فمن واهب العقل ـ عزّ سلطانه ـ فالعبد العاقل لما قلناه يعترف بالضعف عن إيجاد البعوضة وإعدامها، وما هو أيسر من ذلك عند مقايسة نفسه إلى موجده وواهب كماله كما عرفت ذلك في موضعه، وأيضاً فإنّ الله سبحانه كما خلق للعبد قدرة على الفعل والترك والإيذاء والإضرار بغيره كذلك خلق للبعوضة قدرة على الامتناع والهرب من ضرره بالطيران وغيره بل أن تؤذيه ولا يتمكّن من

دفعها عن نفسه فكيف يستسهل العاقل إفناها من غير معونة صانعها له عليه.

وقوله: وإنّه سبحانه يعود. إلى قوله: الأمور.

إشارة إلى كونه تعالى باقياً أبداً فيبقى بعد فناء الأشياء وحده لا شيء معه منها كماكان قبل وجوده كذلك بريئاً عن لحوق الوقت والمكان والحيّز والزمان.

وقوله: يعود بعد.

إشعار بتغيّر من حالة سبقت إلى حالة لحقت، وهما يعودان إلى ما يعتبره أذهاننا له من حالة تقدّمه على وجودها وحالة تأخّره عنها بعد عدمها، وهما اعتباران ذهنيّان يلحقانه بالقياس إلى مخلوقاته.

وقوله: عدمت عند ذلك. إلى قوله: الساعات.

ظاهر لأنّ كلّ ذلك أجزاء للزمان الذي هو من لواحق الحركة التي هي من لواحق الجسم فيلزم من عدم الأجسام عدم عوارضه.

وقوله: فلا شيء. إلى قوله: الأمور.

أي لا شيء يبقى بعد فناء العالم إلّا هو، وذكر الواحد لبقائه كذلك، والقهّار باعتبار كونه قاهراً لها بالعدم والفناء، وكونه إليه مصير جميع الأمور فمعنى مصيرها إليه أخذه لها بعد هبته لوجودها.

وقوله: بلا قدرة. إلى قوله: فناؤها.

إشارة إلى أنّه لا قدرة لشيء منها على إيجاده نفسه، ولا على الامتناع من لحوق الفناء له.

وقوله: ولو قدرت. إلى قوله: بقائها.

استدلال بقياس شرطي متّصل على عدم قدرة شيء منها على الامتناع من الفناء، وإنّما خصّ الحكم بالاستدلال دون الأوّل لكون الأوّل ضروريّاً. وبيان الملازمة أنّ الفناء مهروب منه لكلّ موجود فإمكان الامتناع منه مستلزم للداعي إلى الامتناع المستلزم للامتناع منه المستلزم للبقاء، وأمّا بطلان

التالي فلمّا ثبت أنّه تعالى يفنيها فلزم أن لا يكون لها قدرة على الامتناع.

وقوله: لم يتكاءده. إلى قوله: خلفه.

ظاهر لأنّ المشقّة في الفعل وثقله إنّما يعرض لذي القدرة الضعيفة من الحيوان لنقصانها. وقدرته تعالى بريّة عن أنحاء النقصان لاستلزامه الإمكان والحاجة إلى الغير.

وقوله: ولم يكوّنها. إلى آخره.

إشارة إلى تعديد وجوه الأعراض المتعارفة للفاعلين في إيجاد ما يوجدونه وإعدامه. ونفي تلك الأعراض عن فعله في إيجاده ما أوجده وإعدامه ما أعدمه من الأشياء: أمّا الأعراض المتعلّقة بالإيجاد فهو إمّا جلب منفعة كتشديد السلطان وجمع الأموال والقينات وتكثير الجند والعدّة والازدياد في الملك بأخذ الحصون والقلاع ومكابرة الشريك في الملك كما يكابر الإنسان غيره ممّن يشاركه في الأموال والأولاد أو رفع مضرّة كالتخوّف من العدم والزوال فخلقها ليتحصّن بها من ذلك أو خوف النقصان فخلقها ليستكمل بها أو خوف الضعف عن مثل تكاثره فخلقها ليستعين بهما عليه أو خوف ضدّ يقاومه فأوجدها ليختزل منه ويدفع مضرّته أو لوحشة كانت له قبل إيجادها فأوجد ليدفع ضرر استيحاشه بالأنس بها، وكذلك الأعراض المتعلّقة بعدمها: إمّا إلى دفع المضرّة كرفع السأم اللاحق له من تصريفها وتدبيرها والثقل في شيء منها عليه والملال من طول بقائها فيدعوه ذلك الى افنائها، أو جلب المنفعة كالراحة الواصلة اليه فان جلب المنفعة ودفع المضرّة من لواحق الامكان الذي تنزّه قدسه عنه.

وقوله: لكنّه سبحانه. إلى قوله: لقدرته.

فتدبيرها بلطفه إشارة إلى إيجاده لها على وجه الحكمه والنظام الأتمّ الأكمل الذي ليس في الإمكان أن يكون جملتها على أتمّ منه ولا ألطف، وإمساكه لها بأمره قيامها في الوجود بحكم سلطانه، وإتقانها بقدرته إحكامها على وفق منفعتها وإن كان عن قدرته فعلى وفق علمه بوجوه الحكمة. كلّ ذلك بمحض الجود من غير غرض من الأغراض المذكورة تعود إليه.

وقوله: ثمّ يعيدها بعد الفناء.

تصريح بإعادة الأشياء بعد فنائها. وفناؤها إمّا عدمها كما هو مذهب من جوّز إعادة المعدوم، أو تشذّبها وتفرّقها وخروجها عن حدّ الانتفاع بها كما هو مذهب أبي الحسين البصريّ من المعتزلة.

وقوله: من غير حاجة. إلى آخره.

ذكر وجوه الأغراض الصالحة في الإعادة، والإشارة إلى نفيها عنه تعالى، وهو أيضاً كالحاجة إليها والاستعانة ببعضها على بعض، أو لانصراف من حال وحشة إلى حال استيناس. أو انصراف من حال جهل وعمى فيه إلى حال علم وبصيرة، وكذلك من فقر وحاجة إلى غنى وكثرة ومن ذلّ وضعة إلى عزّ وقدرة. وقد عرفت أنّ كلّ هذه الأغراض من باب دفع المضرّة المنزّه قدسه تعالى عنها، وقد بيّنا فيما سلف البرهان الاجماليّ على تنزيهه تعالى في أفعاله من الأغراض بل إيجاده لما يوجد لمحض الجود الإلهي الذي لا بخل فيه ولا منع من جهته. فهو الجواد المطلق والملك المطلق الذي يفيد ما ينبغي لا لغرض ويوجد ما يوجد لا لفائدة تعود إليه ولا غرض. وهو مذهب جمهور أهل السنّة والفلاسفة، والخلاف فيه مع المعتزلة.

فإن قلت: ظاهر كلامه عليه السلام مشعر بأنّ الدنيا كما تفنى تعاد، والذي وردت به الشريعة، وفيه الخلاف بين جمهور المتكلّمين والحكماء هو إعادة الأبدان البشريّة.

قلت: الضمير في قوله: تعيدها. سواء كان راجعاً إلى الدنيا أو إلى الأمور في قوله: مصير جميع الأمور. فإنّه مهمل كما يرجع إلى الكلّ جاز أن يرجع إلى البعض وهي الأبدان البشرية. قال بعضهم: إنّ للسالكين في هذا الكلام تأويلاً عقليّاً وإن جزموا بكون مراده عليه السلام هو ما ذكرناه من الظاهر فإنّهم قالوا يحتمل أن يشار بقوله: وإنّه يعود سبحانه. إلى قوله: الأمور. إلى حال العارف إذا حقّ له الوصول التامّ حتى غاب عن نفسه فلحظ جناب الحقّ سبحانه بعد حذف كلّ قيد دنياوي أو أخروي عن درجة الاعتبار فإنّه صحّ كما يفنى هو عن كلّ شيء كذلك يفنى عنه كلّ شيء حتى نفسه فلا يبقى بعد فنائها عنه إلّا وجه الله ذو الجلال والإكرام فكما كانت الأشياء عند اعتبار

ذواتها غير مستحقّة للوجود ولواحقه كذلك يكون عند حذفها عن درجة الاعتبار وملاحظة جلال الواحد القهّار ليس إلّا هو.

وقوله: ثمّ يعيدها بعد الفناء.

فدلّ عودها إلى اعتبار أذهان العارفين لها عند عروجهم من الجناب المقدّس إلى الجنبة السافلة واشتغالهم بمصالح أبدانهم. والكلّ منسوب إلى تصريف قدرته تعالى بحسب استعداد الأذهان لقبولها وحذفها. وقد علمت من بيانها لهذه الخطبة صدق كلام السيّد الرضى ـ رضي الله عنه ـ في مدحها حيث قال: وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه غيرها. فإنّها بالغة في علم التوحيد كاملة في علم التنزيه والتقديس لجلال الواحد الحقّ ـ جلّت عظمته ـ وبالله التوفيق والعصمة.

٢٢٩ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

يختص بذكر الملاحم:

أَلَا بِأَبِي وَأُمِّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ، أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ، وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ، أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وَصْلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ.

ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ، ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الْمُعْطِي، ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ، وَذٰلِكَ إِذَا عَضَّكُمُ الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ، مَا أَطْوَلَ هٰذَا الْعَنَاءَ، وَأَبْعَدَ هٰذَا الرَّجَاءَ.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هٰذِهِ الْأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلَا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ، وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا، فَقَدْ ـ لَعَمْرِي ـ يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ.

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ لِيَسْتَضِيءَ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا؛ فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

أقول: أحرجه: ألجأه وضيّق عليه، وتصدّعوا: تفرّقوا. وغبّ كلّ شيء: عاقبته. وفور النار: تلهّبها وشدّة حرّها. وأمطت عن كذا ومطت: تنحيّت عنه. والسنن: القصد، والاقتحام: الدخول في الشيء بشدّة

فقوله: بأبي وأمي. تسمّى البأبأة، والجار والمجرور في تقدير خبر المبتدء وهو قوله: هم. وقد سبقت الإشارة إلى مثله في قوله مخاطباً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند توليه غسله، والضمير إشارة إلى أولياء الله فيما يستقبل من الزمان بالنسبة إلى زمانه عليه السلام وقالت الشيعة: إنّه أراد الأئمة من ولده عليهم السلام .

وقوله: أسماؤهم في السماء معروفة.

إشارة إلى علوّ درجتهم في الملإ الأعلى وإثبات أسمائهم وصفاتهم الفاضلة في ديوان الصدّيقين، وفي الأرض مجهولون بين أهل الدنيا الذين يرون أنه ليس وراءها كمال. ومن سيماء الصالحين بمجرى العادة القشف والإعراض عن الدنيا وذلك يستلزم قلّة مخالطة أهلها ومكاثرتهم وهو مستلزم لجهلهم بهم وعدم معرفتهم لهم. ثمّ شرع في التنبيه على الاحوال الرديئة المستقبلة المضادّة لمصالح العالم التي يجمعها سوء التدبّر وتفرّق الكلمة وهي إدبار ما أقبل من أمورهم وانقطاع ما اتصل من وصلهم وأسبابهم.

والوصل: جمع وصلة وهي الانتظامات الحاصلة لأسبابهم في المعاش والمعاد بوجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتدبيره. ثمّ استعمال صغارهم وأراذلهم فإنّه من جملة أسباب الفساد، ومن أسباب صلاح العالم استعمال أهل الشرف وأكابر الناس على الأعمال، ومن كلامه عليه السلام في ذلك قوله لمالك الأشتر في عهده إليه يشير إلى العمّال: وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدّمة فإنّهم أكرم أخلاقاً وأصحّ أعراضاً وأقلّ في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً. وصغار الناس مظنّة أضداد الأمور المذكورة وبسببها يكون خراب العالم وفساد نظامه. ثمّ أشار إلى أوقاتها وعلامات وقوعها:

فمنها: حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون وأقلّ عنده مشقّة من المشقّة الحاصلة في اكتساب درهم حلال. وذلك لأنّ المكاسب حينئذ تكون قد اختلطت وغلب الحرام الحلال فيها، وأراد بقوله: من الدرهم: أي من كسب الدرهم فحذف المضاف.

ومنها: حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي، وذلك لأنّ أكثر من يعطي حينئذ ويتصدّق يكون ماله مشوباً بالحرام فيقلّ أجره، ولأنّ أكثرهم يعطي ويقصد بإعطائه الرئاء والسمعة أو لهوى نفسه أو لخطرة من خطرات وسواسه من غير خلوص لله سبحانه في ذلك، وأمّا المعطى فقد يكون فقيراً مستحقاً للزكاة ذا عيال لا يلزمه أن يبحث عن أصل ما يعطاه فإذا أخذه لسدّ خلّته كان في ذلك أعظم أجراً ممّن يعطيه، أو لأنّ المعطي قد يكون أكثر ما ينفق ماله في غير طاعة له في الوجوه المحظورة فإذا أخذ الفقير منه على وجه الصدقة فوّت على المعطي صرف ماله في تلك الوجوه فكان للفقير بذلك المنّة عليه. إذ كان سبباً في منعه عن صرف ماله فيما لا ينبغي فكان أعظم أجراً منه.

ومنها: حيث يسكرون من غير شراب. فاستعار وصف السكر لهم باعتبار غفلتهم عمّا ينبغي لهم اللازمة عن استغراقهم في اللذّات الحاضرة كما يلزم السكر الغفلة عن المصالح، وقرينة الاستعارة قوله: من غير شراب بل من النعمة فإنّ السكر حقيقة إنّما يكون عن الشراب.

ومنها: حيث يحلفون من غير اضطرار إلى اليمين بل غفلة عن عظمة الله سبحانه حتّى يتوصّلوا باليمين به إلى أخسّ المطالب.

ومنها: حيث يكذبون من غير إحراج: أي من غير أن يلجئهم إلى الكذب ضرورة، بل يصير الكذب ملكة وخلقا.

ومنها: إذا عضّكم البلاء، واستعار لفظ العضّ لإيلام البلاء الذي ينزل بقلوبهم وشبّهه بعضّ القتب لغارب البعير، ووجه المشابهة هو شدّة الإيلام وهذا الشبه هو وجه استعارة. العضّ للبلاء.

وقوله: ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء.

كلام منقطع عمّا قبله هو عادة الرضي - رضي الله عنه - في التقاط الوصول وإلحاق بعضها ببعض. ووجدت هذا الفصل بخطّه في حاشية نسخة الأصل. وظاهره يقتضي أنّه ذكر فيما كان متّصلاً بالكلام ما ينال شيعته من البؤس والقنوط ومشقّة انتظار الفرج. وأنّ قوله: ما أطول. إلى قوله: الرجاء. كلام شيعته. فعلى هذا يكون المعنى أنّهم يصابون بالبلاء حتى يقولوا: ما أطول التعب الذي نحن فيه وما أبعد رجاءنا للخلاص منه بقيام القائم المنتظر. ويحتمل أن يكون الكلام متّصلاً، ويكون قوله: ما أطول هذا العناء. كلاماً مستأنفاً في معنى التوبيخ لهم على إعراضهم عنه وإقبالهم على الدنيا وإتعابهم أنفسهم في طلبها. والتنفير لهم عنها بذكر طول العناء في طلبهم وبعد الرجاء لما يرجى منها: أي ما أطول هذا العناء اللاحق لكم في طلب الدنيا وما أبعد هذا الرجاء الذي يرجونه منها، وظاهر أنّ متاعب الدنيا لطالبها أطول المتاعب ومطالبها لراحتها أبعد المطالب كما قال عليه السلام من قبل: من ساعاها فاتته وكما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من جعل الدنيا أكبر همه فرّق الله عليه همّه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته منها إلّا ما كتب له. وهذا الكلام يقتضي أنّ المتجرّد لطلب الدنيا لا يزال ملاحظاً لفقره مستحضراً له فهو حامل له على التعب في تحصليها والكدح لها، ويحتمل أن يريد بالعناء المشار إليه عناؤه في جذبهم إلى الله ودعوته لهم إلى الآخرة في أكثر أوقاته فإنّهم لا يرجعون إلى دعوته ولا يتّفقون على كلمته، وظاهر أنّه عناء طويل وتعب عظيم. وبالرجاء المشار إليه رجاؤه لصلاحهم واستبعده ثمّ أيّد بهم. واستعار لفظ الأزمّة للآراء الفاسدة المتّبعة والأهواء القائدة لهم إلى المئاثم. ووجه المشابهة كونها قائدة لهم كما تقود الأزمّة الجمال، ولفظ الالقاء للإعراض عن تلك الآراء الباطلة وترك العمل لها. ولفظ الظهور لأنفسهم، ولفظ الأثقال للمعقول من أثقال الذنوب، ووجه المشابهة الأولى كونها حاملة لأثقال الخطايا والأوزار كما تحمل الظهور الأثقال المحسوسة كما قال تعالى **﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾**[1] وقوله **﴿ولتحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع**

---

(١) ٦ - ٣١.

أثقالهم﴾[1] ووجه الاستعارة الثانية أنّ الملكات الرديئة الحاصلة من اقتراف المئاثم تثقل النفوس عن النهوض إلى حظائر القدس ومنازل الأبرار كما تثقّل الأثقال المحسوسة الظهور الحاملة لها. ولمّا استعار لفظ الإلقاء والأزمّة اللذين من شأنهما أن يكونا باليد وفي اليد رشّح بذكر الأيدي فقال: من أيديكم. والحاصل أنّه أمرهم بترك الآراء الفاسدة ونهاهم عن متابعتها، ونبّه على وجوب تركها بأنّهم إذا ألزموها وعملوا على وفقها قادتهم إلى حمل أثقال الخطايا. ثمّ أردف ذلك بالنهي عن التفرّق عنه بعد تقديم النهي عن اتّباع الآراء الفاسدة المستلزمة للهلاك تنبيهاً على أنّ آراءهم في التصدّع عنه من تلك الآراء غير المحمودة.

وقوله: فتذمّوا غبّ فعالكم.

تنفير عن التفرّق عنه بذكر ما يلزمه من العاقبة المذمومة، وهي غلبة العدوّ عليهم واستيلاءه على أحوالهم وتعوّضهم عن عزّتهم ذلّاً، ورخائهم ونعمتهم بؤساً ونقمةً. والفاء هي التي في جواب النهي: أي إن تصدّعتم عن سلطانكم ذممتم غبّ فعالكم. ثمّ أردف النهي عن التفرّق عنه بالنهي عن اقتحام ما استقبلوا من الفتنة المنتظرة تشبيهاً على أنّ التفرّق عنه سبب للدخول في نار الفتنة، وتنفيراً عن مخالفته بكونها اقتحاماً لنار الفتنة وتسرّعاً إلى دخولها، ولفظ النار مستعار لأحوال الفتنة من الحروب والقتل والظلم، ووجه المشابهة كونها مستلزمة للأذى كالنار. ووصف الاقتحام لمخالفته والتفرّق عنه، ووجه الاستعارة إسراع تفرّقهم عنه إلى الوقوع في الفتنة كإسراع المقتحم. ورشّح باستعارة النار بالفور مبالغة في التنفير. ثمّ أمرهم بالنهي عن قصدها وطريقها وتخلية قصد السبيل لها: أي خلّوها لقصد سبيلها ولا تتعرضوا لها وتقتحموها فتكونوا حطباً لنارها.

ثمّ أقسم ليهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم. وذلك ظاهر الصدق، وهو من كراماته عليه السلام وإخباره عمّا سيكون فإنّ الدائرة في دولة بني أميّة كانت على من لزم دينه واشتغل بعبادة ربّه دون من وافقهم على

(1) ٣٠ - ١٢.

أباطيلهم وأجاب دعوتهم وتقرّب إلى قلوبهم بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وظلم العباد كما تقف عليه من أخبارهم في قتل كثير من أولياء الله وذرّية رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته ـ رضي الله عنهم ـ وتقريبهم للمنافقين وتوليتهم الأعمال. واعلم أنّه ليس مراده أنّه يهلك فيها كلّ مؤمن ولا يسلم فيها إلّا غير مسلم؛ بل القضيّتان مهملتان. والغرض منهما أنّ أكثر من يهلك فيها المؤمنون وأكثر من سلم فيها المنافقون ومن ليس له قوّة في الإسلام. ولفظ اللهب ترشيح لاستعارة لفظ النار. ثمّ مثّل نفسه بينهم بالسراج في الظلمة. وأشار إلى وجه مشابهته للسراج بقوله: فيستضيء به من ولجها. وتقديره أنّ الطالبين للهداية منه عليه السلام والمتّبعين له يستضيئون بنور علومه وهدايته إلى الطريق الأرشد كما يهتدي السالكون في الظلمة بالسراج. وهذا التمثيل يستلزم تشبيه أحوالهم بالظلمة ونسبتهم بالمغمورين فيها لولا وجوده عليه السلام فيهم.

وقد علمت في المقدّمات حقيقة التمثيل. ثمّ لمّا قدّم فضيلته في التمثيل المذكور أردفه أمرهم بسماع قوله، وأن يحضروا قلوبهم لفهم ما بلغت إليهم من الحكمة والموعظة الحسنة كما هو المعلوم من حال الخطيب. واستعار لفظ الآذان هنا للقلوب. ووجه الاستعارة أنّ الأذن لمّا كانت مدركاً للأقوال أشبهتها أفهام القلوب المدركة لأقواله، وطلب إحضارها إذ كان هو المنتفع به دون إحضار الآذان المحسوسة. وظاهر أنّ إحضار العقول وتوجّهها إلى الفكر في المسموع مستلزم لحصول الفهم. وبالله التوفيق.

٢٣٠ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أُوصِيكُمْ ـ أَيُّهَا النَّاسُ ـ بِتَقْوَى ٱللهِ، وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلَائِهِ إِلَيْكُمْ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ، وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الْمَوتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ

فِيمَنْ لَيسَ يُمْهِلُكُمْ؟! فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ! فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً، أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ آنْتَقَلُوا، لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ آنْتِقَالاً، وَلاَ فِي حَسَنَةٍ يَسْتَطِيعُونَ آزْدِيَاداً! أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ. فَسَابِقُوا ـ رَحِمَكُمُ آللهُ ـ إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رُغِّبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِليهَا؛ وَآسْتَتِمُّوا نِعَمَ آللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ؛ فَإِنَّ غَداً مِنَ اليَوْمِ قَرِيبٌ، مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشُّهُورِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

أقول: أعورتّم: أبديتم عوارتكم. والعورة: السوءة وكلّ ما يستحيى منه. والفصل يشتمل على الوصيّة بأمور:

أوّلها: تقوى الله تعالى فإنّها العمدة الكبرى فيما يوصى به، ثمّ بكثرة حمده تعالى على آلائه إليهم ونعمائه عليهم وبلائه لديهم. وقد علمت معنى بلائه وأنّه يكون بالخير والشرّ كما قال تعالى ﴿**ونبلوكم بالشّر والخير فتنة**﴾(1) وأردف ذلك بتقرير تخصيصهم بنعمته تعالى عليهم وتذكيرهم برحمته. والرحمة كما يراد بها صفة الله تعالى كذلك يراد بها آثاره الحسنة الخيريّة كما هو مراده هنا في حقّ عباده. وأتى بلفظ كم للتكثير. ثمّ أردفه بذكر ضروب الرحمة والنعمة فمنها ستره عليهم حيث مجاهرتهم له بالمعصية التي ينبغي أن يستحيوا منها وموافقتهم لها بمرأى منه ومسمع. ومنها إمهالهم أن يبادرهم بالنقمة ويعاجلهم بالعقوبة حيث تعرّضوا لأخذه بارتكاب مناهيه ومخالفة أوامره.

الثاني: ممّا أوصاهم به ذكر الموت وإقلال الغفلة عنه. وذلك لما يستلزم ذكره من الانزجار عن المعاصي، وذكر المعاد إلى الله سبحانه ووعده

---

(1) ٢١ ـ ٣٦.

ووعيده، والرغبة عن الدنيا وتنقيص لذّاتها كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : أكثروا من ذكر هادم اللذّات. وإنّما استلزم ذكره ذلك لكونه ممّا يساعد العقل فيه الوهم على ضرورة وقوعه مع مساعدته على ما فيه من المشقّة الشاقّة. ثمّ استفهمهم عن غفلتهم عنه وطمعهم فيه مع كونه لا يغفلهم ولا يمهلهم استفهام توبيخ على ذلك. ولأجل ما فيه من شدّة الاعتبار قال: فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم. إلى قوله: فصرعتهم. وفي هذا القول زيادة موعظة على ذكر الموت وهي شرح أحوال من عاينوه من الموتى. وذكر منها أحوالاً:

أحدها: كيفيّة حملهم إلى قبورهم غير راكبين مع كونهم في صورة ركوب منفور عنه.

الثانية: إنزالهم إلى القبور على غير عادة النزول المتعارف المقصود فكأنّهم في تلك الحال مع طول مددهم في الدنيا وعمارتهم لها وركونهم إليها لم يكونوا لها عمّاراً وكأن الآخرة لم تزل داراً. ووجه التشبيه الأوّل انقطاعهم عنها بالكلّيّة وعدم خيرهم فيها فأشبهوا لذلك من لم يكن فيها. ووجه الثاني كون الآخرة هي مستقرّهم الدائم الثابت الذي لا معدل عنه فأشبهت في ذلك المنزل الذي لم يزل له داراً.

الثالثة: ايحاشهم ما كانوا يوطنون من منازل الدنيا ومسالكها.

الرابعة: ايطانهم ما كانوا يوحشون من القبور التي هي أوّل منازل الآخرة.

الخامسة: اشتغالهم بما فارقوا. وذلك أنّ النفوس الراكنة إلى الدنيا العاشقة لها المقبلة على الاشتغال بلذّاتها يتمكّن في جواهرها ذلك العشق لها وتصير محبّتها ملكة وخلقاً فيحصل لها بعد المفارقة لما أحبّته من العذاب به والشقا الأشقى بالنزوع إليه وعدم التمكّن من الحصول عليه أعظم شغل وأقوى شاغل وأصعب بلاء هائل بل تذهل فيه كلّ مرضعة عمّا أرضعت وتضع فيه كلّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب

الله شديد.

السادسة: إضاعتهم ما إليه انتقلوا وهي دار الآخرة. ومعنى إضاعتهم لها تركهم الأسباب الموصلة إلى ثوابها والمبعّدة من عقابها.

السابعة: كونهم لا يستطيعون الانتقال عمّا حصلوا عليه من الأفعال القبيحة التي ألزمتهم العذاب وأكسبت نفوسهم ملكات السوء. وذلك ظاهر. إذ الانتقال عن ذلك لا يمكن إلّا في دار العمل وهي الدنيا.

الثامنة: وكذلك لا من حسن يستطيعون ازدياداً: أي من الأعمال الحسنة الموجبة للملكات الخيريّة والثواب الدائم كما قال تعالى حكاية عنهم ﴿**قال ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ إنّها**﴾(1) الآية.

التاسعة: أنّهم أنسوا بالدنيا حتى غرّتهم.

العاشرة: كونهم وثقوا بها حتى صرعتهم. والسبب في الاغترار بها وغرورها هم حصول لذّاتها المحسوسة مع قربهم من المحسوس وهو مستلزم للأنس بها المستلزم للغرور بها والغفلة عمّا وراءها وهو مستلزم للوثوق وهو مستلزم لصرعتهم في مهاوي الهلاك حيث لا يقال عثرة ولا ينفع ندامة.

واعلم أنّ ذكر الموت وإن كان يستلزم الاتّعاظ والانزجار إلّا أنّ شرح الأحوال التي تعرض للإنسان في موته أبلغ في ذلك لما أنّ كلّ حال فيها منفور. عنها طبعاً وإن كانت إنّما تحصل النفرة عنها لكونها حالة تعرض للميّت والمقرون بالمؤلم والمكروه مكروه ومؤلم ومنفور عنه طبعاً.

الثالث: ممّا أمرهم به على طريق الوصيّة أن يسابقوا إلى منازلهم التي أمروا أن يعمّروها والتي رغبّوا فيها ودعوا إليها وهي منازل الجنّة ومراتب الأبرار فيها. وعمارتها بالأعمال الصالحة الموافقة لمقتضى النواميس الإلهيّة وتحصيل الكمالات النفسانيّة عنها. والمعنى ليسابق بعضكم بعضاً إلى منازلكم ومراتب درجاتكم من الجنّة وعمارتها بتحصيل الكمالات النفسانيّة وموافقة الشرع الإلهيّة. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من**

---

(1) ٢٣ ـ ١٠١.

ربّكم وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتّقين﴾[1] والترغيب فيها لقوله تعالى ﴿وللدار الآخرة خير للّذين يتّقون أفلا يعقلون﴾[2] ونحوه.

الرابعة: ممّا أمرهم به الصبر على طاعة الله وعلى مجانبة المعصية. ورغّب بكونه سبباً يستتم به نعمة الله عليهم. ولمّا كان استلزامه لها كالثمرة له وكانت ثمرة الصبر حلاوة قدّمها ليحلو الصبر بذكرها.

وقوله: فإن غدا من اليوم قريب.

تخويف من الساعة وقربها. ولم يرد بغد ولا اليوم حقيقتهما بل أراد بغد القيامة وباليوم مدّة الحياة كقوله فيما سبق: ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق. وهو يجري مجرى المثل كقولهم: غد ما غدا، قرب اليوم من غد.

وقوله: ما أسرع الساعات في اليوم. إلى آخره.

بيان لقرب الغد الذي كنّى به عن القيامة من اليوم فإنّ الساعات سريعة الإتيان والإنقضاء. وسرعتهما مستلزم لسرعة مجيء اليوم وانقضائه. وسرعتهما مستلزم لسرعة مجيء الشهر وانقضائه المستلزمين لسرعة مجيء السنة وانقضائها المستلزمين لسرعة انقضاء عمر العاملين فيه لكنّ انقضاؤه بالقيامة. فإذن الساعات مستلزمة لسرعة انقضاء العمر وقرب غده من يومه. وأتى في الكلّ بلفظ التعجّب تأكيداً لبيان تلك السرعة. وهو كلام شريف بالغ في الفصاحة والموعظة. وبالله التوفيق.

٢٣١ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

فَمِنَ ٱلإيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي ٱلْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَ بَيْنَ ٱلْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ إلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ، فَإذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ ٱلْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَقَعُ حَدُّ ٱلْبَرَاءَةِ. وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا ٱلأَوَّلِ. مَا كَانَ للهِ فِي أَهْلِ ٱلأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسَرِّ ٱلأُمَّةِ ومُعْلَنِهَا، لَا يَقَعُ إسْمُ ٱلْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إلاَّ بِمَعْرِفَةِ ٱلْحُجَّةِ فِي ٱلأَرْضِ؛ فَمَنْ عَرَفَهَا

---

(١) ٣ ـ ١٢٨.
(٢) ٦ ـ ٣٢.

وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ، وَلَا يَقَعُ إسْمُ الاِسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاهَا قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي! فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجلِهَا فِتْنَةٌ تَطأُ فِي خِطَامِهَا، وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا.

أقول: العواريُّ بالتشديد: جمع عارية قيل: كأنّها منسوبة إلى العار. إذ في طلبها عار. والبراءة: التبري. وشغرت البلدة: إذا خلت عن مدبّرها.

وفي الفصل مسائل:

الأولى: قوله: فمن الإيمان إلى قوله: أجل معلوم. قسمة للأيمان إلى قسمين، ووجه الحصر فيهما أنَّ الإيمان لمّا كان عبارة عن التصديق بوجود الصانع سبحانه وما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، والاعتراف بصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به. فتلك الاعتقادات إن بلغت حدّ الملكات في النفوس فهي الإيمان الثابت المستقرّ في القلب، وإن لم يبلغ حدّ الملكة بل كانت بعد حالات في معرض التغيّر والانتقال فهي العواري المتزلزلة. واستعار لها لفظ العواري باعتبار كونها في معرض الزوال كما أنّ العواري في معرض الاسترجاع والردّ. وكنّى بكونها بين القلوب والصدور عن كونها غير مستقرّة في القلوب ولا متمكّنة من جواهر النفوس، وقال بعض الشارحين: أراد أنّ من الإيمان ما يكون على سبيل الإخلاص ومنه ما يكون على سبيل النفاق.

وقوله: إلى أجل معلوم.

ترشيح لاستعارة العواري. إذ كانت من شأنها أن تستعار إلى وقت معلوم ثمّ ترد فكذلك ما كان بمعرض الزوال والتغيّر من الإيمان. وهذه القسمة إلى هذين القسمين هي الموجودة في نسخة الرضي بخطّه وفي نسخ

كثير من الشارحين ونسخ كثيرة معتبرة، ونقل الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد ـ رحمه الله ـ في النسخة التي شرح الكتاب عليها ثلاثة أقسام هكذا: فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقرّاً في القلوب، ومنه ما يكون عواري في القلوب، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم. ثمّ قال في بيانها ما هذه خلاصته: إنّ الإيمان إمّا أن يكون ثابتاً مستقرّاً في القلوب بالبرهان وهو الإيمان الحقيقي، أو ليس بثابت بالبرهان بل بالدليل الجدليّ كإيمان كثير ممّن لم تحقّق العلوم العقليّة ويعتقد ما يعتقده من أقيسة جدليّة لا تبلغ درجة البرهان وقد سمّاه عليه السلام عواري في القلوب: أي أنّه وإن كان في القلب الذي هو محلّ الإيمان الحقيقي إلّا أنّ حكمه حكم العارية في البيت فإنّها بعرضة الخروج منه، وإمّا أن لا يكون مستنداً إلى برهان ولا إلى قياس جدليّ بل على سبيل التقليد وحسن الظنّ بالأسلاف أو بإمام يحسن الظنّ به وقد جعله عليه السلام عواري بين القلوب والصدور لأنّه دون الثاني فلم يجعله حالاً في القلب لكونه أضعف ممّا قبله وأقرب إلى الزوال. ثمّ ردّ قوله: إلى أجل معلوم. إلى القسمين الأخيرين لأنّ من ثبت إيمانه بالقياس الجدلي قد يبلغ إلى درجة البرهان إذا أنعم النظر ورتّب المقدّمات اليقينيّة ترتيباً منتجاً، وقد يضعف مقدّماته في نظره فينحطّ إلى درجة المقلّد فيكون إيمان كلّ منهما إلى أجل معلوم لكونه في معرض الزوال. وأقول: إن صحّت هذه الرواية فالمعنى يعود إلى ما قلناه من القسمة فإنّ العلم بما يستلزمه البرهان أو غيره من الإيمان إن بلغ إلى حدّ الملكة فهو الثابت المستقرّ، وإلّا فهو العارية. والذي أراه أنّ القسم الثاني تكرار وقع من قلم الناسخ سهواً. والله أعلم.

الثانية: قوله: فإذا كانت لكم براءة. إلى قوله: حدّ البراءة. معناه أنّكم إذا أردتم التبرّي من أحد من أهل الكبائر فقفوه: أي اجعلوه موقوفاً إلى حال الموت ولا تسارعوا إلى البراءة منه قبل الموت فإنّ أشدّ الكبائر وأعظمها الكفر وجائز من الكافر أن يسلم فإذا بلغ منتهى الحياة وحدّها ولم يقلع عن كبيرته فذلك الحدّ هو حدّ البراءة الذي يجوز أن يوقعوها معه. إذ ليس بعد الموت حالة ترجى وتنتظر. قال بعض الشارحين: والبراءة التي أشار عليه السلام إليها هي البراءة المطلقة لا كلّ براءة، إذ يجوز لنا أن نبرء من الفاسق وصاحب الكبيرة

في حياته براءة مشروطة: أي ما دام مصرّاً على كبيرته.

الثالثة: قوله: والهجرة قائمة على حدّها الأوّل. لمّا كانت حقيقة الهجرة ترك منزل إلى منزل آخر لم تكن تخصيصها عرفاً بهجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعه وهاجر إليه من مكّة إلى المدينة مخرجاً لها عن حقيقتها وحدّها اللغويّ. إذ كان أيضاً كلّ من ترك منزله إلى منزل آخر مهاجراً. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّ مراده عليه السلام من بقاء الهجرة على حدّها بقاء صدقها على من هاجر إليه وإلى الأئمة من أهل بيته في طلب دين الله وتعرّف كيفيّة السلوك لصراطه المستقيم كصدقها على من هاجر إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وفي معناها ترك الباطل إلى الحقّ. وبيان هذا الحكم بالمنقول والمعقول: أمّا المنقول فمن وجهين:

أحدهما: قوله تعالى ﴿**ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعةً**﴾ فقد سمّى من فارق وطنه وعشيرته في طلب دين الله وطاعته مهاجراً. وقد علمت في أصول الفقه أنّ من للعموم فوجب أن يكون كلّ من سافر لطلب دين الله من معادنه مهاجراً.

الثاني: قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: المهاجر من هاجر ما حرّم الله عليه. وظاهر أنّ من هاجر معصية الأئمّة إلى طاعتهم والاقتداء بهم فقد هاجر ما حرّم الله عليه فكان اسم الهجرة صادقاً عليه.

وأمّا المعقول فلأنّ المفارق لوطنه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مهاجر فوجب أن يكون المفارق لوطنه إلى من يقوم مقامه من ذريّته الطاهرين مهاجراً لصدق حدّ الهجرة في الموضعين، ولأنّ المقصود من الهجرة ليس إلّا اقتباس الدين وتعرّف كيفيّة سبيل الله. وهذا المقصود حاصل ممّن يقوم مقام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الأئمّة الطاهرين عليهم السلام بحيث لا فرق إلّا النبوّة والإمامة. ولا مدخل لأحد هذين الوصفين في تخصيص مسمّى الهجرة بمن قصد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون من قصد الأئمّة فوجب عموم صدقه على من قصدهم.

فإن قلت: هذا معارض بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: لا هجرة بعد الفتح حتّى شفّع عمّه العبّاس في نعيم بن مسعود الأشجعى أن يستثناه فاستثناه.

قلت: يحمل ذلك على أنّه لا هجرة من مكّة بعد فتحها إلى المدينة توفيقاً بين الدليلين. وسلب الخاصّ لا يستلزم سلب العامّ. فاعلم أنّ فائدة هذا القول الدعوة إلى الدين واقتباسه منه ومن أهل بيته عليه‌السلام بذكر الهجرة، والتنبّه بها وما يستلزمه من الفضيلة على أنّ التارك لأهله ووطنه إليهم طلباً للدين منهم يلحق بالمهاجرين الأوّلين في مراتبهم وثوابهم.

الرابعة: قوله: ما كان في الأرض. إلى قوله: ومعانيها. قال قطب الدين الراوندى ـ رحمه الله ـ ما هيهنا نافية: أي لم يكن لله في أهل الأرض ممّن أسرّ دينه أو أعلنه وأظهره حاجة. ومن هنا لبيان الجنس. وأنكر الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد كون ما نافيه. وقال: يلزم منه كون الكلام منقطعاً بين كلامين متواصلين وجعلها هو بمعنى المدّة: أي والهجرة قائمة على حدّها ما دام لله في أهل الأرض ممّن أسرّ دينه أو أعلنه حاجة: أي ما دامت العبادة مطلوبة لله تعالى من أهل الأرض بالتكليف وهو كقولك في الدعاء: اللّهمّ أحيني ما كانت الحياة خيراً لي.

ويكون لفظ الحاجة مستعاراً في حقّه تعالى باعتبار طلبه للعبادة بالأوامر وغيرها كطلب ذي الحاجة لها. وأقول: إنّه غير بعيد أن تكون ما نافية مع اتّصال الكلام بما قبله، ووجهه أنّه لمّا رغّب الناس في طلب الدين والعبادة فكأنّه أراد أن يرفع حكم الوهم بما عساه يحكم به عند تكرار طلب الله للدين والعبادة من حاجته تعالى اليها من خلقه حيث كرّر طلبه منهم بتواتر الرسل والاوامر الشرعيّة، ويصير معنى الكلام أنّ الهجرة باقية على حدّها الأوّل في صدقها على المسافرين لطلب الدين فينبغي للناس أن يهاجروا في طلبه إلى أئمّة الحقّ وليس ذلك لأنّ لله تعالى إلى أهل الأرض ممن أسرّ دينه أو أظهره حاجة فإنّه تعالى الغني المطلق الذي لا حاجة به إلى شيء.

الخامسة: قوله: لا تقع اسم الهجرة. إلى قوله: قلبه. إشارة بالحجّة في الأرض الى إمام الوقت لانه حجة الله في أرضه على عباده يوم القيامة وشاهده عليهم. وهذا الكلام تفسير لمواقع اسم الهجرة وبيان لمن تصدق عليه فشرط صدقها على الانسان بمعرفته لإمام وقته وذلك لأن الامام هو الحافظ

للدين ومعدنه الذي يجب أخذه عنه فيكون قصده لذلك مشروطا بمعرفته. فإذن إطلاق اسم الهجرة عليه مشروط بمعرفة إمام الوقت فلذلك قال: لا يقع اسم الهجرة على أحد إلاَّ بعد معرفة الحجّة في الأرض.

وقوله: فمن عرفها وأقّر بها فهو مهاجر.

يحتمل أن يريد به أنّ شرط إطلاق اسم المهاجرة على الإنسان مشروط بمعرفة إمام الوقت المستلزمة للسفر إليه كما هو الظاهر من لفظ المهاجرة. ويحتمل أن يريد أنّ مجرّد معرفة الإمام والإقرار بوجوب اتّباعه والأخذ عنه وإن كان بالإخبار عنه دون المشاهدة كاف في إطلاق اسم الهجرة على من عرفه كذلك دون السفر إليه كما كفى في إطلاقه على ترك ما حرّم الله بمقتضى قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: والمهاجر من ترك ما حرّم الله عليه.

وقوله: ولا يصدق [يقع خ] اسم الاستضعاف على من بلغته الحجّة.

أي أخبار الحجّة فحذف المضاف. ويحتمل أن يريد بالحجّة نفس الأخبار التي ينقل عن الإمام ويجب العمل بها قال قطب الدين الراوندي: يمكن أن يشير بهذا الكلام إلى أحد آيتين:

إحديهما: قوله تعالى ﴿**إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنّم**﴾[1] فيكون مراده عليه السلام على هذا أنّه لا يصدق اسم الاستضعاف على من عرف الإمام وبلغته أحكامه ووعاها قلبه وإن بقي في وطنه ولم يتجشّم السفر إلى الإمام كما لا يصدق على هؤلاء المذكورين في الآية.

والثانية: قوله تعالى بعد ذلك ﴿**إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم**﴾[2] فيكون مراده على هذا أنّ من عرف الإمام وسمع مقالته ووعاها قلبه

(١) ٤ - ٩٩.
(٢) ٤ - ١٠٠.

لا يصدق عليه الاستضعاف كما صدق على هؤلاء. إذ كان المفروض على الموجودين في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المهاجرة بالأبدان دون من بعدهم بل يقنع منه بمعرفته والعمل بقوله بدون المهاجرة إليه بالبدن: وأقول: يحتمل أن يريد بقوله ذلك أنّه لا عذر لمن بلغته دعوة الحجّة وسمعها في تأخّره عن النهوض والمهاجرة إليه مع قدرته على ذلك ولا يصدق عليه اسم الاستضعاف كما يصدق المستضعفين من الرجال والنساء والولدان حتى يكون ذلك عذراً له بل يكون في تأخّره ملوماً مستحقاً للعذاب كالذين قالوا إنّا كنّا مستضعفين في الأرض، ويكون مخصوصاً بالقادرين على النهوض كما قلناه دون العاجزين فإنّ اسم الاستضعاف صادق عليهم. وهذا الاحتمال إنّما يكون جاير الإرادة من هذا الكلام على تقدير أن يكون إطلاق اسم المهاجر على الانسان في الكلام المقدّم مشروطاً بمعرفة الإمام بالمشاهدة والسفر إليه. إذ لو جاز عليه أن يطلق عليه المهاجرة مع عدم السفر إلى الإمام لما كان ملوماً في تأخّره عنه.

السادسة: قوله: إنّ أمرنا صعب مستصعب. فأمرهم شأنهم وما هم عليه من الكمال الخارج عن كمالات من عداهم من الأمّة والأطوار التي يختصّ بها عقولهم وراء عقول غيرهم فيكون لهم عن ذلك القدرة على ما لا يقدر عليه غيرهم والإدراكات الغيبيّة بالنسبة إلى غيرهم والإخبار عنه كالوقائع التي حكى عنها عليه السلام ثمّ وقعت على وفق قوله وكالأحكام والقضايا التي اختصّ بها ونقلت عنه فإنّ هذا الشأن صعب في نفسه لا يقدر عليه إلّا الأنبياء وأوصياء الأنبياء ومستصعب الفهم على الخلق معجوز عن احتمال ما يلقى منه من الإشارات والإخبارات عمّا سيكون والقدرة على ما يخرج عن وسع مثلهم ولا تحتمله ولا تقبله إلّا نفس عبد امتحنها الله للايمان كقوله تعالى: **﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾**(1) أي أعدّها بالامتحان والابتلاء بالتكاليف العقليّة والنقليّة لحصول الإيمان الكامل اليقيني بالله ورسوله وكيفيّة سلوك سبيله، وتجلّت بالكمالات العلميّة والفضائل الخلقيّة حتى عرفت مبادىء كمالاتهم ومقاديرها وكيفيّة صدور مثل هذه الغرائب عنها فلا يستنكر ما يأتون

(1) ٤٩ - ٣.

بـه من قـول أو فعـل ولا يلقـاه بـالتكـذيب كمـا كـانت جمـاعـة من أصحابه عليه السلام يفعلون ذلـك معه فيمـا كان يخبـر به عن الفتن حتى فهم ذلـك منهم فقال: يقولـون: يكذب. قـاتلهم الله تعالى فعلى من أكـذب؟ أعلى الله وأنا أوّل من آمن به أو على رسوله وأنا أوّل من صدّقه؟ كما حكينـا ذلك فيمـا سبق؛ بـل يحتمل كـلّ ما يـأتون بـه على وجهه ويستنـده إلى مبدئـه ويفـرح بـوصول مـا يرد عليهـا من أسرارهم الإلهيّـة. فأولئـك وأمثـالهم هم أصحـاب الصدور الآمنة التي تعي ما يلقى إليها من تلك الأسـرار ويصونهـا عن الإذاعة إلى من لا ينتفع بها وليس بأهل لها فهي مأمونة عليها، وأولوا الأحلام الرزينـة التي لا يستفـزها سمـاع تلك الغرائب ومشـاهدتهـا منهم فيحملهم ذلـك على إذاعتهـا واستنكارهـا بل يحملهـا على الصواب مـا وجـدت لهـا محمـلاً فـإذا عجزت عن معرفتهـا ثبتت فيها وآمنت بهـا على سبيل الإجمـال وفوّضت علم كنههـا إلى الله سبحانـه. وأراد قلوب صدور أمينـة أو أصحـاب صـدور أمينـة وأصحـاب أحلام رزينـة فحذف المضـاف. ويحتمل أن يكـون قد أطلق اسم الصدور والأحلام مجازاً عن أهلها إطلاقاً لاسم المتعلِّق على المتعلَّق. ونقـل عنه عليه السلام مثل هذا الكلام في غير هذا الموضع من جملة خطبة له: أنّ قريشـاً طلبت السعـادة فشقيت. وطلبت النجـاة فهلكت. وطلبت الهـدى فضلّت ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيّتهم**﴾[1] فأين العدل والنزع عن ذرّيّة الرسول الـذين شيّد الله بنيـانهم فوق البنيان وأعلى رؤوسهم واختارهم عليهم؟.

إلّا أنَّ الـذرّيّة أفنـان أنا شجـرتها ودوحـة أنا سـاقهـا. وإنّي من أحمـد بمنزلة الضوء من الضوء كنّـا أظلالاً تحت العـرش قبل خلق البشـر وقبل خلق الطينة التي كان منها البشـر أشباحـاً عاليـة لا أجسامـاً ناميـة. إنّ أمرنـا صعب مستصعب لا يعرف كنهه إلّا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبـه للإيمان فـإذا انكشف لكم سرّ أو وضح لكم أمر فـاقبلوه وإلّا فأمسكوا تسلموا وردّوا علمهـا إلى الله فإنّكم في أوسـع ما بين السمـاء والأرض. وفي قـولـه: وإنّي من أحمد بمنزلة الضوء من الضوء، وقوله: كنّا أظلالاً. إلى قوله: ناميـة

---

(١) ٥٢ - ٢١.

إشارة لطيفة: أمّا الأوّل: فأشار إلى أنّ الكمالات التي حصلت لنفسه القدسيّة بواسطة كمالات نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشبه الأشياء بصدور الضوء عن الضوء كشعلة مصباح اقتبست من شعلة مصباح أكبر وأعلى. ومن العادة في عرف المجرّدين وأولياء الله وكتابه تمثيل النفوس الشريفة والعلوم بالأنوار والأضواء لمكان المشابهة بينهما في حصول الهداية عنها مع لطفها وصفائها، وأمّا الثاني فيحمل أن يكون قد أشار بكونهم أظلّة تحت العرش قبل خلق البشر أشباحاً بلا أجسام إلى وجودهم في العلم الكلّي فإنّه قد يعبّر عنه في بعض المواضع بالعرش واستعار لفظ الأظلال لهم باعتبار كونهم مرجعاً للخلق وملجأ كالأظلال، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك أو ما قرب منها ببيان أوضح في الخطبة الأولى.

السابعة: أيّه بالناس. وقال: سلوني قبل أن تفقدوني. إلى قوله: الأرض. وأجمع الناس على أنّه لم يقل أحد من الصحابة وأهل العلم: سلوني. غير علي عليه السلام ذكر ذلك ابن عبد البرّ في كتاب الاستيعاب. وأراد بطرق السماء وجوه الهداية إلى معرفة منازل سكّان السماوات من الملإ الأعلى ومراتبهم من حضرة الربوبيّة ومقامات أنبياء الله وخلفائه من حظائر القدس، وانتقاش نفسه القدسيّة عنهم بأحوال الفلك ومدبّراتها والأمور الغيبيّة ممّا يتعلّق بالفتن والوقائع المستقبلية إذ كان له عليه السلام الاتّصال التامّ بتلك المبادىء. فبالحري أن يكون علمه بما هناك اتمّ وأكمل من علمه بطرق الأرض إلى منازلها. وقد سبق مثله لقوله: سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فتنة تضلّ مائة وتهدي مائة إلّا أنبأتكم بسائقها وقائدها. وقد حمله قوم على وجه آخر وقالوا: أراد بطرق السماء الأحكام الشرعيّة والفتاوى الفقهيّة: أي أنا أعلم بها من الأمور الدنيوية فعبّر عن تلك بطرق السماء لكونها أحكاماً إلهيّة، وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنّها من الأرضيّة. ونحوه ما نقل عن الإمام الوبري: أنّه قال: أراد أنّ علمه بالدين أوفر من علمه بالدنيا.

وقوله: قبل أن تشغر برجلها فتنة. إلى آخره.

أراد فتنة بني أميّة وأحكامهم العادلة عن العدل وما يلحق الناس في دولتهم من البلاء. وكنّى بشغر رجلها عن خلوّ تلك الفتنة عن مدبّر يدبّرها

ويحفظ الأمور وينتظم الدين حين وقوع الجور

وقوله: تطأ في خطامها.

استعارة لوصف الناقة التي أرسل خطامها وخلت عن القائد في طريقها فهي تخبط في خطامها وتعثر فيه وتطأ من لقيت من الناس على غير نظام عن حالها، وهذا هو وجه الاستعارة. إذ كانت هذه الفتنة تقع في الناس على غير قانون شرعي ولا طريق مرضي. ولا قائد ينتظم أمور الخلق فيها.

وقوله: ويذهب بأحلام قومها.

قال بعض الشارحين: أي تحيّر أهل زمانها وتذهلهم بشدّتها حتى لا يثبتون فيها بل تطيش ألبابهم فلا يهتدون إلى طريق التخلّص عنها ووجه السلامة فيها. ويحتمل أن يريد بذلك أنّها تستخفّ أهل زمانها فيأتون إليها سراعاً ويجيئون الناعق بها والداعي إليها رغبة ورهبة فلا يبالون في ذلك ولا يفحصون عن كونها فتنة لغفلتهم عن وجه الحقّ فيها وشدّة وقوعها على الناس وبالله التوفيق.

٢٣٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ. عَزِيزُ الْجُنْدِ، عَظِيمُ الْمَجْدِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَلَى دِينِهِ. لَا يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ آجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ. فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوى آللهِ فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَآمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ؛ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ. وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ الإِبْلَاسِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ الْفَزَعِ، وَآخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ، وَاسْتِكَاكِ الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ.

فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى

صِراطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلاَزِلِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلاَكِلِهَا، وَانْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى، أَوْ شَهْرٍ انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثّاً، فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا، عَالٍ لَجَبُهَا، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا؛ بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكٍ وَقُودُهَا، مُخِيفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً) قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهاراً تَخَشُّعاً وَاسْتِغْفَاراً، وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً تَوَحُّشاً وَانْقِطَاعاً، فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً، وَالْجَزَاءَ ثَوَاباً، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

فَارْعَوْا ـ عِبَادَ اللهِ ـ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ. وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ، وكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ فَلاَ رَجْعَةً تَنَالُونَ، وَلاَ عَثْرَةً تُقَالُونَ. اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، الْزَمُوا الأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلى البَلاَءِ، وَلاَ تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلاَ تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَىٰ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاَتِهِ لِسَيْفِهِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً.

أقول: الوظيفة: ما يقدر للإنسان في كلّ يوم من طعام أو رزق أو عمل ويثنيه: يصرفه. والمعقل: الملجأ. وذروته: أعلاه. ومهّد له: أي اتّخذ له مهاداً وهو الفراش. والأرماس: جمع رمس وهو القبر. والإبلاس: الانكسار والحزن. والمطّلع: الاطّلاع من إشراف إلى أسفل. وهو له: خوفه وفزعه.

والروعة: الفزعة. واستكاك الأسماع: صممها. والصفيح: الحجارة العراض. وردمها: سدّ القبر بها. والسنن: الطريقة. والقرن: الحبل يقرن به البعيران. وأشراطها: علاماتها. وأزفت: دنت. وأفراطها: مقدّماتها. ومنه أفراط الصبح أوائل تباشيره. والرثّ: الخلق. والغثّ: المهزول. والضنك: الضيق. والكلب: الشرّ. واللجب: الصوت. والساطع: المرتفع. وسعيرها: لهبها. وتأجّجه: اشتداد حرّه ووقودها بضمّ الواو: ايقادها وهو الحدث. وذكاه ـ مقصوراً ـ اشتعاله. وفضاعة الأمر؛ شدّته ومجاوزته للمقدار. والزمر: الجماعات، واحدتها زمرة. وزحزحوا: بعدوا. واطمأنت: سكنت. والمثوى: المقام. والمثاب: المرجع. والمدينون: مجزيّون. وإصلاته بسيفه. تجرّده به.

واعلم أنّه عليه السلام أنشأ حمد الله على نعمائه. ونصب شكراً على المصدر عن قوله: أحمد. من غير لفظه. إذ المراد بالحمد هنا الشكر بقرينة ذكر الإنعام. ثمّ أردفه بطلب المعونة على ما وظف عليه من حقوقه: واجباتها ونوافلها كالصلوات والعبادات التي ارتضاها منهم شكراً لنعمائه، وإذا اعتبرت كانت نعما تستحق الشكر لما يستلزمه المواظبة عليها من السعادة الحقيقيّة الباقية كما سبق بيانه.

وقوله عزيز الجند.

نصب على الحال والإضافة غير محضة والعامل أستعينه، وكذلك قوله: عظيم المجد: أي أستعينه على أداء حقوقه حال ما هو بذينك الإعتبارين فإنّه باعتبار ما هو عزيز الجند عظيم المجد يكون مالك الملك قديراً على ما يشاء فكان مبدأ استعانة به على أداء وظائف حقوقه. ثمّ أردفه بشهادته برسالة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وذكر أحواله التي كانت مباديء لظهور الدين الحقّ ليقتدي السامعون به صلى الله عليه وآله وسلم في تلك الأحوال. وهي دعوته إلى الدين ومقاهرته لأعدائه وهم الكفّار على أصنافهم، ونصب جهاداً على أنّه مصدر سدّ مسدّ الحال، أو نصب المصادر عن قوله: قاهر. من غير لفظه. إذ في قاهر معنى جاهد. وعن دينه متعلّق بجهاداً إعمالاً للأقرب، ويحتمل التعلّق بقاهر.

وقوله: لا يثنيه.

أي لا يصرفه عن دعوته ومقاهرته لأعدائه اجتماع الخلق على تكذيبه والتماسهم لإطفاء نوره، ولفظ النور مستعار لما جاء به من الكمالات الهادية إلى سبيل الله. ثمّ لمّا نبّههم على تلك الأحوال التي مبدؤها تقوى الله تعالى أمرهم بالاعتصام بها بقوله: فاعتصموا بتقوى الله كما اعتصم نبيّكم بها في إظهار دينه ومواظبته على ذلك، ولا تخافوا من عدوّ مع كثرتكم كما لا يخفّ هو مع وحدته فإنّ للتقوى حبلاً وثيقاً عروته من تمسّك به واعتصم لم يضرّه عدوّ، ومعقلاً منيعاً ذروته من لجأ اليه لم يصل اليه سوء. ولفظ الحبل والمعقل مستعاران للتقوى، وقد سبق بيان هذه الاستعارات. ثمّ أكّد ذلك الأمر بالأمر بمبادرة الموت وغمراته ومعنى مبادرته مسابقته إلى الاستعداد بالأعمال الصالحة كأنّهم يسابقون الموت وغمراته وما يلحقهم من العذاب فيه وفيما بعده إلى الاستعداد بالأعمال الصالحة فيحصّلوا بها ملكات صالحة يكون مهاداً له قبل حلوله بهم كيلا يقدحهم قدحاً، ويجعلونها عدّة لأنفسهم قبل نزوله عليهم يلتقونه بها كيلا يؤثّر في نفوسهم كثير أثر كأنّه يسابقهم إلى أنفسهم ليقطعهم عن ذلك الاستعداد فيكون سبباً لوقوع العذاب بهم

وقوله: فإنّ الغاية القيامة.

تحذير بذكر الغاية وتذكير بأهوالها الموعودة: أي فإنّ غايتكم القيامة لا بدّ لكم منها. ولمّا كانت تلك الغاية هي لازم الموت كما قال عليه السلام: من مات فقد قامت قيامته. كان أمره بالاستعداد للموت أمر بالاستعداد لها، ولذلك أتى بعد الأمر بالاستعداد له بقوله: فإنّ منبّهاً على وجوب ذلك الاستعداد بضمير ذكر صغراه، وتقدير الكبرى: وكلّ من كانت غايته القيامة فواجب أن يستعدّ لها.

وقوله: وكفى بذلك.

أي بذكر الموت وغمراته والقيامة وأحوالها، وخصّص من عقل لكونه المقصود بالخطاب الشرعي، ومعتبراً: أي محلاّ للاعتبار والعلم، وظاهر كون الموت ونزوله بهذه البنية التامّة التي أحكم بنيانها ووضعت بالوضع العجيب

والترتيب اللطيف وهدمه لها واعظاً بليغاً يزجر النفوس عن متابعة هواها ومعتبراً تقف منه على أن وراء هذا الوجود وجوداً أعلى وأشرف منه لولاه لما عطّلت هذه البنية المحكمة المتقنة ولكان ذلك بعد إحكامها وإتقانها سفهاً ينافي الحكمة كما أنّ الإنسان إذا بنى داراً وأحكمها وزيّنها بزينة الألوان المعجبة فلمّا تمّت وحصلت غايتها عمد إليها فهدمها فإنّه يعدّ في العرف سفيهاً عابثاً. أمّا لو كان غرضه من ذلك الوصول إلى غاية يحصل بوجودها وقتاً ما ثمّ يستغنى عنها جاز هدمها. فكذلك هذه البنية لمّا كانت الغرض منها استكمال النفوس البشريّة بالكمالات التي يستفاد من جهتها وهي العلوم ومكارم الأخلاق ثمّ الانتقال منها إلى عالمها جاز لذلك خرابها وفسادها بعد حصول ذلك الغرض منها.

وقوله: قبل بلوغ الغاية ما تعلمون.

عطف على قوله: قبل نزوله.

وقوله: من ضيق الأرماس. إلى قوله: الصفيح.

تفصيل لما يعلمونه من أحوال الموت وأهواله، وظاهر أنّ القبور ضيّقة بالقياس إلى مواطن الدنيا، وأنّ للنفوس عند مفارقتها غمّاً شديداً وحزناً قويّاً على ما فارقته وممّا لاقته من الأهوال التي كانت غافلة عنها، وأنّ لما أشرفت عليه من أحوال الآخرة هولاً وفزعاً تطير منه الألباب وفي المرفوع: وأعوذ بك من هول المطّلع.

وإنّما حسن إضافة روعات إلى الفزع وإن كان الروع هو الفزع باعتبار تعدّدها وهي من حيث هي آحاد مجموع أفراد مهيّة الفزع فجازت إضافتها اليها. واختلاف الأضلاع كناية عن ضغطة القبر. إذ يحصل بسببها تداخل الأضلاع واختلافها، واستكاك الأسماع ذهابها بشدّة الأصوات الهائلة ويحتمل أن يريد ذهابها بالموت وإنّما قال: خيفة الوعد، لأنّ الوعد قد يستعمل في الشرّ والخير عند ذكرهما قال: ولا تعداني، الخير والشرّ مقبلٌ. فإذا أسقطوا ذكرهما قالوا في الخير: العدة والوعد، وفي الشرّ الإيعاد والوعيد. وهيهنا وإن سقط ذكرهما إلّا أنّ قوله: خيفة تدلّ على وجود الشرّ فكان كالقرينة، وغمّ الضريح: الغم الحاصل والوحشة المتوهّمة فيه. إذ كان للنفوس من الهيئات

المتوهّمة كونها مقصورة مضيّقاً عليها بعد فسح المنازل الدنيويّة وسائر ما ذكره عليه السلام من الأهوال، وإنّما عدّد هذه الأهوال لكون الكلام في معرض الوعظ والتخويف وكون هذه الأمور مخوفة منفوراً عنها طبعاً. ثمّ أكّد ذلك التخويف بالتحذير من الله وعلّل ذلك التحذير بكون الدنيا ماضية على سنن: أي على طريقة واحدة لا يختلف حكمها فكما كان من شأنها أن أهلكت القرون الماضية وفعلت بهم وبآثارهم ما فعلت وصيّرتهم إلى الأحوال التي عدّدناها فكذلك فعلها بكم.

وقوله: وأنتم والساعة في قرن.

كناية عن قربها القريب منهم حتى كأنّهم معها في قرن واحد.

وقوله: وكأنّها قد جاءت بأشراطها.

تشبيه لها في سرعة مجيئها بالتي جاءت وحضرت. وأكّد ذلك التشبيه بقد المفيدة لتحقيق المجيء. وعلاماتها كظهور الدجال، ودابّة الأرض، وظهور المهديّ وعيسى عليه السلام إلى غير ذلك. وكذلك قوله: وأزفت بأفراطها ووقفت بكم على صراطها. إلى قوله: وسمينها غثّاً: أي وتحقّق وقوفها بكم على صراطها وهو الصراط المعهود فيها.

وقوله: وكأنّها قد أشرفت بزلازلها.

أي أشبهت فيما يتوقّع منها من هذه الأحوال في حقّكم حالها في إيقاعها بكم وتحقيقها فيكم، واستعار لفظ الكلاكل لأهوالها الثقيلة. ووصف الإناخة لهجومها بتلك الأهوال عليهم ملاحظاً في ذلك تشبّهها بالناقة. وإنّما حسن تعديد الكلاكل لها باعتبار تعدّد أهوالها الثقيلة النازلة بهم. ولمّا كانت الأفعال من قوله: وأناخت. إلى قوله: فصار سمينها غثّاً. معطوفاً بعضها على بعض دخلت في حكم الشبه: أي وكانت الدنيا قد انصرفت بأهلها وكأنّكم قد أخرجتم من حصنها إلى آخر الأفعال.

والمشبّه الأوّل: هو الدنيا باعتبار حالها الحاضرة والمشبّه به انصرافها بأهلها وزوالهم ووجه الشبه سرعة المضي أي كأنّها من سرعة أحوالها الحاضرة كالتي وقع انصرافها. وكذلك الوجه في باقي التشبيهات. واستعار لفظ

الحضن لها ملاحظة لشبهها بالأُم التي تحضن ولدها فينتزع من حضنها. والسمين والغثّ تحتمل أن يريد بهما الحقيقة ويحتمل أن يكنّى به عن ما كثر من لذّاتها وخيراتها وتغيّر ذلك بالموت وزواله.

وقوله: في موقف.

يتعلّق بصار. والموقف هو موقف القيامة. وظاهر أنّ كل جديد للدنيا يومئذ رثّ. وكل سمين كان بها غثّ. وضيق الموقف إمّا لكثرة الخلق يومئذ وازدحامهم أو لصعوبة الوقوف به وطولهم مع ما يتوقع الظالمون لأنفسهم من إنزال المكروه بهم والأمور المشتبهة العظام أهوال الآخرة. واشتباهها كونها ملبسة يتحير في وجه الخلاص منها. والاعتبار يحكم بكونها عظيمة. وظاهر كون النار شديدة الشرّ وقد نطق القرآن الكريم بأكثر ممّا وصفها عليه‌السلام به ههنا من علوّ أصواتها، وسطوح لهبها، وتغيّظ زفيرها كقوله تعالى: ﴿**إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميّز من الغيظ**﴾[1] وقوله: ﴿**سمعوا لها تغيّظاً وزفيرا**﴾[2] ولفظ التغيّظ مستعار للنار باعتبار حركتها بشدّة وعنف كالغضبان أو باعتبار استلزام حركتها ظاهر للأذى والشرّ.

وقوله: عم قرارها.

أسند العمى إلى قرارها مجازاً باعتبار أنّه لا يهتدى فيه لظلمته أو لأنّ عمقها لا يوقف عليه لبعده، ولمّا استعار لفظ الحمى رشّح بذكر القدور، وظاهر فظاعة تلك الأمور وشدّتها. وكلّ تلك الأمور عدّدها في معرض التخويف لكونها مخوفة تنفيراً لما يلزم عنه من ترك التقوى واتّباع الهوى ثمّ ساق الآية اقتباساً ونسق بعدها أحوال المتقين في الآخرة اللازمة عن تقويهم وهي أمنهم من العذاب وانقطاع العقاب عنهم وإبعادهم عن النار واطمئنان الدار التي هي الجنة بهم ورضاهم بها مثوى وقراراً ترغيباً في التقوى بذكر لوازمها. ثم أردف ذلك بصفات المتّقين أيضاً عمّا عساه لا يعرفها فقال: هم الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية: أي طاهرة من الرياء والشرك الخفيّ، وأعينهم

---

(١) ٦٧ - ٧.

(٢) ٢٥ - ١٣.

باكية: أي من خشية الله وخوف عقابه وحرمانـه، وكان ليلهم في دنيـاهم نهاراً في كونه محلّ حركاتهم في عبادة ربّهم وتخشّعهم لـه واستغفارهم إيّـاه فأشبـه النهار الذي هـو محلّ حـركات الخلق. ولهـذا الشبه استعـار لفظ النهار للّيـل وكذلك استعار لفظ الليل للنهار، ووجه الاستعارة كون النهار محلاً لتوحّشهم من الخلق وانقـطاعهم عنه واعتـزالهم إيّاهم كـالليل الـذي هو محـلّ انقـطاع الناس بعضهـم عن بعض وافتراقهم، وفي نسخة الرضي ـ رحمـه الله ـ بخطّه: كأنّ للتشبيه رفع نهاراً في القرينة الأولى، ورفع ليلاً في الثانية. ووجـه التشبيه هـو ما ذكـرناه. وكـأنّه يقـول: فلمّـا استعـدّوا بتلك الصفـات للحصـول على الفضـائل والكمـالات واستوجبـوا رضى الله تعالى عنهم جعـل الله لهم الجنّـة مـرجعاً ومآباً أعـدّ فيها من جـزاء النعيم ثوابـاً وكانـوا أحقّ بهـا وأهلهـا. وهـو اقتباس.

وقوله: في ملك. إلى قوله: قائم.

أي مقيم، تفسيـر للجزاء. ثمّ أكّـد الأمر بـالتقوى بـرعـايتهـا في عبـارة أخرى نبّه فيها على بعض لوازمها، وذلك أنّ فوز الفائزين إنّما يكون بالتقـوى ولزوم الأعمال الصالحات، والمبطلون هم الذين لا حقّ معهم فهم الخارجون عن التقوى الحقّة. وإنّما يلحقهم الخسران بالخروج عنها.

وقوله: بادروا آجالكم بأعمالكم.

كقوله: بادروا الموت: أي وسابقوا آجـالكم بالأعمـال الصالحـات إلى الاستعداد بها قبل أن يسبقكم إلى أنفسكم فيقطعكم عن الاستعـداد بتحصيل الأزواد ليوم المعاد، ونبّههم بقوله: فإنّكم. إلى قوله: قدّمتم. على ارتهانهم بـذنوبهم السـالفة والجـزاء عليها في القيـامة ليسـارعوا إلى فكـاكها بـالأعمال الصـالحة والسـلامة من الجـزاء عليها، ولفظ المـرتهن مستعار للنفوس الآثمة باعتبار تقيّدها بالسيّئة وإطلاقها بالحسنة كتقيّـد الرهن المتعـارف بما عليـه من المال وافتكاكه بأدائه وإطلاق لفظ الجزاء على العقاب مجاز إطلاقاً لاسم أحد الضدّين على الآخر.

وقوله: وكأن قد نزل.

هي المخفّفة من كأنّ للتشبيه، واسمها ضمير الشأن، والمقصود تشبيه حالهم وشأنهم الحاضر بحال نزول المخوف وهو الموت وتحقّقه في حقّهم الذي يلزمه ويترتّب عليه عدم نيلهم للرجعة وإقالتهم للعثرة. ثمّ عقّب بالدعاء لنفسه ولهم باستعمال الله إيّاهم في طاعته وطاعة رسوله، وذلك الاستعمال بتوفيقهم لأسباب الطاعة وإعدادهم لها وإفاضة صورة الطاعة على قواهم العقليّة والبدنية وجوارحهم التي بسببها تكون السعادة القصوى، ثمّ بما يلزم ذلك الاستعمال من العفو عن جرائمهم. وإنّما نسبها إلى فضل رحمته لكونه مبدءاً للعفو والمسامحة من جهة ما هو رحيم وذلك من الاعتبارات التي تحدثها عقولنا الضعيفة وتجعلها من صفات كماله كما سبق بيانه في الخطبة الأولى. ثمّ عقّب وعظهم وتحذيرهم والدعاء لهم بأمرهم أن يلزموا الأرض ويصبروا على ما يلحقهم من بلاء أعدائهم ومخالفيهم في العقيدة كالخوارج والبغاة على الإمام بعده من ولده والخطاب خاصّ بمن يكون بعده بدلالة سياق الكلام. ولزوم الأرض كناية عن الصبر في مواطنهم وقعودهم عن النهوض لجهاد الظالمين في زمن عدم قيام الإمام الحقّ بعده عليه السلام.

وقوله: ولا تحرّكوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم.

نهى عن الجهاد من غير أمر أحد من الأئمّة من ولده بعده، وذلك عند عدم قيام من يقوم منهم لطلب الأمر فإنّه لا يجوز إجراء هذه الحركات إلاّ بإشارة من إمام الوقت. وهوى ألسنتهم ميلها إلى السبّ والشتم موافقة لهوى النفوس. والباء في بأيديكم زائدة. ويحتمل أن يكون مفعول تحرّكوا محذوفاً تقديره شيئاً: أي ولا تتحركوا لهوى ألسنتكم ولا تستعجلوا بما لم يعجّله الله لكم من ذلك الجهاد.

وقوله: فإنّه من مات منكم. إلى قوله: لسيفه.

بيان لحكمهم في زمن عدم قيام الإمام الحقّ بعده لطلب الأمر وتنبيه لهم على ثمرة الصبر، وهو أنّ من مات منهم على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وأهل بيته والاعتراف بكونهم أئمّة الحقّ والاقتداء بهم لحق بدرجة الشهداء ووقع أجره على الله بذلك واستحقّ الثواب منه على ما أتى به من الأعمال

والصبر على المكاره من الأعداء، وقامت نيّته أنّه من أنصار الامام لو قام لطلب الأمر وأنّه معينه مقام تجرّده بسيفه معه في استحقاق الأجر.

وقوله: فإنّ لكلّ شيء مدّة وأجلا.

تنبيه على أنّ لكلّ من دولة العدوّ الباطلة ودولة الحقّ العادلة مدّة تنقضي بانقضائها وأجل تنتهي به فإذا حضرت مدّة دولة عدوّ فليس ذلك وقت قيامكم في دفعها فلا تستعجلوا به. هذا هو المتبادر إلى الفهم من هذا الكلام. والخطبة من فصيح خطبه عليه السلام وقد أخذ ابن نباتة الخطيب كثيراً من ألفاظها في خطبته كقوله: شديد كلبها عال لجبها ساطعاً لهبها متغيّظ زفيرها متأجّج سعيرها. إلى قوله: فظيعة أمورها، وكقوله: هول المطّلع، وروعات الفزع. إلى قوله: وردم الصفيح. فإنّه أخذ كلّ هذه الألفاظ ورصّع بها كلامه. وبالله التوفيق والعصمة.

٢٣٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الْفَاشِي حَمْدُهُ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالِي جَدُّهُ، أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَامِ، وَآلاَئِهِ الْعِظَامِ، الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ بِلاَ اقْتِدَاءٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ، وَلاَ احْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَلاَ إِصَابَةِ خَطَأٍ، وَلاَ حَضْرَةِ مَلأٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

أُوصِيكُمْ ـ عِبَادَ آللهِ ـ بِتَقْوَى آللهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى آللهِ حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى آللهِ؛ فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ: مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ، لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الأُمَمِ الْمَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً إِذَا أَعَادَ آللهُ مَا أَبْدَى. وَأَخَذَ مَا أَعْطَى. وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى.

فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا؛ أُولَئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً. وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ آللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ إِذْ يَقُولُ: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ). فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَواكِظُوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَآعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً. أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَآقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوا بِهَا قُلُوبَكُمْ، وَآرْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ. وَدَاوُوا بِهَا ٱلأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا ٱلْحِمَامَ، وَآعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلاَ وَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا. وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً، وَإِلَى الآخِرَةِ وُلاَّهاً، وَلاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا، وَلاَ تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَلاَ تَسْتَمِعُوا نَاطِقَهَا، وَلاَ تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَلاَ تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا؛ فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ، أَلاَ وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ: حَالُهَا آنْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ، دَارُ حَرَبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا. وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا، فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ، وَلَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ، فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ وَدَمٍ مَسْفُوحٍ، وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ، وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ، وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ، وَهَيْهَاتَ، ثُمَّ هَيْهَاتَ!! وَقَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ).

أقول: الفاشي: الذائع والمنتشر. والجدّ هيهنا: العظمة؛ ومنه حديث أنس: كان أحدنا إذا قرء البقرة وآل عمران جدّ فينا: أي عظم. والتؤام: جمع توءم؛ وحقيقته الولد يقارنه ولد آخر في بطن واحد. قال الخليل: أصله ووءم على وزن فوعل فأبدلوا من إحدى الواوين تاء كما قالوا: تولج من وولج. والآلاء: النعم واحدتها ألى بالفتح، وقد يكسر كحرف الجرّ. والضرب: السير. والغمرة: ما يغمر العقل من الجهل، والغمرة: الشدّة أيضاً. والحين

بالفتح: الهلاك. والرين: الطبع وغلبة الذنوب حتى تتغطى عن البصيرة. والغابر: الباقي والماضي أيضاً. وأسدى: أرسل معروفه. وأهطع: أسرع. وواكظ على كذا: واظب عليه وداوم. والمواكظة: المداومة. وروي: كظّوا: أي ألزموا، ولزوم الشيء في معنى المداومة عليه. والشعار: ما يلي الجسد تحت الدثار، وهو العلامة أيضاً. والرحض: الغسل. والنزّاه: جمع نازه وهو المباعد عمّا يوجب الذّم. والولّاه: جمع واله وهو المتحيّر من شدّة الوجد. والشيم: النظر إلى البرق أين تمطر سحائبه. والناعق: الصائح. وأعلاقها: نفائسها؛ جمع علق وهو الشيء النفيس، وبرق خالب وخلب: لا مطر معه. ومال محروب: مأخوذ بكلّيّته. والمتصدّية: المتعرّضة. والعنون: كثيرة العنن وهو الاعتراض. والعنون أيضاً: الدابّة المتقدمّة في السير. والجموح: الدابة التي تغلب الفارس فلا يملكها. والحرون: الذي إذا اشتد به السوق وقف. والمائنة: الكاذبة. والكنود: الكفور للنعمة. والعنود: المائلة عن الطريق وعن المرعى. والصدود: المعرضة. والحيود: أيضاً المائلة. والميود: المتمائلة. والحرب بفتح الحاء: سلب المال. والسلب: ما يسلب من درع ونحوه في الحرب. والعطب: الهلاك. والساق: الشدّة. والسياق: نزع الروح، والسياق مصدر ساقه سوقاً وسياقاً. والمعاقل: الحصون وما يلجأ إليه. ولفظتهم: ألقتهم. والمحاول: جمع محاولة وهي الحيلة ومعقور: مجروح. والمجزور: المقطوع. والشلو: العضو من اللحم بعد الذبح؛ وأشلاء الإنسان: أعضاؤه المتفرّقة بعد البلى. ومسفوح: مسفوك. والغيلة: الأخذ على غرّة. والمناص: مصدر قولك ناص ينوص نوصا، أي فرّ وراغ. ولات: حرف سلب؛ قال الأخفش: شبهوها بليس وأضمروا فيها اسم الفاعل؛ قال: ولا يكون لات إلّا مع حين وقد تحذف حين كما حذفت في قول مازن بن مالك: حنت ولات حنت. فحذف حين وهو يريده؛ وقال: قرء بعضهم ولات حين مناص برفع حين وأضمر الخبر. وقال أبو عبيد: هي لا، والتاء إنّما زيدت في حين وإن كتبت مفردة كما قال أبو وجرة: العاطفون تحين ما من عاطف. وقال المورّج: زيدت التاء في لات كما زيدت في ثمّت وربّت. والبال: الحال والشأن والأمر. والبال أيضاً: القلب.

وقد حمد الله سبحانه باعتبارات لا ينبغي إلّا له:

أحدها: الفاشي حمده: أي في جميع خلقه ومخلوقاته. إذ كان شيء منها لا يخلو من نعمة له أظهرها وجوده فلا يخلو من حمده بلسان الحال أو المقال. وله الحمد في السماوات والأرض وعشيًا وحين تظهرون.

الثاني: الغالب جنده: وجند الله ملائكته وأعوان دينه من أهل الأرض كقوله تعالى: ﴿**ولله جنود السماوات والأرض**﴾(١) وقوله: ﴿**وأيّده بجنود لم تروها**﴾(٢)وظاهر كونه غالباً لقوله: ﴿**وإنّ جندنا لهم الغالبون**﴾(٣) وقوله: ﴿**فإنّ حزب الله هم الغالبون**﴾(٤) وفي هذه القرينة جذب للسامعين إلى نصرة الله ليكونوا من جنده وتثبيت لهم على ذلك.

الثالث: المتعالي جدّه: أي علاؤه وعظمته كقوله تعالى: ﴿**وأنّه تعالى جدّ ربّنا ما اتّخذ صاحبة ولا ولدا**﴾(٥) وهذه القرينة تناسب ما قبلها لما في تلك من إيهام الحاجة إلى الجند والنصرة، وفي الثانية تعاليه وعظمته عن كل حال يحكم بها في حقّه الرافع لذلك الإيهام، ثمّ عقّب بذكر سبب الحمد وهو نعمه التؤام وآلاؤه العظام، ومعنى كونها تؤاماً ترادفها على العبد وتواترها فإنّه ما من وقت يمرّ عليه إلّا وعنده أنواع من نعمة الله تعالى لا تكافؤ بحمد.

الرابع: من الاعتبارت الذي عظم حلمه فعفا. فالحلم في الإنسان فضيلة تحت الشجاعة يعسر معها انفعال النفس عن الواردات المكروهة المؤذية له، أمّا في حقّ الله تعالى فتعود إلى اعتبار عدم انفعاله عن مخالفة عبيده لأوامره ونواهيه،وكونه لا يستفزه عند مشاهدة المنكرات منهم غضب ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام منهم مع قدرته التامّة على كلّ مقدور غيظ ولا طيش. والفرق بينه تعالى وبين العبد في هذا الوصف أنّ سلب الانفعال

---

(١) ٤٨ ـ ٧.
(٢) ٩ ـ ٤٠.
(٣) ٣٧ ـ ١٣٧.
(٤) ٥ ـ ٦١.
(٥) ٨٢ ـ ٣.

عنه سلب مطلق وسلبه عن العبد عمّا من شأنه أن يكون له ذلك الشيء فكان عدم الانفعال عنه تعالى أبلغ وأتمّ من عدمه عن العبد، وبذلك الاعتبار كان أعظم، ولمّا كان الحلم يستلزم العفو عن الجرائم والصفح عنها سمّى إمهاله تعالى للعبد وعدم مؤاخذته بجرائمه عفواً فلذلك أردف وصفه لعظمة الحلم بذكر العفو، وعطفه بالفاء لاستعقاب الملزوم لازمه بلا مهلة.

الخامس: وعدل في كلّ ما قضى. ولمّا كان العدل عبارة عن التوسّط في الأفعال والأقوال بين طرفي التفريط والإفراط، وكان كلّ ما قضاه تعالى وحكم عليه بوقوعه أو عدم وقوعه جارياً على وفق الحكمة والنظام الأكمل لما بيّن ذلك في مظانّة من العلم الإلهيّ لا جرم لم يكن أن يقع في الوجود شيء من أفعاله أو أقواله منسوباً إلى أحد طرفي التفريط والإفراط بل كان على حاقّ الوسط منهما وهو العدل. وقيل: قضى بمعنى أمر كقوله تعالى: ﴿**وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه**﴾[1] وهو داخل فيما قلناه فإنّ ما أمر بإيجاده أو نهى عنه داخل فيما حكم عليهم بوقوعه أو عدم وقوعه.

السادس: وعلم ما يمضى وما مضى. إشارة إلى إحاطة علمه بكلّ الأمور مستقبلها وماضيها وكلّيها وجزئيّها، وقد أشرنا إلى ذلك فيما قبل.

السابع: مبتدع الخلائق بعلمه ظاهر كلامه عليه السلام ناطق بأنّ العلم هنا سبب لما ابتدع من خلقه ولا شكّ أنّ السبب له تقدّم على المسبّب من جهة ما هو سبب وهذا هو مذهب جمهور الحكماء، والخلاف فيه مع المتكلّمين. إذ قالوا: إنّ العلم تابع للمعلوم والتابع يمتنع أن يكون سبباً. فالباء على رأيهم إذن للاستصحاب، وعلى الرأي الأوّل للتسبّب. ونحن إذا حقّقنا القول وقلنا: إنّه لا صفة له تعالى تزيد على ذاته وكانت ذاته وعلمه وقدرته وإرادته شيئاً واحداً وإنّما تختلف بحسب اعتبارات تحدثها عقولنا الضعيفة بالقياس إلى مخلوقاته كما سبق بيانه في الخطبة الأولى لم يبق تفاوت في أن يستند المخلوقات إلى ذاته أو إلى علمه أو إلى قدرته أو غيرهما. وأمّا بيان أنّ العلم تابع للمعلوم حتى يمتنع أن يكون سبباً له أو متبوعا حتى لا يمتنع ذلك فممّا

---

(١) ١٧ - ٢٤.

حقق في مظانّه. والمسألة ممّا طال الخبط فيها بينهم، ويحتمل أن يريد بالإبداع إحكام الأشياء وإتقانها بحيث يكون محلّ التعجّب يقال: هذا فعل بديع ومنظر بديع: أي معجب حسن. فظاهر أنّ ذلك منسوب إلى العلم ولذلك يستدلّ بإحكام الفعل وإتقانه على علم فاعله.

الثامن: ومنشئهم بحكمه: أي بحكمته وهو قريب من الذي قبله، ويحتمل أن يريد حكم قدرته على الموجودات بالوجود. وهو ظاهر.

وقوله: بلا اقتداء ولا تعليم.

أي لم يكن إبداعه وإنشاؤه للخلق على وجه اقتدائه بغيره ممن سبقه إلى ذلك، ولا على وجه التعلّم منه. والاقتداء أعمّ من التعلّم.

وقوله: ولا إصابة خطأ.

أي لم يكن إنشاؤه للخلق أوّلاً اتّفاقاً على سبيل الإضطراب والخطأ من غير علم منه ثمّ علمه بعد ذلك فاستدرك فعله وأحكمه فأصاب وجه المصلحة فيه. والإضافة بمعنى اللام لما أنّ الإصابة من لواحق ذلك الخطأ. وبمثل هذا اعترض المتكلّمون على أنفسهم حيث استدلّوا على كونه تعالى عالماً بكلّ معلوم فقالوا: إنّه تعالى علم بعض الأشياء لا من طريق أصلا لا من حسّ ولا نظر واستدلال فوجب أن يعلم سائرها كذلك لأنّه لا تخصيص، ثمّ سألوا أنفسهم فقالوا: لم زعمتم ذلك ولم لا يجوز أن يكون قد فعل أفعاله مضطربة ثم أدركها فعلم كيفيّة صنعها بطريق كونه مدركاً لها فأحكمها بعد اختلافها واضطرابها؟ ثمّ أجابوا عن ذلك بأنّه لا بدّ أن يكون قبل ذلك عالماً بمفرداتها من غير طريق فوجب أن يعلمها بأسرها كذلك لعدم التخصيص.. وهذا الجواب فاسد لأنّ مفرداتها إن لم تكن من فعله كالأجزاء التي لا يتجزى على رأي المثبتين فليس كلامنا في علمه بها بل فيما كان من فعله ولا يلزم من العلم بمفردات الفعل العلم بالفعل، وإن كانت من فعله فقولكم: لا بدّ أن يكون عالماً بمفرداتها قبل فعلها مصادرة على المطلوب. والجواب الحقّ أنّه لو علمها بعد أن لم يعلمها لكان علمه بها حادثاً في ذاته فكان محلاً للحوداث وهو محال لما سبق.

وقوله: ولا حضرة ملأ.

أي ولم يكن خلقه لما خلق بحضرة جماعة من العقلاء بحيث يشير كلّ منهم عليه برأي ويعينه بقول في كيفيّة خلقه حتى يكون أقرب إلى الصواب لأنّ كلّ جماعة فرضت فهي من خلقه فلا بدّ أن تصدر عنه الأمور لا بحضرة أحد، ولأنّ ذلك يستلزم حاجته إلى المعين والظهير والحاجة تستلزم الإمكان المنزّه قدسه عنه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متّخذ المضلّين عضداً﴾**[1] وكلّ ذلك تنزيه لفعله عن كيفيّات أفعال عباده. ثمّ أردف ذلك باقتصاص أحوال الخلق حال انبعاث الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. والواو في قوله: والناس. للحال: أي والناس يسيرون عند مقدمه في جهالة. وهو كناية عن تصرّفاتهم على جهل منهم بما ينبغي لهم من وجوه التصرّف، ويحتمل أن يريد ويسيرون في شدّة وذلك أنّ العرب كانت حينئذ في شدائد من ضيق المعاش والنهب والغارات وسفك الدماء كما قال عليه السلام فيما قبل: إنّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار. الفصل. وكذلك قوله: ويموجون في حيرة. كناية عن تردّدهم في حيرة الضلال والجهل أو في حيرة من الشدائد المذكورة.

وقوله: قد قادتهم أزمّة الحين.

أي قد تداعوا للموت والفناء من كثرة الغارات وشدائد سوء المعاش وظلم بعضهم لبعض لأنّ الناس إذا لم يكن بينهم نظام عدليّ ولم يجر في أمورهم قانون شرعيّ أسرع فيهم ظلم بعضهم البعض واستلزم ذلك فناؤهم، ولمّا استعار لفظ الأزمّة رشّح بذكر القود.

وقوله: واستغلقت. إلى قوله: الرين.

أراد رين الجهل وتغطيته لقلوبهم عن أنوار الله تعالى والاستضاءة بأضواء الشريعة. واستعار لفظ الأقفال لغواشى الجهل والهيئات الرديئة المكتسبة من

---

(١) ١٨ ـ ٤٩.

الإقبال على الدنيا، ووجه المشابهة أنّ تلك مانعة للقلب وحاجبة لـه عن قبول الحقّ والاهتداء به كما تمنع الأقفال ما يغلق عليـه من التصرّف، ورشّح بذكـر الاستغـلاق وإنّما أتى بلفظ الاستفعـال لأنّ ذلك الـرين كان أخـذ في الزيـادة ومنتقلاً من حال إلى حـال فكأنّ فيـه معنى الطلب للتمـام. ثمّ عقّب بالـوصيّة بتقوى الله على جري عادته لأنّهـا رأس كلّ مـطلوب، ورغّب فيها بكـونها حقّ الله عليهم: أي الأمر المطلوب لـه المستحقّ عليهم،وبكونها مـوجبة على الله حقّهم وهـو جزاء طـاعتهم له الـذي أوجبـه على نفسـه ولـزم عن كمـال ذاتـه الفيّـاضة بـالخيرات بحسب استعـدادهم له بـالتقوى. ثمّ أشـار إلى مـا ينبغي للمتصدّي إلى التقوى وهو أن يستعين على قطع عقباتها بالله والانقطاع إليه أن يعينـه عليها ويوفّقه بها فـإنّ الانقطاع إلى معـونته والالتفـات إليـه مـادّة كـلّ مـطلوب. ثمّ إلى فائـدتهـا وهي الاستعـانـة بهـا على الله تعـالى. ولـمّـا كـان المطلوب منه الوصول إلى ساحل عزّته والنظر إلى وجهه الكريم والسلامـة من غضبه ونقاش حسابه إذ هو تعالى الحاكم الأوّل كانت التقـوى أجلّ مـا يستعد بـه لحصول تلك المـطالب، وكان السعيـد من استعان بهـا على دفع شـدائده تعالى في الآخرة من المناقشة فـإنّه لا خـلاص منها إلاّ بهـا. ثمّ عقّب ذكرهـا ببيان ما يستلزمه من الأمور المرغوب فيها: منها كـونها في اليـوم: أي في مدّة الحيـاة حرزاً وجنّـة: أي من المكاره الـدنيويّـة لقـولـه تعـالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له ـ من أمره ـ مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه**﴾[1] وفي غد: أي في يوم القيامة الطريق إلى الجنّة. وهـو ظاهـر، ومنها كون مسلكها واضحاً وظاهر أنّ الشارع صلى الله عليه وآله وسلم أوضح طرق التقوى وكشف سبلهـا حتى لا يجهلها إلاّ جـاهل، ومنهـا كون سـالكها رابحـاً. واستعار لفظ الربح لما يحصل عليه المتقي من ثمرات التقـوى في الدنيـا والآخرة، ووجـه الاستعارة أنّه بحركاته وتقواه التي يشبه رأس مالـه يستفيد الثـواب كما يستفيـد التاجر مكاسبه، ومنها كون مستودعها حافظاً. والمستودع بالفتح قابـل الوديعـة وبكسرها فاعلها. والمراد على الرواية بالفتح كون قابلها حافظاً لنفسـه بها من

---

(١) ٦٥ ـ ٢.

عذاب الله أو يكون حافظ بمعنى محفوظ، وعلى الثانية فالمستودع لهـا إمّا الله سبحانه. إذ هي الأمانة التي عرضها على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان وظاهركونـه تعالى حـافظاً على العبـد المستودع أحواله فيها من تفريطه وتقصيره أو أمانته ومحافظته عليها، وإمّا الملائكـة التي هي وسائط بين الله تعالى وبين خلقه. وظاهـر كونهم حفـظة كما قـال تعالى: **﴿ويرسل عليكم حفظة﴾** وقوله: **﴿وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾**[1].

وقوله: لم تبرح عارضة نفسها. إلى قوله الغابرين.

كـلام لطيف، واستعـار وصف كونهـا عارضـة نفسها. ووجـه الاستعارة كونها مهيّئة لأن تقبل وبصدد أن ينتفع بها كالمرأة الصالحة التي تعرض نفسها للتـزويج والانتفـاع بها. ثمّ علّل كـونها لم تبـرح كذلـك لحاجـة الخلق إليها غداً: أي يوم القيامة ترغيباً فيها بكونها محتاجاً إليها، ويحتمل أن يدخـل ذلك في وجه الشبه.

وقوله: إذا أعاد. إلى قوله: أسدى.

كالقرينة المخرجة لغد عن حقيقته إلى مجازه وهـو يوم القيـامة، وتعيين له بأنّه الوقت الذي يعيد الله فيـه ما كـان أبداه من الخلق ويـأخذ فيـه ما كـان أعطاهم من الوجود الدنيـويّ ولواحقـه ويقول: لمن الملك اليـوم لله الواحـد القهّار. وفي الحديث: إنّ الله تعالى يجمع كلّ ما كـان في الدنيـا من الذهب والفضّـة فيجعله أمثال الجبـال ثمّ يقول: هـذا فتنة بني آدم. ثمّ يسـوقـه إلى جهنّم فيجعله مكاوي لجباه المجـرمين ويسألهم فيـه عمّا أسـدى إليهم فيه من نعمـه فيسأل من ادّخـرها لم ادّخـرها ولم ينفقهـا في وجوههـا المـطلوبـة لله، ويسأل من أنفقها في غيـر وجهها! فيقول. أذهبتم طيّباتكم في حيـاتكم الدنيـا واستمتعتم بها. ويجازي الأوّلين بادّخارها كما قال: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونهـا في سبيل الله فبشّـرهم بعذاب أليم يـوم يحمى عليها في**

---

(١) ٨٢ ـ ١٠.

نـار جهنّم﴾[1] الآية، ويجـازي الآخرين بصـرفها في غيـر وجهها كمـا قـال: **﴿فاليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾**.

وقوله: فما أقلّ من قبلها.

تعجّب من قلّة من قبـل التقوى بينهم وحملهـا حقّ حملها: أي أخـذها وحفظها بشرائطها واستعدّ بها ليؤدّي أمانة الله فيها. إذ هي الأمانة المعروضة. ثمّ حكم بكون قابلها وحاكمهـا هم أقلّ النـاس عدداً، وأنّهم أهـل صفة الله: أي الذين وصفهم الله تعالى بقوله: **﴿وقليل من عبادي الشكـور﴾**. ثمّ أمرهم فيها بأوامر:

أحدها: أن يهـطعوا بـأسماعهم إليهـا: أي يسرعـوا إلى سماع وصفهـا وشرحها ليعرفوها فيعملوا على بصيرة.

الثاني: أن يواكظوا عليها بجدّهم: أي يداوموا عليها ويلازموها باجتهـاد منهم، وروي وانقـطعوا بـأسمـاعكم إليهـا: أي انقـطعـوا عن عـلائق الـدنيـا واستصحبـوا أسمـاعكم إلى سمـاع وصفهـا. فكـأنّ أحـد الـروايتين تصحيف الأخرى لأنّ النون والقاف إذا تقارنا أشبها الهاء في الكتابة.

الثالث: أن يعتاضوها خلفاً عن كلّ محبـوب في الدنيـا سلف لهم ونعم الخلف ممّـا سلف إذ كـانت المـطالب الحـاصلة بهـا أنفس المـطالب وهي السعادة الأبديّة وخلفا مصدر سدّ مسدّ الحال.

الرابع: أن يعتاضوها من كلّ مخـالف لهم موافقـاً. والمراد أنّ كـلّ من كـان موافقـاً لك ثمّ خـالفك في أمـر من الأمور فينبغي أن يكـون على طـريق الحقّ والتقوى في ذلك الأمر ولا تميل ميل مخالفـك فإنّ التقـوى نعم العوض ممّن خالفك. ونحـوه ما قـال أفلاطـون الحكيم: سقراط حبيبنـا والحقّ حبيبنا وإذا اختلفا كان الحقّ أحبّ إلينا.

الخامس: أن يوقظوا بها نومهم. قال بعض الشـارحين: أراد أن يوقـظوا بهـا نوّامكم فـأقام المصـدر مقام اسم الفـاعل مجـازاً لما فيـه من التضـادّ في

(١) ٩ - ٣٤.

القرينة. قلت: ويحتمل أن يريد بقوله: أيقظوا: أي اطردوا بتقوى الله وعبادته نومكم في ليلكم وأحيوه بها. فاستعمل لفظ الايقاظ لإفادته ذلك المعنى إذ كان الأمر بإيقاع أحد الضدَّين في محلّ يستلزم الأمر بنفي الضدّ الآخر عن ذلك المحلّ مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم على لازمه ولما فيه من التضادّ، ويحتمل أن يريد بالنوم نوم الغفلة والجهل وبإيقاظ النائمين منها بها تنبيههم بها من مراقد الطبيعة وإعدادهم بإجراء العبادة وقوانينها لحصول الكمالات العلميّة والعمليّة على سبيل الاستعارة. ووجهها ظاهر ممّا سبق.

السادس: وأن يقطعوا بها يومهم: أي يقطعوا بالاشتغال بها نهارهم.

السابع: أن يشعروها قلوبهم: أي يجعلوها شعاراً لقلوبهم ويلبسوها إيّاه كما يلبس الشعار. ولفظ الشعار مستعار لها، ووجه الاستعارة كون التقوى الحقيقيّة تلازم النفس وتتّصل بالقلب كما يتّصل الشعار بالجسد، ويحتمل أن يريد اجعلوها لازمةً لقلوبكم ليتميّز بها عن قلوب الظالمين، ويحتمل أن يريد أشعروها قلوبكم: أي أعلموها بها واجعلوها شاعرة بتفاصيلها ولوازمها.

الثامن: أن يرحضوا بها ذنوبهم: أي يغسلوها بالاشتغال بالتقوى. ولفظ الرحض مستعار باعتبار كون التقوى ماحية لدرن الذنوب والهيآت البدنيّة عن ألواح النفوس كما يمحق الغسل درن الثوب وأوساخه.

التاسع: أن يداووا بها الأسقام: أي أسقام الذنوب وأمراض القلوب كالجهل والشكّ والنفاق والرياء والحسد والكبر والبخل وجميع رذائل الأخلاق التي هي في الحقيقة الأسقام المهلكة، ولاشتمال التقوى على جميع الأعمال الجميلة والملكات الفاضلة كانت دواء لهذه الأسقام وشفاء لا يعقبه داء.

العاشر: وأن يبادروا بها الحمام: أي يسارعوه ويسابقوه بها. وقد سبق بيانه في الخطبة السابقة.

الحادي عشر: أن يعتبروا بمن أضاعها: أي ينظروا إلى الأمم السابقة قبلهم. ممّن أضاع التقوى، ويتفكّروا في حاله كيف أضاعها لأمر لم يبق له ففاته ما طلب ولم يدرك ما فيه رغب ثُمَّ حصل بعد الهلاك على سوء المنقلب فيحصّلوا من ذلك عبرة لأنفسهم فيحملوها على التقوى خوفاً ممّا نزل بمن

أضاعها من الخيبة والحرمان والرجوع إلى دار الهوان.

الثاني عشر: أن لا يجعلوا أنفسهم عبرة لمن أطاعها: أي انقاد للتقوى ودخل فيها أو أطاع موجبها فحذف المضاف، والمراد نهيهم أن يدخلوا في زمرة من أضاعها فيكونوا عبرة لمن أطاعها فنهى عن لازم الإضاعة وهو اعتبار غيرهم بهم. وصورة ذلك النهي وإن كانت متعلّقة بغيرهم إلَّا أنه كناية عن نهيهم عمّا يستلزم عبرة الغير بهم وهو إضاعة التقوى لأنَّ النهي عن اللازم يستلزم النهي عن الملزوم، وهذا كما تقول لمن تنصحه: لا يضحك الناس منك: أي لا تفعل ما يستلزم ذلك ويوجبه منهم.

الثالث عشر: أن يصونوها. وصيانتها شدّة التحفّظ فيها من خلطها برياء أو سمعة ومزجها بشيء من الرذائل والمعاصي.

الرابع عشر: أن يتصوّنوا بها: أي يتحفّظوا بها عن الذنوب والرذائل وثمرتها ويتحرّزوا بالاستعداد لها من لحوق العذاب في الآخرة.

الخامس عشر: أن يكونوا عن الدنيا نزّاهاً: أي متنزّهين عمّا حرّم الله عليهم وكرهه ممّا يوجب لهم الذّم عاجلاً والعقاب آجلاً وهو أمر بالتقوى أيضاً.

السادس عشر: أن يكونوا إلى الآخرة ولّاها: أي متحيّرين من شدّة الشوق إليها وذلك مستلزم للأمر بالتقوى والانقطاع عن الدنيا إلى الأعمال الصالحة لأنّها هي السبب في محبّة الآخرة والرغبة التامّة فيما عند الله.

السابع عشر: أن لا يضعوا من رفعته التقوى. ووضعه إمّا بقول كذمّه والاستهزاء به، أو بفعل كضربه، أو فعل ما يستلزم إهانته، أو ترك قول، أو ترك فعل يستلزم ذلك. ولمّا كان كلّ ذلك منافياً للتقوى وداخلاً في أبواب الرذائل لا جرم نهى عن لازمه وهو وضع من رفعته التقوى لاستلزام رفع اللازم رفع الملزوم.

الثامن عشر: أن لا يرفعوا من رفعته الدنيا. وأراد من ارتفاعه وجاهته عند الخلق بسبب الدنيا واقتناء شيء منها. والتقدير: من رفعته أهل الدنيا. فحذف المضاف، أو اسند الرفع إلى الدنيا مجازاً لأنّ الرافع والمعظم له هم

الناس، ولمّا كان من رفعته الدنيا عادلاً عن التقوى كان الميل إليه واحترامه ومحبّته يستلزم المحبّة للدنيا والميل إليها وكان منهيّاً عنه، وكان الانحراف عنه وعدم توقيره زهداً في الدنيا وأهلها هو من جملة التقوى فكان مأموراً به.

التاسع عشر: نهى عن شيم بارقها. استعار لفظ البارق لما يلوح للناس في الدنيا من مطامعها ومطالبها، ووصف الشيم لتوقّع تلك المطالب وانتظارها والتطلّع إليها على سبيل الكناية عن كونها كالسحابة التي يلوح بارقها فيتوقّع منها المطر.

العشرون: وعن سماع ناطقها. وكنّى بناطقها عن مادحها وما كشف وصفها وزينها من القول أو فعل أو زينة أو متاع، وبسماعه عن الإصغاء والميل إليه وتصديق مقاله وتصويب شهادته بأنّها هي التي ينبغي أن يقتنى ويدّخر ويعتنى بها الى غير ذلك فإنّ كل ذلك سبب للعدول عن التقوى وطريق الآخرة الى طرق الهلاك.

الحادي والعشرون: وعن إجابة ناعقها. وكنّى بناعقها عن الداعي إليها والجاذب مما ذكرنا، وبإجابته عن موافقته ومتابعته.

الثاني والعشرون: والاستضاءة بإشراقها. واستعار لفظ الإشراق لوجوه المصالح الداعية إليها والآراء الهادية إلى طرق تحصيلها وكيفيّة السعي فيها، ووصف الاستضاءة للاهتداء بتلك الآراء في طلبها، ووجه المشابهة أنّ تلك الآراء يهتدى بها في تحصيلها كما يهتدى بالإشراق المحسوس. وهذه القرينة قريبة المعنى من القرينتين قبلها، ويحتمل أن يريد بإشراقها ما يبتهج به من زينتها وأنوار جنابها، وبالإستضاءة ذلك الابتهاج والالتذاذ على سبيل الاستعارة، ووجهها مشاركة زينتها للضياء في كونه سبباً ممدّاً للأرواح باسطاً لها.

الثالث والعشرون: ومن الفتنة بأعلاقها. وأعلاقها ما يعدّ فيها نفيساً من قيناتها ومتاعها، وهو مستلزم للنهي لهم عن محبّة الدنيا والانهماك في لذّاتها لأنّ ذلك هو الفاتن لهم والمضلّ عن سبيل الله وهو سبب بلائهم ومحنتهم

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾[1] قال المفسّرون: بلاء ومحنة واشتغال عن الآخرة. والإنسان بسبب المال والولد يقع في العظائم ويتناول الحرام إلّا من عصمه الله، وعن أبي بريدة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطبنا يوماً فجاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثمّ قال: صدق الله عزّ وجلّ ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ نظرت إلى هذين الصبيّين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى نزلت إليهما ورفعتهما. ثمّ أردف ذلك بتعداد معائب وأوصاف لها منفّرة عنها معلّلاً بها ما سبق من نواهيه عنها.

فقوله: فإنّ برقها خالب.

تعليل لنهيه عن شيم بارقها. واستعار وصف الخالب لما لاح من مطامعها، ووجه المشابهة كون مطامعها وآمالها غير مدركة وإن أدرك بعضها ففي معرض الزوال كأن لم يحصل فأشبهت البرق الذي لا ماء فيه وإن حصل معه ضعيف فغير منتفع به فلذلك لا ينبغي أن يشام بارقها.

وقوله: ونطقها كاذب.

تعليل لنهيه عن سماع نطقها: أي النطق الحاصل في معناها، وفي مدحها، وأنّها ممّا ينبغي أن يطلب ويدّخر، ووصف نفسها ولذّاتها بلسان حالها الذي تغرّ به الأوهام الفاسدة. وكونه كذباً كناية عن عدم مطابقة ذلك الوصف بحالها في نفس الأمر.

وقوله: وأموالها محروبة.

كالتعليل لنهيه عن الاستضاءة بإشراقها: أي لا ينبغي أن تستعمل الآراء الحسنة والحيل في تحصيل أموالها، أو لا ينبغي أن تحبّ زينتها وأموالها ويبتهج بها فإنّها مأخوذة.

وقوله: وأعلاقها مسلوبة.

---

(1) ٨ ـ ٢٨.

تعليل لنهيه عن الافتنان بأعلاقها، ويحتمل أن تكون هذه القرينة مع التي قبلها تعليل للنهي عن الفتنة بأعلاقها، ثمّ أردف تلك الأوصاف بالتنبيه على أوصاف أخرى ونقائض لها مستعارة نفّر بها عنها:

أحدها: أنها المتصدّية العنون. قال بعض الشارحين: هو استعارة وصف المرأة الفاجرة التي من شأنها التعرض للرجال لتخدعهم عن أنفسهم، ويحتمل أن يكون استعارة لوصف الفرس أو الناقة التي تمشي في الطريق معترضة خابطا.

وقوله: العنون.

استعارة بوصف الدابّة المتقدّمة في السير. كنّى بهما عن لحوق الدنيا بالدابّة تكون كذلك. ووجه المشابهة في الوصف الأوّل أنّ الدنيا في تغيّراتها وأحوالها وحركاتها غير مضبوطة ولا جارية مع الإنسان على حال واحد فأشبهت الناقة التي تعترض في طريقها وتمشي على غير استقامة، ووجهها في الثاني أنّ مدّة الحياة الدنيا في غاية الإسراع وشدّة السير بأهلها إلى الآخرة فأشبهت السريعة من الدوابّ المتقدّمة في سيرها.

الثاني: الجامحة الحرون. استعار وصف الجماح لها باعتبار كونها لا تملك لأهلها ولا ينقاد لهم كما لا ينقاد الحرون لراكبها، وكذلك وصف الحرون باعتبار عدم انقياده لأهلها وعدم قدرتهم على تصريفها وهم أحوج ما يكونون إليها.

الثالث: المائنة الخؤون. فاستعار وصف الكاذبة لها باعتبار عدم مطابقة اغترارها للناس بزينتها ومتاعها وتوهّمهم عن ذلك بقاؤها ونفعها لما عليه الأمر في نفسه. إذ كان عن قليل ينكشف كذبها فيما غرتهم به وكذب أوهامهم فيها، وكذلك وصف الخؤون باعتبار عدم وفائها لمن غرّته وخدعته عن نفسه بزينتها فكأنّها لذلك أعطته عهداً بدوامها له فخانته بزوالها عنه ولم تف بعهده.

الرابع: الجحود الكنود، واستعار لها هذين الوصفين ملاحظة لشبهها بالمرأة التي تكفر نعمة زوجها وتنكر صنيعه، ويكون من شأنها الغدر. وذلك

أن الـدنيا من شـأنها أن تنفـر عمّن رغب فيها وسعى لهـا واجتهد في عمـارتها وإظهار زينتها، ويكون سبب هلاكه ثمّ ينتقل عنه إلى غيره.

الخامس: العنود الصدود. فاستعار وصف العنود لها باعتبار عدولها عن حال استقامتها على الأحوال المـطلوبة للنـاس، وانحرافهـا عن سنن قصودهـم منها كالناقة التي تنحـرف عن المرعى المعتـاد للإبـل وترعى جـانباً. وكـذلك الصدود باعتبار كثرة إعراضها عمّن طلبها ورغب فيها.

السادس: والحيود الميـود فاستعارة وصف الحيود ظـاهرة، وأمّـا وصف الميود فباعتبار تردّدهـا في ميلها بـالنسبة إلى بعض أشخـاص الناس من حـال إلى آخر فتارة لهم وتارة عليهم. ويحتمل أن لا يكون قد اعتبـر قيد التـردّد بل أراد مطلق الحركة استعارة لكثرة تغيّرها وانتقالها.

السابع: حالها انتقال. إخبار عن حـالها بـأنّها انتقـال: أي من شخص إلى آخر ومن حال إلى حال. وظاهر أنّها كذلك. قال بعض الشارحين: يجوز أن يـريد بـه أنّ شيمتها وسجيّتهـا الانتقال والتغيّـر. ويحتمل أن يعنى بـالحال الحـاضرة من الـزمان وهـو الآن. ويكون مـراده أنّ الذي يحكم عليـه العقلاء بالحضور منها ليس بحاضر بل هو سيّال متغيّر لا ثبوت لـه في الحقيقة كمـا لا ثبوت للماضي والمستقبل.

الثامن: ووطأتها زلزال. استعار لفظ الوطأة لإصابتها ببعض شدائـدها، ووجه الاستعارة استلزام إصابتها بذلك إهانة من أصابته والثقل عليه كما يستلزم وطـأة الثقيل من الحيـوان ذلك، واستعـار لفظ الزلـزال لاضطراب أحـوال من تصيبه بمكروهها كاضطراب الأرض بالزلزال.

التاسع: عزّها ذلّ: أي العـزّ الحاصـل عنها لأهلهـا بسبب كثرة قينـاتها كعـزّة ملوكها ومنفعتهم ذلّ في الآخـرة، وأطلق عليه لفظ الـذلّ إطلاقـاً لاسم الملزوم على لازمه أو تسمية الشيء بـاسم ما يؤول إليـه. إذ كان العـزّ بالـدنيا وأموالها مستلزمـاً للانحـراف عن الدين والتقـوى الحقّة، وذلـك مستلزم للذلّ الأكبـر عند لقـاء الله. وإليه الإشـارة بقولـه تعالى حكـاية عن المنـافقين **﴿لئن رجعنـا إلى المدينـة ليخرجنّ الأعـزّ منها الأذلّ ولله العـزّة ولرسوله وللمؤمنين**

ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾[1] ونقل المفسّرون أنّ القائل لذلك عبد الله ابن أبي، والأعزّ يعني نفسه والأذلّ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فردّ **الله تعالى** عليه بقوله: **﴿فلله العزّة ولرسوله﴾**[2] الآية.

العاشر: وجدّها هزل. استعار لفظ الجدّ وهو القيام في الأمر بعناية واجتهاد لإقبالها على بعض أهلها بخيراتها كالصديق المعتني بحال صديقه، ولإدبارها عن بعضهم وإصابتها له بمكروهها كالعدوّ القاصد لهلاك عدوّه. واستعار لجدّها لفظ الهزل الذي هو ضدّه. ووجه الاستعارة كونها عند إقبالها على الإنسان كالمعتنية بحالها أو عند إعراضها عنه ورميه بالمصائب كالقاصدة لذلك ثمّ يسرع انتقالها عن تلك الحال إلى ضدّها فهي في ذلك كالهازل اللاعب. ويحتمل أن يريد جدّ أهلها هزل: أي عنايتهم بها واجتهادهم في تحصيلها يشبه الهزل واللعب في سرعة تغيّره والانتقال عنه بزوالها فاستعار له لفظه.

الحادي عشر: وعلوّها سفل: أي العلوّ الحاصل بسببها أو علوّ أهلها على تقدير حذف المضاف، وأخبر عنه بأنّه سفل لاستلزامه السفل وانحطاط المرتبة في الآخرة بين أهلها. وهو كقوله: وعزّها ذلّ.

الثاني عشر: كونها دار حرب. كقوله: أموالها محروبة. وأراد كونها مظنّة أن تسلب قيناتها عن أهلها بالموت وغيره. واستعار لفظ السلب لما فيها من القينات. ووجه المشابهة كون ما فيها يسلب عن أهلها في كلّ زمان ويصير إلى من بعدهم كدار حرب. وكذلك نهب وعطب.

الثالث عشر: كون أهلها على ساق: أي على شدّة. وهو ظاهر. إذ كلّ ما عدّد من أوصافها من الحرب والسلب والعطب شدائد عليها أهلها. وقال قطب الدين الراونديّ: أراد بكونها على ساق أنّ بعضهم يتبع أثر بعض إلى الآخرة فأشبه ذلك قولهم: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق: أي ليس بينهم أنثى. وأنكره ابن أبي الحديد. وكنّى بالساق عن الأمر الشديد. قال بعض

---

(1) ٦٣ - ٨.
(2) ٦٣ - ٨.

الشارحين: ويحتمل أن يكون مصدر قولك ساقه سياقاً: أي أنّهم مساقون إلى الآخرة، ولحاق ـ بفتح اللام ـ أي يلحق بعضهم بعضاً في الوجود والعدم، وفراق يفارق بعضهم بعضاً. وهو كقولهم: الدنيا مولود يولد ومفقود يفقد. ويحتمل أن يريد باللحاق لحاق الأحياء للموتى في العدم.

الرابع عشر: كونها قد تحيّرت مذاهبها، ولم يرد بمذاهبها طرقها المحسوسة ولا الاعتقادات بل الطرق العقليّة في تحصيل خيرها ودفع شرّها. وأسند الحيرة إلى المذاهب مجازاً إقامة للعلّة القابلة مقام العلّة الفاعلة. إذ الأصل تحيّر أهلها في مذاهبها.

الخامس عشر: وأعجزت مهاربها: أي وأعجزت من طلبها. فحذف المفعول لأنّ الغرض ذكر الإعجاز. ومهاربها مواضع الهرب من شرورها.

السادس عشر: وخابت مطالبها. استعار وصف الخيابة للمطالب، ووجه المشابهة عدم حصولها بعد ظهورها للأوهام وتعلّق الآمال بها فأشبهت من وعد بحصول شيء لم يف به. ثم عقّب بذكر بعض لوازم خيابة مطالبها، وهي إسلام المعاقل لهم، واستعار لها لفظ الإسلام باعتبار كونها لا تحفظهم من الرزايا ولا تحصنهم من سهام المنايا فأشبهت في ذلك من أسلم الملتجىء إليه وخلّى عنه لعدوّه. ولكون ذلك لازماً عطفه بالفاء. وكذلك لفظ المنازل لهم مستعار باعتبار خروجهم منها بالموت فهي كاللافظة الملقية لهم. ثمّ قسّمهم باعتبار لحوق شرّها لأحيائهم وأمواتهم إلى أصناف:

أحدها: ناج معقور. وأراد الباقين فيها، وكنّى بالمعقور عن من رمته بالمصائب فيها المشبهة للمعقور.

الثاني: ولحم مجزور، وأراد منهم من صار لحماً مجزوراً.

الثالث: وشلو مذبوح. وأراد ذي شلو مذبوح: أي قد صار بعد الذبح أشلاء متفرّقة، ويحتمل أن يكون مذبوح صفة للشلو، وأراد بالذبح مطلق الشقّ كما هو في أصل اللغة.

الرابع: ودم مسفوح: أي وذي دم مسفوح.

الخامس: وعاضّ على يديه، وهو كناية عن ندم الظالمين بعد الموت على التفريط والتقصير. إذ كان من شأن النادم ذلك.

السادس: وصافق بكفيّه: أي ضارب إحديهما على الأخرى ندماً.

السابع: و ـ كذلك ـ مرتفق لخدّيه: أي جاعل مرفقيه تحت خديّه فعل النادم.

الثامن: و ـ كذلك ـ وزار على رأيه: أي رأيه الذي اقتضى له السعي في جمع الدنيا والالتفات إليها بكلّيّته حتى لزم من ذلك إعراضه عن الآخرة فحاق به سيّىء ما كسب فإذا انكشف له بعد الموت لزوم العقاب وظهرت له سلاسل الهيئات البدنيّة وأغلالها في عنقه علم أنّ كلّ ذلك ثمرة ذلك الرأي الفاسد فأزرى عليه وعابه وأنكره.

التاسع: وراجع عن عزمه: أي ما كان عزم من عمارة الدنيا والسعي في تحصيلها، وبالموت تنجلي تلك العزوم ويرجع عنها.

وقوله: وقد أدبرت الحيلة.

الواو للحال من الضمير في راجع: أي وراجع عن عزمه حال ما قد أدبرت حيلته وهذه الحال مفسّرة لمثلها عن الضمائر المرفوعة في عاضّ، وصافق، ومرتفق، وزار.

وقوله: وأقبلت الغيلة.

أي أخذهم إلى جهنّم وإهلاكهم فيها على غرّة منهم بذلك الأخذ، وقال بعض الشارحين: يحتمل بالغيلة الشرّ بمعنى الغائلة.

وقوله: ولات حين مناص.

في موضع الحال والعامل أقبلت: أي وأقبل الهلاك والشرّ حال ما ليس لهم وقت فرار ولا تأخّر عنه كقوله تعالى: ﴿**كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص**﴾[1] أي فنادوا مستغيثين حال ما ليس الوقت وقت

---

(١) ٣٨ ـ ٢.

مخلص ومفرّ.

وقوله: هيهات هيهات.

أي بعد الخلاص والفرار. وأتى به مكرّراً للتأكيد، وهو في مقابلة قول الكفّار المنكرين لأحوال المعاد «هيهات هيهات لما توعدون» وكالجزاء له بعد الموت.

وقوله: وقد فات ما فات. إلى قوله: ذهب.

أي فات ما كنتم فيه من أحوال الدنيا التي يتمنون الرجعة إليها فلا رجوع لها. ونحوه قوله تعالى: **﴿قال ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً﴾**(١) الآية.

وقوله: ومضت الدنيا لحال بالها.

كلمة يخبر بها عمّن مضى، أو يأمر بالمضي: أي ومضت عنهم الدنيا لحال بالها. ونحوه قوله عليه السلام: حتّى إذا مضى الأوّل لسبيله. وقوله: امض لشأنك. واللام للغرض فكأنّه استعار لها لفظ البال بمعنى القلب ملاحظة لشبهها بمن يمضي لغرض نفسه وما يهواه قلبه، ويحتمل أن يريد بالبال الحال أيضاً وجواز الإضافة لاختلاف اللفظين، وقال بعض الشارحين: أراد بحال بالها ما كانت عليه من رخائها وسهولتها على أهلها.

وقوله: وأقبلت الآخرة.

أي بشدّتها وصعوبتها. ثمّ ختم بالآية اقتباساً. والمعنى أنّهم لمّا ركنوا إلى الدنيا فعلت بهم ما فعلت، وحصلوا على ما حصلوا عليه من البداهة، وولّت عنهم لشأنها «**فما بكت عليهم السماء والأرض**» قال بعض المفسّرين: أراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض فحذف المضاف. وهو كناية عن كونهم لا يستحقون أن يتأسّف عليهم ولا أن يبكون، وقيل: أراد المبالغة في تحقير شأنهم لأنّ العرب كانت تقول في عظيم القدر يموت: بكته السماء والأرض. فنفى عنهم ذلك، وأراد ليسوا ممّن يقال فيهم مثل هذا القول.

---

(١) ٢٣ - ١٠١.

وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ لمّا قيل له: أتبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: يبكيه مصلاّه في الأرض ومصعد عمله في السماء.

فيكون نفي البكاء عنهم كناية عن أنّه لم يكن لهم في الأرض موضع عمل صالح حتى يكون له مصعد في السماء فلم تبك عليهم، ونحوه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من مسلم إلاّ وله بابان: باب يصعد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقه إلى الأرض فإذا مات بكيا عليه. فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾[1] واعلم أنّ إطلاق لفظ البكاء على السماء والأرض مجاز في فقدهما لما ينبغي أن يكون فيهما من مساجد المؤمنين ومصاعد أعمالهم قياساً في ذلك من فقد شيئاً يحبّه ويبكي له فأطلق عليه إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. وبالله التوفيق.

٢٣٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

تسمى القاصعة:

وهي تتضمن ذم إبليس على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية، وتحذير الناس من سلوك طريقته وفيها فصول:

الفصل الأوّل: قوله:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ؛ وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ؛ لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ. (إنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إلاَّ إبْلِيسَ) اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لأَصْلِهِ، فَعَدُوُّ اللهِ إمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ؛

---

(١) ٤٤ ـ ٢٨.

وادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

أَلا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ آللهُ بِتَكَبُّرِهِ؟ وَوَضَعَهُ آللهُ بِتَرَفُّعِهِ؟ فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعِيراً.

وَلَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيهِ عَلَى الْمَلائِكَةِ، وَلٰكِنَّ آللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ آبْتَلَى خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالاِخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلاءِ مِنْهُمْ.

أقول: نقل في سبب هذه الخطبة: أنّ أهل الكوفة كانوا في آخر خلافته عليه السلام قد فسدوا وكانوا قبائل متعدّدة فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمنازل قبيلة أخرى فيقع به أدنى مكروه فيستعدي قبيلته، وينادي باسمها مثلاً يا للنخع أو يا لكنده نداء عاليا يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ فيتألب عليه فتيان القبيلة التي قد مرّ بها وينادون يا لتميم يا لربيعة فيضربونه فيمرّ إلى قبيلته ويستصرخ بها وتسلّ بينهم السيوف وتثور الفتنة، ولا يكون لها أصل في الحقيقة ولا سبب يعرف إلاّ تعرّض الفتيان بعضهم ببعض، وكثر ذلك منهم فخرج عليه السلام إليهم على ناقة فخطبهم هذه الخطبة. إذا عرفت ذلك فنقول:

القصع: ابتلاع الماء والجرّة، وقصعت الرجل قصعاً: صغّرته وحقّرته، وقصعت هامته: إذا ضربتها ببسط كفّك، وقصع الله شبابه: إذا بقي قميئاً. فهو مقصوع لا يزداد. وأصل هذه الكلمة للتصغير والتحقير. والجبريّة والجبروت: الكبر. وادّرعه: لبسه كالدرع. والدحر: الطرد. وخطف بالكسر. يخطف: أخذ البصر بسرعة استلابا. وتبهر العقول: أي يغلب نوره أنوارها وينمحق فيه. والرواء: المنظر الحسن. والعرف: الرائحة الطيّبة. والخيلاء: الكبر. والإحباط: الإبطال. والجهد بفتح الجيم: الاجتهاد. والهوادة: الصلح.

وقد ذكر الشارحون في تسمية هذه الخطبة القاصعة وجوهاً:

أحدها: وهو أقربها أنّه عليه السلام كان يخطبها على ناقته وهي تقصع بجرّتها فجاز أن يقال: إنّ هذه الحال لمّا نقلت عنه في أسناد هذه الخطبة نسبت الخطبة إلى الناقة القاصعة فقيل: خطبة القاصعة ثمّ كثر استعمالها فجعلت من صفات الخطبة نفسها، أو لأنّ الخطبة عرفت بهذه الصفة لملازمة قصع الناقة لإنشائها. والعرب يسمّي الشيء باسم لازمه.

الثاني: إنّها سمّيت بذلك لأنّ المواعظ والزواجر فيها متتابعة فأشبهت جرّات الناقة وتتابعها.

الثالث: سمّيت بذلك لأنّها هاشمة كاسرة لإبليس، ومصغّرة ومحقّرة لكلّ جبّار. وهو وجه حسن أيضاً.

الرابع: لأنّها تسكّن نخوة المتكبّرين وكبرهم فأشبهت الماء الذي يسكّن العطش فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه إذا سكّنه وأذهبه.

واعلم أنَّ مدار هذه الخطبة على النهي عن الكبر والتوبيخ عليه وعلى ما يلزمه من الحميّة والعصبيّة لغير الله تعالى ليكون الناس على ضدّ ذلك من التواضع والرفق، وقد علمت في المقدّمات أنّ من شأن الخطيب أن يوردفي صدر الخطبة ما ينبّه على المطلوب الذي يورده بقول كلّي ليتنبّه السامعون لما يريده إجمالاً فلذلك صدّر عليه السلام الخطبة بنسبة العزّ والكبرياء والعظمة إلى من هو أولى به وهو الله تعالى، وأشار إلى أنّ ذلك خاصّة له وحرام على غيره، وذكر إبليس وقصّته مع آدم عليه السلام في معرض الذمّ بتكبّره عليه ليترتّب على ذكره وذمّه بتلك الرذيلة النهي والتحذير عن ارتكابها وليحصل التنفير بحاله إذ كان بذلك ملعوناً مطروداً على ألسنة الأنبياء بأسرهم. وإذ كان مدار الخطبة ذمّ الكبر والنهي عنه فلنشر إلى حقيقته في الإنسان أوّلاً ثمّ إلى ما يلزمه من الآفات وإلى المذامّ الواردة فيه.

فنقول: أمّا حقيقته فهي هيئة نفسانيّة تنشأ عن تصوّر الإنسان نفسه أكمل من غيره وأعلى رتبة وتلك الهيئة تعود إلى ما يحصل للنفس عن ذلك التصوّر من النفخ والهزّة والتعزّز والتعظّم والركون إلى ما تصوّرته من كمالاتها وشرفها على الغير، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أعوذ بك من نفخة الكبر.

وهي رذيلة تحت الفجور تقابل فضيلة التواضع. وما يلزم عن ذلك التصوّر أعني تصوّر الإنسان فضيلته على الغير إن قطع النظر فيه عن قياسه على متكبّر عليه وعن إضافته إلى الله تعالى باعتبار أنّه منه ولم يكن خائفاً من فوت تلك الفضيلة بل كان ساكناً إليها مطمئناً فذلك هو العجب فإذن العجب هيئة تلزم عن تصوّر الكمال في النفس و استقطاعه عن المنعم به والركون إليه والفرح به مع الغفلة عن قياس النفس إلى الغير بكونها أفضل منه. وبهذا الفصل الأخير ينفصل عن الكبر. إذ كان لا بدّ في الكبر من أن يرى الإنسان لنفسه مرتبة وللغير مرتبة ثمّ يرى مرتبته فوق مرتبة غيره. وأمّا آفاته وهي ثمراته وما يلزم عنه من الأعمال والتروك فإنّ هذا الخلق يوجب أعمالاً إذا ظهرت على الجوارح قد تسمّى كبراً: فمنها باطنة كتحقير الغير وازدرائه، واعتقاد أنّه ليس أهلاً للمجالسة والمواكلة والأنفة عن ذلك. واعتقاد أنّه يصلح أن يكون ماثلاً بين يديه قائماً؛ بل قد يعتقد من هو أشدّ كبراً أنّ ذلك لا يصلح للمثول بين يديه، وكحسده والحقد عليه، وكنظر العالم المتكبّر إلى الجاهل العاميّ بعين الاستخفاف والاستجهال. وأمّا الظاهرة فكالتقدّم عليه في الطرق والارتفاع عليه في المجالس، وكإبعاده عن مجالسته ومؤاكلته، والعنف به في النصح، والغضب عند ردّ قوله، والغلظة على المتعلّمين وإذلالهم واستخدامهم، والغيبة والتطاول بالقول. وأمّا التروك: فكترك التواضع والاستنكاف عن مجالسة من دونه ومعاشرته وعدم الرفق بذوي الحاجات ونحو ذلك ممّا لا يحصى من الرذائل.

وأمّا المذامّ الواردة فيه: فهي كثيرة في القرآن الكريم والسنّة النبويّة كقوله تعالى: **﴿كذلك يطبع الله على قلب كلّ متكبّر جبّار﴾**[1] وقوله: **﴿واستفتحوا وخاب كلّ جبّار عنيد﴾**[2] وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: يقول الله عزّ وجلّ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنّم. وقوله عليه السلام: لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر. وإنّما صار حجاباً عن الجنّة لأنّه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين التي هي أبواب

---

(١) ٤٠ ـ ٣٧.

(٢) ١٤ ـ ١٨.

الجنّة. فالكبر والعجب يغلق تلك الأبواب كلّها لأنّها لا تقدر على أنْ يحبّ للمؤمن ما يحبّ لنفسه وفيه شيء من العزّة، ولا يتمكّن من ترك هذه الرذائل وفعل أضدادها من الفضائل كالتواضع وكظم الغيظ وقبول النصح والرفق في القول وغيرها وفيه شيء من العزّة والكبرياء. وما من خلق ذميم إلّا وصاحب العزّة والكبر مضطرّ إليه ليحفظ به عزّه. وما من خلق فاضل إلّا وهو عاجز عنه خوفاً أن يفوته عزّه فلذلك لم يدخل الجنّة من في قلبه مثقال حبّة من كبر وبعض الأخلاق الذميمة مستلزم للبعض. وشرّ أنواع الكبر ما منع العلم واستعماله وقبول الحقّ والانقياد له.

إذا عرفت ذلك فنقول: إنّه عليه السلام حمد الله تعالى باعتبارات:

أحدها: لبسه للعزّ والكبرياء. ولمّا علمت أنّ الكبرياء لا بدّ فيه من أمرين: **أحدهما**: العلم بكمال الذات. **والثاني**: اعتبار الشرف والعلوّ على الغير فكان هذان الاعتباران صادقين عليه تعالى أتمّ من صدقهما على كلّ موجود لا جرم كان بالكبرياء والعظمة أحقّ من كلّ موجود أمّا الأوّل: فلأنّه لمّا كان كمالات الذات عبارة عن الوجود وكماله فكان وجوده تعالى أتمّ الوجودات بحيث لم يفته من كماله شيء بل كلّ ما ينبغي له فهو حاصل بالفعل لا جرم صدق عليه هذا الاعتبار أتمّ صدق. وأمّا الثاني: فلأنّ وجوده تعالى هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كلّ موجود عداه، وهو تعالى عالم بجميع المعلومات كلّيّها وجزئيّها فهو إذن عالم بكماله وشرفه على عبيده. واستعار لفظ اللبس باعتبار إحاطة كماله بكلّ اعتبار له كما يحيط القميص والرداء بجسد لابسه.

الثاني: كونه تعالى اختارهما لنفسه دون خلقه. ومعنى اختياره هنا تفرّده باستحقاقهما لذاته فإنّ المستحقّ للعزّ والكبرياء بالذات ليس إلّا هو، ودلّ على ذلك المنقول والمعقول. وأمّا المنقول: فقوله تعالى: ﴿**عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**﴾[1] والألف واللام هنا يفيد حصر الكبرياء والعلوّ فيه، وأمّا المعقول فلأنّه تعالى لمّا استحقّ ذلك الاعتبار لذاته لا بأمر خارج وإلّا

---

(١) ١٦ ـ ١٠.

لكان مفتقراً إلى الغير. ثم ذمّ المتكبرين وتوعّدهم في كتابه العزيز وعلى لسان نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال حكاية عنه: الكبرياء ردائي. الخبر. علمنا أنّه قد اختار الاختصاص بهما دون خلقه.

الثالث: وجعلهما حمى وحرماً على غيره. استعار لفظ الحمى والحرم باعتبار اختياره لهما وتحريمهما على غيره من خلقه كما يحمي الملك المرعى والحرم.

الرابع: واصطفاهما لجلاله: أي لتقدّسه وعلوّه عن شبه مخلوقاته استحقّ الانفراد بهذين فتفرّد بهما. وهو معنى اصطفائه لهما.

الخامس: جعله اللعنة على من نازعه فيهما من عباده. إشارة إلى نحو قوله في الخبر المذكور: فمن نازعني فيهما ألقيته في جهنّم. ولا شكّ أنّ الملقى في جهنّم مبعّد مطرود عن الخير والرحمة. ولفظ المنازعة في الخبر مجاز في محادّة المتكبّرين ومجانبتهم له ومخالفتهم لأمره في الاتّصاف بالكبر فكأنّهم يجاذبونه ما اختص به ومن لوازم المجاذبة المنازعة القوليّة فأطلقت هنا إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه.

السادس: اختباره بذلك ملائكته المقرّبين. إلى قوله: ساجدين: أي ابتلاهم بالتكبّر وعدمه. وقد علمت معنى ابتلائه واختباره تعالى لخلقه فيما سبق. ونزيده بياناً. فنقول: لمّا كانت حقيقة الاختبار طلب الخبر بالشيء ومعرفته لمن لا يكون عارفاً به، وكان هو تعالى عالماً بمضمرات القلوب وخفيّات القلوب فيميّز المطيعين من عبيده من العصاة لم يكن إطلاقاً هذا اللفظ في حقّه حقيقة بل على وجه الاستعارة باعتبار أنّه لمّا كان ثوابه وعقابه للخلق موقوفين على تكليفهم بما كلّفهم به فإن أطاعوه فيما أمرهم أثابهم وإن عصوه عاقبهم أشبه ذلك اختبار الإنسان لعبيده وتمييزه لمن أطاعه منهم ممّن عصاه، وأطلق عليه لفظه.

وقوله: ليميز المتواضعين منهم من المتكبّرين.

ترشيح لاستعارة الاختبار لأنّ التميز من لوازمه وعوارضه. ويحتمل أن يريد ليميز المطيعين عن العصاة بإعطاء الثواب لهم دونهم فلا يكون التميز

بمعنى العلم بل الانفصال الخارجيّ لكلّ من المطيعين والعصاة بما يستحقّه من ثواب وعقاب.

وقوله: وهو العالم. إلى قوله: العيوب.

قرينة مخرجه للاختبار عن حقيقته، وهي جملة معترضة بين القول والمقول للملائكة وهو قوله تعالى: ﴿**إنّي خالق**﴾ إلى آخره. والمختبر به هو قوله: ﴿**فقعوا له ساجدين**﴾[1] وقال بعض الشارحين: إنّما اختبرهم مع علمه بمضمراتهم لأنّ اختباره تعالى ليس ليعلم بل ليعلّم غيره من خلقه طاعة من يطيع وعصيان من يعصي قال: وقوله: ﴿**لنعلم أي الحزبين**﴾ وقوله: ﴿**لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه**﴾ أي لتعلم أنت وغيرك. وفيه بعد. وقد شرحنا قصة الملائكة وإبليس وآدم في الخطبة الاولى بقدر الوسع فلا حاجة إلى التطويل بالإعادة غير أنَّ هيهنا الفاظاً تحتاج الى الايضاح. وافتخار إبليس وتعصّبه وتكبره على آدم في قوله: ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ وقوله: أأسجد لمن خلقت طيناً أأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون. فكان تعصّبه عليه واستكباره نظراً إلى أصلهما، وكونه إمام المتعصّبين باعتبار كونه المنشأ لرذيلة العصبيّة في غير الحق والمعتدي به فيها. وأمّا العصبية في الحق فهي محمودة كما جاء في الخبر: العصبية في الله تورث الجنّة، والعصبيّة في الشيطان تورث النار. وكذلك كونه سلفاً للمتكبّرين باعتبار تقدّمه للمتكبّرين بالاستكبار على آدم. والسلف هو التقدّم.

وقوله: الذي وضع أساس العصبيّة.

إذ كانت عصبيّته لأصله كالأساس للخلق يبني عليه الخلق سائر العصبيّات ويقتدى به فيها.

وقوله: ونازع الله رداء الجبريّة.

أي بتجبّره وتكبّره. وقد عرفت وجه الاستعارة في المنازعة في الرداء، وكذلك قوله: وادّرع لباس التعزّز. لمّا استعار لفظ الادّراع لإبليس من جهة

---

(1) ١٥ ـ ٢٩.

اشتماله وتلبّسه بالتعزّز رشّح بذكر اللباس، وكذلك قوله: وخلع قناع التذلّل. استعارة للفظ الخلع، وترشيح بلفظ القناع.

وقوله: ألا ترون. إلى قوله: بترفّعه.

تنبيه على كيفيّة تصغير الله إيّاه ووضعه له بسبب تكبّره وتعظّمه، وذلك التصغير والوضع هو جعله في الدنيا مدحوراً بعد إخراجه من الجنّة بقوله تعالى: ﴿اخرج منها مذؤوماً مدحوراً﴾[1] وإعداده له في الآخرة سعيراً بقوله تعالى: ﴿لأملئنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين﴾[2] ونحوه.

وقوله: ولو أراد الله. إلى قوله: على الملائكة. في صورة قياس اقتراني مركّب من متّصلين صغراهما قوله: ولو شاء الله. إلى قوله: لفعل. وكبراهما: قوله: ولو فعل. إلى آخره. وتالي الكبرى مركّب من جملتين عطفت إحديهما على الأخرى. ومعنى الصغرى أنّه تعالى لو أراد قبل خلق آدم أن يخلقه من نور شفّاف لطيف يخطف الأبصار ويبهر العقول حسنه، وطيب يأخذ الأنفاس رائحته ولم يخلقه من طين ظلمانيّ كثيف لفعل لأنّ ذلك أمر ممكن مقدور له، ويحتمل أن يريد بخلقه من النور روحانيّاً مجرّداً عن علاقة الموادّ المظلمة. وقد توصف المجرّدات بالنور فيقال: أنوار الله، وأنوار جلاله، وأنوار حضرته، وقد أضاءنا بنور علمه. ويوصف بالرائحة أيضاً فيقال: فلان لم يشمّ رائحة العلم. وبالطعم فيقال: فلان لم يذق حلاوة العلم. وكلّ ذلك استعارة لفظ المحسوس للمعقول تقريباً للأفهام. ومعنى الكبرى أنّه لو فعل ذلك وخلقه كذلك لظلّت أعناق الملائكة وإبليس خاضعة له. وذلك لشرف جوهره على الطين وفضل خلقته على ما يخلق منه ولم يكن ممّن يفسد في الأرض ويسفك الدماء حتى تقول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. ولا من طين منتن حتى يفخر عليه إبليس بأصله يقول: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، أأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون. ولخفّت البلوى فيه على الملائكة. وبيان الخفّة من

---

(1) ٧ - ١٧.
(2) ٣٨ - ٨٥.

وجهين: **أحدهما**: لشرف جوهره فإنّه من العادة أن يستنكف الشريف من الخضوع لمن هو دونه في أصله ويشقّ عليه التكليف بذلك في حقّه فأمّا إذا كان أصله مناسباً لأصله ومقارناً في الشرف فلا شكّ أنّ تكليفه بخدمته يكون عليه أسهل وأخفّ. **والثاني**: أنّهم ما كانوا عالمين بالسرّ الذي خلق له آدم وهو كونه صالحاً لخلافة الله سبحانه في عمارة الأرض وإصلاح أبناء نوعه وإعدادهم للكمالات وغير ذلك ممّا لا يعلمونه كما قال تعالى في جواب قولهم: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ إلى ﴿إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾**(1) وكما علّمه الأسماء وأمره بعرضها عليهم فقال: **﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا﴾**(2) وظاهر أنّ تكليف النفس بما يطّلع على سرّه ويعلم وجه الحكمة فيه أسهل عليها من تكليفها بما تجهله. فلو خلقه تعالى من نور مناسباً لخلقهم لعلموا نوعيّته وسرّ خلقه فلم يشقّ عليهم التكليف بالسجود له. ويؤيّد هذا الوجه قوله: ولكنّ الله سبحانه مبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله وفي هذا الاستثناء تنبيه على عدم إرادة خلق آدم من نور. وذلك العدم هو نقيض مقدّم نتيجة القياس المذكور اللازم عن استثناء نقيض تاليها. وتقدير النتيجة أنّه لو أراد خلقه من نور لظلّت الأعناق له خاضعة وخفّت البلوى على الملائكة لكن لم يكن الأمر كذلك فاستلزم أنّه لم يرد خلقه من نور. فكان معنى قوله: ولكنّ الله ابتلى خلقه. أنّه لم يرد خلقه من نور بل أراد أن يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله وهو تكليفهم بالسجود لآدم مع جهلهم بأصل ذلك التكليف والغرض منه أو جهلهم بآدم وسرّ خلقته الذي هو أصل لذلك التكليف.

ونصب قوله: تمييزاً ونفياً وإبعاداً على المفعول له: أي ليميّز بذلك التكليف وبما يستلزم من الذلّة والانقياد والخضوع المطيع من العاصي، ولينفي رذيلة الكبر والخيلاء عنهم وبالله التوفيق.

الفصل الثاني: في أمر السامعين بالاعتبار بحال إبليس وما لزمه من

---

(1) ٢ - ٢٨.
(2) ٢ - ٣٠.

اللعنة وبطلان أعماله الصالحة في المدّة المتطاولة بسبب التكبّروالعصبيّة الفاسدة، والتحذير من سلوك طريقته واقتفاء أثره في الكبر ولوازمه من الرذائل التي عدّدناها. وذلك قوله:

فَاعْتَبِرُوا لِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ بِإِبْلِيسَ؛ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ سِنِي الْآخِرَةِ ـ عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْ بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى ٱللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا! مَا كَانَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً، إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ ٱلْأَرْضِ لَوَاحِدٌ، وَمَا بَيْنَ ٱللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

فَاحْذَرُوا عَدُوَّ ٱللهِ، أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ لَكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، وقال: (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى ٱلْأَمْرِ الْجَلِيِّ؛ اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ: طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ جَرْحاً، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ؛ فَاجْعَلُوا عَلَيهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكُمْ! فَلَعَمْرُ ٱللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ؛ وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ: يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ؛ وَحَلَقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ

مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلاَءٍ. فَأَطْفِئُوا مَاكَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ، وَنَفَثَاتِهِ، وَآعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً، بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ: إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجْلاً وَفُرْسَاناً. وَلاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى آبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ. ٱللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ آللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أَلَا وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ، مُصَارَحَةً للهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ! فَاللهَ اللهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَآنِ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ! وَمَهَاوِي ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً عَلَى سِيَاقِهِ سُلُساً فِي قِيَادِهِ، أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ **ألا** فَالحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمُ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا آللهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لآلاَئِهِ!! فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَاتَّقُوا آللهَ وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً! وَلاَ تُطِيعُوا ٱلْأَدعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ؛ وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَحْلاَسُ الْعُقُوقِ؛ اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمُ آسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ؛ فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

أقول: الإحباط: الإبطال. والجهد بفتح الجيم: الاجتهاد. والهوادة: الصلح. واستفزّه: استخفّه وأزعجه. وفوّق السهم: جعل له فوقاً وهو موضع الوتر منه. ونزع القوس نزعاً: أي مدّها. والإغراق في المدّ: استيفاؤه واستيعابه. والقذف: الرمي. والطماعية: الطمع. ونجمت: ظهرت. ودلف. مشى ودنا. وأقحموكم: أدخلوكم قهراً. والولجات: جمع ولجة بفتح الجيم وهي الموضع كالكهف ونحوه تستتر به المارّة من المطر وغيره. والورطات: جمع ورطة وهي الأرض المطمئنّة لا طريق فيها، والورطة: الهلاك أيضاً. والحزّ: القطع. والخزائم ـ جمع خزامة بكسر الخاء ـ: وهي حلقة من شعر في أنف البعير يشدّ فيها الزمام. وأورى: أفعل من الورى وهو إظهار النار. والمناصبة: المعاداة والمقابلة في الحرب لأنّ كلًّا قد نصب نفسه وشرّه للآخرة. والتألّب: الإجتماع. وحسب الرجل: ما يعدّه من مفاخر آبائه. وأجلب عليه: جمع، وأصل الجلبة: الأصوات في الحرب والغارة. وحومة الشيء: معظمه، وما استدار منه على كثرة. وكذلك الحلقة للقوم. وعرصة موت: أي معرض له، وبصدده. والجولة: كالحلقة. والنخوة: الكبر. والنزع: الإفساد. والنفث: النفخ وهو أقل من التفل. والمسلحة: قوم ذو سلاح يحفظون الثغور والمراقب، وقد يطلق على تلك الأماكن أنفسها. والإمعان في الشيء: التباعد فيه، والايصال. والمصارحة: المكاشفة والمجاهرة. والملاقح: الفحول ـ واحدها ملقح بفتح الميم ـ ويحتمل أن يكون مصدراً. والشنئآن ـ بفتح النون وسكونها ـ: البغضاء. وأعنق الجمل في السير: مدّ عنقه وأوسع خطوته. والحنادس ـ جمع حندس بكسر الحاء والدال ـ: الليل شديد الظلمة. والذلل: جمع ذليلة فعيلة بمعنى مفعولة. والسلس: جمع سلس وهي سهلة القياد. والهجينة: الفعل القبيح بمعنى مفعولة. والاعتزاء: الإنتماء، والانتساب إلى أب أو قبيلة. والأدعياء: جمع دعيّ وهو الذي يدعى إلى غير أبيه وينسب إليه. والحلس: ما يلزم الشيء. وأصله من حلس البعير وهو كساء رقيق يجعل تحت بردعته وقاية لظهره. والعقوق: مشاقّة الوالد وذي الرحم، ومنع برّه.

فقوله: فاعتبروا.

أمر للسامعين باعتبار حال إبليس في الكبر بعد شرح حاله في طاعة الله وطول مدّة عبادته له وما لزمه بسبب كبر ساعة واحدة من إحباط عمله ولعنته والبعد عن رحمة الله ليتنبّهوا للتخلّي عن هذه الرذيلة. وجه الاعتبار أن يقال: إذا كان حال من تكبّر من الملائكة بعد عبادة ستّة آلاف سنة كذلك فكيف بالمتكبّرين من البشر على قصر مدّة عبادتهم وكونهم بشراً؟ فبطريق الأولى أن يكونوا كذلك وجهده الجهيد: أي اجتهاده الذي جهده وشقّ عليه.

وقوله: وكان قد عبد الله. إلى قوله: الآخرة.

فيشبه أن يكون قد أشار بسني الآخرة إلى سنين موهومة عن مثل اليوم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وإنّ يوماً عند ربّك كألف سنة ممّا تعدّون**﴾[1] وقوله: ﴿**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾[2] وتقريره أنّ الأيّام في الآخرة ممّا لا يمكن حملها على حقائقها لأنّ اليوم المعهود عبارة عن زمان طلوع الشمس إلى مغيبها، وبعد خراب العالم على ما نطقت به الشريعة لا يبقى ذلك الزمان، وعلى رأي من أثبت بقاء الفلك تكون القيامة عبارة عن مفارقة النفوس لأبدانها أو عن أحوال تعرض لها بعد المفارقة، والمجرّدات المفارقات لا يكون لاحوالها زمان ولا مكان حتى تجري في يوم أو سنة فتعيّن حمل اليوم على مجازه وهو الزمان المقدّر بحسب الوهم القائس لأحوال الآخرة إلى أحوال الدنيا وأيّامها إقامة لما بالقوّة مقام ما بالفعل. وكذلك السنة. وهذه الأزمنة هي التي أشار إلى مثلها المتكلّمون بقولهم: إنّ تقدّم الباري تعالى على وجود العالم بتقدير أزمنة لا نهاية لها. إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ قوله تعالى: ﴿**في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾ وفي موضع ﴿**مقداره ألف سنة**﴾ إشارة إلى تفاوت تلك الأزمنة الموهومة بشدّة أهوال أحوال أهل الآخرة وضعفها وطولها وقصرها وسرعة حساب بعضهم وخفّة ظهره وثقل أوزار قوم آخرين وطول حسابهم كما روي عن ابن عباس في قوله ﴿**كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾ قال: هو يوم القيامة جعله الله على

---

(١) ٢٢ - ٤٦.
(٢) ٧٠ - ٤.

الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، وأراد أنّ أهل الموقف لشدّة أهوالهم يستطيلون بقاءهم فيها وشدّتها عليهم حتى يكون في قوّة ذلك المقدار. وعن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم القيامة كان مقداره خمسين ألف سنة: ما أطول هذا اليوم؟ فقال: والذي نفسي بيده إنّه ليخفّ على المؤمن حتى يكون عليه أخفّ من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا. وهذا يدلّ على أنّه يوم موهوم وإلّا لما تفاوت في الطول والقصر إلى هذه الغاية.
إذا ثبت هذا فنقول: يحتمل أن يكون مراده عليه السلام أنّ عبادة إبليس والملائكة الذين نقلنا في الخبر في الخطبة الاولى أنّهم أهبطوا إلى الأرض وطردوا الجنّ إلى البحار ورؤوس الجبال وعبدوا الله في الأرض زماناً كانت عبادة روحانيّة لا يستدعي زماناً موجوداً بل أحوالاً موهومة تشبه الزمان، وأنّ إبليس عبد الله في تقدير أزمنة مبلغها ستّة آلاف سنة قبل خلق آدم. ويحتمل أن يقال: إنّها كانت جسمانيّة في زمان من أزمنة الدنيا ولكن يكون في كميّة كمقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا.

فأمّا قوله: لا يدرى.

ففي نسخة الرضي بالبناء للفاعل. وفي غيرها من النسخ بالبناء للمفعول. والرواية الاولى تستلزم أنّه ممّن لا يدرى أنّ تلك السنين من أي السنين والثانية يحتمل فيها كونه ممّن يدري ذلك. وبالجملة فلمّا كانت مدّة عبادة إبليس قبل آدم يحتمل أن يكون روحانيّة وأن يكون جسمانيّة، ويحتمل أن يكون بحسب ذلك في زمان موهوم أو موجود. وعلى تقدير أن يكون موجوداً يحتمل أن يكون ستّة آلاف سنة من السنين المعهودة المتعارفة لنا، ويحتمل أن يكون من سنين كانت قبل ذلك مصطلحاً على تقدير كلّ منها بألف سنة أو بخمسين ألف سنة من سنين لا جرم لم يمكن الجزم بواحد من هذه الاحتمالات فلذلك قال: لا يدرى. قال بعض الشارحين: ويفهم من تقديره عليه السلام تلك المدّة بستّة آلاف سنة لا يدرى من أي السنين هي أنّه سمع فيه نصّاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجملاً ولم يفسّره له، أو أنّه سمعه وعلم تفصيله لكنّه لم يفصّله للناس بل أبهم القول عليهم في تعيينه لعلمه أنّ تعيين سني الآخرة ممّا يستعظمونه ولا يحتمله أذهانهم فإنّ عبادته إذا كانت ستّة آلاف

سنة وكل يوم منها خمسين ألف سنة من سني الدنيا كان مبلغ ذلك ممّا يخرج من ضرب ستّة آلاف سنة في ثلاث مائة وستّين مضروبة في خمسين ألفا وهو مائة وثمانية ألف ألف ألف ـ بتكرير لفظ الألف ثلاث مرات ـ وعلى تقدير أن يكون مقدار كلّ يوم ألف سنة يكون مبلغها ما يخرج من ضرب ستّة آلاف في ثلاث مائة وستّين ألفاً وهو ألفا ألف ألف سنة ـ بتكرير الألف ثلاث مرات وتثنيه الأوّل ـ ومائة ألف ألف ـ بلفظتين ـ وستّون ألف ألف ـ بلفظتين أيضاً ـ وذلك مما لا يحتمله أذهان السامعين. فلذلك أبهم القول فيه.

وقوله: فمن. إلى قوله: معصية.

استفهام إنكار لوجود من يسلم من لعنة الله وعقوبته ممّن يكون فيه رذيلة الكبر.

وقوله: يسلم على الله.

في معنى يرجع إليه سالماً من طرده ولعنته وعذابه. تقول: سلم علي هذا الشيء إذا رجع إليك سالماً ولم يلحقه تلف. والباء في قوله: بمثل معصيته. للاستصحاب: أي فمن يرجع إلى الله سالماً من عذابه وقد استصحب مثل معصية إبليس: أي تكبّر كتكبّره وخالف أمر ربّه.

وقوله: كلاّ.

ردّ لما عساه يدّعى من تلك السلامة التي استنكر وقوعها باستفهامه. وفسّر ذلك الردّ بقوله: ما كان الله. إلى قوله: ملكاً. والباء في قوله: بأمر للاستصحاب أيضاً: أي ما كان ليدخل الجنّة بشراً مستصحباً لأمر أخرج به منها ملكاً. وذلك الأمر هو رذيلة الكبر التي يستصحبها الإنسان بعد الموت ملكة وخلقاً في جوهر نفسه. والقضيّة سالبة عرفيّة عامّة: أي لا يدخل الجنّة بشر بوصف الكبر ما دام ذلك الوصف. فإن كان ذلك الوصف يدوم كما في حقّ الكافر لم يدخل الجنّة أبداً، وإن كان لا يدوم جاز أن يدخل بعد زواله الجنّة. فإذن لا مسكة للرعية به قول القائلين بتخليد الفاسق من أهل القبلة في هذا الكلام. وأمّا حديث الإحباط فيقول: إنّما كان بسبب الكفر كما قال

تعالى: ﴿**إلّا إبليس استكبر وكان من الكافرين**﴾[1].

فإن قلت: الكلام يقتضي أنّ إحباط عمله وإخراجه من الجنّة كان بسبب تكبّره لا بسبب كفره.

قلت: الأصل هو الكبر إلّا أنّ تكبّره كان تكبّراً على الله وإباءاً لطاعته واستصغاراً لما أمر به حيث قال: أأسجد لبشر خلقته من صلصال، أأسجد لمن خلقت طينا. وذلك محادّة لله وكفر به مصارحة فكان ذلك مستلزماً لكفره. ولا شكّ أنّ الكفر يستلزم إحباط العمل واللعن والخروج من الجنّة.

وقوله: إنّ حكمه في أهل السماء. إلى قوله: لواحد.

أي في إفاضته للخير والشرّ على من يستعدّ لأحدهما فمن استعدّ من أهل السماء أو أهل الأرض لخير أو شرّ فحكمه فيه أن يفيض على ما استعدّ له وذلك حكم لا يختلف اعتباره من جهته تعالى.

وقوله: وما بين الله. إلى قوله: العالمين.

أي ليس بينه وبين أحد من خلقه صلح فيخصّصه بإباحة حكم حرّمه على سائر خلقه فيختلف بذلك حكمه فيهم لأنّ الصلح من عوارض الحاجة أو الخوف المحالين عليه تعالى. وقال بعض الشارحين: كلّ ما جاء من الإحباط في القرآن والأثر فمحمول على أنّ ذلك الفعل المحبط قد أخلّ فاعله ببعض شرائطه اللازمة إذ لم يوقعه على الوجه المأمور به المرضي، أو فعله لا على بصيرة ويقين بل على ظنّ وتخمين. وبالجملة فحيث يقع لا على وجه يستحقّ به ثواباً؛ لا على أنّه استحقّ به شيئا ثمّ احبط. فإنّ ذلك ممّا قام البرهان على استحالته. ثمّ حذّرهم من إبليس باعتبار كونه عدوّ الله بعد أمرهم باعتبار حاله وما لزمه من الشقاوة بسبب معصية له أن يعديهم بذلك الداء وهو الكبر الذي بسببه لزمته تلك الشقاوة. ومعنى عداوته لله مجانبته لأوامره ومجاوزته لطاعته إلى معصيته وهو مستعار. ولفظ الداء مستعار للكبر يقرب من الحقيقة فإنّ

(1) ٣٨ - ٨٤.

أدواء النفوس أشدّ من أدواء الأبدان. ومحلّ أن يعديكم نصب على البدل من عدوّ، ونقل عن القطب الراوندي ـ رحمه الله ـ أنّه مفعول ثان عن احذروا. وهو سهو. إذ هذا الفعل لا يتعدّى إلى مفعولين.

وقوله: بخيله ورجله.

كناية عن أعوانه من الضالّين المضلّين الذين يستخفّون الناس بالوسوسة والدعوة إلى طرق الضلال.

وقوله: فلعمري. إلى قوله: الشديد.

استعار لفظ السهم لوساوسه وتزييناته في الوعيد المحكيّ عنه بقوله تعالى: ﴿ **لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين**﴾(١) ووجه الاستعارة كونه يرمي بتلك الوساوس وجوه نفوسهم فيكون سبباً لهلاكها في الآخرة كما يكون السهم سبباً للقتل. ورشّح بذكر التفويق والإغراق والنزع والرمي. وأمّا مكانه القريب فكما نطق به الخبر النبوي في قوله: إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. وقوله: لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات. وقرب من كان كذلك ظاهر. والكلام في قوله: فلعمري. في معرض الإغراء به. وفي الباء وما يتعلّق به وجوه:

أحدها: قال أبو عبيد: معناها القسم.

فإن قلت: كيف نسب الإغواء إليه تعالى؟ وكيف يصلح الإغواء مقسما به؟.

قلت: على الأول لمّا كان تعالى خالق أسباب الغواية فيه كالقدرة والعلم وغيرهما كانت له تعالى سببيّة في إيجاد الغواية وإن كانت بعيدة فلذلك صحّ إسناد فعلها إليه تعالى، وعلى الثاني أنّه يجوز أن يكون ما بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف وتقديره بالذي أغويتني به لأزيّنن لهم وذلك هو الأمر بالسجود لآدم إذ كان بسببه استكبر وعصى فغوى، والقسم جائز بأمره تعالى وتكليفه. ومن جعل ما مصدريّة فله أن يقول: إنّ إبليس أطلق على

---

(١) ١٥ ـ ٣٩.

الأمر والتكليف الذي حصل له بسببهما الغواية لفظ الإغواء مجازاً إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب. ثمّ أقسم به باعتبار ما هو أمر وتكليف لا باعتبار ما هو غواية.

الثاني: قال غيره: هي للسببيّة: أي بكوني غاوياً لأزيّنن كما يقول: بطاعته ليدخلنّ الجنّة وبمعصيته ليدخلنّ النار. ومفعول التزيين محذوف: أي لأزيّننّ لهم الباطل حتى يقعوا فيه.

الثالث: قال بعضهم: يجوز أن يكون الباء للسببيّة ويقدّر قسم محذوف. والمعنى بسبب ما كلّفتني فاستلزم غوايتي أقسم لأزيّنن لهم.

وقوله: قذفا بغيب بعيد.

كقوله تعالى: ﴿**ويقذفون بالغيب من مكان بعيد**﴾[1] وهو مصدر حذف فعله وسدّ مسدّ الحال. قال المفسّرون: والغيب هنا بمعنى الظنّ. وفيه نظر لأنّ إطلاق لفظ الغيب على الظنّ مجاز والعدول عن الحقيقة إنّما يكون بعد تعذّر حمل اللفظ عليها ولا تعذّر هيهنا في ذلك لأنّ مفهوم الغيب هو ما غاب عن الخلق فلم يعلموه فكان القذف بكلّ ما لا يعلم والحكم به قذفاً بالغيب وحكماً به. ولمّا كان إبليس لا يعلم ما حكم به بأنّه يفعله في الخلق من التزيين والإغواء وهو بعيد عن علمه ثمّ حكم به كان حاكماً بما هو غائب عن علمه وعازب عنه وهو معنى قذفه بالغيب البعيد. وفي نسخة الرضي ـ رحمة الله عليه ـ بظنّ مصيب. وفي أكثر النسخ غير مصيب وهو المناسب لقوله: بغيب بعيد. لأنّ ما يقال عن غيب بعيد قلما يصيب ظنّه.

فإن قلت: فلم قال غير مصيب مع أنّ إبليس صدّق ظنّه في إغواء الناس وتمّ له ما ظنّ؟ كما قال تعالى: ﴿**ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه**﴾[2] الآية.

قلت: الجواب عن وجوه.

---

(١) ٣٤ ـ ٥٢.
(٢) ٣٤ ـ ١٩.

أحدها: أنّه يريد بالظنّ المصيب العلم لأنّـه المصيب الحقّ فكأنّـه قال: بظنّ ليس بعلم.

الثاني: قال بعض الشارحين: إنّما كـان غير مصيب لأنّـه ظنّ أنّ إغواءهم يكون منه، فقـال: لأغوينهم. وهـذا ظنّ فاسـد لأن إغواءهم كـان منهم اختياراً لانهم اختاروا العمى على الهدىٰ فغووا عن طريق الله. وتصديق أبناء الحمية له في ذلك يعود إلى وقوع الغواية منهم وفق ظنّه لأنّه لمّا ظنّ أنّـه يغويهم فقـد ظنّ أن الغواية تلحقهم منه فصدّقوه في الغواية وأخطأ ظنّه في تسببها اليه.

الثالث: أنّ الكلام لمّا كان في معرض ذمّ إبليس وإغراء الخلق بعداوته وقف عليه السلام في الآيـة على قولـه: أجمعين. فيكـون المعنى أنّ إبليس ظنّ أنّـه يغوي جميع الخلق. وأمّا استثناؤه لعباد الله المخلصين فذاك ليس بحسب ظنّه بل تصديقاً. لقوله تعالى: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾[1] ومعلوم أنّ ذلك الظنّ فاسد وغير مصيب. إذ كان إنّما قدر على إغواء البعض.

الرابع: قال بعض الشارحين: يحتمل أن يكون أراد بالإغواء الذي ظنّ أنّه يفعله بالخلق هو إغواء الشـرك، وبالإخـلاص في قولـه: ﴿**إلاّ عبادك منهم المخلصين**﴾[2] العصمة من المعاصي فيكون الناس إذن في ظنّه إمّا معصـوم أو مشرك وهذا ظن غير مصيب إذ وجد من ليس بمشرك ولا معصوم.

وقوله: صدّقه به أبناء الحميّة.

فـالحميّة لازم من لـوازم الكبر لأنّهـا مأخـوذة من قـولـك: حميت. إذا غضبت. فكانت حقيقتها تعـود إلى الغضب عن تصور المؤذي مـع الترفّـع على فاعله واعتقاد الشـرف عليه. واستعـار لفظ الأبناء لأصحـاب هذه الـرذيلة وأهل الكبر من الناس. ووجه الاستعارة ملازمتهم لها كما يلازم الولد أمّـه حتى صاروا كـأنّهم خلقوا منهـا وهي أصل لهم. وتصـديقهم له بـذلك الـظنّ هـو ارتكـابهم للرذائل والمعاصي اتّباعاً لـه وغوايتهم لهـا عن سبيل الله قـال بعض الشارحين: والباء في قوله: به بمعنى في: أي صدّقه فيـه. وصدّقـه في موضـع الجرّ صفـة لظنّ.

---

(١) ١٥ ـ ٤٢.
(٢) ١٥ ـ ٤٠.

وقوله: وإخوان العصبيّة.

يحتمل أن يريد إخوانها فيكون قد جعل لها إخواناً على سبيل الاستعارة وهم ملازموها كما جعل للحميّة أبناء، ويحتمل أن يريد الإخوان فيها: أي الذين عقدوا الأخوّة بينهم على العصبيّة الباطلة فيها. وكذلك فرسان الكبر والجاهليّة، ويحتمل أن يكون قد استعار لفظ الفرسان لمرتكبي الكبر والأفعال الجاهليّة. ووجه الاستعارة ظاهر، ويحتمل أن يريد فرسان الجاهليّة الموصوفين بالكبر.

وقوله: حتى. إلى قوله: الجلي.

غاية من قوله: فوّق وأغرق ورماكم. واستعار وصف الجامحة للنفوس التي كانت عاصية لإبليس آبية عن الانقياد له.

وقوله: فنجمت الحال.

أي ظهرت الحال التي كان يرومها منكم ويظنّها فيكم وهي الغواية والضلال من السرّ الخفيّ إلى الأمر الجليّ. أي من القوّة فيكم إلى الفعل.

وقوله: استفحل.

جواب الشرط. واستعار لفظ الاستفحال لشدّة سطوته وسلطانه إشارةً إلى كمال قدرته على تطويع النفوس وقهرها. وجنوده كناية عن أهل الفساد في الأرض كما علمته فيما سبق. ودلفه بهم دخولهم بالفساد على الناس وتزيينهم لهم رذائل الأخلاق وإغواؤهم إيّاهم. ومن لوازم ذلك التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر وتفرّق الكلمة، ومن لوازم تفرّق الكلمة أن يقحمهم العدوّ ولجات الذلّ ويحلّهم ورطات القتل ويوطئهم أثخان الجراحة ويحتمل أن يريد بسلطانه الذي استفحل عليه هو سلطان عدوّهم ومن خالفهم كمعاوية وغيره وقوّتهم عليهم بعد تفرّق كلمتهم وقلّة طاعتهم له عليه السلام وإضافة ذلك السلطان وجنوده إلى الشيطان ظاهرة لأنّ سلطان الحق وجنوده يقال له سلطان الله وجنود الله، وسلطان الباطل يقال له سلطان الشيطان وجنوده جنود الشيطان وأولياؤه وأعوانه. وظاهر أنهم عند تفرّق كلمتهم قد استفحل عليهم سلطان إبليس ودلف بجنوده اليهم وهم مخالفوه عليه السلام. وانتصب إثخان

الجراحة على أنّه مفعول ثان لأوطأوكم. ولفظ الولجات والورطات مستعاران للأحوال التي هي مظانّ الذلّ والقتل كالأماكن التي يفرّون إليها من عدوّهم ذلا والمواطن التي قتلوا فيها، أو لطاعتهم والاستسلام لهم. وإقحامهم وإحلالهم إيّاها إلجاؤهم لهم إلى تلك الأحوال والأماكن ولذلك استعار وصف إيطائهم إثخان الجراحة ملاحظة لمشابهة وقوعها بهم للوطىء في استلزامه للأذى. وكنّى بذلك المستعار عن إيقاعهم في حرارات الجراح. وإثخان مصدر قولك: أثخن في الجراح إذا كثر فيه وبالغ حتى فشا فكأنه ثخن.

وقوله: طعناً. إلى قوله: لمقاتلكم.

جعل محلّ الطعن العيون، والحزّ الحلوق، والدقّ المناخر، والقصد المقاتل لأنّها محالّها المتعارفة عند إرادة الإذلال والإهانة والإهلاك. لأنّ الطعن وإن كان قد يقع في سائر البدن إلاّ أنّه أبلغ في العيون وأفحش. وكذلك في باقيها. قال بعض الشارحين: انتصب طعناً وحزّاً ودقّاً وقصداً وسوقاً على المصادر عن أفعالها المقدّرة. ومن روى: لإثخان الجراحة. ـ بوجود اللام ـ فيحتمل أن يجعل طعناً مفعولاً ثانياً لأوطأوكم، ويكون اللام في الإثخان لام الغرض: أي أوطأوكم طعناً وحزّاً ودقّاً ليثخنوا الجراحة فيكم قال: ويكون قصداً وسوقاً خالصين للمصدريّة لبعدهما عن المفعول به. والأظهر هو الوجه الأوّل أعني كون كلّ منها مصدراً لفعله. ولمّا كان الفاعل بهم هذه الأفعال كلّها هو إبليس وجنوده فإن كان المراد بجنوده الساعين بين الناس بالوسوسة والفساد في الأرض فمعنى فعلهم بهم هذه الأفعال كونهم أسباباً معدّة لهم بالوسوسة المستلزمة لتفريق الكلمة ومخالفة الإمام لوقوع هذه الأفعال بهم من أعدائهم ومحاربيهم ثمّ يتبع فعل العدوّ لهم أن يسوقوهم إلى النار بخزائم القهر. ولفظ الخزائم مستعار لما يمكن في جواهر نفوسهم من الرذائل الموبقة وملكات السوء التي لا محيص لهم من النار بسببها لمشابهتها الخزائم التي يقاد بها الإبل في كونها لا مخلص عمّا يقاد إليه بسببها. ولفظ السوق ترشيح للاستعارة. وإن كان المراد بجنوده هم المخالفون له عليه السلام والمحاربون لأصحابه ففعلهم بهم تلك الأفعال ظاهر. وأمّا السائق لهم إلى النار فيحتمل أن يكون هؤلاء وذلك بإذلالهم لهم وإدخالهم في

باطلهم عن قهر وذلّة. ولا شكّ أنّ الدخول في باطلهم سبب جاذب إلى النار. ولفظ الخزائم مستعار إذن إمّا لما يتمكن من باطلهم وعبثهم في النفوس، وإمّا لأوامرهم بالباطل وحملهم على ارتكاب المنكر، ويحتمل أن يكون السائق لهم هو إبليس وجنوده من أهل الوسوسة. ثمّ رجع إلى إفراده بالفعل نظراً إلى قوله: ودلف بجنوده. فقال بعده: فأصبح أعظم في دينكم جرحاً. فاستعار لفظ الجرح للفساد المعقول الحاصل بسبب إبليس في دينهم ووجه المشابهة كون الجرح فساداً في العضو أيضاً، وكذلك استعار لفظ القدح لوساوس إبليس المستلزمة لوجود الإحن والتباغض والتحاسد بينهم الموجب لتفريق كلمتهم المستلزم لتشتّت سلطانهم وفساد نظامهم وما هم عليه من الأُبّهة واستقامة المعاش في الدنيا. ووجه المشابهة إفساد تلك الوساوس لأحوال معاشهم كإفساد قدح النار ما يقدح فيه. وجعله في حرج دينهم وإفساد دنياهم أشدّ من أعدائهم الذين هم مناصبون لهم والحكم ظاهر الصدق. إذ كانت فتنة إبليس لهم في دينهم ودنياهم أصلاً لكلّ فتنة تلحقهم من أعدائهم باعتبار أنّها سبب تفرّقهم كما سبق. ثمّ أمرهم أن يجعلوا عليه حدّهم: أي بأسهم وسطوتهم لأنّ حدّ الرجل بأسه وسطوته، أو منعهم ودفعهم. وأن يجعلوا له جدّهم: أي يجتهدوا للخلاص من فتنته بمقاومته وقهره.

وقوله: فلعمر الله. إلى قوله: بلاء.

عود إلى الإغراء بعداوته يذكر أسباب العداوة المنفّرة؛ وهي كونه فخر على أصلهم، وذلك قوله تعالى حكاية عنه: **﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾**[1] ووقع في نسبهم. وذلك قوله: **﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾**[2] فبيّن بذكر أصلهم وهو الصلصال والحمأ المسنون المنتن ونسبهم منه أنّه ساقط عن درجة الافتخار به. وخيله ورجله كناية عن جنوده من أهل الباطل، وإجلابه بخيله عليهم جمعه لجنوده على محاربتهم أو على الوسوسة لهم والإضلال، وقصده لسبيلهم: أي السبيل

---

(١) ٧ ـ ١٠.
(٢) ١٥ ـ ٣٣.

الحقّ الذي هم سالكوه إلى الله كقوله تعالى حكاية عنه: ﴿**لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم**﴾[1] وهو كناية عن جذبه لهم إلى طرف الباطل عند توجّههم إلى طرف الحقّ وسبيل الدين، واقتناصهم لهم بكلّ مكان كقوله: ﴿**ثمّ لآتينّهم من بين ايديهم**﴾[2] الآية وهو كناية عن أخذه بوسوسته لهم من كلّ وجه وإغوائه لهم عن كلّ سبيل حقّ، وضربهم منهم كلّ بنان كناية أيضاً عن كونه هو وجنوده أسباباً معدّة لقتلهم وقطعهم بأيدي أعدائهم. وعلى احتمال أن يريد بجنوده هم مخالفوه عليه‌السلام من أهل الضلال فمعنى قصدهم لسبيلهم ابتلاؤهم بالفتن والقتل ومنعهم لهم بذلك عن إقامة حدود الله والاستقامة على سبيله، واقتناصهم بكلّ مكان وضربهم منهم كلّ بنان كناية عن استقصائهم وقتلهم وأذاهم، ولفظ الاقتناص مستعار، وظاهر أنّهم لا يمتنعون من أفعاله بعد استحكام طمعه فيهم واستفحال سلطانه عليهم بحيلة، ولا يدفعون عن ألفتهم بعزيمة: أي جدّ واجتهاد وصرامة في أمر لما سبق منهم من التخاذل والانفعال، والحومة والحلقة والعرصة والجولة الفاظ كنّى بها عن الدنيا. إذ كانت محلّ ذلّهم والضيق عليهم وعرصة موتهم ومنصة بلائهم. والإضافات الأربع بمعنى اللام. ثمّ عاد إلى أمرهم بتطهير قلوبهم من رذيلة العصبيّة وأحقاد الجاهليّة، واستعار لفظ النيران لما يثور من حرارة الغضب وعنه العصبيّة، وقد علمت أنّ مبدء تلك الحرارة القلب، ورشّح بذكر الإطفاء، ولك أن تسمي تلك النيران حميّة كما سبق فلذلك فسّرها بها فقال: وإنّما تلك الحميّة ويفهم من الحميّة أنها خبر المبتدء، وقوله: تكون. خبر بعد خبر، ويحتمل أن يكون صفة لتلك والخبر تكون، وظاهر أنّ الحميّة والعصبيّة الباطلة من خطرات الشيطان التي يخطرها للنفوس، ونخواته التي يحدثها فيها بتحسينه الغلبة والانتقام والترفع والترأس على الخلق، ومن نزغاته التي يفسد بها الناس، ونفثاته التي يلقيها إلى أذهانهم لغرض الإفساد والإضلال، وأراد بإضافتها الى الشيطان التنفير عنها ثمّ أردفه بالأمر بالتذلل وأراد به التواضع وأمرهم أن يعتمدوا وضعه على رؤوسهم وهو كناية عن إعزازهم

---

(١) ٧ - ١٥.

(٢) ٧ - ١٦.

والعناية بـه لكونـه فضيلة، وأن يلقوا التعـزّز تحت أقـدامهم وهـو كنـايـة عن اطراحه وعدم العناية به لكونه رذيلة، وأن يخلعوا التكبّر من أعناقهم. واستعار لفظ الخلع لطرح التكبّر ونسبه الى الأعناق ملاحظة لشبهه بما يلبس من قميص أو طوق فأمرهم بخلعه إذ ليسوا أهلاً له وليس ممّا ينبغي لهم،وأن يلزموا التواضع واستعار له لفظ المسلحة،ووجه المشابهة أنه لما كان المتواضعون بسبب تواضعهم وتخلّقهم به حافظين لدينهم وأنفسهم من دخول إبليس وجنوده عليهم بـرذيلة الكبر ومـا يلزمها من سـائـر الـرذائـل المعـدودة المهلكـة أشبـه تواضعهم المسلحة التي هي محلّ الحفظ بها من غارات العدوّ. ولـمّـا علمت مـا يلزم الكبر من الـرذائـل فـلا يخفى عليك مـا يلزم التواضـع من أضدادهـا ونقائضها.

وقوله: فإنّ له من كلّ أمّة. إلى قوله: فرساناً.

بيان لجنوده وإشارة الى أنّ له من هذه الأمة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفـرسانـاً اتّصفـوا بصفتـه واستشعـروا شعـاره وهـو الكبـر فينبغي أن يجتنبـوهم ويطرحوا شعارهم.

وقوله: ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّه.

أراد بذلك المتكبّر قابيل حين قتل أخاه هابيل عن كبر وحسد، وهو نهي عن الكبر أيضاً من بعضهم على بعض. وإلى قصة قابيل وهابيل أشار القـرآن الكريم بقوله: ﴿**واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحقّ إذ قـرّبا قـربانـا**﴾ إلى قولـه: ﴿**جزاء الظالمين**﴾[1] والمنقـول في السبب أنّ حوّاء كـانت تلد في بطن اثنين ذكراً وأنثى. فولدت في أوّل بطن قابيل وأخته ثمّ مكثت سنين فولـدت هابيـل وأخته. فلمّا أدركوا أمر الله آدم أن ينكح قابيل أخت هابيل وينكح هابيل أخت قابيل فرضي هابيل بذلك ولم يرض قابيل لأنّ أخته كانت أحسنهما فقال آدم: قـرّبـا قـربانـاً فـأيكمـا تقبّـل قـربـانـه زوّجتها منـه. وقيـل: بـل قـال آدم لـهـابـيـل وقـابـيـل: إنّ ربّـي أوحـى إلـيّ أنّـه يـكـون مـن ذرّيتي من يـقـرّب الـقـربـان فـقـرّبـا قـربـانـا حتى تـقـرّ عـيـنـي

(١) ٥ ـ ٣٠.

إذا تقبّل قربانكما. وكان قابيل صاحب زرع وهابيل صاحب ضرع. فتقرّب قابيل بأردء قمح عنده، وتقرّب هابيل بأجود حمل عنده ووضعا قربانهما على الجبل فدعا آدم فنزلت نار بيضاء من السماء فرفعت قربان هابيل دون قابيل لأنّ نيّته لم تكن خالصة في قربانه. وقيل: لأنّه كان مصراً على كبيرة لا يقبل الله معها طاعة فذلك قوله تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحقّ إذ قرّبا قربانا فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر**﴾[1] فحسده قابيل وكان أكبر منه سنّاً فقال: لأقتلنّك. قال هابيل: إنّما يتقبّل الله من المتّقين لئن بسطت إليّ يدك الآية. إلى قوله: ﴿**فأصبح من الخاسرين**﴾[2] أي لأخيه في الدنيا وللجنّة في الآخرة. وروي أنّه بقي زماناً يحمله على ظهره لا يدري ماذا يصنع به حتّى بعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه. وروي أنّه كان غرابان قتل أحدهما الآخر واحتفر له ودفَنه. فقال قابيل: يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب. الآية. إذا عرفت ذلك فنقول: قال الثعلبي: إنّما أضافه إلى الأمّ دون الأب لأنّ الولد في الحقيقة من الأمّ: أي الولد بالفعل فإنّ النطفة في الحقيقة ليست ولداً بل جزء مادّي له ونسبة الولد إليه في الحكم دون الحقيقة. وقيل: لأنّ قابيل لقتله هابيل فإنّه قطع نسبه عن أبيه كما قال تعالى في ولد نوح: ﴿**إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح**﴾[3] وقيل: لأنّ شفقَة الأخ من الأمّ أزيد من شفقَة الأخ من الأب لزيادة شفقة الأمّ. والأوّل أليق. وقد أشار بهذه الإضافة إلى جهة مساواته له في كونهما من محلّ واحد لتبيّن قبح تكبّره عليه ليتنبّه السامعون لنهي الإنسان عن التكبّر على غيره من أبناء نوعه. وأكّد ذلك بقوله: من غير ما فضل جعله الله فيه.

وقوله: سوى ما ألحقت العظمة. إلى قوله: ريح الكبر.

إشارة إلى تكبّره عليه وأسبابه وهي العداوة عن حسد، وجعل تلك

---

(١) ٥ - ٣٠.
(٢) ٥ - ٣٣.
(٣) ١١ - ٤٨.

العداوة مسبّبة عن العظمة وهو ظاهر كما علمت فإنّ المتعظّم معتقد لكمال نفسه وأنّه أولى بكلّ كمال يليق به من غيره وأنّه لا ينبغي أن يشاركه فيه أحد، وذلك يستلزم حسده للغير على ما يعتقده كمالاً يصل إليه كاعتقاد قابيل أنّه أولى بالأخت الحسناء من أخيه لكونه أكبر سنّاً منه إلى غير ذلك من الأسباب، وعن ذلك الحسد تكون الحميّة وثوران نار الغضب والعصبيّة، ولفظ النار مستعار كما سبق، ولفظ القدح ترشيح، وكذلك لفظ الريح مستعار لتلك الوساوس والخطرات التي ينفثها إبليس في روع المتكبّر من كونه أولى فأحقّ بذلك الكمال ونحوه، وكذلك لفظ النفخ لإلقاء تلك الخطرات ونفثها.

وقوله: الذي أعقبه الله.

أي الندامة المشار إليه كما ذكرناه.

وقوله: وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.

إشارة إلى مقتضى قوله تعالى: **﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنّه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعا﴾**[1] أي يكون عقابه في الغلظ والشدّة والتأبيد كعقاب قاتل الناس جميعا كما قال تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمّداً﴾**[2] الآية، وكذلك مقتضى قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة. وقابيل هو من أوّل من سنّ القتل فلا جرم لزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة، وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من نفس تقتل ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل منها. ذلك بأنّه أوّل من سنّ القتل. ثمّ شرع في تنبيههم على إمعانهم وتشمّرهم في البغي والإفساد في الأرض وإعلامهم بذلك من أنفسهم. والخطاب أشبه أن يكون للبغاة من أصحاب معاوية وهم الذين كاشفوا الله بمحادّة أوليائه ومعاداة دينه وبارزوا المؤمنين بالمحاربة. ومصارحة ومبارزة مصدران سدّا مسدّ الحال. ثمّ كرّر التحذير من الله تعالى في الكبر وأضافه إلى الحميّة ليتميّز الكبر المحمود، وكذلك إضافة الفخر إلى الجاهليّة

(١) ٥ ـ ٣٥.
(٢) ٤ ـ ٩٥.

فإنّ من التكبّر والفخر ما هو محمود كتكبّر الفقراء على الاغنياء.

ثمّ ذكر في ذكر ما نفّر عنه من الأوصاف كونه ملاقح الشنئان وهو البغض والعداوة. ولفظ الملاقح مستعار من الفحول للكبر والفخر، ووجه المشابهة كونهما مظنّة وجود البغضاء بين الناس وسبب له كما أنّ الفحول سبب الإلقاح، وأمّا على تقدير كونه مصدراً فاستعارة لإثمار الفخر للبغضاء للمشابهة المذكورة. ثمّ إنّه أخبر بذلك المصدر نفسه عن الفخر حيث جعله خبر إنّ فكأنّه قال: فإنّ الفخر لقح الشنئان، ولقح الشنئان نفسه ليس عين الفخر بل من ثماره ولوازمه فكان إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب وهو في الدرجة الثانية، وإنّما ذكره بلفظ الجمع نظراً إلى تكثّر معنى الفخر في موارده وهي أذهان المتكبّرين. ومنافخ الشيطان. جمع منفخ مصدر نفخ، وظاهر أنّ أفراد مهيّة الفخر المنتشرة في الأدمغة نفخات ونفثات من إبليس. ويقال في العرف للمتكبّر والمترفّع قدره: قد نفخ الشيطان في أنفه. ووصف تلك المنافخ بأنّها اللاتي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية. وصورة الخداع هيهنا كونهم أراهم الباطل في صورة الحقّ كتزيينه الكبر وتحسينه للوازمه وتخييل أنّ ذلك هو الأصلح والأنفع مع أنّه في نفس الأمر ليس بحقّ حتى كان ذلك سبباً لارتكابهم في ظلمات الجهالات ومهاوي الضلالات، واستعار وصف الإعناق لما يتوهّم من شدّة دخولهم في ظلمات الجهالات وقوّة سيرهم فيها، وكذلك لفظ الحنادس مستعار لما يتخيّل من ظلمة الجهل، ولفظ المهاوي مستعار لما يتخيّل من كون الضلالة وطرقها محالّ للهوىّ عن أفق الكمال ومدارج السعادة، وأضاف الجهالة والضلالة إليه إضافة للمسبّب إلى السبب. وذلل جمع ذليل، وسلس: جمع سلس وهما سهلا الانقياد. وانتصابهما على الحال من الضمير في أعنقوا: أي أسرعوا سهلي الانقياد لسوقه.

وقوله: أمراً.

منصوب بفعل مضمر تقديره فاعتمد أمراً تشابهت قلوبهم فيه وتتابعت القرون الماضية منهم على اعتماده وهو الفخر ونفخ الشيطان والإعناق في

جهالته وضلالته، وكبرا عطف عليه، وكنى بتضايق الصدور به من كثرته وعظمته. ثمّ عقّب بالتحذير من طاعة ساداتهم وكبرائهم تذكيراً بما نبّه عليه القرآن الكريم بذمّ المطيعين لساداتهم وكبرائهم على طاعتهم فيما حرّم الله عليهم وخروجهم بذلك عن سبيل الله، وذلك قوله تعالى حكاية لما يقولونه يوم القيامة: **﴿وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾**[1] والتابعين على متابعة متبوعهم في قوله حكاية عنهم: **﴿تالله إن كنّا لفي ضلال مبين إذ نسوّيكم بربّ العالمين﴾**[2].

وقوله: الذين تكبّروا عن حسبهم وترفّعوا فوق نسبهم.

فحسبهم ونسبهم إشارة إلى الطين والصلصال من الحمإ المسنون والماء المهين الذي هو أصلهم، ولمّا كان من شأنه أن لا فخر فيه ولا تكبّر لمن هو أصل له ثمّ تكبّروا فقد تكبّروا عن ذلك الأصل وترفّعوا عليه وتركوا ما ينبغي لهم من النظر إليه والتواضع لحسبه، وإليه أشار القائل: ما بال من أوّله نطفة، وجيفة آخره يفخر؟ لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر.

وقوله: وألقوا الهجينة على ربّهم.

أي نسبوا ما في الانسان من القبائح بزعمهم إلى ربّهم كما قال بعض الشارحين: كأن يقول أحدهم في الافتخار على غيره: أنا عربّي وأنت أعجميّ. فإنّ ذلك عيب وإزراء لخلق الله فهو عيب على الله ونسبة للقبح إليه، وهم في ذلك مقتفون لأثر إبليس حيث قال: أأسجد لبشر خلقته من صلصال. إذ كان ذلك عيباً لخلق الله ونسبة للفعل القبيح.

وقوله: وجاحدوا الله ما صنع بهم.

ووجه المجاحدة هنا أنّهم لمّا غفلوا عن الله تعالى وجحدوا حقّه لم يشكروه على نعمائه وصنيعه بهم. ولمّا كان الشكر يعود إلى الاعتراف بالنعمة

---

(١) ٣٣ - ٦٧.
(٢) ٢٦ - ٩٧.

كان الجحد والإنكار منهم عبارة عن عدم ذلك الاعتراف لغفلتهم، وأيضاً فإنّ الشكر كما يكون بالاعتراف بالنعمة كذلك يكون بالاتيان بما يوافق ذلك الاعتراف ويدلّ عليه من الأقوال والأفعال الصالحة المطلوبة للمنعم والموافقة لأوامره ونواهيه ويسمّيان شكراً أيضاً فكان الإصرار على تركهما وعدم الاتيان بهما جحداً لنعمة الله، وذلك هو مجاحدتهم. فأمّا مجاحدة الله لهم فيعود إلى ما يتخيّل من إنكاره عليهم جحدهم، وتقريره عليهم صنعه بهم، وتذكيره نعمته في حقّهم. وما مصدريّة. ويحتمل أن تكون بمعنى الذي والعائد من الصلة محذوف: أي ما صنعه بهم.

وقوله: مكابرة لقضائه.

أي مقابلة لحكمه عليهم بوجوب شكره ولزوم طاعته بردّ ذلك الحكم وإنكاره وعدم الانقياد له. وحقيقة المكابرة يعود إلى المقابلة بالقول في الأمر والمنازعة فيه على وجه المغالبة والتكبّر من الطرفين. وهي هنا ترشيح لاستعارة المجاحدة. وكذلك المغالبة لآلائه. والنصب فيهما على المفعول له. والمغالبة هنا لشبه الغاية من المجاحدة وليست غاية على الحقيقة. وبيان ذلك أنه لما كان من لوازم المجاحدة وكفران النعمة زوالها وانقطاعها كانوا بفعلهم لتلك المجاحدة وذلك الكفران كالمغالبين للنعم والقاصدين لزوالها وعدمها. إذ كان زوالها لازماً لفعلهم.

وقوله: فإنّهم. إلى قوله: الجاهلية.

تنبيه على ما يلزم ساداتهم من الرذائل المنفّرة، واستعار لفظ الأساس للكبر. إذ كان مبدءً للعصبيّة وأصلاً لها، ولفظ القواعد لهم باعتبار قيام الكبر بهم وثباته فيهم كما يقوم الأساس بقواعده وهي الصخور العظيمة ونحوها. وكذلك استعار لفظ الأركان لأجزاء الفتنة وأبعاضها، ولفظ الدعائم لهم باعتبار قيام الفتن بهم واعتمادها عليهم كما تعتمد أركان البيت وجوانبه بدعائمه. واستعار لفظ السيوف لهم باعتبار صرامة عزمهم ومضيّهم عند الاعتزاء فيما يعتزى له كمضيّ السيوف وصرامتها في مضاربها. قال بعض الشارحين: ويحتمل أن يريد وأصحاب سيوف اعتزاء الجاهليّة، وذلك عند قولهم: يا

لفلان. كما نقل في سبب الخطبة. والاعتزاء منهيّ عنه لكونه مبدءً للفتن. وروي أنّ أبي بن كعب سمع رجلاً يقول: يا لفلان فقال: عضضت بهن أبيك. فقيل له: يا أبا المنذر ما كنت فاحشاً. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من تعزّى بعزاء الجاهليّة فأعضّوه بهن أبيه ولا تكنّوا. والعزاء الاسم من الاعتزاء. ثمّ عاد إلى الأمر بتقوى الله. فقوله: ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً. نهى لهم عن ارتكاب ما يزيل نعمة الله عنهم وتضادّها فلا يجامعها من كفرانها ومقابلتها بسائر المعاصي التي يستلزم تبديل النعمة نقمة، وكذلك قوله: ولا لفضله عندكم حسّاداً. استعار لفظ الحسّاد هنا باعتبار كفرهم المزيل للنعم. فحسّاد النعمة باعتبار حسدهم المزيل لها.

وقوله: ولا تطيعوا الأدعياء.

قال بعض الشارحين: مراده بالأدعياء الذين ينسبون إلى الإسلام ظاهراً وهم منافقون. قلت: ويحتمل أن يريد بهم حقيقة الأدعياء، وهم الذين ينتسبون إلى غير آبائهم ممّن لا دين له وقد ترأس في قبيلته التي انتسب إليها. ثمّ وصفهم فقال: الذين شربتم بصفوكم كدرهم فاستعار لفظ الصفو وهو خالص الشراب إمّا لخلاص دينهم وإيمانهم أو لخالص دنياهم وصافيها، ولفظ الكدر للنفاق وسائر الرذائل النفسانيّة التي تخالط إيمان المرء كالحسد ونحوه فتكدّره وتكدّر بسبب ذلك ما صفا من دنياه لسبب ثوران الفتنة عنها، ورشّح بذكر الشرب. والمعنى أنّكم مزجتم بإيمانكم نفاقهم فشربتموه به كما يمزج بالماء الشراب فيساغ به. وإنّما قال: شربتم بصفوكم كدرهم، ولم يقل: بكدرهم صفوكم لأنّ غرضه أن يقرن عليهم شرب الكدر بالقصد الأوّل ولا يتمّ ذلك الغرض إلّا بعبارته عليه السلام. والباء هنا للمصاحبة، وكذلك قوله: وخلطتم بصحّتكم مرضهم. وأراد بمرضهم نفاقهم وكبرهم وسائر الرذائل النفسانيّة فيهم، وبالصحّة سلامة نفوس المؤمنين بإيمانهم عن نشوب تلك الرذائل. ووبّخهم بتخليطهم إيمانهم بها، وكذلك قوله: وأدخلتم في حقّكم باطلهم. وأراد بالحقّ الايمان والجدّ في العمل الصالح أو ما يستحقّونه من الملك والخلافة في الأرض، وبباطل أولئك الكذب والنفاق واللعب وسائر الرذائل أو ما لا يستحقّ لهم من أمر الدنيا، وذلك الخلط والإدخال بسبب

تخاذلهم عن نصرته عليه السلام وعدم اجتماعهم على ما ينبغي لهم من طاعته. ثمّ عاد إلى وصف أولئك الكبراء بأوصاف:

الأول: استعار لهم لفظ الأساس باعتبار كونهم أصلاً للفسوق يقوم بهم كما يقوم البناء بأساسه.

الثاني: لفظ الأحلاس باعتبار ملازمتهم للعقوق وقطع الرحم كما يلازم حلس البعير ظهره، وروي: أسئاس ـ بسكون السين ـ بوزن أحلاس، وهو جمع أسّ كحمل وأحمال وهو الأسّ.

الثالث: كون إبليس اتّخذهم مطايا ضلال. فاستعار لهم لفظ المطايا باعتبار كونهم أسباباً موصلة إلى الضلال لمن اتّبعهم واعتمد أقوالهم نيابة عن إبليس، وكانوا في ذلك المطايا التي يركبها الناس ويقودها في طرق الضلال.

الرابع: كونهم جنداً بهم يصول على الناس، وذلك باعتبار كونهم جاذبين للخلق إلى طريقته داعين لهم إلى الهلاك الأبد من جهته.

الخامس: كونهم تراجمة ينطق على ألسنتهم. ولفظ التراجمة مستعار لهم باعتبار نطقهم بما يريد إبليس من الوساوس للناس فأشبهوا التراجمة له. ثمّ أشار إلى كيفيّات اتّخاذهم مطايا وجنداً وتراجمة فمنها الاستراق لعقول الناس بالأقوال الكاذبة والأفعال الباطلة والعادات المضلّة جذباً إلى محبة الدنيا وباطلها والتفاتاً لهم إليها عمّا لأجله خلقوا وإليه دعوا، ومنها الدخول في عيونهم بزينة الحياة الدنيا أيضاً وسائر ما يجذب إليها من جهة حسّ البصر، ومنها النفث في أسماعهم وإلقاء الوساوس بالأقوال الواصفة للدنيا وباطلها والمنفّرة عن الآخرة وسائر مايجذب عن الأفق الأعلى من الجواذب السمعيّة. وانتصب استراقاً ودخولاً ونفثاً على المصدر كل عن فعله: أي يسترق عقولكم استراقاً. وكذلك الآخران.

وقوله: فجعلكم مرمى نبله.

أي غرضاً، واستعار لفظ النبل لجزئيات وساوسه المردية لكلّ من أصابته إلى مهاوي الهلاك كما يردى النبل من رمى به، ولفظ المرمى باعتبار

كونهم مقصداً لوساوسة كالهدف، وكذلك استعار لهم لفظ الموطىء باعتبار كونهم مظنّة إذلاله وإهانته. ورشّح بذكر القدم إذ الموطىء يستدعى موطوءاً به وهو القدم، وكذلك استعار لفظ المأخذ باعتبار كونهم مقتنصين في حبائل وساوسه، ورشّح بذكر اليد. إذ من شأن المأخوذ أن يكون أخذه باليد.

الفصل الثالث: في أمرهم بالاعتبار بحال الماضين، وما أصاب الأمم المستكبرين منهم من بأس الله وصولاته وعقوباته ومصارعهم، وبحال الأنبياء على جلالة قدرهم في التواضع لمن أرسلوا إليه من المتكبّرين، وحال اختبار الله تعالى خلقه بأحجار نصبها بيتا لعبادته اختباراً للمتواضعين له وتمييزاً لهم من المستكبرين عن عبادته. إلى غير ذلك، وذلك قوله:

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ.

وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ؛ فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَلٰكِنَّ اللهَ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا أَقْوَاماً مُسْتَضْعَفِينَ، وَقَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَحَّصَهُمْ بِالْمَكَارِهِ، فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالِاخْتِبَارِ فِي مَوَاضِعِ الْغِنَى وَالِاقْتِدَارِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) فَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يشرُطَانِ لِي دَوَامَ العِزِّ وَبَقَاءَ المُلْكِ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرُ مِنْ ذَهَبٍ؟!» إِعْظَاماً

لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ. وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ العِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طَيْرَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الأَرْضِ لَفَعَلَ؛ وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَآضْمَحَلَّتِ الأَنباءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلاَ آسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ ٱلأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا، وَلٰكِنَّ آللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وَضَعْفَةٍ فِيمَا تَرَى ٱلأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنىً، وَخَصَاصَةٍ تَمْلأُ وَٱلأَبْصَارَ وَٱلأَسْمَاعَ أَذىً.

وَلَوْ كَانَتِ ٱلأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لاَ تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لاَ تُضَامُ، وَمُلْكٍ تَمْتَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ؛ لَكَانَ ذٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الاِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الاِسْتِكْبَارِ، وَلآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً، وَلٰكِنَّ آللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الاِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَالاِسْتِكَانَةُ لأَمْرِهِ، وَالاِسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ؛ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لاَ يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى وَالاِخْتِبَارُ أَعْظَمُ، كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، إِلَى ٱلآخِرِينَ مِنْ هٰذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلاَ تَسْمَعُ وَلاَ تُبْصِرُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ ٱلأَرْضِ مَدَراً. وَأَضْيَقِ بُطُونِ ٱلأَوْدِيَةِ قُطْراً: بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَقُرىً مُنْقَطِعَةٍ، لاَ يَزْكُو بِهَا خُفٌّ، وَلاَ حَافِرٌ وَلاَ ظِلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَوَلَدَهُ، أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ. وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ ٱلأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ٱبْتِلاَءً

عَظِيماً، وَٱمْتِحَاناً شَدِيداً، وَٱخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ ٱللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ ٱلْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ ٱلْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ ٱلْأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ؛ لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ، وَلَوْ كَانَ الأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَٱلْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ؛ لَخَفَّفَ ذٰلِكَ مُسَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلِجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ ٱللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذٰلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

فَاللهَ اللهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ؛ فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَبَداً، وَلَا تُشْوِي أَحَداً: لَا عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقِلّاً فِي طِمْرِهِ، وَعَنْ ذٰلِكَ مَا حَرَسَ ٱللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي ٱلْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلَاءِ عَنْهُم؛ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَالْتِصَاقِ كَرَائِمِ ٱلْجَوَارِحِ بِالأَرْضِ تَصَاغُراً، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً، مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ ٱلْأَرْضِ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ. اُنْظُرُوا إِلَى مَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ وَقَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ.

أقول: المثلات: العقوبات. والمثاوى: جمع مثوى وهو المقام. والتكابر:

التعاظم. والتعفير: إلصاق الخدود بالعفر وهو التراب. والمخمصة. المجاعة: والمجهدة: المشقّة. والإقتار: الفقر. والأساورة: جمع أسورة جمع سوار، ويجوز أن يكون جمع أساور، وقال أبو عمرو بن العلاء: هو جمع أسوار، وهو السوار. والذهبان: جمع ذهب كحزب لذكر الحبارى وحزبان. والعقيان: خالص الذهب. واضمحلّ: فنى. والأنباء: الأخبار. والخصاصة: الجوع. والشوب: الخلط. والوعر بالتسكين: الصعب. والنتائق: جمع نتيقة فعيلة بمعنى مفعولة، والنتق: الجذب، وسميت المدن والأماكن المشهورة والمرتفعة نتائق لارتفاع بنائها وشهرتها وعلوّها عن غيرها من الأرض كأنّها جذبت ورفعت. والقطر: الجانب. والدمثة: الليّنة. والوشلة: قليلة الماء. والمثابة: المرجع. والمنتجع: اسم المفعول من الانتجاع وهو طلب الكلاء والماء. والمفاوز: الفلوات الواسعة. والقفار: جمع قفر وهي المفازة التي لا نبت فيها ولا ماء. وسحيقة: بعيدة. والفجاج: جمع فجّ وهي الطريق الواسع بين الجبلين. ويهلّلون: يرفعون أصواتهم بالتلبية، والإهلال: رفع الصوت. والرمل بالتحريك: الهرولة: والأشعث: أغبر الرأس متفرّق الحال. والنبذ: الإلقاء. والسرابيل: القمصان. والتشويه: تقبيح الخلقة. والتمحيص: الابتلاء والاختبار، وأصله التخليص والتمييز. والمشاعر: مواضع المناسك. والقرار: المستقرّ من الأرض. والجمّ: الكثير. والبنى: جمع بنية - بالضمّ - والأرياف: جمع ريف بالكسر، وهي الأرض ذات الزرع والخصب. والمحدقة: المحيطة. والمغدقة: كثيرة الماء والخصب. والمعتلج: اسم المفعول من الاعتلاج وهو التغالب والاضطراب، يقال: اعتلجت الأمواج: أي تلاطمت واضطربت. وفتحاً: فُعل بمعنى مفعولة: أي مفتوحة موسّعة، وكذلك ذللا مسّهلة. ووخامة الظلم: وباله وسوء عاقبته. والمصيدة - بكسر الميم -: الشبكة وما يصاد به. والمساورة: المواثبة. وأكدى الحافر: إذا بلغ في حفره إلى موضع صلب لا يمكنه حفره. وأكدت المطالب: إذا صعبت في وجه طالبها فعجز عنها. وأشوت الضربة تشوى: إذا لم تصب المقتل، يقال: أشواه يشويه: إذا رماه فلم يصب مقتله. والطمر: الثوب الخلق. وعتائق: جمع عتيقة وهي كرائم الوجوه وحسانها. والقمع:

الردّ. والنواجم: الطوالع جمع ناجمة. والقدع: الكفّ.

واعلم أنّه عليه السلام أمرهم بأوامر:

أحدها: الأمر بالاعتبار بما أصاب المتكبّرين من سابق الأمم من عقوبات الله، ووجه الاعتبار أن يفكّر العاقل في حال أولئك فيرى ما أصابهم إنّما هو بسبب استعدادهم بالاستكبار عن طاعة الله والرفع على عباده كما أشار إليه تعالى: ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم**﴾ إلى قوله: ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين**﴾[1] ونحوه في القرآن كثير فينتقل ذهنه منه إلى نفسه ويقيس حال استكباره على استكبارهم فيما يلزمه من أمثال العقوبات بهم.

الثاني: أن يتّعظوا بمثاوى خدودهم ومصارع جنوبهم: أي يلحظوا مقاماتهم من التراب ومحالّ انصراعهم في القبور ليحصل لهم بذلك الانزجار عن الكبر. إذ كانت عاقبته وغايته ذلك الهوان والذلّ في تلك المثاوى والمصارع.

الثالث: أن يستعيذوا بالله من لواقح الكبر. واستعار اللواقح لما يستلزم الكبر من أسبابه، وأراد استعاذة كثيرة خالصة كاستعاذتكم من طوارق الدهر وآفاته.

وقوله: فلو رخّص الله. إلى قوله: التواضع.

استدلال على تحريم الكبر مطلقاً، وأنّه لا رخصة فيه لأحد من خلق الله بقياس شرطيّ متّصل، ووجه الملازمة فيه أنّ الأنبياء خواصّ الله وأحبّاؤه وأهل طاعته فلو كان له فيه رخصة لم يجعلها إلّا لهم، وتقدير الاستثناء فيه لنقيض التالي: لكنّه لم يرخّص فيه لهم فينتج أنّه لم يرخّص فيه لأحد من عباده؛ لكنّه حذف هنا استثناء النقيض واستثنى بعض لوازمه وهو تكريهه التكابر إليهم، وذلك بوعيده للمستكبرين على الكبر. ثمّ برضى التواضع لهم، وذلك

---

(1) ٧ - ٧٣.

بأمرهم فيه كما قال تعالى: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾[1] ونحوه.

وقوله: فألصقوا. إلى قوله: مستضعفين.

إشارة إلى امتثالهم لما أمرهم به من التواضع وموافقتهم له فيما رضيه لهم فإلصاق خدودهم بالأرض وتعفير وجوههم إشارة إلى معاملتهم له في عبادته مع أنفسهم وخفض أجنحتهم للمؤمنين، وكونهم أقواماً مستضعفين إشارة إلى امتثالهم ومعاملتهم له في خلقه، ولفظ الأجنحة مستعار من الطائر ليد الإنسان وجانبه باعتبار ما هو محلّ البطش والنفرة. وخفض الجناح كناية عن لين الجانب. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ أي ارفق بهم ولا تغلظ عليهم قال: والعرب تقول لمن كان ساكناً وقوراً: إنّه خافض الجناح.

وقوله: قد اختبرهم. إلى قوله: بالمكاره.

إشارة إلى أنّه أعدّهم بأنواع الشقاوة الدنيويّة من الجوع والمشاقّ والمخاوف والمكاره، والتنفير بها عن الدنيا للإقبال عليه تعالى ومحبّة ما عنده من الثواب الجزيل وقد علمت معنى ابتلائه تعالى لعباده واختباره لهم غير مرّة.

وقوله: فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد إلى قوله: الاقتدار [الإقتارخ].

أي لا تعتبروا رضاه تعالى عن عباده بإعطائه لهم المال والولد وسخطه عليهم بمنعه لهم ذلك. وكأنّه جواب اعتراض مقدّر كأنّ قائلاً قال: فإذا كانوا هؤلاء خواصّه وأهل طاعته ورضاه فلم امتحنهم بالشدائد وابتلاهم بالمخاوف والمكاره ولم يعطهم الأموال والأولاد كما قال فرعون لموسى عليه السلام: فلو لا ألقي عليه أساورة من ذهب، وكما قالت كفّار قريش: أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنّة يأكل منها؟ فأجاب عليه السلام بأنّ ذلك الوهم للجهل بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والإقتار: أي أنّ الاختبار كما يكون بالفقر والمشاقّ والمكاره كذلك يكون بالمال والولد، وليس المال والولد من

(١) ١٦ - ٨٨.

الخيرات التي تعجّل في الدنيا لمن يعطى إيّاهما كما يزعمون، واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿**أتحسبون أنّما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون**﴾[1] أي يحسبون أنّا نعجّل في تقديم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم حتى بسطناهم الرزق وأكثرنا لهم أولادهم بل لا يعلمون أنّ ذلك استدراج لهم من الله ومحنة وبلاء. وجهلا نصب على المفعول له.

وقوله: فإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين. إلى قوله: في أعينهم.

كلام منقطع يستدعي ابتداء يكون معلّلا به. وقد فصل الرضيّ ـ رحمه الله ـ بينه وبين ما قبله بصفر لكنّه بيان لنوع آخر من ابتلاء الله تعالى عباده المستكبرين في أنفسهم واختبارهم بأوليائه المستضعفين وهم الأنبياء في أعينهم: أي في أعين المتكبّرين وهو معنى ما قبله، وفيه تنبيه على بعض أسراره تعالى في خلقه لسائر أنبيائه وأوليائه المستضعفين، وهو أن يبتلى بهم المستكبرين عن عبادته في أرضه كما سيشير إليه عليه السلام في الحكمة في خلقهم كذلك. ثمّ ضرب مثل ذلك الابتلاء في موسى وهارون عليهما السلام حين دخلا على فرعون يدعوانه إلى الله تعالى، وذلك قوله: ولقد دخل. إلى قوله: ولبسه روى الطبري في تاريخه: أنّ موسى وهارون قدما مصر حين بعثهما الله إلى فرعون فمكثا سنتين يغدوان على بابه ويروحان يلتمسان الإذن عليه فلا يعلم بهما ولا يجترى أحد أن يخبره بشأنهما وكانا يقولان في الباب: إنّا رسولا ربّ العالمين إلى فرعون حتى دخل عليه بطّال له يلاعبه ويضحكه فقال: أيّها الملك إنّ ببابك رجلا يقول قولا عجيباً، ويزعم أنّ له إلها غيرك. فقال: أدخلوه. فدخل وبيده عصاه ومعه أخوه هارون فقال: أنا رسول ربّ العالمين. وذكر تمام الخبر وصريح قصّتهما ومحاورتهما مستوفى في القرآن الكريم كسورة الشعراء والقصص وغيرهما، والذي ذكره عليه السلام منها واضح بيّن، وقال كعب: كان موسى عليه السلام من رجال شنوءة، وكان آدم طوالاً، وكان

---

(1) ٢٣ ـ ٥٧.

أخوه هارون أطول منه وأكثر لحماً وأشّد بياضاً وأغلظ ألواحاً وأسنّ من موسى بثلاث سنين، وكانت في جبهة هارون شامة وفي طرف أرنبة موسى شامة وعلى طرف لسانه شامة، ولم يعرف أحد قبله ولا بعده كذلك. قال: وهي العقدة التي ذكرها الله تعالى. قال: وفرعون موسى هو فرعون يوسف عليه السلام عمّر أكثر من أربع مائة سنة. واسمه الوليد بن مصعب، وأنكر غيره ذلك. وقالوا: هو غيره. وقبض هارون قبل موسى وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة، وبقي موسى بعده ثلاث سنين، ومات موسى في سنّه يوم مات. فأمّا شرطهما له بقاء ملكه بإسلامه فلما علمته من كون النواميس الشرعيّة والتمسّك بها والعمل بقوانينها ناظماً لحال أبناء النوع الإنساني وسبباً لصلاح معاشهم ومعادهم. وبانتظام شمل مصلحتهم باستعمال تلك القوانين يكون بقاؤهم وثبات دولهم وملكهم ودوام عزّهم. فأمّا استنكاره لشرطهما له دوام العزّ والملك بإسلامه وتعجّبه منهما في ذلك فمستنده اعتقاده الجهل أنّ مبدء التمكّن من ذلك الشرط والقدرة على الوفاء به هو الغنى وجمع المال فلذلك احتقرهما من حيث كانا بزي الفقر والذلّ ولبس الصوف وليس عليهما آثار الغنى والمال وهو التحلّي بأساورة الذهب. فكان إعظام الذهب ولبسه الذي هو شعار الغنى واحتقار الصوف ولبسه ممّا هو شعار الفقر سبباً حاملاً له على ذلك الاستكبار والتعجّب.

وقوله: ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه. إلى قوله: معانيها.

قياس اقتراني من الشكل الأوّل من متّصلتين: **إحديهما**: قوله: ولو أراد الله. إلى قوله: لفعل.

والثانية: قوله: ولو فعل لسقط البلاء. إلى آخره، والنتيجة أنّه لو أراد الله بأنبيائه ذلك لزمت المحالات المذكورة. بيان الملازمة الصغرى أنّ الامور المعدودة وهي فتح كنوز الذهب ومعادنه ومغارس الجنان وحشر الطير والوحش أمور ممكنة في أنفسها والله سبحانه قادر على جميع الممكنات وعالم بها فلو حصل مع قدرته عليها إرادة وقوعها عن قدرته كان مجموعها مستلزماً لوقوعها عنها، وأمّا الكبرى فإنّه جعل مقدّمتها وهو فعله لتلك الأمور ملزوماً لأمور خمسة:

أحدها: أنه كان يسقط البلاء: أي ذلك البلاء المشار إليه وهو بلاء المتكبّرين بالمستضعفين من أولياء الله وهو ظاهر. إذ لا مستضعف يبتلون به إذن، وذلك أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا ينقطعون إلى الدنيا حينئذ عن جناب الله فينقطع عنهم الوحي كما سيشير إليه عليه السلام وحينئذ ينقطع الابتلاء بهم وبما أتوا به من التكليف، وكذلك يسقط بلاء الأنبياء بالفقر والصبر على أذى المسكنة من المكذّبين لهم بالضرب والقتل.

الثاني: وكان يبطل الجزاء: أي جزاء العبادات والطاعات إمّا لسقوط البلاء بها أو لأنّ الطاعات إذن تكون عن رهبة أو رغبة فيسقط الجزاء الأخروي عليها وكذلك يبطل جزاء الأنبياء الذي كانوا يستحقّونه بحسب فقرهم وصبرهم عليه.

الثالث: وكان تضمحلّ الأنباء: أي الأخبار الواردة من قبل الله تعالى على ألسنة رسله والوحي إليهم؛ وذلك أنّك علمت أنّ الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما يقرب من إحديهما يبعد من الأخرى، والأنبياء عليهم السلام وإن كانوا أكمل الخلق نفوساً وأقواهم استعداداً لقبول الكمالات النفسانية كما أشرنا إليه إلّا أنّهم محتاجون أيضاً إلى الرياضة التامّة بالإعراض عن الدنيا وطيّباتها وهو الزهد الحقيقي، وإلى تطويع نفوسهم الأمّارة بالسوء لنفوسهم المطمئنّة بالعبادة التامّة كما هو المشهور من أحوالهم عليهم السلام فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يربط على بطنه الحجر من الجوع ويسمّيه المشبع لا لأنّه كان لا يقدر على شيء يأكله، وكان يرقع ثوبه لا لعدم قدرته على ثوب يلبسه، وكان يركب الحمار العاري ويردف خلفه لا لعجزه عن فرس يركبه وغلام يمشي معه، وكيف وقد توفي وبيده هذه القطعة العظيمة من المعمورة؛ بل ذلك وأمثاله ممّا سيحكيه عنه صلى الله عليه وآله وسلم في آخر هذه الخطبة زهادة في الدنيا وإعراض عن متاعها وزينتها لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم وجد من الكمالات العقليّة والموعودة ما هو أشرف وأعلى من هذه الكمالات الحسيّة الفانية، وعلم أنّ الوصول إلى تلك الكمالات لا يتمّ ولا يتحقّق إلّا بالإعراض عن هذه فرفض به ما هو أخسّ في جنب ما هو أشرف ولذلك قام صلى الله عليه وآله وسلم في العبادة حتى تورّمت قدماه. فقيل له: يا رسول الله أليس قد بشّرك الله بالجنة فلم تفعل ذلك؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً. وذلك

لعلمه أنّ الاستعداد بالشكر يفيد كمالاً أعلى وأزيد ممّا أوتي. وإذا كان حال أشرف الأنبياء وأكملهم كذلك فما ظنّك بسائرهم؟ وحينئذ تعلم أنّ تركهم للدنيا وعدم اشتغالهم بها شرط في بلوغهم درجات الوحي والرسالة وتلقي أخبار السماء، وأنّهم لو خلقوا منغمسين في الدنيا وفتحت عليهم أبوابها فاشتغلوا بقيناتها لانقطعوا إليها عن حضرة جلال الله واضمحلّ بسبب ذلك عنهم الأنباء وانقطع عنهم الوحي وانحطّوا عن مراتب الرسالة، وقال بعض الشارحين: أراد باضمحلال الأنباء سقوط الوعد والوعيد والإخبار عن أحوال الجنّة والنار وأحوال القيامة. وهو لازم من لوازم سقوط النبوّة فيكون راجعاً إلى ما قلناه.

الرابع: ولكان لا يجب للقابلين أجور المبتلين: أي لقابلى كلام الأنبياء لأنّه إذا سقط البلاء عنهم لم يكن لهم أجر المبتلين، وكذلك لا يجب لقابلى النبوة منهم أجور المبتلين بالتكذيب والأذى.

الخامس: وكان لا يستحقّ المؤمنون ثواب المحسنين إلى أنفسهم بمجاهدة الشيطان عنها وتطهيرها عن الرذائل وتحليتها بالفضائل، وذلك لأنّ إيمانهم بهم يكون عن رغبة أو رهبة كما علمته لا عن حقيقة وإخلاص لله.

السادس: ولا لزمت الأسماء معانيها. روي بنصب الأسماء على أن تكون هي المفعول ومعانيها الفاعل، والمعنى أنّه لم تكن المعاني لازمة الأسماء فيمن سمّى بها؛ مثلاً من سمّي مؤمناً لا يكون معنى الإيمان الحقّ لازماً لاسمه فيه. إذ كان إيمانه بلسانه فقط عن رغبة أو رهبة، وكذلك من سمّي مسلماً أو زاهداً بل من سمّي نبيّاً أو رسولاً لا يكون في الحقيقة كذلك لانقطاع النبوّة والرسالة عنه، وفي نسخة الرضي - رحمه الله - برفع الأسماء، والمراد أنّها كانت تنفكّ عنها فتصدق الأسماء بدون مسمّياتها وهو كالأوّل. وببيان هذه اللوازم ظهرت كبرى القياس. والنتيجة إذن متّصلة مقدمها قوله: لو أراد الله. إلى قوله: الأرض، وتاليها قوله: لسقط البلاء. إلى قوله: معانيها، وحاصل النتيجة أنّه كان يلزم من إرادته تعالى بأنبيائه تلك الأمور وقوع جميع هذه المفاسد. ثمّ يرجع البيان إلى استثناء نقيض تالى هذه

النتيجة لاستثناء نقيض مقدّمها وهو أنّ هذه المفاسد لم توجد وليست ممّا ينبغي أن توجد فلذلك لم يرد بهم تلك الأمور.

وقوله: ولكنّ الله سبحانه جعل رسله. إلى قوله: أذى.

كاللازم لنقيض مقدّم النتيجة المذكورة ذكره بعد بيانه. إذ كان الله تعالى لمّا لم يرد بعث أنبيائه على ذلك الوجه أراد بعثهم على هذا الوجه، وهو أن جعلهم أصحاب قوّة في عزائمهم وإجماع على إنفاذ ما أمروا به وتبليغ رسالات ربّهم، ولذلك سمّوا أولو العزم لمضاء عزائمهم وقوّتهم في دين الله بالقتال والمجاهدة والصبر على الأذى، وجعلهم مع ذلك ضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم من المسكنة والذلّ والفقر والقناعة والصبر على العري والجوع. واستعار وصف الملء للقناعة باعتبار استلزامها لقوّة غنائهم وقلّة حاجتهم إلى شيء من متاع الدنيا بحيث لا تميل نفوسهم ولا عيونهم إلى شيء من زينتها وقيناتها فكأنّها قد امتلأت فلا تتّسع لشيء من ذلك فتطلبه، وكذلك للخصاصة باعتبار استلزامها لقوّة الأذى في أسماعهم وأبصارهم. إذ الجوع المفرط مستلزم لأذى هاتين القوّتين لتحلّل الأرواح الحاملة لهما وضعفهما فكان الأذى حشو أبصارهم وأسماعهم بحيث لا يتّسع لغيره كلّ ذلك طلب لكمال الاستعداد لما علمت أنّ البطنة تذهب الفطنة وتورث القسوة وتزيل الرقّة وتستلزم رذائل كثيرة لادواء لها إلّا بالخصاصة والقناعة فضيلة تحت العفّة.

وقوله: ولو كانت الأنبياء. إلى قوله: مقتسمة.

متّصلة أخرى هي كبرى قياس من الشكل الأول أيضاً من متّصلتين مقدّم الصغرى منهما هو من مقدّم كبرى القياس الأوّل، وهو قوله: ولو فعل. ونبّه على تاليها بمقدّم هذه الكبرى، وتقدير الكلام: ولأنّه تعالى لو فعل بأنبيائه ما ذكرناه لكانوا أهل قوّة لا ترام وعزّة لا تضام وملك تمتدّ نحوه الأعناق، ولو كانوا كذلك لكان في كونهم كذلك مفاسد أخرى فينتج أنّه لو فعل بأنبيائه ما ذكرناه للزمت مفاسد أخرى:

أحدها: أنّه لكان ذلك أي ما حصلوا عليه من العزّ والملك أهون على

الخلق وأسهل من حيث إنّ اعتبارهم لما يدعوهم إليه أسهل وإجابتهم إلى دعوتهم أسرع. إذ كانت الملوك في اعتبار الخلق أهلاً لأن يطاعوا فلا تصعب عليهم اجابتهم كما تصعب اجابة الفقراء على من يدعونه من المتكبّرين.

الثاني: وأبعد لهم عن الاستكبار، وهو ظاهر لأنّ الملوك أبعد من أن يتكبّر عليهم الناس ويأنفوا من طاعتهم وحينئذ لم يكن للخلق ثواب من ترك رذيلة الكبر عن مجاهدة نفسه في ترك الرذيلة.

الثالث: ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم. أي على الإيمان أو رغبة مائلة بهم إليه فلم تكن نيّاتهم ولا حسناتهم خالصة لله بل هي مشتركة ومقتسمة بعضها له وبعضها للرغبة وبعضها للرهبة، وحينئذ لا يكون لهم ثواب من جاهد إبليس فقهره وقمع نواجم وسوسته الجاذبة عن سبيل الله، واستعدّ بذلك للخيرات الباقية

وقوله: وملك تمتدّ نحوه أعناق الرجال، وتشدّ اليه عقد الرحال.

كنايتان عن قوّته وعظمته لأنّ الملك إذا كان عظيماً قويت الآمال فيه وتوجّهت نحوه وامتدّت أعناق الرجال إليه بالرجاء وشدّت عقد الرحال إليه.

وقوله: ولكنّ الله سبحانه. إلى قوله: شائبة.

كالمقدّمة لصغرى في بيان أنّ القسم الأخير من التالي ليس ممّا ينبغي أن يكون ويراد الله تعالى. كأنّه قال لو جعل الله تعالى الأنبياء أهل الملك والعزّ لكان إيمان الخلق بهم إمّا لرغبة أو رهبة فكانت النيّات والايمان والعبادة منهم مشتركة غير خالصة لله وذلك مفسدة ليس ممّا ينبغي أن تكون ولا أن تراد لله تعالى لأنّه تعالى إنّما أراد أن يكون إيمانهم بالرسل واتّباعهم وتصديقهم لما جاءوا به من كتبه وأمروا به من الخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أموراً له خاصّة لا يشوبها من غيرها شائبة رغبة ورهبة، وتقدير الكبرى: وكلّ ما أراد الله إخلاصه له فليس ممّا ينبغي أن يكون مشتركا بينه وبين غيره ولا مشوباً بشائبة غيره فينتج أنّ إيمانهم بأقسامه ليس ممّا ينبغي أن يكون مشتركا كالشائبة رغبة أو رهبة.

وقوله: وكلّما كانت البلوى. إلى قوله: أجزل.

يحتمل أن يكون كبرى قياس بيّن به أنّ الأجزاء الثلاثة للتالي وهو قوله: لكان ذلك أهون. إلى آخره ليس مما ينبغي أن يكون، وتقدير البيان أنّ ذلك مستلزم كون الاعتبار معه أهون على الخلق وأن يكونوا معه أبعد عن الاستكبار وأن يؤمنوا عن رغبة أو رهبة وهذه الأمور ليس ممّا ينبغي أن تكون. وإنّما قلنا ذلك لأنّ نقائضها وهي مشقة الاعتبار على الخلق وقربهم من الاستكبار وخلوص إيمانهم لله ممّا ينبغي أن يكون، وبيان ذلك أنّ مع هذه الأمور تكون البلوى والاختبار عليهم أعظم. وذلك هو صغرى القياس. ثمّ نقول: وكلّما كانت البلوى والاختبار لهم أعظم كانت المثوبة والجزاء على الايمان والطاعة موافقة لتلك البلوى أجزل فينتج أنّ مع مشقّة الاعتبار والقرب من الاستكبار وإخلاص الايمان تكون المثوبة لهم والجزاء على الايمان والطاعة أجزل، ويحتمل أن يكون من تمام البيان الأول كأنه قال: ولكنه تعالى أراد أن تكون هذه الامور خالصة له ولا يشوبها شائبة، وذلك الاخلاص وإن كانت فيه مشقّة وكانت البلوى فيه عظيمة إلاّ أنّه كلما كانت البلوى أعظم كان الثواب فيها أجزل. ثم أردف ذلك بالتنبيه على صدق هذه المقدّمة بالمثال وذلك قوله: ألا ترون. إلى قوله: ووصلة إلى جنّته، وأراد بالأحجار التي بني بها البيت الحرام.

وقوله: جعله للناس قياماً.

أي مقيما لأحوالهم في الآخرة. يقال: فلان قيام أهله وقوام بيته. إذا كانت به استقامة أحوالهم، وكون مكّة أقلّ بقاع الأرض مدراً لأنّ الحجريّة أغلب عليها. وإنّما أتى بالرمال الليّنة في معرض الذمّ لأنّها أيضاً ممّا لا يزكو بها الدوابّ لأنّ ذوات الحافر ترسغ فيها وتتعب في المشي بها. قال الشارحون: أراد بالخفّ والحافر والظلف دوابّها وهي الجمال والخيل والغنم والبقر مجازاً إطلاقاً لاسم الجزء على الكلّ أو على تقدير إرادة المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وأراد بكونها لا تزكو: أي لا تسمن وتزيد للجدب وخشونة الأرض، والضمير في بها راجع إلى ما دلّ عليه أوعر من الموصوف فإنّه أراد بواد أوعر بقاع الأرض حجراً كما قال: إنّي أسكنت من ذرّيّتي بواد

غير ذي زرع عند بيتك المحرّم.

وقوله: ثمّ أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه.

قد دلّ كلامه عليه السلام على أنّ البيت الحرام كان منذ آدم عليه السلام والتواريخ شاهدة بذلك. وقال الطبري: روي عن ابن عباس أنّ الله تعالى أوحى إلى آدم لما أهبط إلى الأرض أنّ لي حرماً حيال عرشي فانطلق فابن لي بيتاً فيه ثمّ طف به كما رأيت ملائكتي تحفّ بعرشي فهنا لك أستجيب دعاك ودعاء من تحفّ به من ذرّيّتك. فقال آدم: إنّي لست أقوى على بنيانه ولا اهتدي إليه. فبعث الله تعالى ملكاً فانطلق به نحو مكّة فكان آدم كلّما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن ينزل به هنالك لتبنى فيه فيقول له الملك: ليس هيهنا. حتى أقدمه مكّة فبنى البيت من خمسة جبال طور سيناء وطور زيتون ولبنان والجودي، وبنى قواعده من حرّاء. فلمّا فرغ من بنيانه خرج به الملك إلى عرفات وأراه المناسك كلّها التي يفعلها الناس اليوم، ثمّ قدم به مكّة وطاف بالبيت أسبوعاً، ثمّ رجع إلى أرض الهند. وقيل: إنّه حجّ على رجليه إلى الكعبة أربعين حجّة. وروي عن وهب بن منبّه أنّ آدم دعا ربّه فقال: يا ربّ أما لأرضك هذه عامر يسبّحك فيها ويقدّسك غيري؟ فقال له تعالى: إنّي سأجعل فيها من ولدك من يسبّح بحمدي ويقدّسني، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري يسبّحني فيها خلقي ويذكر فيها اسمي، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً اختصه بكرامتي وأوثره باسمي فأسمّيه بيتي وعليه وضعت جلالتي وعظّمته بعظمتي، وأنا مع ذلك في كل شيء ومع كل شيء، أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمته من حوله وما حوله ومن تحته ومن فوقه فمن حرّمه بحرمتي استوجب كرامتي ومن أخاف أهله فقد أباح حرمتي واستحقّ سخطي وأجعله بيتاً مباركاً يأتيه بنوك شعثا غبرا على كلّ ضامر من كلّ فجّ عميق يزجّون بالتلبية زجيجاً ويعجّون بالتكبير عجيجاً، من اعتمده لا يريد غيره ووفد إلي وزارني واستضاف بي أسعفته بحاجته، وحقّ على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه. تعمره يا آدم ما دمت حيّاً ثمّ تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمّة بعد أمّة وقرنا بعد قرن. ثمّ أمر آدم إلى أن يأتي البيت الحرام فيطوف به

كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش. وبقى أساسه بعد طوفان نوح فبوّأه الله لإبراهيم فبناه. ولنرجع إلى المتن فنقول: إنّه كنّى بثنى أعطافهم نحوه عن التفاتهم إليه وقصدهم له.

وقوله: فصار مثابة لمنتجع أسفارهم.

أي مرجعاً لما تنجع من أسفارهم: أي لطلب منه النجعة والخصب كما قال تعالى: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً**﴾[1] وكقوله تعالى: ﴿**ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله**﴾[2] وذلك أنّه مجمع الخلق وبه مقام الموسم أيّام الحجّ فيكون فيه التجارات والأرباح كما أشرنا إليه في الخطبة الأولى. وكذلك كونه غاية لملقى رحالهم: أي مقصداً.

وقوله: تهوى إليه ثمار الأفئدة.

أي تميل وتسقط. وهوى الأفئدة ميولها ومحبّتها إلاَّ أنه لمَّا كان الذى يميل الى الشيء ويحبّه كأنّه يسقط اليه ولا يملك نفسه استعير لفظ الهوي للحركة الى المحبوب والسعي اليه، وأما ثمار الافئدة فقال بعض الشارحين: ثمرة الفؤاد سويد القلب. ولذلك يقال للولد: ثمرة الفؤاد. وأقول: يحتمل أن يكون لفظ الثمار مستعاراً للخلق باعتبار أنّ كلا منهم محبوب لأهله وآبائه فهو كالثمرة الحاصلة لأفئدتهم من حيث هو محبوب لهم كأنّ أفئدتهم ومحبّتهم له قد أثمرته من حيث إنّها أفادت تربيته والعناية به حتّى استوى إنساناً كاملاً، ويحتمل أن يريد بثمار الأفئدة الأشياء المجبيّة المعجبة من كلّ شيء كما قال تعالى: ﴿**يجبى إليه ثمرات كلّ شيء**﴾[3] ووجه إضافتها إلى الأفئدة أنّها لمّا كانت محبوبة مطلوبة للأفئدة التي حصلت عن محبّتها كما تحصل الثمرة عن أصلها أضيف إليها، والإضافة يكفي فيها أدنى سبب ونحوه قوله تعالى: ﴿**واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات**﴾[4] ولمّا استعار لفظ الهوي رشّح بذكر المهاوى إذ من شأن الهوي أن يكون له موضع. وعميقة صفة لفجاج كما قال تعالى: ﴿**يأتين من كلّ فجّ عميق**﴾[5] ووصف

(١) ٢ - ١١.
(٢) ٢٢ - ٢٩.
(٣) ٢٨ - ٥٧.
(٤) ١٤ - ٤٠.
(٥) ٢٢ - ٢٨.

العمق لـه باعتبـار طولـه والإنحدار فيـه من أعـالي البـلاد إلى مكّـة، ووصف الجـزائر بـالانقطاع لأنّ البحـر يقطعهـا عن سائـر الأرض والبحار يحيط بهـا. وحتى غاية من قوله: تهوي بمعنى اللام، وكنّى بهزّ مناكبهم عن حركاتهم في الطواف بالبيت. إذ كان ذلك من شأن المتحرّك بسرعة. وذللاً: جمع ذلـول. والنصب على الحال من الضمير في تهزّ. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون من منـاكبهم وكذلـك موضـع يهلّلون النصب على الحال وكـذلك شعثـاً وغبراً من الضمير في يرملون. وكنّى بنبذهم للسرابيل وراء ظهورهم عن طـرحها وعـدم لبسها وتشويههم بإعفاء الشعور محاسن خلقهم لأنّ حلق شعر المحرم أو نتفـه والتنظيف منه حرام تجب فيه الفدية. وظـاهر أنّ إعفـاء الشعور يستلزم تقبيـح الخلقة وتشويهها وتغيير ما هو معتاد من تحسينها بحلقه وإزالته.

وقوله: ابتلاء. وامتحاناً. واختباراً. وتمحيصاً.

منصوبات على المفعول له. والعامل فيه قولـه: أمر الله آدم، ويحتمـل أن يكون على المصدر كـلّ من فعله. وعدّد هـذه الألفاظ وإن كـانت مترادفـة على معنى واحد تأكيداً وتقريراً لكون الله تعالى شدّد عليهم في البلوى بـذلك ليكون استعدادهم بتلك القوى العظيمة للثواب أتمّ وأشدّ فيكون الجزاء لهم أفضل وأجزل فلذلك قال: جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنّته: أي سبباً معدّاً لإفاضة رحمة تستلزم الوصول الى جنّته وقد تأكد بهذا المثال صدق قوله: وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كـان الثواب أجـزل. لأنّ الله سبحانـه لمّا اختبر عباده بأمر الحـجّ ومناسكـه التي يستلزم شقاء الأبـدان واحتمال المشـاقّ الكثيرة المتعبة في الأسفار من المسافات البعيدة وترك مفاخر الدنيا عنده ونزع التكبّـر حتى كأنّـه لم يوضـع إلّا لخلع التكبّر من الأعنـاق مع مـا في جزئيّـات مناسكه ومباشرته من المشاقّ المتكلّفة مع كـونه كمـا ذكر أحجـاراً لا تضرّ ولا تنفـع ولا تسمع ولا تبصـر لا جرم كـان الاستعداد بـه لقبول آثـار الله وإفاضـة رحمتـه أتمّ من أكثر وجـوه الاستعدادات لسائر العبـادات فكـان الثـواب عليـه والرحمة النازلة بسببه أتمّ وأجزل.

وقوله: ولو أراد الله. إلى قوله: ضعف البلاء.

صغرى قياس ضمير استثنائي حذف استثناؤه. وهي نتيجة قياس آخر من متصلتين تقدير صغراهما: أنّه لو أراد أن يضع بيته الحرام بين هذه المواضع الحسنة المبهجة لفعل، وتقدير الكبرى: ولو فعل لكان يجب منه تصغير قدر الجزاء على قدر ضعف البلاء، وتقدير استثناء هذه المتّصلة: لكنّه لا يجب منه ذلك ولا يجوز لأنّ مراد العناية الإلهيّة مضاعفة الثواب وبلوغ كلّ نفس غاية كمالها وذلك لا يتمّ إلّا بكمال الاستعداد بالشدائد والميثاق فلذلك لم يرد أن يجعل بيته الحرام في تلك المواضع لاستلزامها ضعف البلاء. وكنّى بدنوّ الثمار عن سهولة تناولها وحضورها، وبالتفاف البنى عن تقارب بعضه من بعض. والبرّة: واحدة البرّ وقد يقام مقام اسم الجنس فيقال: هذه برّة حسنة، ولا يراد بها الحبّة الواحدة واعتبار السمرة لها لأنّ وصفها بعد الخضرة السمرة.

وقوله: ولو كان الأساس. إلى قوله: من الناس.

في تقدير قياس ضمير آخر استثنائي كالذي قبله، وتلخيصه أنّه تعالى لو جعل الأساس المحمول عليها بيته الحرام بين هذه الأحجار المنيرة المضيئة لخفّف ذلك مسارعة الشكّ في الصدور. وأراد شكّ الخلق في صدق الأنبياء وعدم صدقهم وشكّهم في أن البيت بيتاً لله أو ليس. فإنّه على تقدير كون الأنبياء عليهم السلام بالحال المشهورة من الفقر والذلّ وكون البيت الحرام من هذه الأحجار المعتادة يقوي الشكّ في كونهم رسلاً من عند الله وفي كون البيت بيتاً له، وعلى تقدير كونهم في الملك والعزّ وكون البيت من الأحجار النفيسة المذكورة ينتفي ذلك الشكّ إذ يكون ملكهم ونفاسة تلك الأحجار من الأمور الجاذبة إليهم والداعية إلى محبّتهم والمسارعة إلى تصديقهم والحكم بكون البيت بيت الله لمناسبته في كماله ما ينسبه الأنبياء إلى الله سبحانه من الوصف بأكمل طرفي النقيض ولكون الخلق أميل إلى المحسوس، واستعار لفظ المسارعة هنا للمغالبة بين الشكّ وصدق الأنبياء والشكّ في كذبهم فإنّ كلّا منهما يترجّح على الآخر وكذلك كان وضع مجاهدة إبليس عن القلوب لأنّ الايمان بكونه بيتاً لله ينبغي حجّه والقصد إليه لا يكون عن مجاهدة إبليس في تصديق الأنبياء في ذلك وفي وجوب عبادة الله بل لعزّة البيت وحسن

بنيانه وميل النفوس إلى شريف جواهره لكن هذه الأمور وهي مسارعة الشكّ ومجاهدة إبليس ومعتلج الريب لا تخفّف ولا تنتفي لكونها مرادة من الحكمة الإلهيّة لإعداد النفوس بها لتدرك الكمالات الباقية والسعادات الدائمة فلذلك لم يجعل تعالى بنيان بيته من تلك الأحجار النفيسة.

وقوله: ولكنّ الله يختبر عباده. إلى قوله: المكاره.

استثناء لعلّة النقائض المذكورة فيقوم مقام استثناء مسارعة الشكّ ومجاهدة إبليس من جملة أنواع الشدائد وألوان المجاهد والمشاقّ واختباره لعباده بها علّة لوجودها.

وقوله: إخراجاً للتكبّر. إلى قوله: لعفوه.

إشارة إلى كونها أسباباً غائيّة من العناية الإلهيّة لإعداد النفوس لإخراج الكبر منها وإفاضة ضدّه وهو التذلّل والتواضع عليها وإلى كونها أسباباً معدّة لفضله وعفوه، واستعار لفظ الأبواب لها باعتبار الدخول منها إلى رضوان الله وثوابه. ولفظ الذلل لكون الدخول منها إلى ذلك سهلاً للمستعدّين لها. ثمّ عاد إلى التحذير من الله تعالى في البغي والظلم وعاقبته. وحاصل الكلام أنّه جعل عاجل البغي وآجل الهلاك عنه وسوء عاقبة الكبر محلاً للحذر من الله تعالى وذلك باعتبار وعيده تعالى عند التلبّس بالبغي والنظر في تلك الحال إلى ما يستلزم من الهلاك في الآخرة وما يستلزمه التكبّر من سوء العاقبة. والضمير في قوله: فإنّها قال السيّد فضل الله الراوندي ـ رحمه الله ـ: يعود إلى الجملة من البغي والظلم والكبر وإن لم يجر لها ذكر. وقال غيره: الضمير للكبر وإنّما أنّثه باعتبار جعله مصيدة باعتبار أنّه يصير الداخل فيه من حزب إبليس وفي قبضته كالشبكة وحبائل الصائد. ووصفها بالعظم باعتبار قوّته وكثرة ما يستلزمه من الرذائل، وكذلك استعار له لفظ المكيدة الكبرى باعتبار ما هو سبب قوي في جذب الخلق إلى الباطل وضلالهم عن طريق الله كالحيلة والخدعة، واستعار وصف المساورة له باعتبار مواثبته النفوس ومغالبته لها بالكبر وذلك أنّه تارة يلقى إليها تحسين الكبر وتزيينه فتنفعل عنه وتقبل الكبر وتلك هي الوثبة من جانبه. وتارة تقوى النفس عليه فترّد وسوسته بقهره وتلك الوثبة من قبلها. ثمّ شبّه مساورته للقلوب بالكبر بمساورة السموم القاتلة للطبيعة البدنيّة، وكنّى

عن وجه الشبه بقوله: فما تكدي أبداً ولا تشوي أحداً: أي إنّ مساورته بالكبر لا تكاد يقابلها ما يقاومها من العقول ويمنع تأثيرها في النفوس كما لايكاد يقاوم مواثبة السموم القاتلة من طبائع الحيوان ولا تكاد تخطىء المقاتل كما لا يخطىء السموم وحركاتها في الأبدان مقاتلها. ويحتمل أن يكون وجه الشبه كون مساورته غالبة قويّة كمساورة السموم للأبدان، ويكون قوله: لا تكدي أبداً ولا تشوي أحداً استعارتين لوصفي السمّ الذي لا يكاد يقف دون المقاتل ولا يخطئها لتلك المساورة باعتبار أنّها لا يخطىء رميتها القلوب بسهام الكبر والبغي وسائر ما يلقى من الوساوس المهلكة.

وقوله: لا عالماً لعلمه ولا مقلاً في طمره.

أي أنّ هذه الرذيلة تؤثّر في نفس العالم في علمه والفقير في فقره فلا يردّها العالم بعلمه أنّها رذيلة ولا المقلّ المفتقر في طمره لمنافاة حاله في قلّته وفقره الكبر.

وقوله: وعن ذلك ما حرس الله. إلى قوله: تذلّلا.

تنبيه على الأمور التي حرس الله تعالى بها عباده من هذه الرذيلة وجعلها أسباباً للتحرّز من نزغات الشيطان بها، وأشار إلى ثلاثة منها وهي الصلوات والزكوات ومجاهدة الصيام في الأيّام المفروض صومها. أمّا الصلوات فلكونها بأجزائها وأوضاعها منافية للكبر.

إذ كان مدارها على تضرّع وخضوع وخشوع وركوع. وكلّ واحد من هذه الأجزاء بكيفيّاته وهيئاته موضوع على المذلة والتواضع والاستسلام لعزّة الله وعظمته وتصوّر كماله وتذكّر وعده ووعيده وأهوال الموقف بين يديه وكلّ ذلك ينافي التكبّر والتعظّم، وإلى ذلك أشار بقوله: تسكيناً لأطرافهم وتخشّعاً لأبصارهم. إلى قوله: تصاغرا، ونصب تسكيناً وتخشيعاً وتذليلاً وتخفيضاً وإذهاباً على المفعول له، والعامل ما دلّ عليه قوله: حرس من معنى الأمر: أي حرسهم بهذه وأمرهم بكذا وكذا. وانتصب تواضعاً وتصاغراً، والعاملان المصدران: تعفير، والتصاق.

فأمّا الزكاة فوجه منفعتها في دفع هذه الرذيلة أمران:

أحدهما: أنّها شكر للنعمة الماليّة كما أنّ العبادات البدنيّةشكر للنعمة البدنيّة، وظاهر أنّ شكر النعمة مناف للتكبّر عن المنعم والاستنكاف عن عبادته.

الثاني: أنّ من أوجبت عليه الزكاة يتصوّر قدرة موجبها وسلطانه وقهره على إخراجها فينفعل عن حكمه وينقهر تحت أوامره مع تصوّره لغنائه المطلق وذلك مناف لتكبّره واستنكافه عن عبادته.

وأمّا مجاهدة الصيام فلما فيها من المشقّة الشاقّة ومكابدة الجوع والعطش في الأيّام الصيفيّة كما كنّى عنه عليه السلام بقوله: وإلصاق البطون بالمتون من الصيام. والإنسان في كلّ تلك الأحوال متصوّر لجلال الله وعظمته وأنّه إنّما يفعل ذلك امتثالاً لواجب أمره وخضوعاً تحت عزّ سلطانه، وذلك مناف للكبر والترفّع، وقد علمت ما في الصوم من كسر النفس الأمّارة بالسوء كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع وذلك أنّ وسيلة الشيطان هي الشهوات ومبدأ الشهوات وقوّتها مداومة الأكل والشرب. وبتضييق مجاريه ينقهر وينكسر نواجم وسوسته بالرذائل عن العبد، ويسكن حركات الأطراف التي مبدءها تلك الوساوس، وتخشع الابصار، وتذلّ النفوس، وتنخفض القلوب.

وقوله: مع ما في الزكاة. إلى قوله: الفقير.

إشارة إلى سرّ آخر من أسرار الزكاة وهو ظاهر. وقد ذكرنا أسرارها مستقصاة في الفصل الذي أوّله: إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون.

قوله: انظروا. إلى آخره. أمر باعتبار ما في هذه الأفعال: أي التي تقع في الصلاة والزكاة والصيام من تعفير عتائق الوجوه وإلصاق كرائم الجوارح وهي الأيدي والأرجل ولحوق البطون بالمتون إلى غير ذلك من الأفعال المستلزمة للتواضع والتذلل تأكيداً لما قرّره أوّلاً من كون هذه العبادات حارسة لعباد الله عن رذيلة الكبر. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع : في توبيخهم على المعصية من غير سبب يعرف أو حجّة يقبلها عقل، وأمرهم بالتعصّب لمحامد الأخلاق ومكارمها، وتحذيرهم من العقوبات النازلة بمن قبلهم من الأمم والنظر في عاقبة أمرهم، وغير ذلك

من الأمور الواعظة. وذلك قوله:

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ إلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهلاَءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ، غَيْرَكُمْ؛ فإنَّكُمْ تَتَعَصَّبونَ لأمْرٍ لاَ يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّةٌ: أَمَّا إبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ. فَقَالَ: (أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ) وَأَمَّا الأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ؛ فَقَالُوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلَاداً، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)

فَإنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ، وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الأُمُورِ الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ، بِالأَخْلاَقِ الرَّغِيبَةِ، وَالأَحْلاَمِ الْعَظِيمَةِ، وَالأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَالآثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ: مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَالأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالإعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالإنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ.

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ، بِسُوءِ الأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُم، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ فَإذَا تَفَكَّرْتُم فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ فِيهِ بِهِمْ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ: مِنَ الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا، وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ: مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الأَيْدِي، وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ: كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلاَءِ؟ أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلاَئِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلاَءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً؟ اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً، فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ،

فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ، وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ: لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ، وَلَا سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالاحْتِمَالِ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ؛ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً: فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وَأَئِمَّةً أَعْلَاماً، وَبَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَبْلُغِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالأَهْوَاءُ مُتَّفِقَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً؟! أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الْأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ؟؟ فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الْأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ.

وَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ ـ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ!!!

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الآفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ، وَمَهَافِي الرِّيحِ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ، أَذَلَّ الْأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا، فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ. فِي بَلَاءِ أَزْلٍ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ مِنْ بَنَاتٍ مَوْؤُدَةٍ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ، حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِمْ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ

لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَٱلْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ؟! قَدْ تَـرَبَّعَتِ ٱلْأُمُورُ بِهِمْ فِي ظِـلِّ سُلْطَانٍ قَـاهِرٍ، وَآوَتْهُمُ الْحَـالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَـالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ ٱلْأُمُـورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ ٱلْأَرَضِينَ: يَمْلِكُونَ ٱلْأُمُـورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَـا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ ٱلْأَحْكَـامَ فِيمَنْ كَـانَ يُمْضِيهَـا فِيهِمْ، لاَ تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلاَ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ!!

أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَـدْ نَفَضْتُمْ أَيْـدِيكُمْ مِنْ حَبْـلِ الـطَّاعَـةِ؛ وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ ٱللهِ الْمَضْـرُوبَ عَلَيْكُمْ بِـأَحْكَـامِ الْجَـاهِلِيَّـةِ، وَإِنَّ ٱللهَ ـ سُبْحَـانَـهُ ـ قَـدِ ٱمْتَنَّ عَلَى جَمَـاعَةِ هَـذِهِ ٱلْأُمَّةِ فِيمَـا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْـلِ هَـذِهِ ٱلْأُلْفَـةِ: الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَـا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَـا ـ بِنِعْمَةٍ لاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَـا قِيمَـةً؛ لأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَٱعْلَمُـوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْـدَ الْهِجْرَةِ أَعْـرَاباً، وَبَعْـدَ الْمُوَالاَةِ أَحْـزَاباً، مَـا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ ٱلإِسْلاَمِ إِلاَّ بِـاسْمِهِ، وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ ٱلإِيمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ!!

تَقُولُونَ «النَّارَ وَلاَ الْعَارَ» كَأَنَّكُمْ تُرِيـدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا ٱلإِسْـلاَمَ عَـلَى وَجْهِهِ ٱنْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ، الَّذِي وَضَعَهُ ٱللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وَأَمْنـاً بَيْنَ خَلْقِهِ، وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَـأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَـارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْـرِ، ثُمَّ لاَ جَبْرَائِيـلُ وَلاَ مِيكَائِيلُ وَلاَ مُهَـاجِرُونَ وَلاَ أَنْصَـارٌ يَنْصُرُوكُمْ، إِلاَّ الْمُقَـارَعَةَ بِـالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْـدَكُمُ ٱلأَمْثَـالَ مِنْ بَأْسِ ٱللهِ وَقَـوَارِعِهِ، وَأَيَّـامِهِ وَوَقَـائِعِـهِ، فَـلاَ تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَتَهَـاوُناً بِبَطْشِهِ، وَيَأْسـاً مِنْ بَأْسِـهِ؛ فَإِنَّ ٱللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْـدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ ٱلأَمْـرَ بِالْمَعْـرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَـرِ، فَلَعَنَ ٱللهُ السُّفَهَاءَ لِـرُكُوبِ الْمَعَـاصِي، وَالْحُكَمَـاءَ لِتَـرْكِ التَّنَاهِي، أَلاَ وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ ٱلإِسْلاَمِ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ.

أقـول: التمويــه: التلبيس. وتليط: تلتصق وتختلط. والسفـه: خفّـة

العقل. والمجداء: جمع ماجد وهو كريم الآباء وشريفهم. والنجداء: جمع نجيد، وهو ذو النجدة وهي فضيلة تحت الشجاعة. ويعاسيب القبائل: ساداتها. وزاحت: بعدت والتحاضّ: التحاثّ. والفقرة: الواحدة من خرزات الظهر. وروي فقرهم: جمع فقرة. والمنّة: القوّة. والتضاغن: التحاقد. والتشاحن: التعادي. والتدابر: التقاطع. والتخاذل: عدم التناصر. والعبء: الحمل. وأجهد: أشقّ وسمته كذا: أوليته إيّاه. والمرار بضمّ الميم: شجر مرّ إذا أكلت منه الإبل قلصت عنه مشافرها. والترادف: التعاضد والتعاون. وغضارة النعمة: طيبها. والاحتياز: الاقتطاع عن الشيء والأخذ عنه. والريف: الأرض ذات الزرع والخصب ومهافي الريح: جمع مهفاة وهي محلّ هفو الريح: أي حركتها وهبوبها. ونكد المعاش: قلّته وشدّته والعالة: جمع عائل وهو ذو العيلة وهي الفقر. والدبر: الجرح في ظهر البعير. والوتر: الحقد. وفي بعض النسخ: دبر ووبر. والأزل: الضيق. والموؤودة: البنت تدفن في التراب حيّة. وشنّ الغارة: فرّقها من كلّ جانب. والفكه: طيّب النفس المسرور، والفكه: الأشر البطر. وتربّعت: أقامت. وأصله الإقامة في الربيع، ويحتمل أن يريد تمكّنت كالمتربّع بجلسته المخصوصة بكونها ذات تمكّن. والذرى: جمع ذروة وهي أعلى الجبل. وعطف عليه وتعطّف: إذا أشفق عليه والتفت إليه بإحسانه. والخطر: المنزلة والقدر. والأعراب: سكّان البادية. وإكفاء الإناء: قلبه لوجهه. وانتهاك الحرمة: أخذها بما لا يحلّ. والمقارعة: المضاربة.

فقوله: ولقد نظرت. إلى قوله: بمعذّبين.

في معرض التوبيخ لهم على تعصّبهم الباطل الذي تثور به الفتن مع أنّه ليس لأمر يعرف من وجه المنفعة والمصلحة الحاملة عليه. ولفظ إلّا يقتضي حصر وجدانه لمن يتعصّب لشيء في وجدانه له متعصّباً عن علّة تحتمل تشبيه الأمر على أهل الجهل بحيث يظنّ سببا صحيحاً للتعصّب أو عن حجّة ملتصق بعقول السفهاء فيقبلها، وهذا هو مقتضى العقل. إذ كان الترجيح من غير مرجّح محال في بداية العقول. وتقدير الكلام: فما وجدت أحداً يتعصّب

إلّا وجدته يتعصّب عن علّة.

وقوله: غيركم.

استثناء من معنى الإثبات في الجملة المفيدة للحصر كأنّه قال: وجدت كلّ أحد يتعصّب عن علّة إلّا أنتم.

وقوله: تتعصبّون لأمر ما يعرف له سبب ولا علّة.

أي سبب يحتمل التمويه على الجهلاء وعلّة ملتصق بعقول السفهاء ولم يرد نفي مطلق السبب. إذ سبب تعصّبهم وثوران الفتنة بينهم هو الاعتزاء الذي كان بينهم وكان يقع من جهّالهم كما ذكرناه في سبب الخطبة لكنّه ترك الوصف هنا لتقدّمه.

ثمّ أخذ في تفصيل وجوه العصبيّة وأسبابها فبدء بذكر مبدء العصبيّة لإبليس. وسبب عصبيّته لأصله اعتقاده لطف جوهره وشرفه. إذ النار أشرف من الطين مع جهله بسرّ البشريّة ووضع آدم على هذه الخلقة وخلقته التي وضع عليها فلذلك فضّل نفسه قياساً للفرع على الأصل في الشرف والخسّة فقال: أنا ناري وأنت طيني. ولذلك قيل: إنّ أوّل من قاس إبليس. ثمّ بعصبيّة الأغنياء والجهّال من مترفة الأمم لكونهم تلامذة إبليس في العصبيّة، وأشار إلى علّة تعصّبهم وهي آثار مواقع النعم، ومواقعها هي الأموال والأولاد وسائر ما ينتفع به كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿**نحن أكثر أموالاً وأولاداً**﴾[1] وآثار تلك المواقع هي الغنى والترفّه بها والتنعّم والالتذاذ، وكان تعصّبهم لذلك وفخرهم به. ويجب أن يعلم أنّ الأموال والأولاد أنفسها ليست نعما مطلقا لأنّ النعمة من الأمور الإضافيّة إنّما يقال بالنسبة إلى منعم ومنعم عليه وليس المال مطلقا كذلك ولا الولد باعتبار ذاته بل إنّما يطلق عليهما لفظ النعمة باعتبار انتفاع الإنسان بهما حتى لو كانا سبباً لهلاكه وأذاه لم يكونا بذلك الاعتبار إلّا نعمة عليه وفتنة له فلذلك جعلها مواقع النعم: أي محالّ قابلة لكونها نعما،

---

(1) ٣٤-٣٤.

ويحتمل أن يريد بالنعم الأموال والأولاد وبمواقعها وقوعها فإنّه كثيراً ما يريد بمفعل المصدر وآثارها هي الغنى والترفّه كما قدّمناه. ثمّ لمّا وبّخهم على التعصّبات الباطلة نبّههم على مواقع العصبيّة وما ينبغي أن يكون له وهي مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها أهل المجد والشرف والنجدة من بيوتات العرب وسادات القبائل. والباء في قوله: بالأخلاق. متعلّقة بتفاضلت فإنّ المذكورين تفاضلوا في محاسن الأمور بالأخلاق الرغيبة: أي المرغوب فيها، وقد علمت فيما سبق أصول الأخلاق الفاضلة وما تحتها من أنواعها، والحلم ملكة تحت الشجاعة وهي الإناءة والرزانة عند الغضب وموجباته والمفاضلة بالأخطار الجليلة مراعاةً للمراتب المحمودة ومنازل الشرف بالمحافظة على تلك الأخلاق المحمودة وملازمتها، وكذلك المفاضلة بالآثار المحمودة يعود إلى ملازمة الأفعال الجميلة الموافقة للأخلاق النفسانيّة كفعل البذل عن السخاء وكقتل القريب مثلاً مراعاة للعدل والوفاء. ثمّ أمرهم بعد التنبيه على تلك المكارم بالعصبيّة لها فقال: فتعصّبوا لخلال الحمد. وأشار إلى تفصيلها: فمنها: حفظ الجوار وهي فضيلة تتشعّب عن فضيلتين لأنّ حفظه يكون بالكفّ عن أذاه وذلك فضيلة تحت العدل، ويكون بالإحسان إليه ومصادقته ومسامحته ومواساته وتلك أمور تحت العفّة. ومنها: الوفاء بالذمام وهو تحت العفّة. ومنها: الطاعة للبرّ والأولى أن يريد بالبرّ هنا ما أراد به القرآن الكريم بقوله: **﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله﴾**. إلى قوله: **﴿وأولئك هم المتّقون ولكنّ البرّ من اتّقى﴾**[1]. فإنّ المراد في هاتين القرينتين بالبرّ كمال الايمان والتقوى والأعمال الجميلة، ومعنى طاعة البرّ التلبّس بهذه الأفعال وملازمتها واعتقاد وجوبها، ويحتمل أن يريد والطاعة للأمر بالبرّ فحذف الأمر للعلم به.

وقد يطلق البرّ ويراد به العفّة وبذلك الاعتبار يقابله الفجور، ويحتمل أن يريد هيهنا ما يقابل العقوق وهو الشفقَة على ذوي الرحم والإحسان إلى

---

(١) ٢ - ١٧٢.

الوالدين، وهو داخل تحت العفّة. ومنها: المعصية للكبر والمراد بمعصية الكبر مجانبته مجازا إطلاقا لاسم السبب على المسبّب أو معصية الأمر بالكبر وهو كناية عن التواضع وهو فضيلة تحت العفّة، والمعصية هنا في مقابلة الطاعة. ومنها: الأخذ بالفضل وأراد استكمال الفضيلة ولزومها، ويحتمل أن يريد بالفضل التفضّل على الغير والإحسان إليه والأخذ به فيكون أمراً بالإحسان والجود وهو فضيلة تحت العفّة. ومنها: الكفّ عن البغي ويعود إلى فضيلة العدل. ومنها: تعظيم القتل وهو كناية عن تركه لما يستلزمه من رذيلة الظلم ثمّ للوعيد عليه في الآخرة ويعود إلى فضيلة العدل أيضاً، وكذلك الانصاف للخلق هو لزوم العدل في معاملاتهم. ومنها: كظم الغيظ وهو فضيلة تحت فضيلة الشجاعة. ومنها اجتناب الفساد في الأرض وهو من لوازم فضيلة العدل. ثمّ لمّا أمر بلزوم مكارم الأخلاق والأعمال الجميلة أردفه بالتنفير عن الكون على ذلك من رذائلها وذمائمها، وذلك التنفير بتذكير السامعين حال الأمم الماضين وما أصابهم من عقوبات الله بسبب سوء أفعالهم وذميم أعمالهم، وتحذيرهم أن يرتكبوا تلك الرذائل فيصيبهم ما أصاب أولئك من بأس الله. وأمرهم أن يتذكّروا حالهم في الخير أوّلاً حين كانوا في طاعة أنبيائهم والألفة الجامعة بينهم وحالهم في الشرّ التي انقلبوا إليها عن تلك الحال حين خالفوا صالح الأعمال وحالفوا ذميم الأفعال، وحذّرهم أن يكونوا أمثالهم: أي في ذلك الانقلاب واستبدال الشرّ بالخير وأن يلزموا عند تفكّرهم في تفاوت خاليهم كلّ أمر لزمت العزّة به حالهم وأزالت الأعداء عنهم ومدّت العافية فيه بهم. والباء للاستصحاب: أي مدّت مستصحبة لهم. وفي نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ ومدّت بالفتح على البناء للفاعل كقولك مدّ الماء: أي جرى وسال. وكذلك انقادت النعم لذلك الأمر معهم: أي بسببه. إذ كان سبباً معدّاً لإفاضة النعم عليهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم. واستعار لفظ الوصل لاجتماعهم عن كرامة الله لهم حال كونهم على ذلك الأمر، ورشّح بذكر الحبل.

وقوله: من الاجتناب. إلى قوله: والتواصي بها.

وظاهر أنّ لزوم الألفة سبب للأمور التي عدّدها.

وقوله: واجتنبوا إلى قوله: وتخاذل الأيدي.

أي واجتنبوا كلّ أمر استبدلوا به تلك الأمور التي أوجبت لهم العزّة والكرامة وكان سبباً لكسر فقرتهم ووهن قوّتهم وهو التضاغن والتشاحن والتقاطع والتخاذل لأنّها امور تضادّ الألفة وتنافيها فكانت مضادّة لما يستلزمه الالفة، وأراد التخاذل المطلق. وإضافته إلى الأيدي كناية لأنّ الأغلب أن يكون التناصر بالأيدي، وهؤلاء الذين أمر باعتبار حالهم لا يريد بهم أمّة معيّنة بل الحال عامّ في كلّ أمّة سبقت فإنّ كلّ أُمّة ترادفت أيديهم وتعاونوا وتناصروا كان ذلك سبباً لعزّة حالهم ودفع الأعداء عنهم، وكلّ قوم افترقوا وتقاطعوا استلزم ذلك ذلّهم وقهر الأعداء لهم.

وقوله: وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين. إلى قوله: إليه بهم.

أمر لهم باعتبار هذه الأحوال فيمن هو أخصّ وهم المؤمنون من الماضين في أزمان الأنبياء السابقين فإنّهم حيث كانوا مع كلّ نبيّ في مبدء أمرهم في حال التمحيص والاستخلاص لقلوبهم بالبلاء أثقل أهل الأرض أعباء قد اتّخذتهم الفراعنة عبيداً يسومونهم سوء العذاب وهؤلاء كيوسف عليه السلام مع فرعون زمانه، وكموسى وهارون ومن آمن معهما من بني إسرائيل في مبدء أمرهم فإنّهم كانوا حال التمحيص والبلاء بالصفات التي ذكرها عليه السلام قد اتّخذتهم الفراعنة عبيداً يسومونهم سوء العذاب ويجرّعونهم المرار فلم يزالوا كذلك مقهورين حتى إذا رأى استعدادهم بالصبر على دينه لإفاضة رحمته عليهم أفاضها عليهم وجعل لهم من مضائق البلاء فرجاً فأبدلهم بالعزّ مكان الذلّ والأمن مكان الخوف كما امتنّ عليهم تعالى في كتابه حيث قال: **﴿وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوءَ العذاب يذبّحون أبنائكم ويستحيون نسائكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم وإذ فرقنا بكم البحر﴾**[1] الآية. وقبل ذلك ما كان المؤمنون مع نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وغيرهما. فأمّا كونهم ملوكاً وحكّاماً وأئمة أعلاماً وبلوغهم الكرامة من الله لهم ما لم يذهب آمالهم إليه فإنّ

---

(١) ٣ ـ ٤٦.

موسى عليه السلام وهارون عليه السلام بعد هلاك فرعون ملكا مصر واستقرّ لهما الملك والدين وكطالوت وداود بعد مجاهدتهما بجالوت وقتله، وذلك أنّ طالوت لمّا جاوز النهر هو ومن معه لقتال جالوت كان معه داود عليه السلام فرماه من مقلاعه بحجر فقتله وانكسر أصحابه فكان الملك والغلبة لطالوت وأصحابه وكان الملك بعده لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿**وآتاه الله الملك والحكمة**﴾(١) وكذلك لم يزل الملك والنبوّة في سليمان وولده وأولادهم الى الأعرج من ولده فطمعت الملوك في بيت المقدس لضعفه وزمنه وأنّه لم يكن نبيّا فسار إليه ملك الجزيرة وكان يسكن بريّة سنجار وكان بخت نصر كاتبه فأرسل الله تعالى عليه ريحاً فأهلكت جيشه وأفلت هو وكاتبه فقتله ابنه فغضب له بخت نصر فاغترّه حتى قتله وملك بعده وكان ذلك أوّل ملك بخت نصر.

وقوله: فانظروا كيف كانوا. إلى قوله: للمعتبرين منكم.

أمر لهم باعتبار حالهم في ألفتهم واجتماعهم، وإشارة إلى أنّ المستلزم لتلك الخيرات كلّها إنّما كان هو الألفة والاجتماع وباعتبار ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة بينهم وتشتّت ألفتهم واختلفت كلمتهم وأفئدتهم فخلع الله عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته وبقي قصص أخبارهم عبرة للمعتبرين، وهو إشارة إلى أنّ المستلزم لتلك الشرور هو ما حصلوا عليه من تفرّق الكلمة وذلك صادق على كلّ قرن قرن وأمّة أمّة آمنوا ولحقتهم المجاهد من الفراعنة والجبابرة ثم صبروا فانتصروا على أعدائهم. وأراد باعتدال القلوب استقامتها على الحقّ.

وقوله: والسيوف متناصرة.

قال بعضهم: أراد أهل السيوف فحذف المضاف، ويحتمل أن يكون قد استعار وصف التناصر لها باعتبار كونها أسباباً يقوّى بعضها بعضاً فصارت كالجماعة التي ينصر بعضها بعضاً. ونفوذ البصائر خرقها حجب الشبهات عن الحقّ واصلة إليه. واتّحاد العزائم اتّفاق الإرادات الجازمة على طلب الحقّ ومختلفين ومتحاربين منصوبان على الحال، وكذلك موضع قوله: قد خلع

---

(١) ٢ - ٢٥٢.

وكذلك عبرةً.

وقوله: فاعتبروا بحال ولد أسماعيل وبني إسحاق وإسرائيل عليهم السلام. إلى قوله: صفاة.

أمر لهم باعتبار أخصّ وولد إسماعيل إشارة إلى العرب من آل قحطان وآل معد، ومن بني إسحاق أولاد روم ابن عيص بن اسحاق وبنو إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق. فأمّا حال تشتّتهم وتفرّقهم واستيلاء الأكاسرة والقياصرة عليهم وفعلهم بهم ما ذكر فتفرّق كلمة العرب قبل ظهور محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمر ظاهر معلوم لكلّ من طالع كتب السير، وبسبب ذلك كانت الأكاسرة أرباباً لهم يحتازونهم ويبعّدونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى البادية، وأمّا حال بني إسحاق وإسرائيل في ذلك فنحو ما جرى لأولاد روم بن عيص من اختلاف النسطوريّة واليعقوبيّة والملكاتيّة حتى كان ذلك سبباً لضعفهم واستيلاء القياصرة عليهم في الروم وعلى بني إسرائيل في الشام وإزعاج بخت نصر لهم عن بيت المقدس حتى غزاهم المرّة الثانية كما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد**﴾[1] الآية. وقد كان غزاهم مرّة أولى حين أحدثوا وغيّروا فرغبوا إلى الله تعالى وتابوا فردّه عنهم وهي المرّة الأولى التي حكى الله تعالى بقوله: ﴿**فإذا جاء وعد أوليهما**﴾[2] الآية. ثمّ أحدثوا بعد ذلك فبعث الله إليهم أرميا فقام فيهم بوحي الله فضربوه وقيّدوه وسجنوه فغضب الله عليهم فبعث إليهم عند ذلك بخت نصر فقتل منهم وصلب وأحرق وجدع وباع ذراريهم ونساءهم وسارت منهم طائفة إلى مصر ولجأوا إلى ملكها فسار إليه بخت نصر فأسره وأسر بني إسرائيل. والذين فرّوا منهم ارتحلوا إلى حدود المدينة كيهود خيبر وبني قريظة والنضير ووادي قرى وقينقاع. إذا عرفت ذلك فنقول: إنّه عليه السلام أمر باعتبار حالهم وتأمّل أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفعل أعدائهم ما كانوا يفعلون كيف فرّج الله عنهم من تلك

---

(1) ١٧ - ٧.

(2) ٨١ - ٩.

الشدائد بظهور محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم نبيّاً. واعلم أنّ غايته عليه السلام من أمره باعتبار حال المؤمنين من الأمم الماضية قبلهم اقتداؤهم في الصبر على المكاره ولزوم الألفة والاجتماع مع ذلك وانتظار الفرج به.

وقوله: فما أشدّ اعتدال الأحوال.

أي تساويها، وأراد أنّ أحوالكم الشبه والمساواة لأحوالهم، وكذلك ما أقرب اشتباه الأمثال: أي إنّ أحوالكم شديدة المماثلة لأحوالهم لأنّكم أمثالهم. وهو إشارة إلى وجه علّة الاعتبار فإنّهم إذا كانوا أمثالهم واعتدلت أحوالهم وتشابهت أمورهم وجب اعتبار حالهم بحالهم ولذلك أتى بالفاء للتعليل.

وقوله: تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم. إلى آخر الكلام.

إشارة إلى حال شدّتهم ورخائهم لتنقل أذهان السامعين إلى إثبات تلك الحال لأنفسهم. فالماضون أصل ذلك الاعتبار، والسامعون فرعه، وحكم الأصل أحوالهم الخيريّة والشريّة، وعلّة ذلك الحكم كونهم أمثالاً لهم.

وقوله: ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم.

أي مالكون لأمورهم يحتازونهم: أي كانت القياصرة يحتازون بني إسرائيل وبني إسحاق، والأكاسرة يحتازون بني إسرائيل ويمنعونهم من أعمال العراق فصار الجميع مطروداً للجميع عن خضرة الآفاق وجنان الشام وبحر العراق. وأراد دجلة والفرات.

وقوله: إلى منابت الشيح ومهافي الريح.

كنايتان عن البريّة وظاهر أنّها محلّ نكد العيش وضيقه كما وبّخهم عليه السلام بوصف معاشهم في الفصول السابقة ويختص الأكاسرة ـ وهو جمع كسرى ـ بملوك الفرس والقياصرة بملوك الروم وهو جمع على غير قياس. وكنّى بالدبر والوبر عن الجمال، وفيه إيماء إلى فقرهم وضيق معاشهم لأنّ دبر الجمال واستعمال الوبر وأكله بالدم من لوازم الفقر وضيق الحال، وعلى الرواية الأخرى فالدبر كناية عن الفقر أيضاً، وظاهر أنّهم أذلّ الأمم داراً لأنّ

أهل البادية ليسوا أصحاب حصون وقلاع يعتصم بها وإن كان لبعضهم حصون فعساه يحميهم عن أمثالهم فيما يجري بينهم من الغارات، وليس ذلك ممّا يدفع عدوّاً ذا قوّة أو يحتمل حصاراً.

وقوله: وأجدبهم قراراً.

أي مستقرّاً. إذ كانت البادية لا تقاس إلى المدن في الخصب، واستعار لفظ الجناح لما ينهض به دعوتهم ويقوى إذا دعوا، وكنّى بذلك عن كونهم لا يأوون إلى من يجيب دعوتهم فيعتصمون به، وكذلك استعار لفظ الظلّ لما يستلزمه الألفة من التعاون والتعاضد والتناصر، ووجه المشابهة هو ما تستلزمه هذه الأمور من الراحة والسلامة من حرارة نار العدوّ والحرب كما يستلزمه الظلّ من الراحة من حرّ الشمس.

وقوله: فالأحوال مضطربة.

شرح لحالهم يومئذ وكونهم على غير نظام، وكنّى باختلاف أيديهم عن عدم اتّفاقهم على التناصر وبتفرّق كلمتهم عن عدم ألفتهم واجتماعهم على مصالحهم.

وإضافة بلاء إلى الأزل بمعنى من. وكذلك إضافة أطباق، وقد علمت أنّ للجهل صفات ودركات متراكم بعضها فوق بعض أولاها عدم العلم بالحقّ، وفوقها الاعتقاد بغير الحقّ، وفوقها اعتقاد شبهة يقوى ذلك ويعضده مع تجويز نقيضه، وفوقها اعتقاد تلك الشبهة جزماً. وفي نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ وإطباق بكسر الهمزة على أنّه مصدر والمعنى وجهل مطبق عليهم.

وقوله: من بنات.

تفصيل للوازم ذلك الجهل، وذكر منها أربعة أنواع:

أحدها: وأد البنات، وأشار إليه القرآن الكريم: ﴿**وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾[1] قيل كان ذلك في بني تميم وقيس وأسد وهذيل وبكرابن

---

(1) ٨١ ـ ٩.

وائل. قالوا: والسبب في ذلك أنّ رسول الله دعا عليهم فقال: اللّهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم كانوا يسمّونه العِلهِز فوأدوا البنات لإملاقهم وفقرهم. ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾[1] وقال قوم: بل كان وأدهم للبنات أنفة، وذلك أنّ تميماً منعت النعمان الإمارة سنة من السنين فوجّه إليهم أخاه الريّان بن المنذر وجلّ من معه من بكر بن وائل فاستاق النعم وسبا الذراري فوفدت بنو تميم إلى النعمان فاستعطفوه فرقّ لهم وأعاد عليهم السبي وقال: كلّ امرأة اختارت أباها ردّت إليه وإن اختارت صاحبها تركت عليه. فكلهنّ اخترن أباهنّ إلاّ ابنة قيس بن عاصم فإنّها اختارت من سباها. فنذر قيس بن عاصم التميمي أنّه لا تولد له بنت إلاّ وأدها. ففعل ذلك، ثمّ اقتدى به كثير من بني تميم.

الثاني: عبادة الأصنام، وقد كان لكلّ قبيلة صنم يعبدونه فكان لهذيل سواع، ولبني كلب ودّ، ولمذحج يغوث وكان بدومة الجندل، ولذي الكلاع نسر، ولهمدان يعوق، ولثقيف اللات والعزّى، ولقريش وبني كنانة والأوس والخزرج مناة، وكان هبل على الكعبة وإساف ونائلة كانا على الصفا والمروة ومن نوادر جهلهم المشهورة أنّ بني حنيفة اتّخذوا في الجاهليّة صنما من خبش فعبدوه دهراً طويلاً ثمّ أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال بعضهم في ذلك:

أكلت حنيفة ربّها زمن التقحّم والمجاعة
لم يحذروا من ربّهم سوء العواقب والتباعة

الثالث: قطع أرحامهم وقد كان أحدهم يقتل أباه وأخاه عند الحميّة لأدنى سبب كما هو معلوم في حالهم.

الرابع: الغارات والحروب كيوم ذي قار وكأيّام حرب بكر وتغلب في بني وائل وكحرب داحس وغير ذلك من الأيّام المشهورة. ومقاماتهم في الحروب والغارات أكثر من أن تحصر وكلّ ذلك من لوازم الجهل.

---

(١) ١٧ - ٣٣.

وقوله: فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم.

أمر باعتبار حالهم عند مقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعثته فيهم بعد تلك الأحوال الشريّة. والضمير في عقد وجمع راجعان إلى الله تعالى لشهادة القرآن الكريم بنسبة الألفة بينهم إليه في قوله: **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بينهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم﴾**[1] ومعنى عقده لطاعتهم بملّته جمعها بعد الانتشار ونظمها بعد التفرّق. إذ كانت طاعاتهم في الجاهليّة موافقة لأهوائهم المختلفة ومنتشرة بحسب اختلافها، واستعار لفظ الجناح لما أسبغت عليهم رحمة الله من النعمة وعمّتهم به من الكرامة، ورشّح بذكر النشر، وكنّى به عن عمومهم بها. وكذلك استعار لفظ الجداول وهي الأنهار لأنواع نعيمها وسيول الخيرات التي جرت عليهم من الكمالات النفسانيّة والبدنيّة ملاحظة لشبه تلك الطرق والأسباب بالجداول في جريان الماء بها، ورشّح بذكر الإسالة.

وقوله: والتقت الملّة بهم في عوائد بركتها.

أي اجتمعت بهم ولقيتهم في منافعها التي حصلت ببركتها. يقال: التقيت بفلان في موضع كذا: أي لقيته. وقيل: قوله: في موضع عوائد نصب على الحال: أي الحال كونها كذلك. ولفظ الالتقاء كناية عن ورود الدين عليهم وتلبّسهم به، ولذلك استعار لفظ الغرقى ملاحظة لشبههم بالغرقى في شمول نعمة الدين لهم وغمر نعمة الإسلام إيّاهم حتى كأنّهم لاستيلائها عليهم كالغرقى فاستلزم ذلك لملاحظة تشبيهها بالبحر الزاخر، وكنّى بخضرة عيشها عن سعة المعاش بسبب الملّة وطيبه وأراد بالسلطان هنا إمّا الحجّة والبرهان والاقتداء، أو الغلبة والدولة. واستعار لفظ الظلّ لما يستلزمه ذلك السلطان من النعمة: أي وتمكّنت بهم الأمور والأسباب التي أعدتهم لنعمة الله في ذلك الظلّ وكذلك قوله: وآوتهم الحال: أي ألجأتهم وضمنتهم الحال التي كانوا عليها إلى عزّ غالب، وهو عزّ الإسلام ودولته ملاحظة لشبهه بأعالي الجبل المنيع في علوّه ومنعته. وكذلك استعار لفظ التعطف لإقبال السعادات

---

(١) ٨ - ٦٤.

الدنيويّة والأخروية عليهم بالإسلام وهي التي عنى بالأمور. ولاحظ في ذلك مشابهة ذلك الإقبال بتعطّف ذي الرحمة والشفقَة على غيره.

وقوله: فهم حكّام. إلى قوله: يمضيها فيهم. ظاهر، وكنّى بكونهم لا تغمز قناتهم عن قوّتهم وعدم انقهارهم للغير، وكذلك لا يقرع لهم صفاة. وهما يجريان مجرى المثل. ثمّ عقّب بتوبيخهم على قلّة طاعتهم، واستعار لفظ الحبل لما نظم بينهم من طاعتهم لله ورسوله، وكنّى بوصف نفض الأيدي عن خروجهم من الطاعة وشدّة اطراحهم لها بكثير من أفعالهم، وكذلك استعار لفظ الحصن للإسلام ووجه المشابهة كونه حافظاً لهم من أعدائهم الظاهرة والباطنة كالحصن المضروب على أهله، ورشّح بذكر المضروب، وكذلك استعار لفظ الثلم لكسرهم الإسلام بأحكامهم الجاهليّة ومخالفتهم لكثير من أحكامه ونفّر عن تلك المخالفة بما يستلزمه من ذلك الثلم.

قوله: وإنّ الله سبحانه قد امتنّ. إلى قوله: كلّ خطر.

ترغيب في لزوم حبل الألفة والتمسّك به. والنعمة التي امتنّ الله تعالى بها في عقد حبل الألفة التي لا يعرف أحد لها قيمة هي الألفة نفسها باعتبار ما استلزمه من المنافع العظيمة ودفع المضارّ وعلّل عدم معرفة الخلق لقيمتها بكونها أرجح من كلّ ثمن وأجلّ من كلّ خطر وهي صغرى قياس ضمير تقدير كبراه: وكلّ ما كان كذلك لم يعرف أحد قيمته، وصدق الصغرى ظاهر. إذ كانت تلك الألفة والاجتماع على الدين سبباً عظيماً في استعدادهم لسعادتي الدنيا والآخرة.

وقوله: وعلموا. إلى قوله: بين خلقه.

توبيخ لهم بانتقالهم عن الأحوال والأقوال الإسلاميّة إلى الأحوال الجاهليّة: أي قد صرتم بعد كونكم مهاجرين أعراباً، ولمّا كانت الأعراب أنقص رتبة من المهاجرين وأهل المدن لجفاهم وقسوتهم وبعدهم عن الفضائل النفسانيّة وتعلّمها وعن سماع ألفاظ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومجالسته واقتباس الآداب من أهل الحضارة كما قال تعالى: ﴿**الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً**﴾[1] الآية. لا

---

(1) ٩ - ٩٨.

جرم وبّخهم لصيرورتهم كذلك وليس كلّ الأعراب بالصفة المذكورة لقوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾[1] الآية. وكونهم بعد الموالاة أحزاباً فالأحزاب الفرق التي تنقسم لمحاربة الرسل وأوصيائهم وتجتمع لمخالفتهم وظاهر أنّ هؤلاء كذلك لانقسامهم وتشعّبهم إلى ناكثين ومارقين وقاسطين ومنافقين ومحاربتهم له حتى ليس لهم إذن جامع في الإسلام يتعلّقون به إلّا اسم الإسلام ولا يعرفون من الايمان إلّا رسمه وأثره وشعاره الظاهر بالشهادتين وحضور الصلاة دون الشرائط الحقّة وماينبغي له. وقولهم: النار ولا العار كلمة يقولها أهل الكبر والأنفة من احتمال الأذى والضيم لأنفسهم أو لقومهم في الاستنهاض إلى الفتنة. والنار والعار منصوبان بفعلين مضمرين تقديرهما ادخلوا النار ولا تحتملوا العار. ثمّ شبّههم في حالهم وقولهم ذلك بمن يقصد أن يقلّب الإسلام على وجهه، وكنّى بذلك عن إفساده كناية بالمستعار ملاحظة لشبهه بالإناء يقلب فيخرج ما فيه عن الانتفاع به، ووجه التشبّه المذكور أنّ أفعالهم المذكورة كأفعال من يقصد ذلك من أعداء الإسلام لإرادة إفساده.

وقوله: انتهاكاً ونقضاً.

منصوبان على المفعول له والعامل قوله: تكفئوا، ويصلحان غايتين عقيب كلّ فعل نسبه إليهم يفسرهما ذكرهما هيهنا، وميثاقه ما أخذ عليهم فيه وأسلموا من جزئيّاته وهي الإيمان الصادق بالله ورسوله وما جاء به من القوانين الشرعيّة. ثمّ وصف ذلك الميثاق بكون الله تعالى قد وضعه لهم حرماً في أرضه يمنعهم من كلّ عدوّ وأمناً بين خلقه لمن دخله وأراد محلّ أمن فحذف المضاف أو تجوّز بلفظ الأمن في المأمن إطلاقاً لاسم الحال على المحلّ.

وقوله: وإنّكم. إلى قوله: بينكم.

تحذير من الاعتماد على غير الإسلام واللجأ إليه من شجاعة أو حميّة أو كثرة في قبيلة مع الخروج عن طاعة سلطان الإسلام والتفرّق فيه فإنّ ذلك يستلزم طمع الكفار فيهم. وعدم نصرة الملائكة والمهاجرين والأنصار حينئذٍ

---

(١) ٩ - ١٠٠.

لهم إمّا لأنّ النصرة كانت مخصوصة بوجود الرسول والاجتماع على طاعته وقد زالت بفقده أو لأنّهامشروطة بالاجتماع على الدين والألفة فيه والذبّ عنه وإذا التجأوا إلى غيره وحاربهم الكفّار لم يكن ناصر من الملائكة لعدم اجتماعهم على الدين، ولا من المهاجرين والأنصار لفقدهم وهذا اللازم مخوف ينبغي أن يحذر منه فالملزوم وهو الالتجاء إلى غير الإسلام يجب أن يكون كذلك. والضمير المضاف إليه في حريمه وميثاقه يعود إلى الإسلام. وقال بعض الشارحين: الضمير في قوله يعود إلى الله والأوّل أليق بسياق الكلام، والنصب في جبرائيل وميكائيل على أنهما اسمان ملاحظاً فيهما التنكير ولذلك أتى عقيبهما بعد لا بالنكرتين، وينصرونكم هو خبرها مفسّرا لمثله عقيب ما يكون منها.

وقوله: إلاّ المقارعة بالسيف.

استثناء منقطع.، وحكم الله الذي جعله غاية للمقارعة هو إفاضة لصورة النصر على أحد الفريقين والانقهار على الآخر.

وقوله: وإنّ عندكم الأمثال. إلى قوله: ووقائعه.

تذكير لهم بما ضرب الله لهم من الأمثال بالقرون الماضية وما أصابهم من بأس الله وقوارعه وهي الدواهي العظام وأيّامه وهي كناية عن الأيّام التي أوقع بهم فيها عقوباته وبأسه حين استعدّوا لذلك بمعصيته وتهديد لهم بذلك إن خالفوا أمره.

وقوله: فلا تستبطئوا. إلى قوله: بأسه.

تهديد لهم أيضاً وتوعيد بقرب العقوبة على المعصية،وإطلاق لفظ الاستبطاء هنا مجاز لأنّ الاستبطاء للشيء استبعاد لوقوعه مع انتظار وقوعه المستلزم لطلبه وطلب تحقيق الوعيد ليس من مقاصد العقلاء حتى ينهون عنه لكن لمّا كان الإنسان إذاهم بالمعصية قد يستبعد تحقيق الوعيد وقربه فيكون ذلك ممّا يقوى معه داعيته وشهوته لفعلها كان لذلك الاستبعاد سببيّة بوجهٍ ما للمعصية،ولمّا كان ذلك الاستبطاء أطلق عليه اطلاقاً لاسم الجزء على الكلّ فيكون التهديد والتوبيخ عليه أبلغ، ولأنّ الذي يقدم على المعصية مع

علمه بما يستلزمه من الإعداد لنزول العذاب يناسب في الحقيقه من يستبطىء العقوبة ويطلب تعجيلها بفعله وكانوا بمعصيتهم كالمستبطئين للوعيد فأطلق في حقّهم لفظه الاستبطاء ونهاهم عنه. ونصب جهلاً وتهاوناً ويأساً على المفعول له لصلوح الثلاثة عللاً غائية لاستبطاء الوعيد بمعنى استبعاده لأنّ جهل العبد بكيفيّة أخذه تعالى له بالموت وأهواله وشدائد الآخرة ممّا يستبعد معه وقوع تلك الأمور في حقّه كما هي. وكذلك تهاونه ببسطه وإملائه لعدم علمه بما في ذلك البسط من الاستدراج ممّا يحمله على استبعاد وعيده، وبعزمه بالمعصية وكذلك يأسه من بأسه بسبب ذلك الجهل وذلك البسط ممّا يحمله على ذلك الاستبعاد أيضاً.

وقوله: وإنّ الله. إلى قوله: التناهي.

تنبيه لهم على أنّ لعنة الله للقرن الماضي بين أيديهم قبل الإسلام كان لازماً مساوياً لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منحصراً فيه، وكانت لعنته لسفهائهم وناقصى عقولهم لركوبهم المعاصي المنكرة، وأمّا للحكماء منهم ولذوي العقول فلعدم إنكارهم وتناهيهم عمّا يشاهدونه من ذلك المنكر. وذلك اللعن في قوله تعالى: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾[1] وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. ونبّههم بقوله: ألا وقد قطعتم قيد الإسلام. إلى قوله: أحكامه. على أنّهم من جملة من اتّصف بذلك الملزوم أعني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وركوب المعاصي فلزمهم الدخول في زمرة من لعنه الله بذلك الترك، وغاية هذا الشبه الجذب عن ركوب المعاصي إلى الانتهاء والتناهي عنها. واستعار لفظ قيد الإسلام للألفة والاجتماع عليه وعلى امتثال أوامر الله فيه باعتبار كون ذلك حافظاً للإسلام عليهم ومانعاً له من التشرّد والذهاب كما يمنع الجمل قيده من الشرود والتشتّت. وحدود الله: أحكامه التي حدّها للناس ومنعهم من تجاوزها. وتعطيلهم لهم باطراحها وتجاوزها، وكذلك إماتة أحكامه عدم العمل بها ووصف الإماتة مستعار لتركها

(1) ٥ ـ ٨٢.

وإهمالها لاعتبار أنّهم أخرجوها بذلك الإهمال عن انتفاعهم بها كما أنّ مميت الشيء يخرجه عن حدّ الانتفاع. وبالله التوفيق.

الفصل الخامس: في اقتصاصه عليه السلام لحاله في تكليفه وموافقته لأوامر الله ببلائه الحسن في سبيله، وشرح حاله مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتنبيه على موضعه منه وكيفيّة تربيته له من أوّل عمره، والإشارة إلى قوّته في دين الله. وذلك قوله:

أَلاَ وَقَدْ أَمَرَنِي آللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ: فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ، وَبَقِيتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ وَلَئِنْ أَذِنَ آللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ، إلاَّ مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلاَدِ تَشَذُّراً.

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاَ كِلِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ الْقُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ آللهِ ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كِذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ آللهُ بِهِ، صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ؛ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ آتِّبَاعَ آلْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يُجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرُ رَسُولِ آللهِ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَخَدِيجَةَ، وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ، صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ آللهِ، مَا هٰذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هٰذَا الشَّيْطَانُ أَيِسَ مِنْ

عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلٰكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ». وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ، صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لَمَّا أَتَاهُ ٱلْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ، وَأَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: وَمَا تَسْأَلُونَ؟ قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمِ: إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ ذٰلِكَ أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ، وَمَنْ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ، ثُمَّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ، إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِٱللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ ٱللهِ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مُرَفْرِفَةً وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الأَعْلَى عَلَى رَسُولِ ٱللهِ، صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذٰلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَٱسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذٰلِكَ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا كُفْراً وَعُتُوّاً: فَمُرْ هٰذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ، صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَرَجَعَ فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ، فَإِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ ٱللهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ وَإِجْلَالاً لِكَلِمَتِكَ، فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ! عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هٰذَا؟! (يَعْنُونَنِي) وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ: سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ، عُمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ ٱللهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ، لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْلُونَ وَلَا يَغُلُّونَ، وَلَا يُفْسِدُونَ: قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ.

أقـول: النكث: نقض العهـد. والقسـوط: الجـور. ودوّخت القـوم، غلبتهم وقهـرتهم. والردهـة: نقرة في الجبـل يجتمع فيهـا الماء. والصعقـة: الغشية من صيحة ونحوها. والـوجبة: واحـدة الوجيب وهـو اضطراب القلب. والرجّة: واحدة الرجّ: وهي الحركة والـزلزلـة. والكرّة: الـرجعة. ولأديلنّهم: أي لأقهرنّهم وأكون ذا إدالة منهم وغلبة عليهم. والتشذّر: التفرّق. والكلكل: الصدر. والنواجم: جمع ناجمة وهو الطالع والخـارج. ويكنفني في فراشـه: أي يحفـظني فيـه ويحـوطني ويلفّني. وعـرفـه: رائحتـه. والخـطلة: السيّئة والقبيحة من قول أو فعل. والفطيم: المفطوم. وحراء ـ بالمدّ والكسر ـ: جبل بمكّة يذكّر ويؤنّث ويصرف ولا يصرف. والرنّـة: صوت يصـدر عند حصـول المكاره كالحزن ونحوه. القليب: البئر قبل أن تطوى يذكّـر ويؤنّث. وقال أبـو عبيدة: هي البئر القـديمة العـادية. والـدويّ: صوت حفيف الـريح والنحـل. والقصف: صوت جناح الطير وإصفاقه في الهواء. والسيما مقصوراً وممدوداً: العلامة والأثر في الشيء يعرف بـه. والمنار: الأعـلام. وغلّ من المغنم يغـلّ بالضمّ: إذا خان فيه. قال أبو عبيد: يقال منه: يغـلّ ـ بالضمّ ـ ومن الحقـد: يغلّ ـ بالكسر ـ ومن الخيانة بالمطلقة: أغلّ يغلّ.

واعلم أنّه عليه‌السلام نبّه في هذا الفصل على أنّ قتاله لهـذه الفرق كـان بأمـر الله على لسـان رسولـه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وذلك الأمـر إمّا من القـرآن الكـريم من قـولـه تعـالى: **﴿فإن بغت إحـديهما على الأخـرى فقـاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾**[1] أو من السنّة بـأمر خـاصّ وهو من أوامـر الله أيضاً. وقـد ثبت عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال: سيقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. فكـان النـاكثون أصحـاب الجمل لنكثهم بيعتـه عليه‌السلام وكان القـاسطون أهـل الشـام، والمارقون الخوارج بالنهـروان والفرق الثـلاث يصدق عليهم أنّهم أهـل البغي وقـاسطون لخـروجهم عن سواء العـدل إلى طرف الـظلم والجور، وتخصيص كلّ فرقـة منهم بما سمّيت بـه عرف شـرعيّ. فأمّـا وصف الخوارج بـالمارقين فمستنده قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لذي الثدية: يخرج من ضئضىء هذا قوم يمـرقون

---

(١) ٤٩ ـ ٩.

من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقد ذكرناه قبل. والضئضىء: الأصل. وهذا الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم. ودلّ قوله عليه السلام: وأمّا القاسطون فقد جاهدت وأمّا المارقة فقد دوّخت. على أنّ هذه الخطبة في آخر خلافته بعد وقائع صفّين والنهروان. وأمّا شيطان الردهة فالأشبه أنّ المراد به ذو الثدية من الخوارج لما ورد الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكره فقال: شيطان الردهة يحتذره رجل من بجيلة. فأمّا كونه شيطاناً فباعتبار كونه ضالّاً مضلاً، وأمّا نسبته إلى الردهة فيشبه أن يكون لما روي أنّه حين طلبه عليه السلام في القتلى وجده في حفرة دالية فيها خرير الماء فنسبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليها لما كان يعلم من كيفيّة حاله في مقتله.

وروي عن يزيد بن رويم قال: قال لي علي عليه السلام في ذلك اليوم: يقتل اليوم أربعة ألف من الخوارج أحدهم ذو الثدية فلمّا طحن القوم ورام إخراج ذي الثدية فأتعبه أمرني أن أقطع أربعة آلاف قصبة وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ أمرني أن أضع على كلّ رجل منهم قصبة فلم أزل كذلك وهو راكب خلفي والناس حوله حتى بقيت في يدي واحدة فنظرت إليه وقد اربدّ وجهه وهو يقول والله ما كذبت ولا كذّبت فإذا نحن بخرير الماء في حفرة عند موضع دالية. فقال لي: فتّش هذا. ففتّشته فإذا قتيل قد صار في الماء وإذا رجله في يدي فجذبتها وقلت: هذه رجل إنسان. فنزل عن البغلة مسرعاً فجذب الرجل الأخرى وجررناه فإذا هو المخدج. فكبّر عليه السلام ثمّ سجد وكبّر الناس بأجمعهم. وأمّا الصعقة التي أشار إليها فهي ما أصاب ذا الثدية من الغشي والموت بضربته عليه السلام حتى استلزم ذلك ما حكاه من سماعه لرجّة صدره ووجيب قلبه. وقال بعضهم المراد بالصعقة هنا الصاعقة وهي صيحة العذاب وذلك أنّه روي أنّ عليّاً عليه السلام لمّا قابل القوم صاح القوم فكان ذو الثدية ممّن هرب من صيحته حتى وجد قتيلا في الحفرة المذكورة. وقال بعضهم: يحتمل أن يشير بالشيطان إلى إبليس المتعارف كما أشرنا إليه في الخطبة الأولى وهو القوّة الوهميّة فاستعار لفظ الردهة وهي النقرة في الجبل للبطن الأوسط من الدماغ الذي هو محلّ هذه القوّة لمكان المشابهة، وقد يعبّر بالجبل عن الدماغ في عرف المجرّدين وعن القوى فيه، وبالجنّ الشياطين تارة وبالملائكة أخرى.

ولمّا كانت الأنبياء (ع) والأولياء قد يشاهدون الأمور المجرّدة والمعاني المقبولة كالملائكة والجنّ والشياطين في صورة محسوسة باستعانة من القوّة المحصّلة كما علمت في المقدّمات وكما سنشير اليه عن قرب احتمل أن يقال انه عليه السلام رأى الشيطان المذكور بصورة محسوسة ذات صدر وقلب وأنه عليه السلام لمّا كان في مقام العصمة وملكة للنصر على الشيطان وقهره وإبعاده وسمع من الجناب الإلهيّ صيحة العذاب أرسلت على الشيطان فسمع لها وجيب قلبه ورجّة صدره كما سمعت رنّته فيما يحكيه في باقي الكلام. والله اعلم.

وأمّا البقيّة من أهل البغي فمعاوية ومن بقي من جند الشام حيث وقعت الحرب بينهم وبينه بمكيدة التحكيم. وحكمه عليه السلام بأنّه إن أذن الله سبحانه في الرجوع إليهم ليغلبنّهم ولتكوننّ الدائرة عليهم ثقة بعموم توعّده تعالى في قوله ومن بغى عليه لينصرنّه الله وقوله تعالى: ﴿**يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم**﴾[1] وقوله: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم**﴾[2] وأمثاله. وكنى بإذن الله عن توفيق أسباب العود إليهم وإتمامها من الفسحة في الأجل وغيرها. واستعمل ما هيهنا بمعنى من إطلاقاً لاسم العامّ على الخاصّ أو تكون بمعنى الذي.

وقوله: أنا وضعت في الصغر بكلكل العرب. إلى آخره.

تنبيه على فضيلته في الشجاعة والنجدة لغاية أن يخافه أعداؤه وتقوى به قلوب أوليائه لا على سبيل الفخر المجرّد فإن ذلك رذيلة قد بنى الخطبة على النهي عنها، واستعار لفظ الكلكل للجماعة من أكابر العرب الذين قتلهم في صدر الإسلام وفرّق جمعهم، ووجه المشابهة كونهم محلّ قوّة العرب ومقدّميهم كما أنّ الصدر من الحيوان كذلك. ومن روى كلاكل بلفظ الجمع فهو أيضاً استعارة لساداتهم وأشرافهم ممّن قاتلهم وقتلهم، ووجه الاستعارة ما ذكرناه. ويحتمل أن يكون مجازاً من باب إطلاق اسم الجزء على الكلّ. والباء في قوله: بكلكل. زائدة. والمراد بوضعهم إذلالهم وإهانتهم. يقال: وضعه فاتّضع: إذا غضّ منه وحطّ منزلته ويحتمل أن يكون للإلصاق: أي

---

(1) ١٠ - ٢٣.

(2) ٤٧ - ٧.

فعلت بهم الوضع والإهانة. وكذلك استعار لفظ القرون لأكابر ربيعة ومضر ممّن قاتلهم وقتلهم، ووجه الاستعارة كون كلّ واحد منهم لقبيلته كالقرن يظهر فيها فيصول به ويمنع من عدوّها كذي القرن من الحيوان بقرنه. وأراد بالنواجم من علا منهم وظهر أمره، ورشّح بذكر الكسر، وكنّى به عن قتلهم. وقتله للأكابر من مضر معلوم في بدو الإسلام فأمّا القرون من ربيعة فإشارة إلى من قتله منهم في وقائع الجمل وصفّين بنفسه وجيشه كما يقف على أسمائهم من يقف على تلك الوقائع.

وقوله: وقد علمتم موضعي. إلى آخره.

شرح لتربية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أوّل عمره وإعداده بتلك التربية للكمالات النفسانيّة من العلوم والأخلاق الفاضلة. وعدّ أحواله التي هي وجوه ذلك الاستعداد وأسبابه:

أحدها: القرابة. وأشار بها إلى نسبته القريبة منه وكان عليه السلام ابن عمّه دنيا وأبواهما أخوان لأب وأمّ دون غيرهما من بني عبد المطلب إلّا الزبير.

الثانية: منزلته الخصيصة به وأشار بها إلى ماشرحه من فعله به صلى الله عليه وآله وسلم وهو وضعه له في حجره وليداً وسائر ما ذكره. ومبدء ذلك ما روي عن مجاهد قال: كان من نعمة الله على عليّ عليه السلام ما صنعه الله له وأراد به من الخير أنّ قريشا أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمّه العباس وكان أيسر بني هاشم: ياعباس إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمَة فانطلق بنا لنخفّف عنه من عياله فآخذ واحداً من بنيه وتأخذ واحداً فنكفيهم عنه فانطلقا إليه وقالا له. فقال: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ماشئتما فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّا عليه السلام وأخذ العباس جعفرا فكفَلاهما. وقد كان أبو طالب كفَل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من أعمامه وربّاه في حجره ثمّ حماه من المشركين في مبدء أمره ونصره عند ظهور دعوته وذلك ممّا يؤكد اختصاص منزلة عليّ عليه السلام عنده. ومن منزلته الخصيصة به ما كان بينهما من المصاهرة التي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار، وفي معنى قوله: فكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه ما رواه

الحسن بن زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: سمعت زيداً أبي يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمضغ اللحمة أو التمرة حتى تلين ويجعلها في فم عليّ عليه السلام وهو صغير في حجره.

الثالثة: أنّه لم يجد له كذبة في قول ولا خطلة في فعل، وذلك لما استعدّ به من تربيته صلى الله عليه وآله وسلم وسائر متمّمات الرياضة وأعراضها لاستيلاء قوّته العاقلة على قوّتي الشهويّة والغضبيّة وقهر نفسه الأمّارة التي هي مبدأ خطإ الأقوال وخطل الأفعال حتى حصلت له عن ذلك ملكة في ترك الرذائل واجتناب المئاثم والمعاصي فصار له ذلك خلقاً وطبعاً. وإذا حقّق معنى العصمة في حقّه عليه السلام وفي حقّ من ادّعيت له العصمة من أولاده يعود إلى هذه الملكة. فليس لاستكبارها [لاستنكارها خ] في حقّهم عليهم السلام معنى، وأشار بالملك الذي قرنه به إلى جبرائيل وهو العقل الفعّال في عرف قوم. واقترانه به إشارة إلى تولّيه بتربية نفسه القدسيّة بإفاضة العلوم ومكارم الأخلاق وسائر الطرق المؤدّية إلى الله سبحانه من حين صغره صلى الله عليه وآله وسلم بحسب حسن استعداد مزاجه وقوّة عقله الطفوليّ. ثمّ أشار في ذكر معرض أحواله معه إلى تربية الملك له صلى الله عليه وآله وسلم ليعلم أنّه حصل بتبعيّته له على تلك المكارم، وممّا روي في حاله مع الملك وعصمته به ما روى الباقر محمّد بن عليّ عليه السلام أنّه قال: وكّل الله بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق ويصدّه عن الشرّ ومساوىء الأخلاق وهو الذي كان يناديه السلام عليك يا محمّد يا رسول الله وهو شابّ لم يبلغ درجة الرسالة بعد فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض فيتأمّل فلا يرى شيئاً. وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: أذكر وأنا ابن سبع سنين وقد بنى ابن جدعان داراً بمكّة فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدر في حجورنا فننقله فملأت حجري تراباً فانكشفت عورتي فسمعت نداء فوق رأسي يا محمّد أرخ إزارك فجعلت أرفع رأسي فلا أرى شيئاً إلّا أنّني أسمع الصوت فتماسكت ولم أرخه فكأنّ إنساناً ضربني على ظهري فخررت لوجهي فانحلّ إزاري فسترني وسقط التراب إلى الأرض فقمت إلى دار عمّي أبي طالب ولم أعد.

الرابعة: أشار إلى اتّباعه له وملازمته إيّاه بقوله: ولقد كنت أتبعه اتّباع

الفصيل أثر أمّة. ووجه الشبه في اتّباعه كونه لا ينفكّ عن كالفصيل لأمّه.

الخامسة: أشار إلى ثمرة ذلك الاتّباع بقوله: يرفع لي في كلّ يوم علماً من أخلاقه ويأمرني بالاقتداء به. واستعار لفظ العلم لكلّ من أخلاقه باعتبار كونه هادياً إلى سبيل الله كما يهدي العلم.

السادسة: أنّه كان يجاور معه في كل سنة بحراء فيراه دون غيره، وروي في الصحاح: أنّه كان صلى الله عليه وآله وسلم يجاور بحراء في كل سنة شهراً وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره انصرف إلى مكّة وطاف بها سبعا قبل أن يدخل بيته حتّى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة فجاء في حراء في شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعليّ وخادم. وروى الطبري وغيره: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه كان إذا حضرت الصلاة يخرج إلى شعاب مكّة ويخرج معه عليّ مستخفين عن أبي طالب ومن سائر أعمامه وقومه يصلّيان الصلاة فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذلك ما شاء الله. ثم إنّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان. فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا ابن أخي ما هذي الذي أراك تدين به؟ فقال: يا عمّ هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم بعثني الله رسولاً إلى العباد وأنت يا عمّ أحقّ من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحقّ من أجابني إليه وأعانني عليه. فقال أبو طالب: يا ابن أخي إنّي لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت. وروي أنّه قال لعلي: يا بنيّ ما هذا الذي تدين به؟ فقال يا أبه: إنّي آمنت بالله ورسوله وصدّقته فيما جاء به وصلّيت لله معه. قال: فقال له: أما إنّه لا يدعو إلاّ إلى خير فالزمه.

السابعة: أشار إلى كونه أوّل من أسلم من الذكور بقوله: لم يجمع بيت واحد. إلى قوله: وأنا ثالثهما. وقد مضى منه عليه السلام مثل ذلك حيث قال: أكذب على الله وأنا أوّل من آمن به؟ وقوله: فلا تتبرّوا منّي فإنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإسلام والهجرة. وروى الطبري في تاريخه عن عباد ابن عبد الله قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصدّيق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر صلّيت قبل الناس لسبع سنين،

وفي رواية أخرى: أنا الصدّيق والفاروق الأوّل أسلمت قبل إسلام أبي بكر وصلّيت قبل صلاته لسبع سنين، وروي ذلك أيضاً من وجوه:

أحدها: عن ابن مسعود قال: قدمت إلى مكّة فانتهيت إلى العباس ابن عبد المطلب وهو يومئذ عطّار جالس إلى زمزم ونحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا عليه ثوبان أبيضان، عليه، وفرة جعدة إلى أنصاف أذنيه، أشم أقنى، أدعج العينين، كثّ اللحية، أبلج برّاق الثنايا، أبيض تعلوه حمرة، وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم حسن الوجه، تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها. فقصدوا نحو الحجر فاستلمه الرجل ثمّ الغلام ثمّ طافوا بالبيت ثمّ استقبلوا الحجر وقام الغلام إلى جانب الرجل والمرأة خلفهما فأتوا بأركان الصلاة مستوفاة فلمّا رأينا ما لا نعرفه بمكّة قلنا للعباس: إنّا لا نعرف هذا الدين فيكم. فقال: أجل والله. فسألناه عن هؤلاء فعرّفنا إيّاهم ثمّ قال: والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلّا هؤلاء الثلاثة. وروي مثله عن عفيف ابن قيس.

الثاني: روي عن معقل بن يسار قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: هل لك أن تعود فاطمة؟ فقلت: نعم يا رسول الله فقمنا فدخلنا عليها فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم: كيف تجدينك؟ قالت: والله لقد طال سقمي واشتدّ حزني وقال لي النساء: زوّجك أبوك فقيراً لا مال له فقال لها: أما ترضين أنّي زوّجتك أقدم أمّتي سلماً وأكثرهم علماً وأفضلهم حلماً؟ قالت: بلى رضيت يا رسول الله. وروي هذا الخبر عن أبي أيّوب الأنصاري، وعن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام، والسدى، وابن عبّاس، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأسماء بنت عميس، وأمّ أيمن.

الثالث: روي عن أبي رافع قال: أتيت أبا ذرّ بالربذة أودّعه. فقال لي: ستكون فتنة فاتّقوا الله وعليكم بالشيخ عليّ بن أبي طالب فاتّبعوه فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: أنت أوّل من آمن بي وأوّل من يصافحني يوم القيامة وأنت الصدّيق الأكبر وأنت الفاروق الذي يفرّق بين الحق والباطل وأنت يعسوب المؤمنين.

الرابع: عن أبي أيّوب الأنصاري أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى علي سبع سنين وذلك أنّه لم يصلّ معي رجل فيها غيره.

واعلم أنّه ربّما اعترض بعض الجهّال فقال: إنّ إسلامه عليه السلام لم يكن معتبراً لكونه كان دون البلوغ. فجوابه من وجوه:

أحدها: لا نسلّم أنه كان دون البلوغ ومستند هذا المنع وجوه:

أحدها: رواية شدّاد بن أوس قال: سألت خباب بن الأرتّ عن سنّ عليّ يوم أسلم؟ قال: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ.

الثاني: ما رواه أبو قتادة عن الحسن أنّ أوّل من أسلم عليّ بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة سنة.

الثالث: عن حذيفة بن اليمانيّ قال كنّا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعليّ من أبناء أربع عشرة سنة يصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلاً ونهاراً وقريش يومئذ تسافهه ما يذبّ عنه إلاّ عليّ.

الثاني: أنّ المتبادر إلى الفهم من إطلاق لفظ المسلم والكافر إنّما هو البالغ دون الصبيّ والمبادرة إلى الذّهن دليل الحقيقة فالواجب إذن أن يرجع إلى إطلاق قولهم أسلم عليّ فإنّ ذلك يشهد بكونه بالغاً عاقلاً لمايفعله خصوصاً في البلاد الحارّة مثل مكّة فإنّ العادة في المزاج الصحيح فيها أن يبلغ صاحبه فيما دون خمس عشرة سنة وربّما احتلم وهو ابن اثنى عشرة سنة.

الثالث: وهو الحاسم لمادّة الإشكال أنّه عليه السلام إمّا أن يكون أسلم وهو بالغ أو لم يكن فإن كان الأوّل فقد حصل الغرض وإن لم يكن فلا معنى للكفر في حقّه إذ كان عليه السلام مولوداً على الفطرة فمعنى الإسلام في حقّه إذن دخوله في طاعة الله ورسوله والاستسلام لأوامرهما فله إذن الإسلام الفطريّ والإيمان الخالص الوارد على نفس قدسيّة لم تتدنّس بأدناس الجاهليّة وعبادة الأصنام والاعتقادات الباطلة المضادّة للحقّ التي صارت ملكات في نفس من

أسلم بعد علوّ السنّ. فكان إيمانه بالله ورسوله وارداً على نفس صاف لوحها عن كدر الباطل فهي المنتقشة بالحقّ متمثّلة به. وكانت غاية إسلام غيره أن يمحو على طول الرياضة من نفوسهم الآثار الباطلة وملكات السوء فأين أحدهما من الآخر؟

الثامنة: كونه عليه‌السلام يرى نور الوحي بالرسالة ويشمّ ريح النبوّة، وسماعه لرنّة الشيطان. وهذه أعلى مراتب الأولياء، واستعار لفظ النور لما يشاهده بعين بصيرته الباقية من أسرار الوحي والرسالة وعلوم التنزيل ودقائق التأويل وإشراقها على لوح نفسه القدسيّة، ووجه الاستعارة كون هذه العلوم والأسرار هادية في سبيل الله إليه من ظلمات الجهل كما يهدي النور من الطرق المحسوسة، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الرؤية لأنّ النور حظّ البصر، وكذلك استعار لفظ الريح لما أدركه من مقام النبوّة وأسرارها، ورشّح بذكر الشمّ لأنّ الريح حظّ القوة الشامّة، وأمّا سماعه لرنّة الشيطان فقد علمت كيفيّة سماع الإنسان لصوت الملك والشيطان وكيفيّة رؤيته لصورته وأنّ ذلك باستعانة من النفس بالقوّة المتخيّلة في اقتناص المعاني المعقولة وحطّها إلى لوح الخيال مشاهدة للحسّ المشترك مسموعة.

وقد استلزمت هذه الإشارة أنّه عليه‌السلام استعدّ لسماع صوت الشيطان في حزنه حين أيس من اتّباع الخلق له وانقيادهم لأمره وهو معنى عبادته إذ أصل العبادة الخضوع. وكيفيّة ذلك أنّ نفسه القدسيّة أخذت معنى الشيطان مقروناً بمعنى اليأس والحزن، وكسته المتخيّلة صورة حزين صارخ، وحطّته إلى لوح الخيال فصار مسموع الرنّة له. ويؤيّد ذلك قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم حين سأله عن ذلك: إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنّك لست بنبي. فإنّه شهد له في ذلك بالوصول إلى مقام سماع الوحي وكلام الملك وصوت الشيطان وسائر ما يراه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ويسمعه ممّا قويت عليه نفسه القدسيّة إلاّ كونه نبيّاً فإنّ مقام النبوّة لا يتحقّق للإنسان إلاّ بالشرط الذي أشرنا إليه في المقدّمات وفرّقنا بين النبيّ وغيره من سائر النفوس الكاملة، وهو كون الانسان مخاطباً من السماء بإصلاح أمر أبناء نوعه في معاشهم ومعادهم وذلك مقام أعلى وأكمل من كلّ مقام

يبلغه إنسان بقوّته، وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: كان عليّ عليه السلام يرى مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: لولا أنّي خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوّة فإن لا تكن نبيّاً فأنت وصيّ نبيّ ووارثه بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء. ثمّ لمّا نفى عنه مقام النبوّة جبره [أخبره ح] بمقام الوزارة إشارة إلى أنّه الصالح لتدبير أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم من ورائه صلى الله عليه وآله وسلم وبعده المعين له على ذلك.

ثمّ شهد له بأنّه على خير. وأشار به إلى ما هو عليه من الطريقة المحمودة واستقامة السيرة في خدمته وتربيته. وذلك خير كثير. وفي مسند أحمد بن حنبل عن عليّ قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الليلة التي اسري به فيها وهو بالحجر يصلّي فلمّا قضى صلاته وقضيت صلاتي سمعت رنّة شديدة فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ قال: ألا تعلم هذه رنّة الشيطان علم أنّي اسري اليلة إلى السماء فأيس من أن يعبد في هذه الأرض. وأمّا حديث الوزارة فروي أنّه لمّا نزل قوله: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[1] دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمرني أن أصنع صاعاً من طعام وأجعل عليه رجل شاة وأملأ له عسّاً من لبن ففعلت ما أمرني به. ثمّ أمرني بجمع بني عبد المطّلب فجمعتهم يومئذ وهم أربعون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلمّا اجتمعوا دعا بالطعام الذي صنعه فوضعه ثمّ تناول مضغة من لحم فشقّها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصحفة وقال: كلوا باسم الله فأكلوا حتى ما بهم إلى شيء من حاجة. والذي نفس محمّد بيده كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمته لجميعهم. ثمّ قال اسق القوم يا عليّ. فجئتهم بذلك العسّ فشربوا منه حتى رووا جميعاً، وأيم الله كان الرجل الواحد ليشرب منه مثله. ثم قال لهم: يابني عبدالمطلب إنّي والله ما أعلم شابّاً في العرب جاء قومه بأفضل ما جئتكم به إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً فقلت وإنّى لأحدثهم سنّاً وأرمصهم

(١) ٣٦ - ٢١٤.

عيناً وأعظمهم بطنا وأحمشهم ساقاً: أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فأعاد القول. فأمسكوا. وأعدت ما قلت. فأخذ برقبتي ثمّ قال لهم: هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون يقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

التاسعة: كونه معه حين أتاه الملأ من قريش وسألوه ما سألوا من دعوة الشجرة، وتصديقه عليه السلام له في ذلك وإيمانه به. وقد علمت فيما سلف أنّ نفوس الأنبياء عليهم السلام لها تصرّف في هيولى عالم الكون والفساد فيستعد عن نفوسهم لقبول الأمور الخارقة للعادات الخارجة عن وسع غيرهم من أبناء نوعهم. وصورة الحال في سؤالهم وكيفيّة دعوته صلى الله عليه وآله وسلم للشجرة وإجابتهم وتكذيبهم بذلك وتصديقه عليه السلام له مستوفى في كلامه، وذلك من قوله: ولقد كنت. إلى قوله: يعنونى. فأمّا حكمه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّهم لا يفيؤون إلى خير وأنّ منهم من يطرح في القليب ومنهم من يحزّب الأحزاب فمن غيب الله الذي اطّلعه عليه وارتضاه له فعلمه بحسب قوّته الحدسيّة القدسيّة. والقليب هو قليب بدر، ومن طرح فيه كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأميّة بن عبد شمس وأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم طرحوا فيه بعد انقضاء الحرب وكان ذلك الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم ومن يحزّب الأحزاب هو أبو سفيان وعمرو ابن عبدودّ وصفوان بن أميّة وعكرمة ابن أبي جهل وسهل بن عمرو وغيرهم.

وأمّا حديث الشجرة فمشهور مستفاض رواه المحدّثون في كتبهم، وذكره المتكلّمون في معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم من روى ذلك مختصراً أنّه دعا شجرة فأقبلت تخدّ الأرض خدّاً. ونقله البيهقيّ في كتاب دلائل النبوّة، وأمّا نداؤه صلى الله عليه وآله وسلم للشجرة. وقوله لها: إن كنت تؤمنين بالله. إلى قوله: بإذن الله. فقد علمت أنّ الخطاب مخصوص في عرف العقلاء لمن يعقل لكنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا وجّه نفسه القدسيّة من إعداد الشجرة لما يروم منها وعلم أنّه واجبة الاستعداد بذلك لقبول أمر الله بما أراد منها خاطبها خطاب من يعقل استعارة ملاحظة لشبهها بمن يعقل في إجابة ندائه وإتيانه، وفائدة ذلك الخطاب أن يكون وجود ما رام منها عقيب خطابه أغرب وفي نفوس الحاضرين أبلغ وأعجب فإذا كان وقوع

تلك الحال بها غريباً كان كونها على تلك الحال وفق خطابه ودعائه لها أغرب لزيادة ايهام كونها سمعت ذلك النداء وعقلت ذلك الخطاب مع أنّها ليس من شأنها ذلك، وأعجب في نفوس السامعين. ولذلك خرج هذا عن كونه سفهاً وعبثاً.

وقال الإمام الوبريّ ـ رحمه الله ـ: ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي**﴾[1].

واعلم أنّ ذلك على رأي الأشعريّة أمر ظاهر لأنّ البنية المخصوصة ليست شرطاً في حصول الحياة وما يكون مشروطاً بها من السمع والفهم فلذلك جاز أن يكون الله تعالى خلق في الشجرة علماً وسمعاً قبلت بها خطابه عليه السلام.

وقال الإمام الوبريّ: الخطاب في الأصل لله تعالى فكأنّه قال: اللهم إن كانت هذه الشجرة من آثارك الشاهدة بوجودك وأنت مرسل لي فاجعل ما سألت منها شاهداً على صدق دعواي. ولمّا كانت الشجرة محلّ ما سأل من الله خاطبها لذلك. فعلى هذا يكون مجازاً من باب إقامة المسبّب مقام السبب. قال: ويحتمل أن يكون الخطاب في الأصل للملائكة الموكّلين بالشجر.

قوله: وإنّي لمن قوم. إلى قوله: لائم.

كناية عن بلوغه في طاعة الله الغاية المطلوبة منه فإنّه عليه السلام لم يقف دون غاية منها حتى يلام على النقص فيها.

وقوله: سيماهم سيما الصدّيقين. إلى آخر الصفات.

فالقوم هم المتّقون الذين سأله همّام عن صفتهم. والصفات المذكورة بعض صفاتهم وقد سبقت مستوفاة في خطبة مفردة. وذكر هيهنا عشراً:

إحديها: أنّ علاماتهم علامات الصدّيقين وهم الملازمون للصدق في أقوالهم وأفعالهم طاعة لله تعالى وقد عرفت علاماتهم في خطبة همّام.

---

(١) ١١ - ٤٤.

الثانية: وكـذلك كـلامهم كلام الأبـرار من الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر والذكر الدائم لمعبودهم الحقّ.

الثالثة: كونهم عمّار الليل. وكنّى بعمارتهم له عن قيامهم فيه بـالعبادة. روي أنّ أحدهم كان إذ كسل عن العمل علّق نفسه بحبل حتى يصبـح عقوبـة لها.

الرابعة: استعار لفظ المنار لهم بالنهار باعتبار كونهم يهدون الخلق إلى طريق الله كالمنار إلى الطريق المحسوس، وكذلك لفظ الحبل للقرآن باعتبار كـونه سببـاً لمتعلّميه ومتـدبّريـه إلى التروّي من مـاء الحيـاة البـاقيـة كـالعلوم والأخـلاق الفاضلة كـالحبل الـذي هو سبب الارتـواء والاستقاء من المـاء، أو بـاعتبار كـونه عصمـة لمن تمسّك بـه صاعـدا من دركـات الجهـل إلى أقصى درجات العقل كـالحبل يصعـد فيه من السفل إلى العلوّ. ولفظ القرآن مجـرور بعطف البيان.

الخامسة: وكذلك استعار وصف إحياء السنن لهم باعتبار إقامتها وإبقـاء العمل بها.

السادسة: عدم الاستكبار والعلوّ منهم. ولمّا كان الاستكبار في الإنسان رذيلة كان عدمه عنه فضيلة.

السـابعة: عـدم الغلول. وهو فضيلة؛ لكـون الغلول مستلزمـاً لـرذائـل كالشره والخيانة والحرص والدنائة وغيرها وكان عدمه كمالاً.

الثامنة: كونهم لا يفسدون. ولمّا كان كـلّ فساد مستلزم رذيلة أو رذائـل كالزنا المستلزم لرذيلة الفجور وكالقتل المستلزم لرذيلة الظلم وكذلـك سائـرها كان عدمه كمالاً.

التاسعة: كون قلوبهم في الجنان. وذلك أنّك علمت أنّ أعلى غـرفات الجنان ودرجاتها هو المعارف الإلهيّة والقعـود في مقاعـد الصدق عنـد المليك المقتدر وذلك من مقامات العارفين وأولياء الله الصدّيقين.

العـاشرة: كـون أجسادهم في العمـل. فالـواو في قولـه: وأجسـادهـم.

يحتمل أن يكون للحال أي أنّ قلوبهم في الجنان ما يكون أجسادهم مستغرقة الحركات والسكنات في الأعمال الصالحات **﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المفلحون﴾**.

٢٣٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قاله لعبد الله بن عباس، وقد جاءه برسالة من عثمان وهو محصور يسأله فيها الخروج إلى ماله بينبع ليقل هتف الناس باسمه للخلافة بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل، فقال عليه السلام:

يَا آبْنَ عَبَّاس، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْب أَقْبِلْ وَأُدْبِرْ: بَعَثَ إلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ، ثُمَّ هُوَ الآنَ يَبْعَثُ إلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، وَالله لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً.

أقول: ينبع: قرية صغيرة من أعمال المدينة. وهتف الناس: صياحهم ودعاؤهم باسمه. والناضح: الجمل أُستقى عليه. والغرب: الدلو العظيمة.

وسبب الرسالة أنّ القوم الذين حصروه وكانوا يكثرون نداه والصياح به وتوبيخه على أحداثه من تفريق بيت المال على غير مستحقّيه ووضعه في غير مواضعه وسائر الأحداث التي ذكرنا أنّها نسبت إليه، واستعار لفظ الجمل الناضح، ورشّح بذكر الغرب، وأشار إلى وجه المشابهة بقوله أقبل وأدبر.

قوله: بعث إليّ. إلى قوله: أخرج.

شرح لكيفيّة تصريفه في حال حصره ومضايقة الناس له وبعثه إلى الناس في أمره كما أشرنا إليه من قبل. وقد كان قصده بتلك الرسالة من بين سائر الصحابة لأحد أمرين:

أحدهما: اعتقاده أنه كان أشرف الجماعة والناس له أطوع، وأنّ قلوب الجماعة معه حينئذ.

والثاني: أنّه كان يعتقد أنّ له شركة مع الناس في فعلهم به وكانت بينهما هناة فكان بعثه له من بين الجماعة متعيّناً لأنّهم إن رجعوا بواسطته فهو الغرض

وإن لم يرجعوا حصلت بعض المقاصد أيضاً وهو تأكّد ما نسبه إليه من المشاركة في أمره، وبقاء ذلك حجّة عليه لمن بعده ممّن يطلب بدمه حتى كان لسبب هذا الغرض الثاني ما كان من الوقائع بالبصرة وصفّين وغيرهما.

وقوله: والله. إلى آخره يحتمل وجوهاً:

أحدها: قال بعض الشارحين: إنّي بالغت في الذبّ عنه حتى خشيت لكثرة أحداثه أن أكون آثماً في الذبّ عنه والاجتهاد في ذلك.

والثاني: يحتمل أن يريد أنّي خشيت الإثم في تغريري بنفسي لأن دفع الجمع العظيم في هذا الأمر مظنّة الخوف على النفس فيكون الإقدام عليه مظنّة إثم.

الثالث: يحتمل أنّه يريد أنّه خشى الإثم من الإفراط في حقّهم كأن يضرب أحدهم بسوطه ويغلظ له في القول والشتم. وبالله التوفيق.

٢٣٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

اقتص فيه ذكر ما كان منه بعدهجرة النبي صلى الله عليه وآله، ثم لحاقه به

فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ مَأْخَذَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى ٱنْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ (في كلام طويل)

قال الشريف: قوله عليه السلام «فأطأ ذكره» من الكلام الذي رمى به إلى غايتي الإيجاز والفصاحة، أراد إني كنت أعطي خبره، صلى الله عليه وآله وسلم من بدء خروجي إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع، فكنى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة.

أقول: هذا الفصل من كلام يحكي فيه عليه السلام ما كان جرى من حاله في خروجه من مكّة إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وذلك أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا عزم على الهجرة أعلم عليّاً عليه السلام بخروجه وأمره أن يبيت على فراشه خدعة للمشركين الذين كانوا عزموا على قتله في تلك الليلة وإيهاماً لهم

أنّه لم يبرح فلا يطلبونه حتى يبعد مسافته عنهم، وأن يتخلّف بعده بمكّة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس فإنّ جماعة من أهل مكّة استودعوه ودائع لما رأوا من أمانته. وكانوا قد أجمعوا على أن يضربوه بأسيافهم من أيدي جماعة من بطون مختلفة ليضيّع دمه بين بطون قريش فلا يطلبه بنو عبد مناف. وكان ممّن أجمع على ذلك النضر بن الحرث من بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود بن عبد المطّلب ـ الثلاثة من بني أسد بن عبد العزى ـ وأبو جهل بن هشام. وأخوه الحرث، وخالد بن الوليد بن المغيرة ـ والثلاثة من بني مخزوم ـ وبُنية ومُنية ابنا الحجّاج، وعمرو بن العاص ـ والثلاثة من بني سهم ـ وأميّة بن خلف، وأخوه أبّي من بني جمح. فنما هذا الخبر من اللّيل إلى عتبة بن ربيعة فلقى قوماً منهم ونهاهم عن ذلك وقال إنّ بني عبد مناف لا تسكت عن دمه ولكن صفّدوه في الحديد واحبسوه في دار من دوركم وتربّصوا به أن يصيبه من الموت ما أصاب أمثاله من الشعراء. وكان عتبة بن ربيعة سيّد بني عبد شمس فأحجم أبو جهل وأصحابه تلك الليلة عن قتله إحجاماً ثمّ تسوّروا عليه وهم يظنّونه في الدار فرأوا إنساناً مسجّى بالبرد الحضرميّ فلم يشكّوا أنّه هو فكانوا يهمّون بقتله ثمّ يحجمون لما يريد الله من سلامة علي عليه السلام. ثمّ قال بعضهم لبعض: ارموه بالحجارة. فرموه فجعل عليّ يتضوّر منها ويتأوّه تأوّهاً خفيّا ولا يُعلمهم بحاله خوفاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يطاب فيدرك. فلم يزالوا حتى الصباح فوجدوه عليّا، ثمّ تخلّف عنه عليه السلام بمكة لقضاء ما أمره به. ثمّ لحق به فجاء إلى المدينة راجلاً قد تورّمت قدماه وتصادف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نازلاً بقبا على كلثوم بن المقدم فنزل معه في منزله. ثمّ خرج معه من قبا حتى نزلا بالمدينة على أبي أيّوب الأنصاري.

قوله: فجعلت أتّبع مأخذ رسول الله.

أي الجهة والطريق التي أخذ فيها وسار حتى انتهيت إلى الموضع المعروف بالعرج.

وقوله: فأطأ ذكره.

استعار وصف الوطىء لوقوع ذهنه على ذكره صلى الله عليه وآله وسلم وخيره من الناس في تلك الطريق كوقوع القدم على الأرض، ووجه المشابهة أنّ الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم وذكره طريق حركات قدم عقله إلى معرفة حسّه صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ المحسوس طريق لحركات قدمه إلى الوصول إليه. وقيل: أراد بذكره ما ذكره لي ووصفه من حال الطريق والأوّل أسبق إلى الفهم. وبالله التوفيق.

٢٣٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

فَاعْلَمُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهَلُ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

فَأَخَذَ آمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ، آمْرُؤٌ خَافَ آللهَ، وَهْوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ، آمْرُؤٌ لَجَّمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي آللهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ آللهِ تَعَالَى.

أقول: يقال: فلان في نفس من أمره: أي في سعته.

والفصل في غاية الفصاحة. وقد أمرهم بالعمل حال ما هم في مهلته على الأحوال التي أشار إليها:

أحدها: كونهم في نفس البقاء وسعته فإنّ الموت مستلزم لانقطاع العمل وعدم إمكانه.

الثاني: كون الصحف منشورة: أي صحف الأعمال فإنّها إنّما تطوى بانقطاع الأعمال بالموت. وقد عرفت وجه الإشارة إلى الصحف ونشرها.

الثالث: كون التوبة مبسوطة، واستعار لفظ البسط ملاحظة لشبهها بالبساط في كونها ممدودة القبول غير ممنوع منها في مدّة العمر يطأها من أرادها كالبساط وإنّما تطوى بالموت كما قال تعالى: **﴿وليست التوبة للذين**

يعملون السيّئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار﴾[1].

الرابع: كون المدبر يدعى: أي حال كون المدبر عن طاعة الله المعرض عنها يدعى إليها من الأنبياء والرسل والنواميس الشرعيّة، وذلك منقطع بالموت.

الخامس: حال كون المسيء يرجى: أي يرجى صلاحه وعوده وذلك حال البقاء في الدنيا.

ولمّا ذكر هذه الأحوال للترغيب في العمل عليها والتذكير بكونها أحوالاً يمكن العمل معها أردفها بأحوال يمتنع معها العمل تنفيراً عنها وهي جمود العمل. واستعار لفظ الجمود لوقوفه ملاحظة لشبهه بالماء في جموده عن الجريان. وفي نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ يخمد ـ بالخاء المعجمة ـ من خمد المريض: أي مات. والمعنى ظاهر يقرب معنى يجمد. وكذلك انقطاع المهل وانقضاء المدّة: أي مدّة البقاء وسدّ أبواب التوبة، ولفظ الأبواب مستعار لطرق الاعتبار التي يرجع منها الى الله تعالى، وكذلك الملائكة: أي الكرام الكاتبين فإنّ الملائكة الموكّلين بضبط أعمال كلّ شخص يصعدون الى السماء بعد بطلان الاعمال.

وقوله: فأخذ امرء من نفسه.

أمر في صورة الخبر: أي فليأخذ المرء من نفسه: أي بعض نفسه بالاجتهاد والنصب في العبادة فإنّهما يهزلان البدن ويأخذان من النفس لذّاتها ومشتهياتها البدنيّة، ويجوز أن يريد بالنفس هنا الشخص. والأخذ منه ظاهر.

وقوله: لنفسه.

أي ليكون ذلك كمالا لنفسه وذخراً لها في معادها.

وقوله: وأخذ من حيّ لميّت. إلى قوله: امر..

أمر أيضاً في صورة الخبر. وفاعل أخذ هو قوله: امرء. والحيّ والميّت

---

(1) ٤ ـ ٢٢.

استعار وصف الوطىء لوقوع ذهنه على ذكره صلى الله عليه وآله وسلم وخيره من الناس في تلك الطريق كوقوع القدم على الأرض، ووجه المشابهة أنّ الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم وذكره طريق حركات قدم عقله إلى معرفة حسّه صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ المحسوس طريق لحركات قدمه إلى الوصول إليه. وقيل: أراد بذكره ما ذكره لي ووصفه من حال الطريق والأوّل أسبق إلى الفهم. وبالله التوفيق.

٢٣٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

فَاعْلَمُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ الْبَقَاءِ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَالتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَالْمُدْبِرُ يُدْعَى، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ الْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ الْمَهَلُ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ الْمَلَائِكَةُ.

فَأَخَذَ آمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ، آمْرُؤٌ خَافَ آللهَ، وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ، آمْرُؤٌ لَجَّمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي آللهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ آللهِ تَعَالَى.

أقول: يقال: فلان في نفس من أمره: أي في سعته.

والفصل في غاية الفصاحة. وقد أمرهم بالعمل حال ما هم في مهلته على الأحوال التي أشار إليها:

أحدها: كونهم في نفس البقاء وسعته فإنّ الموت مستلزم لانقطاع العمل وعدم إمكانه.

الثاني: كون الصحف منشورة: أي صحف الأعمال فإنّها إنّما تطوى بانقطاع الأعمال بالموت. وقد عرفت وجه الإشارة إلى الصحف ونشرها.

الثالث: كون التوبة مبسوطة، واستعار لفظ البسط ملاحظة لشبهها بالبساط في كونها ممدودة القبول غير ممنوع منها في مدّة العمر يطأها من أرادها كالبساط وإنّما تطوى بالموت كما قال تعالى: ﴿**وليست التوبة للذين**

يعملون السيّئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار﴾[1].

الرابع: كون المدبر يدعى: أي حال كون المدبر عن طاعة الله المعرض عنها يدعى إليها من الأنبياء والرسل والنواميس الشرعيّة، وذلك منقطع بالموت.

الخامس: حال كون المسيء يرجى: أي يرجى صلاحه وعوده وذلك حال البقاء في الدنيا.

ولمّا ذكر هذه الأحوال للترغيب في العمل عليها والتذكير بكونها أحوالاً يمكن العمل معها أردفها بأحوال يمتنع معها العمل تنفيراً عنها وهي جمود العمل. واستعار لفظ الجمود لوقوفه ملاحظة لشبهه بالماء في جموده عن الجريان. وفي نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ يخمد ـ بالخاء المعجمة ـ من خمد المريض: أي مات. والمعنى ظاهر يقرب معنى يجمد. وكذلك انقطاع المهل وانقضاء المدّة: أي مدّة البقاء وسدّ أبواب التوبة، ولفظ الأبواب مستعار لطرق الاعتبار التي يرجع منها الى الله تعالى، وكذلك الملائكة: أي الكرام الكاتبين فإنَّ الملائكة الموكّلين بضبط أعمال كلّ شخص يصعدون الى السماء بعد بطلان الاعمال.

وقوله: فأخذ امرء من نفسه.

أمر في صورة الخبر: أي فليأخذ المرء من نفسه: أي بعض نفسه بالاجتهاد والنصب في العبادة فإنّهما يهزلان البدن ويأخذان من النفس لذّاتها ومشتهياتها البدنيّة، ويجوز أن يريد بالنفس هنا الشخص. والأخذ منه ظاهر.

وقوله: لنفسه.

أي ليكون ذلك كمالا لنفسه وذخراً لها في معادها.

وقوله: وأخذ من حيّ لميّت. إلى قوله: امر..

أمر أيضاً في صورة الخبر. وفاعل أخذ هو قوله: امرء. والحيّ والميّت

---

(1) ٤ ـ ٢٢.

هو المرء نفسه: أي فليأخذ امرء من نفسه باعتبار ما هو حيّ لنفسه باعتبار ما يصير إليه من حال الموت. وقوله: من فان لباق. أي فليأخذ من الأمر الفاني وهي دنياه ومتاعها للأمر الباقي وهو النعيم الباقي الأبديّ في الآخرة. ومعنى ذلك الأخذ أنّ الإنسان مكتسب من الدنيا ومتاعها الفاني كمالاً باقياً يوصل إلى نعيم دائم وذلك بالصدقات والزكوات والإنفاق في وجوه البرّ والقربات، وكذلك قوله: ومن ذاهب لدائم. ثمّ أخذ في وصف ذلك المرء كأنّه سئل عنه فقال: امرء خاف الله في حال ما هو معمّر إلى أجله ومنظور إلى عمله. ونبّهه بغاية أجله وكون عمله منظوراً إليه أي منظوراً لله ومرئيّاً له تخويفاً من هجوم الأجل وجذباً إلى صالح الأعمال لله تذكير اطّلاعه عليها وعلمه بها.

وقوله: امرء لجّم نفسه.

بدل من امرء الأوّل. واستعار لفظ اللجام للزهد الحقيقيّ والعفّة. ووجه المشابهة كونهما مانعين للنفس الأمّارة من جماحها في تيه الهوى ومعاصي الله كما يمنع اللجام الدابّة عن الجماح. ورشّح بذكر الإلجام، وكنّى به عن ورع النفس بالزهد، وأشار إلى ذلك الوجه من المشابهة بقوله: فأمسكها بلجامها عن معاصي الله. وكذلك استعار لفظ الزمام للعبادة باعتبار ما هي قائدة للنفس الأمّارة بالسوء إلى موافقة النفس المطمئنّة في طاعة الله كما تقاد الناقة بزمامها إذ علمت أنّ العبادة إنّما وضعت لتطويع النفس الأمّارة للعقل وانقيادها تحت أسره وانجذابها خلفه عند توجّهه في المعارج القدسيّة إلى حضرة ذي الجلال والإكرام، وإلى ذلك الوجه من المشابهة أشار بقوله: وقادها بزمامها، ورشّح بذكر الزمام والقود، وكنّى بهما عن إيقاع العبادة وتطويع النفس لها. وبالله التوفيق.

٢٣٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

في شأن الحكمين، وذم أهل الشام:

جُفَاةٌ طَغَامٌ، عَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِّعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ،

لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ، وَلاَ مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّؤوا الدَّارَ.

ألاَ وإنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا يُحِبُّونَ، وَإنَّكُمُ اخْتَرْتُمْ لأنْفُسِكُمْ أقْرَبَ القَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ، وَإنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِالله بْنِ قَيْسٍ بِالأمْسِ يَقُولُ: «إنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ» فَإنْ كَانَ صَادِقاً، فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ التُّهَمَةُ، فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَخُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ.

أَلاَ تَرَوْنَ إلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى، وَإلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى.

أقول: جفاة: جمع جافي وهو غليظ الطبع قاسي القلب والطغام: أوغاد الناس وأراذلهم. والأقزام: جمع قزم ـ بفتح الزاء ـ وهو الرذل الدنيّ من الناس، ويطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى. ويقال: جاؤوا من كلّ أوب: أي من كلّ ناحية. والشوب: الخلط. ويدرّب: يعوّد بالعادات الجميلة ويجرّب في الأمور: وتبوّؤوا الدار: نزلوا. وشمت السيف: أغمدته.

وصدّر الفصل بذكر مذامّ أهل الشام تنفيراً عنهم، ووصفهم بكونهم عبيداً إمّا لأنّهم عبيد الدنيا وأهلها أو لأنّ منهم عبيداً، واللفظ مهمل يصدق بالبعض. والمرفوعات الأربعة الأولى أخبار لمبتدء محذوف: أي هم جفاة. ومحلّ قوله: جمّعوا، الرفع صفة لأقزام. ويحتمل أن يكون خبراً خامساً، وكذلك قوله: ممّن ينبغي.

وقوله: يولّى عليه ويؤخذ على يديه. وقوله: ليسوا.

كناية عن كونهم سفهاء لا يصلحون لأن يلوا أمراً ويفوّض اليهم بل ينبغي أن تحجر عليهم ويمنعون من التصرّف لغباوتهم وسفههم، وذكر كونهم ليسوا من المهاجرين والأنصار في معرض الذمّ لهم لكون ذلك نقصاناً لهم من تلك الجهة بالنسبة إلى المهاجرين والأنصار، وكذلك نفى كونهم من الذين تبّوؤوا الدار. وأراد بالدار مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والذين تبّوؤوها هم الأنصار من أهلها

الذين أسلموا بها قبل هجرة الرسول إليهم بسنتين وابتنوا بها المساجد. وإليهم أشار تعالى في كتابه العزيز وأثنى عليهم فقال: **﴿والذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم﴾** إلى قوله: **﴿فأولئك هم المفلحون﴾**[1] وفي نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ تبوّؤوا الدار فقط، وفي سائر النسخ والايمان، ووصف الإيمان بكونه متبوءاً لهم مستعار ملاحظة لشبهه بالمنزل باعتبار أنهم ثبتوا عليه واطمأنّت قلوبهم به، ويحتمل أن يكون نصب الإيمان هنا كما في قوله:

ورأيت زوجك في الوغا ... متقلّدا سيفا ورمحا

أي لازموا الإيمان كما أراد القائل ومعتقلاً رمحاً.

وقوله: ألا وإنّ القوم. إلى قوله: تكرهون.

والقوم هم أهل الشام. والذي اختاروه لأنفسهم وكان أقرب القوم ممّا يحبّون هو عمرو بن العاص فإنّهم اختاروه للحكومة وعيّنوا عليه من قبلهم. وكونه أقرب القوم ممّا يحبّون لكثرة خداعه ولميله إلى معاوية وعطائه. والذي يحبّونه ممّا هو أقرب إليه هو الانتصار على أهل العراق وصيرورة الأمر إلى معاوية والذي اختاره أهل العراق للحكومة هو أبو موسى الأشعري، وكان أقرب القوم ممّا يكرهون من صرف الأمر عنهم. وكونه أقرب إلى ذلك إمّا لغفلته وبلاهته أو لأنّه كان منحرفاً عن عليّ عليه السلام، وذلك أنّه كان في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والياً من قبله على زبيد من أعمال اليمن ثمّ ولاّه عمر البصرة لمّا عزل المغيرة عنها فلمّا عزله عثمان سكن بالكوفة فلمّا كره أهلها سعيد ابن العاص ودفعوه عنها ولّوا أبا موسى وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولّيه فأقرّه على الكوفة فلمّا قتل عثمان عزله عليّ عليه السلام فلم يزل واجداً لذلك عليه حتّى كان منه ما كان في الكوفة.

وقوله وإنّما عهدكم بعبد الله إلى آخره احتجاج عليهم في اختيارهم لعبد الله بن قيس وهو أبو موسى الأشعري للحكومة. وصورة الاحتجاج: أنّ أبا موسى كان يقول لكم يا أهل الكوفة عند مسيري إلى أهل البصرة: إنّها

---

(١) ٥٩ ـ ٩.

فتنة من الفتن التي وعدنا بها وأمرنا باعتزالها فقطّعوا أوتار قسيّكم وأغمدوا سيوفكم. فلا يخلو إمّا أن يكون صادقاً في ذلك فقد لزمه الخطأ بمسيره معنا غير مستكره إلى فتنة أمرنا بالاعتزال عنها وحضوره صفوف أهل العراق وتكثير سوادهم، وإن كان كاذباً فقد لزمته التهمة وصار فاسقاً بكذبه، وعلى التقديرين لا ينبغي أن يعتمد عليه في هذا الأمر الجليل.

وأقول: وممّا يناسب هذا الاحتجاج ما روى عنه سويد بن غفلة قال: كنت مع أبي موسى على شاطىء الفرات في خلافة عثمان فروى لي خبراً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنّ بني إسرائيل اختلفوا ولم يزل الاختلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالّين ضلاّ وأضلاّ من اتّبعهما ولا ينفكّ أمر أمّتي تختلف حتى يبعثوا حكمين يضلاّن ويضلاّن من اتّبعهما. فقلت له: احذر أبا موسى أن تكون أحدهما. قال: فخلع قميصه وقال: أبرء إلى الله من ذلك كما أبرء من قميصي هذا. فنقول: لا يخلو إمّا أن يكون صادقاً في ذلك الخبر أو كاذباً فإن كان صادقاً فقد أخطأ في دخوله في الحكومة وشهد على نفسه بالضلال والإضلال، وان كان كاذباً فقد لزمته التهمة فلا ينبغي أن يعتمد عليه في هذا الامر.

وقوله: فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس.

كناية عن جعله مقابلاً له في الحكومة دافعاً له عمّا يريد. ولمّا قدح في أبي موسى وأشار إلى عدم صلاحيّته لهذا الأمر كان رأيه أن يبعث الحكم من قبله عبد الله بن عباس فأبى قومه عليه. وروي بعبارة أخرى أنّه قال لهم لما لجّوا في بعث أبي موسى وتعيينه حكما: إنّ معاوية لم يكن ليختار لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره إلاّ عمرو بن العاص وإنّه لا يصلح للقرشي إلاّ قرشي وهذا عبد الله بن عباس فارموه به فإن عمروا لا يعقد عقدة إلاّ حلّها ولا يبرم أمراً إلاّ نقضه ولا ينقض أمراً إلاّ أبرمه. فقال الأشعث ومن معه: لا والله لا يحكم فيها مضريان أبدا حتى تقوم الساعة ولكن يكون رجل من مضر ورجل من اليمن. فقال عليه السلام: إنّي أخاف أن يخدع يمانيّكم وإنّ عمرو ابن العاص ليس والله قرشي. فقال الأشعث: والله لئن يحكمان بما نكره

وأحدهما من اليمن أحبّ إلينا أن يكون ما نحبّ وهما مضريّان. فقال عليه السلام: وإن أبيتم إلّا أباموسى فاصنعوا ما شئتم. اللّهم إنّي أبرء إليك من صنيعهم.

وقوله: وخذوا مهل الأيّام.

أمر لهم باغتنام مهل الأيّام عنهم وفسحتها عمّا ينبغي أن يعملوا فيها ويدبّروه في أحوالهم على وفق الآراء الصالحة، وكذلك أمرهم بحياطة قواصي الإسلام وهي أطراف العراق والحجاز والجزيرة وما كان في يده عليه السلام من البلاد. ثمّ استثار طباعهم وجذبها إلى ذلك بتنبيههم على أنّ بلادهم تغزى وصفاتهم ترمى، وكنّى بصفاتهم عن حوزتهم التي استقرّوا عليها من بلاد الإسلام. وأصل الصفات الحجر الأسود الأملس لا ينفذ فيها السهم بل تكسره وتدفعه فأشبهتها الحوزة في منعتها. فيقال: لا ترمى صفاتهم ولا يقرع صفاتهم. ويكنّى بذلك عن منعتهم وقوّتهم فلذلك كنّى عن رمي صفاتهم بالطمع فيهم وقصد العدوّ لبلادهم ورميها بالكتائب. وبالله التوفيق.

٢٣٩ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

هُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ، يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ: لاَ يُخَالِفُونَ الْحَقَّ، وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، هُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلاَمِ، وَوَلاَئِجُ الاِعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ فِي نِصَابِهِ، وَانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لاَ عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

أقول: الولايج: جمع وليجة فعيلة بمعنى مفعولة وهي الموضع يعتصم بدخوله والنصاب: الأصل.

وذكر لهم أوصافاً.

أحدها: عيش العلم: أي حياته. وقد جعل له حياة ملاحظة لشبهه بالحيّ في وجوده والانتفاع به ثمّ أطلق عليهم لفظ الحياة مجازاً إطلاقاً لاسم

السبب على المسبّب.

الثاني: وكذلك كونهم موت الجهل. جعل للجهل موتاً استعارة باعتبار عدمه بهم: وأطلق عليهم لفظه مجازاً أيضاً كالذي قبله.

الثالث: كونهم يخبر حلمهم عن علمهم بمواقع الحلم، وفي ذلك إشارة إلى تلازم فضيلتي الحلم والعلم فيهم فهم لا يحلمون إلاّ عن علم بمواقع الحلم.

الرابع: كونهم يخبر صمتهم عن حكم منطقهم إذا تكلّموا لأنّ من علم مواقع السكوت وما ينبغي أن يسكت عنه يستلزم حكمة نفوسهم في منطقهم إذا تكلّموا لأنّ من علم مواقع السكوت وما ينبغي أن يسكت عنه علم مواقع المنطق وما ينبغي أن لا يسكت عنه ولو لم يعلم ذلك لجاز أن يتكلّم بما لا ينبغي، وذلك هو موضع السكوت فلا يكون عالماً بمواضع السكوت وقد فرض كذلك. هذا خلف.

الخامس: كونهم لا يخالفون الحقّ: أي لعلمهم به وبطرقه وذوقهم له فلا يتجاوزونه إلى رذيلة الإفراط، ولا يقفون دونه في مقام رذيلة التفريط.

السادس: وكذلك لا يختلفون فيه لعلمهم بحقيقته.

السابع: كونهم دعائم الاسلام، واستعار لهم لفظ الدعائم باعتبار حفظهم له بعلمهم وحراسته وقيامه في الوجود بهم كما يحفظ البيت بالدعائم ويقوم بها.

الثامن: استعار لهم لفظ الولايج باعتبار كونهم مرجعاً للخلق يعتصمون. بعلمهم وهدايتهم واتّباعهم من الجهل ولواحقه وعذاب الله في الآخرة كما يعتصم بالوليجة من دخلها.

التاسع: كونهم بهم عاد الحقّ إلى نصابه: أي بولايته عليه السلام وخلافته عاد الحقّ إلى أصله وانزاح الباطل عن مقامه، وهو إشارة إلى أنّ الأحكام كانت قبله في أيّام عثمان جارية على غير قانون شرعيّ لما نقل عنه من الأحداث واستيلاء بني أميّة في زمانه على بيت مال المسلمين وأكلهم له بغير حقّ كما سبق شرحه فعاد بولايته عليه السلام كلّ حقّ إلى أهله وهو أصله ومستقرّه، والحقّ

إذا كان في غير أهله فهو الباطل ومقامه غير أهله. وبولايته عليه السلام انزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه: أي اللسان الناصر للباطل والناطق به. واستعار وصف الانقطاع له باعتبار سكوته ملاحظة لشبهه بالمنقطع في عدم القول، ورشّح بقوله: من منبته تأكيداً لذلك الانقطاع.

العاشر: كونهم عقلوا الدين عقل رعاية ووعاية لا عقل سماع ورواية، وذلك أنك علمت أن للإدراك ثلاث مراتب أدناها تصوّر الشيء بحسب اسمه، وأعلاها تصوّر الشيء بحسب حقيقته وكنهه. وأوسطها بعقله بحسب صفاته ولوازمه الخاصّة به وبها مع بعض أجزائه. فكان عقلهم للدين وعلمهم به على أكمل المراتب هو معنى الرعاية، ورعايتهم له بدراسته وتذكّره والاحتياط عليه، وليس علما به من جهة اسمه وسماع ألفاظه فقط.

وقوله: فإنّ رواة العلم كثير. إلى آخره.

أي ليس كلّ من روى العلم وسمعه كان عالماً به ومراعياً له فإنّ ذلك أعمّ من العالم به والعامّ لا يستلزم الخاصّ، ونبّه بذلك على قلّة مثلهم في رعاية العلم واستجماع الفضائل. وبالله التوفيق.

٢٤٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

يحث أصحابه على الجهاد:

وَٱللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ، وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ، لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ. فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَٱطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ، مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمْحَى الظُّلَمِ لِتَذَاكِيرِ الْهِمَمِ!!

أقول: المضمار: المدّة تضمر فيها الخيل. قيل: إنّها أربعون يوماً، وقد سبق بيانه. والتنازع: التحازب في الخصومة. والمئازر: جمع مئزر.

والفصل في غاية من الفصاحة والجزالة، والحثّ على الاستعداد ليوم المعاد.

وقوله: والله مستأديكم شكره.

أي طالب منكم أداء شكره على نعمه، وذلك في أوامر القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿**واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون، واشكروا لي ولا تكفرون**﴾[1] ومورثكم أمره: أي سلطانه في الأرض الذي كان فيمن سلف من أهل طاعته من الأمم السابقة كقوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**﴾[2] الآية وقوله: ﴿**وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم**﴾[3] الآية.

وقوله: وممهلكم. إلى قوله: سبقه.

استعار لفظ المضمار لمدّة الحياة الدنيا، ووجه المشابهة أنّ الناس يستعدّون في مدّة حياتهم بالرياضات والمجاهدات في سبيل الله وتحصيل الكمالات النفسانيّة لغاية السبق إلى حضرة جلال الله كما تضمر الخيل لغاية السبق، وأشار إلى علّة ذلك الإمهال وهي تنازع السبق إليه تعالى وأراد به ما يعرض للسالكين في حال إعدادهم لأنفسهم بالرياضات وجدّهم وتشميرهم في طاعة الله من منافسة بعضهم لبعض في التقدّم بالفضيلة وسبقه بذلك وحرص كلّ امرء منهم على أن يكون هو الأكمل ليفوز بقصب السبق إلى حضرة قدسه تعالى والمنافسة في الفضائل. والغبطة بها محمودة لأدّائها بالغابط إلى كماله، وذلك هو أقصى مطلوب الشارع من أمّته، ويحتمل أن يريد بالسبق ما يسبق إليه من الفضيلة أو الجنّة كما سبقت الإشارة إلى مثل ذلك، ولفظ التنازع ترشيح لاستعارة المضمار والمسابقة لأنّ من شأن ذلك التنازع على السبق والمجاذبة على الفوز بالسبقة. وخلاصة المعنى أنّه تعالى أمهلكم في الدنيا للاستعداد فيها وتجاذب السبق إليه.

وقوله: فشدّوا عقد المئازر.

كناية عن الأمر بالتشمير والاجتهاد في طاعة الله والاستعداد بها بعد أنْ

---

(١)
(٢) ٢٤ ـ ٥٤.
(٣) ٣٣ ـ ٢٧.

بيّن أنّ ذلك الغاية من الإمهال في الدنيا إذ كان من شأن من يهتمّ بالأمر ويتحرّك فيه أن يشدّ عقدة مئزره كيلا يشغله عمّا هو بصدده.

وقوله: واطووا فضول الخواصر.

كناية عن الأمر بترك ما يفضل من متاع الدنيا على قدر الحاجة من ألوان الطعوم والملابس وسائر قينات الدنيا. وأصله أنّ الخواصر والبطون لها احتمال أن يتّسع لما فوق قدر الحاجة من المأكول فذلك القدر المتّسع لما فوق الحاجة هو فضول الخواصر. وكنّى بطيّها عمّا ذكرناه. إذ كان من لوازم ذلك الطيّ ترك تلك الفضول.

وقوله: لا يجتمع عزيمة ووليمة.

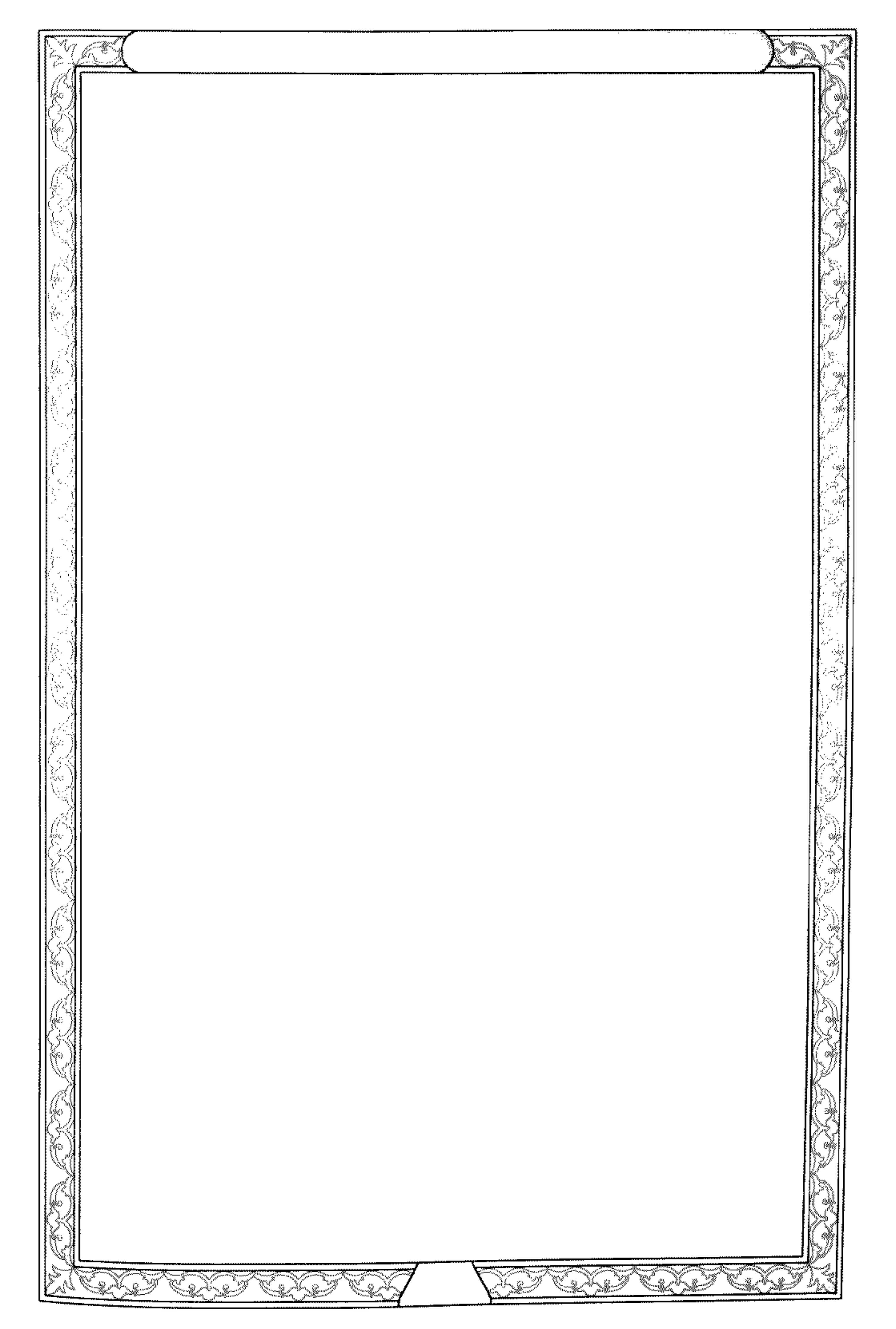
أراد بالعزيمة على اقتناء الفضائل واكتسابها والعزيمة هي الإرادة الجازمة للأمر بعد اختياره. وكنّى بالوليمة وهي طعام العرس نحوه عن خفض العيش والدعة لاستلزام الوليمة ذلك، والمعنى أنّ العزيمة على تحصيل المطالب الشريفة وكرائم الأمور ينافي الدعة وخفض العيش ولا يحصل مع الهوينا لما يستلزمه تحصيل تلك المطالب والعزم عليها من المشاقّ وإتعاب النفس وكذا البدن بالرياضات والمجاهدات المنافية للدعة والراحة، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون﴾[1] ثمّ أكدّ ذلك بقوله: ما أنقض النوم لعزائم اليوم. وأصله أنّ الإنسان يعزم في النهار على المسير بالليل ليقرب المنزل فإذا جاء الليل نام إلى الصباح فانتقض بذلك عزمه فضربه مثلاً لمن يعزم على تحصيل الأمور في شيء وهم قومك وأنت أعلم، فحرق جارية الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلا أحدهم عبد الرحمٰن بن عثمان القرشي، وسارت الأزد بزياد حتى أوطئوا قصر الإمارة، ومعه بيت المال وقالت له: هل بقي علينا من جوارك شيء؟ قال: لا، فانصرفوا عنه.

وكتب زياد إلى أمير المؤمنين: أمّا بعد فإنّ جارية بن القدامة العبد الصالح قدم من عندك، فناهض جمع ابن الحضرمي ممّن نصره وأعانه من

(١) ٣ - ٨٤.

الأزد، فقصّه واضطره إلى دار من دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج، حتى حكم الله بينهما، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق ومنهم من القي عليه جدار ومنهم من هدم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قتل بالسّيف، وسلم منهم نفر فتابوا وأنابوا فصفح عنهم، وبعد المن عصى وغوى والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل الكتاب رآه على الناس فسرّ بذلك وسرّ أصحابه وأثنى على جارية وعلى الأزد، وذمّ البصرة فقال إنها أول القرى خراباً إمّا غرقاً وإما حرقاً حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة.



باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام
إلى أعدائه وأمراء بلاده
ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله
ووصاياه لأهله وأصحابه

١ ـ من كتابٍ له عليه السلام
لأهل الكوفة، عند مسيره من المدينة إلى البصرة

مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ جَبْهَةِ ٱلْأَنْصَارِ وَسَنَامِ ٱلْعَرَبِ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ، إِنَّ ٱلنَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتَ رَجُلاً مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ ٱسْتِعْتَابَهُ، (وَأُقِلُّ عِتَابَهُ) وَكَانَ طَلْحَةُ وَٱلزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ ٱلْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا ٱلْعَنِيفُ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي ٱلنَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ، وَلاَ مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ ٱلْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا، وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ ٱلْمِرْجَلِ، وَقَامَتِ ٱلْفِتْنَةُ عَلَى ٱلْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ.

أقول: الوجيف: ضرب من السير فيه سرعة. والعنف: ضد الرفق. وحال الرجلين في التحريض على قتل عثمان مشهور في السّير. وأما الفلتة من قول عايشة، فروي انها كانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً، وأما الغضب الذي وقع بسببه الفلتة من قولها فالسبب الظاهر هو ما نقمه المسلمون عليه.

وروي، أنه صعد المنبر يوماً وغصّ المسجد بأهله، فمدت يدها من وراء الستر وفيها نعلا رسول الله ﷺ وقميصه، وقالت: هذان نعلا رسول الله ﷺ بعد لم تبل، وقد بدّلت دينه وغيّرت سنته، واغلظت له في القول، واغلظ لها، وكان ذلك من أقوى الأسباب للاغراء به. والفلتة: البغتة من غير تروّ. واتيح: قدر. ودار الهجرة: المدينة. وقلع المنزل بأهله إذا نبا بهم فلم يصلح لاستيطانهم. والمرجل: القدر. وجيشانها: غليانها. وأراد اعلام الكوفة بنهوض أهل المدينة لقتال أصحاب الجمل لينهضوا معهم.

٢ـ ومن كتابٍ له عليه السلام إليهم، بعد فتح البصرة

وَجَزَاكُمُ ٱللَّهُ، مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، أَحْسَنَ مَا يَجْزِي ٱلْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَٱلشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

أقول الكتاب الى أهل الكوفة، والفصل واضح.

٣ـ ومن كتابٍ له عليه السلام كتبه لشريح بن الحارث قاضيه

روي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام اشترى

على عهده داراً بثمانين ديناراً فبلغه ذلك، فاستدعاه وقال له: بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً وكتبت كتاباً وأشهدت فيه شهوداً، فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين؛ قال: فنظر إليه نظر مغضب ثم قال له:

يَا شُرَيْحُ أَمَا سَيَأْتِيكَ مَنْ لاَ يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلاَ يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً، فَٱنْظُرْ يَا شُرَيْحُ لاَ تَكُونُ ٱبْتَعْتَ هٰذِهِ ٱلدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ ٱلثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلاَلِكَ، فَإِذا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ ٱلدُّنْيَا وَدَارَ ٱلآخِرَةِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي، عِنْدَ شِرَائِكَ مَا ٱشْتَرَيْتَ، لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَى هٰذِهِ ٱلنُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هٰذِهِ ٱلدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْق. وَٱلنُّسْخَةُ هٰذِهِ:

بسم الله الرحمن الرحيم

هٰذَا مَا ٱشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ مِنْ عَبْدٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، ٱشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ مِنْ جَانِبِ ٱلْفَانِينَ، وَخِطَّةِ ٱلْهَالِكِينَ، وَتَجْمَعُ هٰذِهِ ٱلدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: ٱلْحَدُّ ٱلأَوَّلُ: يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي ٱلآفَاتِ، وَٱلْحَدُّ ٱلثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي ٱلْمُصِيبَاتِ، وَٱلْحَدُّ ٱلثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى ٱلْهَوَى ٱلْمُرْدِي، وَٱلْحَدُّ ٱلرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى ٱلشَّيْطَانِ ٱلْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هٰذِهِ ٱلدَّارِ!!

اشْتَرَى هٰذَا ٱلْمُغْتَرُّ بِالأَمَلِ، مِنْ هٰذَا ٱلْمُزْعَجِ بِالأَجَلِ، هٰذِهِ ٱلدَّارَ، بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ ٱلْقَنَاعَةِ، وَٱلدُّخُولِ فِي ذُلِّ ٱلطَّلَبِ وَٱلضَّرَاعَةِ، فَمَا أَدْرَكَ هٰذَا ٱلْمُشْتَرِي فِي مَا ٱشْتَرَى مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ، فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ ٱلْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ ٱلْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ ٱلْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ ٱلْمَالَ عَلَى ٱلْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَبَنَى وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَٱدَّخَرَ وَٱعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ؛ إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ ٱلْعَرْضِ

وَٱلْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ ٱلثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ، إِذَا وَقَعَ ٱلْأَمْرُ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ شَهِدَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ ٱلْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عَلاَئِقِ ٱلدُّنْيَا».

أقول: الشاخص: الداخل وأراد بمن يأتيه ملك الموت. وحاصل الكتاب التنفير عن الدنيا. والركون الى فضولها، وفيه نكت:

إحداها، وصف المشتري بالعبودية والذلّة كسراً لما يعرض في نفسه، من العجب والفخر بشراء هذه الدار، وصفة البايع بالميت، تنزيلاً لما بالقوة مكان ما بالفعل مجازاً للتحذير.

الثانية، أنَّ قوله من جانب الفانين الى قوله: الهالكين، ابتداءً في التعيين بالأعم وانتهاء بالأخص، كما جرت العادة به في كتب البيع. والخطة بالكسر: البقعة يختطها الرجل ليبتني بها.

الثالثة، جعل الحدّ الأول دواعي الآفات، وأشار به الى ما يلزم الدار لزوماً أولاً من كمالاتها الضرورية كالمرأة، والخادم والدّابة وما يلزم ذلك ويلحقهم من الأولاد والأتباع والقينات وهي: دواعي الآفات لأن كلاً منها في معرض الآفات.

الرابعة، جعل الحدّ الثاني دواعي المصيبات، وأشار بها الى الأمور المذكورة باعتبارٍ آخر إذ كانت من حيث يلحقها الآفات تدعوا صاحبها الى المصيبات بها.

الخامسة، جعل الحدّ الثالث ما ينتهي اليه من الهوى المردي. إذ كان اقتناء الدار وكمالاتها في الدنيا وخوف فواتها والمصيبة بما فيها مرّة

بعد أخرى يوجب محبة النفس لها، والألفة التامة بها، وذلك هو الهوى المردي في قرار النار المهلك فيها.

السادسة، جعل الحد الرابع ما ينتهي الى الشيطان المغري لأنه الحدّ الأبعد الذي ينتهي اليه الهوى المردي، وكونه مغوياً يعود الى جذبه للنفس عن سبيل الله الواضح. وكونه مشرع باب هذه الدار باعتبار كونه مبدأ باغوائه للدخول في الدواعي الباحثة على شرائها، واقتناء ما يلزمها، فالشيطان كالحد وما صدر عنه وانفتح بسببه من الدخول في أمر الدار وشرائها.

السابعة، جعل الثمن هو الخروج عن عزّ القناعة والدخول في ذل الطلب. والضراعة، أما خروجه بها عن القناعة فلأنها كانت فضلة في حقه عن الحاجة الى الخلق. ولما كانت القناعة مستلزمة لأقلية الحاجة إلى الخلق المستلزمة لعزّ القناعة وغناها عنهم، كان الخروج عن ذلك خروجاً الى ذلّ الطلب الى الناس والضراعة.

الثامنة، علق الدرك والتبعة اللازمة في هذا المبيع بملك الموت قطعاً لأمل الدرك، والتبعة، وتذكيراً بالموت لغاية الأمل له. وكنى عنه بمبلبل اجسام الملوك، الى قوله للولد: تنبيهاً على أن المشتري أولى بذلك. والبلبلة: الاضطراب والاختلاط وافساد الشيء. وكسرى: لقب ملوك الفرس كاسم الجنس، وكذلك قيصر: لملوك الروم، وتبّع: لملوك اليمن وحمير: ابو قبيلة في اليمن، وهو حمير بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان. والتنجيد: تزيين الأرض بالبسط ونحوها. ونظر للولد: فكر في عاقبته فجمع له.

التاسعة، جعل الشاهد بجميع ما عدّده هو العقل المجرد من مشاركة الهوى والنفس الأمارة، وهو كلام في غاية الشرف والفصاحة.

٤ ـ ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ ٱلطَّاعَةِ فَذَاكَ ٱلَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ ٱلْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى ٱلشِّقَاقِ وَٱلْعِصْيَانِ، فَٱنْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ، وَٱسْتَغْنِ بِمَنْ ٱنْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ ٱلْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ.

أقول: الفصل من كتاب له الى عثمان بن حنيف، عامله على البصرة حين قدم طلحة والزبير اليها ونكث معهما جماعة من اهلها، وخرجوا عن الطاعة، واستعار لفظ الظلّ، لما يستلزمه الطاعة من الراحة عن متاعب الحرب. وتوافت بهم الأمور أي: توافقت أسباب العصيان والشقاق، حتى تمّت عِلّتاهما وَوَجبا عنهما. وانهد اي: انهض. وتقاعس: تأخر وقعد. والمتكاره للشيء: هو الذي يتعاطى كراهيته، ومغيبه خير من محضره لأنه ربما ثبّط الناس عن الحرب واقتدوا به في عدم المنفعة.

٥ ـ ومن كتاب له عليه السلام
إلى الأشعث بن قيس، وهو عامله على آذربيجان

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلٰكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِمَنْ فَوْقَكَ.

لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلاَ تُخَاطِرَ إِلاَّ بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ

مِنْ مَالِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ، حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَنْ لاَ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ، وَٱلسَّلاَمُ.

أقول: ليس لك أن تفتات في رعية، أي: تستبدّ بحكم فيهم وتسبق اليه دون إذن ممن استرعاك. والمخاطرة: الاقدام على الأمور العظام، والاشراف فيها على الهلاك. والوثيقة: ما يوثق به في الدّين. وأتى بلفظ الترجّي اطماعاً له بعدم الايقاع به، والمواخذة له كي لا يفرّ إلى العدوّ لأنه كان خائفاً منه.

وروي أنه استقدمه الى الكوفة فلما قدم فتّش ثقله، فوجد فيه مائة الف درهم فأخذها فاستشفع بالحسن والحسين عليهما السلام، وبعبد الله بن جعفر، فأطلق له منها ثلاثين الفاً، فقال: لا يكفيني، فقال: لست بزائدك درهماً واحداً وما اظنها تحلّ لك فقال الأشعث: خذ من خدعك ما اعطاك.

٦ ـ ومن كتابٍ له عليه السلام إلى معاوية

إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا ٱلشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، فَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ، وَسَمَّوْهُ إِمَاماً، كَانَ ذٰلِكَ لِلَّهِ رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ مِنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ، أَوْ بِدْعَةٍ، رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى ٱتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ ٱللَّهُ مَا تَوَلَّى.

وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةُ! لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ، لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ

ٱلنَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّ مَا بَدا لَكَ وَٱلسَّلاَمُ.

أقول: إنما احتجّ عليه السلام على القوم بالإجماع لاعتقادهم أنه لم يكن منصوصاً عليه، فلو احتجّ بالنص لم يقبل منه ولم يسلم له. والتجنّي دعوى الجناية ممن لم يفعلها، وبالله التوفيق.

٧ـ ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَهَا بِضَلاَلِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ! وَكِتَابُ ٱمْرِىءٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلاَ قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ ٱلْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ ٱلضَّلاَلُ فَٱتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لاَغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً.

ومن هذا الكتاب: لأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لاَ يُثَنَّى فِيهَا ٱلنَّظَرُ وَلاَ يُسْتَأْنَفُ فِيهَا ٱلْخِيَارُ، ٱلْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَٱلْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ.

أقول: موصلة: ملتقطة من كلام الناس ملفقة لا تتناسب وصولها. ومحبّرة: مزيّنة. والتنميق: التزيين بالكتابة. والبصر هنا البصيرة، ويحتمل أن يريد الحسّ باعتبار عدم اهتدائه من جهته. والقائد: الهادي في سبيل. وهجر: هذى وافحش في منطقه. واللغط: الأصوات المختلطة، والخبط: الحركة على غير نظام.

اقول: هذا جواب لفصل ذكره معاوية في كتابه وصورته: ولعمري ما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، ولا حجّتك عليّ كحجّتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم ابايعك، وأول الجواب. وأما ما ميّزت به بين أهل الشام وأهل البصرة وبينك وبين طلحة والزبير،

فلعمري ما الأمر في ذلك إلا واحداً لأنها بيعة واحدة الى آخره.

وفي نسخة لأنها بيعة عامة... وقوله: الخارج منها، الى آخره، قسمة لمن لم يدخل في بيعته الى قسمين: لأنه إما خارج عنها، وهو الطاعن في صحتها، ويجب مجاهدته لمخالفة سبيل المؤمنين، وإما مُنزوٍ في ذلك ومتوقف، وحكمه أنه يداهن وهو نوع من النفاق، وبالله التوفيق.

٨ ـ ومن كتابٍ له عليه السلام
إلى جرير بن عبدالله البجلي، لما أرسله إلى معاوية

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى ٱلْفَصْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ ٱلْجَزْمِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ: بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ، فَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلسِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ، وَٱلسَّلَامُ.

أقول: الفصل فصل الحال معه في الحرب وغيرها، لأن معاوية كان يتلون أيام المهلة ليستعد له فلا يجيبه بجواب فاصل. ومجلية: تجلى عن الوطن. وسلم مخزية: فيها ذلّ ـ وروي مجزية بالجيم ـ أي: كافية. والنبذ: الالقاء وهو كناية عن القاء الوعيد بالحرب أو عن إيقاعها.

٩ ـ ومن كتابٍ له عليه السلام إلى معاوية

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَٱجْتِيَاحَ أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا ٱلْهُمُومَ، وَفَعَلُوا بِنَا ٱلْأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا ٱلْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا ٱلْخَوْفَ، وَٱضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ ٱلْحَرْبِ، فَعَزَمَ ٱللَّهُ لَنَا عَلَى ٱلذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَٱلرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ ٱلْأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ ٱلْأَصْلِ، وَمَنْ

أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ ٱلْقَتْلِ بِمَكَانٍ أَمْنٍ.

وَكَانَ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ ٱلنَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ، فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ ٱلسُّيُوفِ وَٱلأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ ٱلْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ، مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ ٱسْمَهُ، مِثْلَ ٱلَّذِي أَرَادُوا مِنَ ٱلشَّهَادَةِ، وَلٰكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتُهُ أُجِّلَتْ. فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي ٱلَّتِي لاَ يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلاَّ أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لاَ أَعْرِفُهُ، وَلاَ أَظُنُّ ٱللَّهَ يَعْرِفُهُ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ : فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هٰذَا ٱلأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ، وَلاَ إِلَى غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ، لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لاَ يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ، وَلاَ بَحْرٍ، وَلاَ جَبَلٍ، وَلاَ سَهْلٍ، إِلاَّ أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لاَ يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ، وَٱلسَّلاَمُ لأَهْلِهِ.

أقول: حاصل الفصل ذكر فضيلته عليه السلام وبلائه في الإسلام، ليتبيّن قياس غيره اليه، ولذلك بنى عليه التعجب من مساواته بغيره.

وهمّوا بنا الهموم، ارادوا بنا: الارادات. وأراد بالأفاعيل: الشرور، والعذب: طيب العيش، وقيل: الماء فان قريشاً منعتهم الطعام والشراب. والحلس: كساء رقيق يجعل تحت قتب البعير، فاستعار وصف الاحلاس لاخافتهم. والجبل الوعر: من شعاب مكة، وقد كانت قريش حين فشا الاسلام في القبائل اجتمعت وتعاهدت على ان لا يناكحوا بني

هاشم وبني عبد المطلب، ولا يبايعوهم فانحاز هؤلاء الى ابي طالب فدخلوا معه شعبه، وخرج من بني هاشم ابو لهب وظاهر المشركين، وقطعوا عنهم الميرة، وحصروهم في ذلك الشعب في أول سنة سبع من النبوة وبقوا كذلك ثلاث سنين لا يخرجون إلا في الموسم، وعزم الله ارادته الحازمة لهم واختيارهُ أن يذبّ عن حوزة دينه وحرمته وحرمة دينه، وكافرهم يومئذٍ كحمزة والعباس وابي طالب على قول، فانهم كانوا يمنعون عن رسول الله ﷺ حميّة لأصلهم وبيتهم ومن كان يومئذٍ قد أسلم من قريش عدا بني هاشم، وعبد المطلب كانوا خالين من الخوف والجهاد، فمنهم من كان له عهد به وحلف مع المشركين يمنعه، ومنهم من كان له عشيرة تحفظه، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب. وبدر: اسم بئر. واحد: اسم جبل. ومؤته بالضم: اسم ارض بأدنى البلقاء دون دمشق.

ومن لو شئت ذكره، يعني نفسه. وواقعة بدر، واحد، ومؤته، وغيرها من وقائع الرسول ﷺ مع المشركين مشهورة في التواريخ، وقد نبهنا على خلاصتها.

ومن لم يَسْعَ بقدمه: كناية عمن لم يماثله في الجهاد، والسعي في اقامة الدين. والإدلاء بالشيء: التقرب به. وقوله: ولا أظن الله يعرفه، كناية عما لا أصل له فان ما لا وجود له لا يعلمه الله موجوداً. وأما عدم تسليم قتلة عثمان الى معاوية فلوجوه منها:

انه لم يكن وليّ دمه. ومنها أنه لم يعيّن قَتَلتَه ويدّعي عليهم ويحاكمهم إلى الإمام الحق. ومنها أنه لما سئل عليه السلام تسليمهم، قال:

وهو على المنبر ليقم قَتَلةُ عثمان، فقام أكثر من عشرة آلاف من المهاجرين، والأنصار وغيرهم، ومعلوم أن مثل هذا الجمع العظيم لا يتمكن عليه السلام من اخذهم وتسليمهم الى غيره ولو امكن ذلك مع أن فيهم من شهد النبي صلى الله عليه وآله له بالجنة كعمّار، فربما اقتضى الاجتهاد أن لا يقتل هذا الجمع العظيم من قواعد الدين برجل واحد احدث احداثاً نقموها عليه وقتلوه لأجلها. والزور الزائرون، وافرد ضميره، نظراً الى افراد اللفظ، وقيل: هو مصدر. وبالله التوفيق.

١٠ ـ ومن كتاب له (عليه السلام) إلى معاوية

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلاَبِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا؛ دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا. وَإنَّهُ يُوشِكُ أنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لاَ يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ، فَاقْعَسْ عَنْ هٰذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلاَ تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ؛ وَإلاَّ تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوُلاَةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ، بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلاَ شَرَفٍ بَاسِقٍ؛ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ! وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ الْعَلاَنِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ.

وَقَدْ دَعَوْتَ إلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ لِيُعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ، وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ، فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ، وَخَالِكَ وَأَخِيكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذٰلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذٰلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي! مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلاَ اسْتَحْدَثْتُ نَبِياً؛ وَإنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِعُثْمَانَ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالأَثْقَالِ، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي ـ جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ـ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ.

أقول: أوّل هذا الكتاب: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان سلام على من اتّبع الهدى فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد فإنّك رأيت من الدنيا وتصرّفها بأهلها فيما مضى منها، وخير ما بقي من الدنيا ما أصاب العباد الصادقون فيما مضى منها، ومن يقس الدنيا بشأن الآخرة يجد بينهما بوناً بعيداً. واعلم يا معاوية أنّك قد ادّعيت أمراً لست من أهله لا في القدم ولا في البقيّة ولا في الولاية ولست تقول فيه بأمر بيّن يعرف لك فيه أثر ولا لك عليه شاهد من كتاب الله ولا عهدتدّعيه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. ثمّ يتّصل بقوله: فكيف أنت. الفصل.

والجلباب: الملحفة. وتبهّجت: تحسّنت وتزيّنت. ويوشك بالكسر: يقرب. ووقفه على ذنبه. أي اطّلعه عليه. والمجنّ: الترس. ويروى: منج. وقعس: أي تأخّر. والأهبة: العدّة وهو ما يهيّأ للأمر ويستعدّ به له. وشمّر ثوبه: رفعه. والإغفال: الإهمال والترك. والمترف: الذي أطغته النعمة. والباسق: العالي. والتمادي في الأمر: تطويل المدّة فيه. والغرّة: الغفلة. والأمنيّة: ما يتمنّى. والرين: الغلبة والتغطية، والمرين على قلبه: من غلبت عليه الذنوب وغطّت عين بصيرته الملكات الرديئة. والشدخ: كسر الشيء الأجوف. والثائر: الطالب بالدم. والضجيج: الصياح. والحائدة: العادلة.

وقد استفهم عن كيفيّة صنعه عند مفارقة نفسه لبدنه استفهام تنبيه له على غفلته عمّا وراءه من أحوال الآخرة وتذكيراً بها. واستعار لفظ الجلابيب للّذات الحاصلة له في الدنيا بمتاعها وزينتها. ووجه الاستعارة كون تلك اللّذّات ومتعلّقاتها أحوال ساترة بينه وبين إدراك ما وراءه من أحوال الآخرة مانعة له من ذلك كما يستر الجلباب ما وراءه، ورشّح الاستعارة بذكر

التكشّف، ولفظ ـ ما ـ مجمل بيّنه بقوله: من دنيا مع سائر صفاتها وهي تحسّنها وزينتها وأسند إليها التبهّج مجازاً. إذ الجاعل لها ذات تبهّج ليس نفسها بل الله تعالى. وفي قوله: وخدعت. مجاز في الإفراد والتركيب أمّا في الإفراد فلأنّ حقيقة الخدعة أن يكون من إنسان لغيره فاستعملها هيهنا في كون الدنيا بسبب ما فيها من اللذات موهمة لكونها مقصودة بالذات وأنها كمال حقيقي مع أنّها ليست كذلك وذلك يشبه الخدعة، وأمّا في التركيب فلأنّ كونها موهمة لذلك ليس من فعلها بل من أسباب اخرى منتهى إلى الله سبحانه. وكذلك التجوّز في قوله: دعتك وقادتك وأمرتك فإنّ الدعاء والقود والأمر لها حقائق معلومة لكن لمّا كانت تصوّرات كمالها أسباباً جاذبة لها أشبهت تلك التصوّرات الدعاء في كونها سبباً جاذباً إلى الداعي فأطلق عليها لفظ الدعاء، وكذلك أطلق على تلك التصوّرات لفظ القود والأمر باعتبار كونها أسباباً مستلزمة لاتّباعها كما أنّ الأمر والقود يوجبان الاتّباع، وأمّا في التركيب فلأنّ تلك التصوّرات التي أطلق عليها لفظ الدعاء والقود والأمر مجازاً ليس فاعلها وموجبها هو الدنيا بل واهب العلم، ولمّا كانت إجابة الدنيا واتّباعها وطاعتها معاصي يخرج الإنسان بها عن حدود الله ذكرها في معرض توبيخه وذمّه.

وقوله: وإنّه يوشك.

تذكير بقرب اطّلاعه على ما يخاف من أهوال الآخرة والوصول إليه اللازم عن لزوم المعاصي وهو في معرض التحذير له والتنفير عن إصراره على معصية الله بادّعائه ما ليس له: أي يقرب أن يطّلعك مطّلع على ما لا بدّ لك منه ممّا تخاف من الموت وما تستلزمه معاصيك من لحوق العذاب، وظاهر أنّ تلك أمور غفلت عنها العصاة في الدنيا ما داموا في حجب الأبدان فإذا نزعت عنهم تلك الحجب اطّلعوا على ما قدّموا من خير أو شرّ وما أعدّ لهم بسبب ذلك من سعادة أو شقاوة كما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً**﴾ الآية وقد مرّت الإشارة إلى ذلك غير مرّة. وذلك المطّلع والموقف هو الله سبحانه. ويحتمل أن يريد

به نفسه عليه السلام على سبيل التوعيد له والتهديد بالقتل المستلزم لذلك الاطّلاع إن دام على غيّه، وظاهر أنّ تلك الامور التي تقف عليها لا ينجيه منها منج. ثمّ أردف ذلك التوبيخ والتهديد بالغرض له منهما وهو أمره بالتأخر عن أمر الخلافة. ثمّ أردف ذلك بما يستلزم التخويف والتهديد فأمره بأخذ الأهبة للحساب والاستعداد له بعدّته وهي طاعة الله وتقواه ومجانبة معاصيه، وبالتشمير لما قد نزل به. وكنّى بالتشمير عن الاستعداد أيضاً. وما نزل به إمّا الموت أو القتل وما بعده تنزيلاً لما لا بدّ من وقوعه أو هو في مظنّة الواقع منزلة الواقع، ويحتمل أن يريد الحرب التي يريد أن يوقعها به. ثم نهاه عن تمكين الغواة من سمعه، وكنّى به عن إصغائه إليهم فيما يشيرون به عليه من الآراء المستلزمة للبقاء على المعصية. إذ من شأن الغاوي الإغواء. والغواة كعمرو بن العاص ومروان ومن كان يعتضد به في الرأي.

وقوله: وإلّا تفعل.

أي إن لم تفعل ما آمرك به أعلمك ما تركت من نفسك. ومفعول تركت ضمير ـ ما ـ.

وقوله: من نفسك.

بيان لذلك الضمير وتفسير له. وإغفاله لنفسه تركه إعدادها بما يخلصه من أهوال الحرب وعذاب الآخرة وهو ملازمة طاعة الله واقتناء الفضائل النفسانيّة، ويفهم من ذلك الإعلام الذي توعدّ به الإعلام بالفعل فإنّ مضايقته بالحرب والقتال يستلزم إعلامه ما أغفل من نفسه من طاعة الله المستلزمة للراحة.

وقوله: فإنّك. إلى قوله: الدم.

وصف له بمذام يستلزم إعلامه بالفعل [بالقول خ] ما أغفل من زمنه. فالترف مستلزم لتجاوز الحدّ الذي ينبغي ويتركه وذلك الحدّ فضيلة تحت العفّة يكون الشيطان قد أخذ منه مأخذه وبلغ فيه أمله وجرى منه مجرى الروح والدم في القرب يستلزم وصفه بكلّ الرذائل المستلزمة أضدادها من

الفضائل. ثمّ أخذ في استفهامه عن وقت كون بني أميّة ساسة الرعيّة وولاة أمر الأمّة استفهاماً على سبيل الإنكار لذلك والتقريع بالخمول والقصور عن رتبة الملوك والولاة، والقدم السابق كناية عن التقدّم في الأمور والأهليّة لذلك. ونبّه بقوله: بغير قدم سابق على أنّ سابقة الشرف والتقدّم في الأمور شرط لتلك الأهلية في المتعارف وهو في قوّة صغرى ضمير من الشكل الأوّل تقديرها: وأنتم بغير قدم سابق. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فليس بأهل لسياسة الرعيّة وولاة أمر الأمّة. ينتج أنّكم لستم أهلاً لذلك. وهو عين ما استنكر نقيضه. وظاهر أنّهم لم يكن فيهم من أهل الشرف أهل لذلك. ثمّ استعاذ من لزوم ما سبق في القضاء الإلهي من الشقاء تنبيهاً على أنّ معاوية في معرض ذلك وبصدده لما هو عليه من المعصية وتنفيراً له عنها. ثمّ حذّره من أمرين:

أحدهما: تماديه في غفلة الأطماع والأماني الدنيويّة.

والثاني: كونه مختلف العلانية والسريرة. وكنّى بذلك عن النفاق. ووجه التحذير ما يستلزمانه من لزوم الشقاء في الآخرة. وقد كان معاوية دعاه إلى الحرب وأجابه بجواب مسكت، وهو قوله: فدع الناس. إلى قوله: ثائراً بعثمان وانتصب ـ جانباً ـ على الظرف، وإنّما جعل مبارزته له سبباً لعلمه بأنّه مغطّى على قلبه وبصر بصيرته بحجب الدنيا وجلابيب هيئاتها لما أن من لوازم العلم بأحوال الآخرة وفضلها على الدنيا الثبات عند المبارزة في طلبها وإن أدّى إلى القتل حتى ربّما تكون محبّة القتل من لوازم ذلك العلم أيضاً وقد كان عليه السلام يعلم من حاله أنّه لا يثبت له محبّةً للبقاء في الدنيا فلذلك دعاه إلى المبارزة ليعلمه بإقدامه عليه وفراره منه أنّه ليس طالباً للحقّ وطريق الآخرة في قتاله وأنّ حجب الشهوات الدنيويّة قد غطّت عين بصيرته عن أحوال الآخرة وطلبها فكان فراره منه مستلزماً لعدم علمه بالآخرة المستلزم للرين على قلبه وعلامةً دالّة عليه، وفي ذلك تهديد وتحذير، وكذلك اعتزائه له وانتسابه، وتذكيره بكونه قاتل من قتل من أهله شدخا يوم بدر في معرض التخويف والتحذير له أن يصيبه ما أصابهم إن أصرّ على المعصية. وجدّه المقتول هو جدّه لأمّه عتبة ابن أبي ربيعة فإنّه كان أبا هند، وخاله الوليد بن عتبة، وأخوه

حنظلة بن أبي سفيان. فقتلهم جميعاً عليه السلام يوم بدر، وكذلك تذكيره ببقاء ذلك السيف والقلب معه يلقى بهما عدّوه وبكونه لم يستبدل ديناً ولا نبيّاً وأنّه على المنهاج الذي تركوه طائعين ودخلوه مكرهين وهو طريق الإسلام الواضحة كلّ ذلك في معرض التخويف والتحذير والتوبيخ بالنفاق. ثمّ أشار إلى الشبهة التي كانت سبباً لثوران الفتن العظيمة وانشعاب أمر الدين وهي شبهة الطلب بدم عثمان التي كانت عمدته في عصيانه وخلافه، وأشار إلى الجواب عنها بوجهين:

أحدهما: أنّه عليه السلام ليس من قتلة عثمان فلا مطالبة عليه وإنّما تتوجّه المطالبة على قاتليه وهو يعلمهم.

الثاني: المنع بقوله: إن كنت طالباً. فإنّ إيقاع الشكّ هنا بإن يستلزم عدم تسليم كونه طالباً بدم عثمان. ثمّ عقّب بتخويفه بالحرب وما يستلزمه من الثقل إلى الغاية المذكورة. وهيهنا ثلاثة تشبيهات:

أحدها: المدلول عليه بقوله: فكأنّي قد رأيتك والمشبّه هيهنا نفسه عليه السلام في حال كلامه هذا، والمشبّه به هو أيضاً نفسه لكن من حيث هي رأته رؤية محققة.

وتحقيق ذلك أنّ نفسه لكمالها واطّلاعها على الأمور التي ستكون كانت مشاهدة لها ووجه التشبيه بينهما بالقياس إلى حالتيها جلاء المعلوم وظهوره له في الحالتين.

الثاني: قوله: تضجّ ضجيج الجمال بالأثقال، ووجه الشبه شدّة تبرّمه وضجره من ثقله كشدّة تبرّم الجمل المثقل بالحمل. وضجيجه كناية عن تبرّمه. واستعار لفظ العضّ لفعلها ملاحظة لشبهها بالسبع العقور، ووجه المشابهة استلزام تلك الأثقال للألم كاستلزام العضّ له.

الثالث: قوله: وكأنّي بجماعتك. والمشبّه هنا أيضاً نفسه والمشبّه به ما دلّت عليه بالإلصاق كأنه قال: كأني متّصل او ملتصق بجماعتك حاضر معهم. ومحلّ يدعوني النصب على الحال، والعامل ما في كان من معنى الفعل:

أي أشبّه نفسي بالحاضر حال دعائهم له. وجزعاً مفعول له. وتجوّز بلفظ القضاء في المقضيّ من الأمور التي توجد عن القضاء الإلهي لاسم السبب على المسبّب.

وقوله: ومصارع بعد مصارع.

والمصرع هنا مصدر: أي جزعاً من مصارع يلحق بعضهم بعد بعض أو تلحقهم بعد مصارع آبائهم السابقة. وقد كان اطّلاعه عليه السلام على دعائهم له إلى كتاب الله قبل وقوعه من آياته الباهرة. والواو في قوله: وهي. للحال والعامل فيه يدعونني. والكافرة الجاحدة للحقّ من جماعته إشارة إلى المنافقين منهم وقد كان فيهم جماعة كذلك، والمبايعة الحائدة الذين بايعوه وعدلوا عن بيعته إلى معاوية. والسلام.

١١ - ومن وصية له (عليه السلام)

وصى بها جيشاً بعثه الى العدو

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ ٱلْأَشْرَافِ، وَسِفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الأَنْهَارِ؛ كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً وَدُونَكُمْ مَرَدّاً، وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ ٱثْنَيْنِ، وَٱجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ؛ لِئَلَّا يأْتِيكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ٱرْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً، وَإِذا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً.

أقول: وهذا الفصل ملتقط من كتاب كتبه عليه السلام إلى زياد بن النضر الحارثي حين سرّحه على مقدّمته إلى الشام من النخيلة لمّا أراد الخروج من الكوفة إليها، وكان قد بعث معه شريح بن هاني واختلفا فكتب كلّ منهما إليه يشكو من صاحبه فكتب عليه السلام إليهما: أمّا بعد فإنّي ولّيت زياد بن النضر مقدّمتي وأمّرته عليها، وشريح على طائفة منها أمير فإن جمعكما بأس فزياد على الناس وإن افترقتما فكلّ واحد منكما أمير على الطائفة التي ولّيته عليها.

واعلما أنّ مقدّمة القوم عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم فإذا أنتما خرجتما من بلادكما ودنوتما من بلاد عدوّكما فلا تسكنا من توجيه الطلائع ونفّض الشعاب والشجر والخمر في كلّ جانب كيلا يغترّكما عدوّ أو يكون لهم كمين ولا تسيرا الكتائب إلّا من لدن الصباح إلى المساء إلّا على تعبية فإن دهمكم دهم أو غشيكم مكروه كنتم قدتقدّمتم في التعبية. ثمّ يتّصل بقوله: فإذا نزلتم.

إلى قوله: أو أمن. ثمّ يتّصل بقوله: وإيّاكم والتفرّق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً وإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفّوا عسكركم بالرماح والترسة، ورماتكم تكون ترستكم ورماحكم وما أقمتم فكذلك فافعلوا كيلا يصاب لكم غفلة ولا يلقى لكم غرّة فما من قوم يحفّون عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلّا كأنّهم في حصون، واحرسا عسكركما بأنفسكما وإيّاكما أن تذوقا النوم حتى تصبحا إلّا غراراً أو مضمضمة. ثمّ ليكن ذلك شأنكما ورأيكما إلى أن تنتهيا إلى عدوّكما وليكن عندي كلّ يوم خبركما ورسول من قبلكما فإنّي ولا شيء إلّا ما شاء الله حثيث السير في آثاركما. وعليكما في حربكما بالتؤودة. وإيّاكما والعجلة إلّا أن تمكّنكما فرصة بعد الإعذار والحجّة، وإيّاكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما إلّا أن تبدئا أو يأتيكما أمري إن شاء الله، ولنرجع إلى الشرح فنقول:

العين: الجاسوس. وطليعة الجيش: الذي يبعث ليطّلع على العدوّ. ونفض الشعاب: استقراؤها. والخمر: ما واراك من شجر أو جبل ونحوهما. والكمين: الواحد أو الجمع يستخفون في الحرب حيلة للإيقاع بالعدوّ. والكتيبة: الجيش. وتعبيته: جمعه وإعداده. والدهم: العدد الكثير. والمعسكر ـ بفتح الكاف ـ موضع العسكر. والأشراف: جمع شرف بفتح الراء وهو المكان العالي. وقبلها ـ بضمّتين أو ضمة وسكون ـ: هو قدّامها. وسفح الجبل: أسفله حيث يسفح فيه الماء. وأثناء الأنهار: جمع ثني وهو منعطفها [منقطعها خ] والردء: العون في المقاتلة. والرقباء: الحفظة على صياصي الجبال وهي أعاليها وأطرافها. والهضاب: جمع هضبة وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض. وكفّة بالكسر: أي مستديرة. والغرار: النوم القليل.

والمضمضة: حركة النعاس في العين وهو كناية عن قلّة النوم أيضاً. والترسة: جمع ترس.

واعلم أنّ صدر الكتاب ظاهر إلّا أنّ فيه نكتة وهي أنّه كرّر لفظ إلّا عقيب النهي عن تسيير الكتائب وهما يفيدان الحصر أمّا الأولى فتفيد حصر السير في الوقت المشار إليه، وأمّا الثانية فتفيد حصره في حال التعبية. وفي هذا الكتاب من تعليم كيفيّة الحرب قوانين كلّيّة عظيمة النفع يستلزم استعمالها الظفر بالعدوّ وتفصح عن تكذيب من ادّعى أنّه لا علم له بالحرب كما حكاه عليه‌السلام عن قريش فيما مضى، وفي هذا الفصل جملة منها:

أحدها: أن يختاروا لمعسكرهم عند منازلة العدوّ قدّام الأماكن العالية وسفاح الجبال وأثناء الأنهار. وكشف عن العلّة في ذلك ووجه المصلحة فيه بقوله: كيما يكون ردءاً لهم: أي تكون هذه الأماكن حافظة لكم من ورائكم مانعة من العدوّ أن يأتيكم من تلك الجهة وبذلك كانت معينة.

الثاني: أن يكون مقاتلتهم من وجه واحد فإن لم يكن فمن وجهين حيث يحفظ بعضهم ظهر بعض، وسرّه أنّه يستلزم البقاء على الجمعيّة، وأمّا المقاتلة من وجوه كثيرة فمستلزمة للتفرّق والضعف.

الثالث: أن يجعلوا لهم حفظة في الأماكن العالية وعلّته ما ذكر وهو أن لا يأتيهم العدوّ من مكان يخافون منهم، أو يأمنون على غرّة وغفلة من الاستعداد له.

الرابع: أن يعلموا أنّ مقدّمة القوم عيون لهم وعيون المقدّمة طلائعهم فلا يهملوا التأهبّ عند رؤية المقدّمة والطليعة وإن قلّ عددهم لأنّ رؤيتهم ممّا تشعر بهجوم العدوّ وقربه.

الخامس: التحذير من التفرّق، ومن لوازمه الأمر بالاجتماع حالتي النزول والارتحال، وسرّه ظاهر.

السادس: أن يجعلوا الرماح مستديرة عليهم وأن لا يستغرقوا في النوم كما يفعله القارّ المطمئنّ. وسرّهما الحراسة والتحفّظ خوف هجوم العدوّ على الغرّة وحال النوم.

١٢ ـ ومن وصية له (عليه السلام)
لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له

اتَّقِ ٱللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ ٱللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَا ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ؛ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ ٱللهِ، فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْشِبَ الْحَرْبَ، وَلَا تَبَاعَدْ مِنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ والإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

أقول: روي أنّه عليه السلام بعثه من المدائن في ثلاثة ألف وقال له: امض على الموصل حتى توافيني بالرقّة. ثمّ قال له اتّق الله. الفصل. فخرج حتى أتى الحديثة وهي إذ ذاك منزل الناس إنّما بنا الموصل بعد ذلك محمّد ابن مروان. ثمّ مضوا حتى لقوه عليه السلام بالرقّة.

والبردين: الغداة والعشيّ. وكذلك الأبردان. والتغوير القيلولة، وغوّر: أي نزَل في الغائرة وهي القائلة ونصف النهار. والترفيه: الإراحة. والسكن: ما يسكن فيه وإليه. والظعن: الإرتحال. والانبطاح: الاتّساع والانبساط. وأنشبت الشيء بالشيء: علقته به. والشنئان: البغض والعداوة.

ولمّا كان معقل بن قيس متوجّه للسفر إلى الله تعالى في جهاد أعدائه أمره بتقواه الذي هو خير زاد في الطريق إليه: وفي قوله: الذي لا بدّ لك من لقائه ولا منتهى لك دونه فوائد:

إحديها: جذبه إلى التقوى بالتخويف من لقاء الله.

الثانية: تسهيل الجهاد عليه فإنّه لمّا كان معتقداً أنّ الجهاد طاعة مقرّبة إلى الله تعالى أشعره بوجوب لقائه ليستعدّ بتلك الطاعة التي هو بصددها لما

يضطرّ إليه من لقائه.

الثالثة: أنّه أمره بتقوى الله وخوّفه بضرورة لقائه تعالى ليكون اسرع الى ما يأمره به وينهاه عنه من الأمور المذكورة في وصيّته. فمنها: أن لا يقاتل إلاّ من قاتله فإنّ قتال غير المقاتل ظلم، ومنها: أن يسير طرفي النهار لبردهما ويغوّر في وسطه لما يستلزمه القايلة من شدّة الحرّ والمتاعب فيه، وأن يرفّه في السير ليلحق الضعيف القويّ ولا يظهر التعب على الناس لحاجتهم إلى فضل القوّة والاستجمام، وأن لا يسير في أوّل الليل لأنّ الله جعله سكناً ومناماً يستراح فيه من المتاعب ويسكن إليه بعد النفرة من أن يجعله محلّ الظعن، وأمره أن يريح فيه بدنه ويروّح ظهره: أي خيله، وأطلق عليه لفظ الظعن، مجازاً إطلاقاً لاسم المظروف على الظرف، وأن يجعل سيره بعد وقوفه في ليله حين ينبطح السحر أو حين ينفجر الفجر لأنّها مظنّة طيب السير، وأن يقف من أصحابه عند لقاء العدوّ وسطاً ليكون نسبة الطرفين في الرجوع اليه والاستمداد بسماع آوامره على سواء. ومن النواهي أن لا يدنو من القوم دنّواً قريباً يشعرهم بإرادة إيقاع الفتنة ليكون أعذر عند الله وإلى القوم في دعائهم إلى الحقّ، ولا يتباعد عنهم تباعداً يشعر بخوفه ورهبته من عدوّه لئلاّ يطمع فيه العدوّ. وضرب له في هذين النهيين غاية هي ورود أمره عليه بأحدهما، وأن لا يحملهم بغضهم وعداوتهم على قتالهم قبل دعائهم إلى الإمام الحقّ والإعذار إليهم بذلك فيكون قتالهم على ذلك الوجه لغير الله بل بمجرّد الهوى والعداوة فيخرج عن كونه طاعة. وبالله التوفيق.

١٣ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أميرين من أمراء جيشه

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الحَارِثِ الأَشْتَرِ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَاجْعَلاَهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً؛ فَإِنَّهُ مِمَّنْ لاَ يُخَافُ وَهْنُهُ، وَلاَ سَقْطَتُهُ، وَلاَ بُطْؤُهُ عَمَّاالإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلاَ إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

أقول: الأميران المشار إليهما هما زياد بن النضر وشريح بن هاني،

وذلك أنّه حين بعثهما على مقدّمة له في اثني عشر ألفاً التقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام فكتبا إليه يعلمانه بذلك. فأرسل إلى الأشتر فقال له ما قال: إنّ زياد بن النضر وشريحا أرسلا إليّ يعلماني أنّهما لقيا أبا الأعور في جند من أهل الشام بسور الروم فنبّأني الرسول أنّه تركهم متوافقين فالتجىء لأصحابك التجاءً فإذا أتيتهم فأنبهم [فأنت عليهم خ]. عليهم، وإيّاك أن تبدء القوم بقتال إلّا أن يبدؤوك حتى تلقاهم وتسمع منهم ولا يجرمنّك شنئانهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار اليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف من أصحابك وسطاً ولا تدن منهم دنوّ من يريد أن ينشب الحرب ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك فإنّي حثيث السير إليك إنشاء الله، وكتب إليهما عليه السلام: أمّا بعد فإنّي أمّرت عليكما. الفصل.

والسقطة: الزّلة. والجزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بأولى الآراء وأقواها إلى الصواب. والأمثل: الأقرب إلى الخير. وقد أمرهما بأوامر: منها أن يسمعا أمر أميرهما فيما يراه أصلح، وأن يطيعا أمره في ذلك ليكون به نظام أمورهم في لقاء عدوّهم المستلزم لظفرهم، وأن يجعلاه درعا ومجنّا في الحرب والرأي فإنّه ممّن لا يخاف ضعفه في حرب ولا زلّته في رأي ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم وأولى بالرأي من الأفعال ولا إسراعه فيما البطؤ عنه أولى بالتدبير وأقرب إلى الخير بل يضع كلّ شيء موضعه. ولفظ الدرع والمجنّ مستعاران باعتبار وقايته لهم من شرّ عدوّهم كما يقي الدرع والمجنّ صاحبهما. وبالله التوفيق.

١٤ ـ ومن وصية له (عليه السلام) لعسكره قبل لقاء العدو بصفين

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ ـ بِحَمْدِ آللهِ ـ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخرى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ آللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذىً، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ؛ فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوى

وَٱلأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجلُ لَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهَرَاوَةِ، فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

أقول: روي أنّه عليه السلام كان يوصي أصحابه في كلّ موطن يلقون العدوّ فيه بهذه الوصيّة.

الهزيمة: الهرب. وأعور الصيد: أمكن من نفسه، وأعور الفارس: ظهر فيه موضع خال للضرب. فهو معور. وأجهز على الجريح: قتله. وأهجت الشيء: أثرته. والفهر: الحجر المستطيل الأملس. والهراوة: خشبة كالدبوس. والعقب: الولدذكراً وأنثى.

وقد وصىّ في هذا الفصل بأمور:

أحدها: ان لا يقاتلوهم إلى أن يبدؤوهم بالقتال، وأشار إلى أنّ ذلك يكون حجّة ثانية عليهم وأومى بالحجّة الأولى إلى قوله تعالى: ﴿**فإن بغت إحديهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾(1) وظاهر أنّ هؤلاء بغاة على الإمام الحقّ فوجب قتالهم.

وأمّا الثانية: فهي تركهم حتى يبدؤوا بالحرب. وبيان هذه الحجّة من وجهين:

أحدهما: أنّهم إذا بدؤوا بالحرب فقد تحقّق دخولهم في حرب الله وحرب رسوله لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: حربك يا عليّ حربي. ومحقّق سعيهم في الأرض بالفساد بقتلهم النفس التي حرّم الله ابتداء بغير حقّ وكلّ من تحققّ دخوله في ذلك دخل في عموم قوله تعالى: ﴿**إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله**﴾(2) الآية.

الثاني: أنّ البادي بالحرب معتد ابتداءاً. وكلّ معتد كذلك فيجب

---

(1) ٤٩ - ٩.
(2) ٥ - ٣٧.

الاعتداء عليه لقوله تعالى: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه**﴾ الآية فوجب الاعتداء عليهم إذا بدؤوا بالحرب.

الثالث: وصّاهم على تقدير وقوع الهزيمة منهم بإذن الله أن لا يقتلوا مدبراً: أي مولّياً هارباً ولا يصيبوا معوراً، وهو الذي أمكنتهم الفرصة في قتله بعد انكسار العدوّ كالمعور من الصيد. وقيل: أراد بالمعور المريب وهو الذي وقع فيه الشكّ أنّه محارب أم لا: أي لا تقتلوا إلاّ من علمتم أنّه محارب لكم.

الرابع: أن لا تجهزوا على جريح. وهذه الأمور الأربعة المنهيّ عنها هيهنا هي من أحكام الكفّار حال الحرب. ففرّق عليه‌السلام بين هؤلاء البغاة وبينهم فيها وإن أوجب قتالهم وقتلهم، ويلحق بذلك من أحكامهم ما نقله نضر ابن مزاحم تماماً لهذا الفصل بعد قوله: ولا تجهزوا على جريح: ولا تكشفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً إلاّ بإذن ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم. ثمّ يتّصل بقوله: ولا تهيجوا النساء، والمراد بذلك أن لا تثيروا شرورهنّ بأذى وإن بلغن الغاية المذكورة من شتم الأعراض وسبّ الأمراء، وعلّل أولويّة الكفّ عنهنّ بكونهنّ ضعيفات القوى. أي ضعيفات القدر عن مقاومة الرجال وحربهم. وسلاح الضعيف والعاجز لسانه، وبكونهنّ ضعيفات الأنفس: أي لا صبر لنفوسهنّ على البلاء فيجتهدن في دفعه بما أمكن من سبّ وغيره، وبكونهنّ ضعيفات العقول: أي لا قوّة لعقولهنّ أن يرين عدم الفائدة في السبّ والشتم وأنّه من رذائل الأخلاق وأنّه يستلزم زيادة الشرور وإثارة الطبايع التي يراد تسكينها وكتمها.

وقوله: وإن كنّا. إلى آخره.

تنبيه على الأمر بالكفّ عنهنّ لأنّه إذا أمر بالكفّ عنهنّ حال كونهنّ مشركات ففي حال إظهارهنّ الإسلام أولى. والواو في وإنهنّ للحال.

وقوله: وإن كان الرجل. إلى آخره.

تنبيه على ما في أذاهنّ من المفسدة وهي السمة اللازمة لفاعله في حالتي حياته وبعد وفاته، وذلك تنفير عن أذاهنّ في معرض النهي عنه وتناولها

بالفهر والهراوة كناية عن ضربها بهما، ـ وإن ـ في قوله: وإن كنّا، وفي قوله: وإن كـان. هي المخفّفة من الثقيلة وتلزم الـلام خبـرها فـرقـاً بينهـا وبين إن النافية.

١٥ ـ وكان يقول (عليه السلام) إذا لقى العدو محاربا:

اللّهُمَّ إلَيْـكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَمُـدَّتِ الْأَعْنَـاقُ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَـارُ، وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ.

اللّهـمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْتُومُ الشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الأضْغَانِ.

اللّهُمَّ إنَّا نَشْكُو إلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ).

أقول: روي أنّه عليه السلام كان إذا اشتدّالقتال ذكر اسم الله حين يـركب. ثمّ يقول: الحمد لله على نعمه علينا وفضله العميم، سبحان الذي سخّر لنا هـذا ومـا كنّا لـه مقرنين، وإنّـا إلى ربّنا لمنقلبـون. ثمّ يستقبل القبلة ويـرفع يـديـه ويقـول: اللّهم إليك نقلت الأقـدام. الفصل. إلى قـوله: خيـر الفاتحين. ثمّ يقول: سيروا على بركة الله. ثمّ يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله والله أكبر يا الله يا أحد يا صمد يا ربّ محمّد بسم الله الرحمٰن الرحيم ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم إيّاك نعبـد وإيّاك نستعين اللّهمّ كفّ عنّا أيـدي الظالمين فكان هذا شعاره بصفّين.

وأفضت القلوب: خرجت اليه عن كل شيء ووصلت اليه خالصة سرّها. وشخوص البصر: ارتفاعه نحو الشيء بحيث لا يطرف. وإنضاء الأبدان: هزالها. وصـرّح: ظهر، وهـو فعل لازم. والشنئـان: العـداوة والبغضـاء. ومكتـومـه: المستـور منه. والمـراجل: القـدور. وجيشها: غليـانهـا. والضغن: الحقـد. وافتح: أي احكم. والفاتح: الحاكم.

ولمّا كان مراده عليه السلام جهاداً خـالصاً لله وعبـادة له، ومن كمـال العبادات أن تشفع بذكر الله وتوجيه السرّ إليه. إذ كان ذلك هو سـرّ العبادة وفـائدتهـا لا جرم كان دأبه في جهاده التضرّع والالتفات إلى الله بهذا الفصل وأمثاله مـع ما

يستلزمه من طلب النصر والإعداد له. فأشار بإفضاء القلوب إلى الإخلاص له في تلك الحال، وبمدّ الأعناق وشخوص الأبصار إلى ما يستلزمه الإخلاص من الهيئات البدنيّة، وبنقل الأقدام وإنضاء الأبدان إلى أنّ ذلك السفر وما يستلزمه من المتاعب إنّما هو لوجهه وغاية الوصول إلى مرضاته، وأشار إلى علّة قتالهم له في معرض الشكاية إلى الله تعالى وهي تصريحهم بما كان مستقرّاً في صدورهم في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من العداوة والبغضاء ولجيش أضغانهم السابقة ممّا فعل بهم ببدر وأحد وغيرهما من المواطن. فلفظ المراجل مستعار ووجه المشابهة غليان دماء قلوبهم عن الأحقاد كغليان المراجل، ولفظ الجيش ترشيح. ثمّ لمّا كانت غيبة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وفقده هو السبب الذي استلزم تصريح الشنئان وظهور الأضغان وكثرة العدوّ وتفرّق الأهواء لا جرم شكى إلى الله من تحقّقها وما يستلزمه من هذه الشرور. ثمّ سأله أن يحكم بينه وبينهم بالحقّ اقتباساً من القرآن الكريم؛ لما أنّ إيقاع الحكم الحقّ بينهم يستلزم نصرته عليهم وظفره بهم. إذ كان هو المحقّ في جهاده وبالله التوفيق.

١٦ ـ وكان (عليه السلام) يقول لأصحابه عند الحرب

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا، وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا، وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ!!

أقول: الفرّة: المرّة من الفرار. والكرّة: الفعلة من الكرّ وهو الرجوع على العدوّ. والجولة: الدورة. والمصارع: مواضع الصرع للقتلى. وذمرته أذمره: أي حثثته. والدعسيّ: منسوب إلى الدعس وهو الأثر. والطلحف: الشديد. والياء للمبالغة. والنسمة: الخلق.

وقوله: لا تشتدّنّ عليكم إلى قوله: حملة.

أي إذا رأيتم في فراركم مصلحة في خدعة العدوّ كالجذب له بذلك حيث يتمكن منه وتقع الفرصة فتكروا عليه حينئذ فلا تشتدّن عليكم الفرة، ووجه الشدّة هنا أنّ الفرار بين العرب صعب شديد لما يستلزمه من العار والسّبة. فأشار إلى وجه تسهيله عليهم بأنّه إذا كان بعده كرّة فلا بأس به لما فيه من المصلحة، ويحتمل أن يريد أنّكم إذا اتّفق لكم إن فررتم فرّة عقّبتموها بكرّة فلا تشتدّنّ عليكم تلك الفرّة فتنفعلوا وتستحيوا فإن تلك الكرّة كالماحية لها. وفيه تنبيه على الأمر بالكرّة على تقدير الفرّة، وكذلك قوله: ولا بجولة بعدها حملة. ويحتمل أن يريد فلا تشتدّنّ عليكم فرّة من عدوّكم بعدها كرّة منه عليكم فإنّ تلك الكرّة لمّا كانت عقيب الفرّة لم تكن إلاّ عن قلوب مدخولة ونيّات غير صحيحة. وإنّما قدّم الفرّة في هذا الاحتمال لأنّ مقصوده تحقير تلك الكرّة بذكر الفرّة، وكان ذكرها أهمّ فلذلك قدّمت، وكذلك قوله: ولا جولة بعدها حملة.

ثمّ أمرهم بأوامر:

أحدها: أن يعطوا السيوف حقوقها. وهو كناية عن الأمر بفعل ما ينبغي أن يفعل. ولفظ العطاء مستعار لما تصل إليه السيوف من الأفعال التي ينبغي أن تفعل بها.

الثاني: أن يوطنّوا لجنوبهم مصارعها: أي يتّخذوا مصارع جنوبهم أوطاناً لها. وهو كناية عن الأمر بالعزم الجازم على القتل في سبيل الله والإقدام على أهوال الحرب. إذ كان اتّخاذ المصارع أوطاناً للجنوب مستلزماً لذلك العزم والإقدام وروي: ووطّئوا ـ بالياء ـ.

الثالث: أن يحثّوا أنفسهم على الطعن الذي يظهر أثره والضرب الشديد: أي يحملوها على ذلك ويبعثوها بالدواعي الصادقة التي فيها رضى من تذكّر ما وعد الله عباده الصالحين.

الرابع: أن يميتوا الأصوات: أي لا يكثروا الصياح فإنّه من علامات الفشل فعدمه يكون علامة للثبات المنافي للجبن والصياح. وقد سبقت

الإشارة إلى ذلك. ثمّ أقسم بما يعتاده من القسم البارّ أنّ القوم لم يسلموا بقلوبهم حين أظهروا الإسلام في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بألسنتهم، ولكنّهم استسلموا خوفاً من القتل وأسرّوا الكفر فلمّا وجدوا عليه أعواناً أظهروه. وهو إشارة إلى المنافقين من بني أميّة كعمرو بن العاص ومروان ومعاوية وأمثالهم، وروي مثل هذا الكلام لعمّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ وبالله التوفيق.

١٧ ـ ومن كتاب له (عليه السلام) إلى معاوية، جواباً عن كتاب منه إليه

فَأَمَّا طَلَبُكَ إلَيَّ الشَّامَ، فَإنِّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ، وَأَمَّا قَوْلُكَ «إنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إلاَّ حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ» أَلاَ وَمَنْ أَكَلَهُ الحَقُّ فَإلَى الجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ البَاطِلُ فَإلَى النَّارِ. وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الآخِرَةِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ «إنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ» فَكَذٰلِكَ نَحْنُ، وَلٰكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلاَ حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلاَ أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلاَ الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلاَ الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلاَ الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلاَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ، وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفاً يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ ٱللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ إمَّا رَغْبَةً وَإمَّا رَهْبَةً عَلى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ فَلاَ تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلاَ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً.

أقول: روي أنّ معاوية استشار بعمرو بن العاص في أن يكتب إلى عليّ كتاباً يسأله فيه الشام فضحك عمرو وقال: أين أنت يا معاوية من خدعة عليّ؟. قال: ألسنا بني عبد مناف؟ قال: بلى ولكن لهم النبوّة دونك. وإن شئت أن تكتب فاكتب. فكتب معاوية اليه مع رجل من السكاسك يقال

له عبد الله بن عقبة: أمّا بعد فإنّي أظنّك لو علمت أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا، لم يحبّها بعض على بعض. وإنّا وإن كنّا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما يندم بها على ما مضى ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن لا يلزمني منك طاعة ولا بيعة وأبيت ذلك عليّ فأعطاني الله مامنعت وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فإنّك لا ترجو من البقاء إلّا ما أرجو ولا أخاف من القتل إلّا ما تخاف، وقد والله رقّت الأجناد وذهبت الرجال وأكلت الحرب العرب إلّا حشاشات أنفس بقيت، وإنّا في الحرب والرجال سواء ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل إلّا فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترّق به حرّ. والسلام فلمّا قرء علي عليه السلام كتابه تعجّب منه ومن كتابه ثمّ دعا عبد الله ابن أبي رافع كاتبه وقال له: اكتب اليه: أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أنّك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يحبّها بعض على بعض وأنا وإيّاك في غاية لم نبلغها بعد، وأمّا طلبك إليّ الشام. الفصل.

الحشاشة: بقيّة الروح. والطليق: الأسير الذي أطلق من أسره وخلّى سبيله. والصريح: الرجل خالص النسب. واللصيق: الدعيّ الملصق بغير أبيه. والمدغل: الذي اشتمل باطنه على فساد كنفاق ونحوه. وسلف الرجل: آباؤه المتقدّمون. وخلفه: من يجيء بعده. ونعشنا: رفعنا. والفوج: الجماعة.

وقد أجاب عليه السلام عن أمور أربعة تضمّنها كتاب معاوية:

أحدها: أنه استعطفه الى البقية واستدرجه لوضع الحرب بقوله: إنك لو علمت. الى قوله: ما بقي. وفيه إشعار بالجزع من عضّ الحرب والخوف من دوامها فأجابه عليه السلام بقوله: وأنا وإيّاك في غاية لم نبلغها بعد، ويفهم منه التهديد ببقاء الحرب الى الغاية منها وهي الظفر به وهلاكه وهو مستلزم لتخويفه والتهويل عليه ومنع ما طلب من وضع الحرب.

الثاني: أنّه سأل إقراره على الشام مع نوع من التشجّع الموهم لعدم الانفعال والضراعة، وذلك في قوله: وقد كنت سألتك الشام. إلى قوله: أمس.

وقوله: فإنّك لا ترجو. إلى قوله: ما نخاف.

إشارة إلى كونهما سواء في رجاء البقاء والخوف من القتل، ومقصود ذلك أن يوهم أنّه لا انفعال له عن تلك الحرب أيضاً.

وقوله: وأنا أدعوك إلى ما دعوتك إليه أمس.

أي من طلب إقراره على الشام. وذلك أنه عليه السلام حين بويع بالخلافة كان معاوية سأل منه إقراره على إمرة الشام، ونقل عن ابن عباس انه قال له عليه السلام: ولّه شهراً واعزله دهراً فإنه بعد أن يبايعك لا يقدر على ان يعدل في إمرته ولا بدّ أن يجور فتعزله بذلك. فقال عليه السلام: كلا وما كنت متخذ المضلين عضداً. وروي: أنّ المغيرة بن شعبة قال له عليه السلام: إنّ لك حقّ الطاعة والنصيحة أقرر معاوية على عمله والعمّال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وتبعة الجنود استبدلت أو تركت. فقال عليه السلام: حتى أنظر فخرج من عنده ثمّ عاد إليه من الغد فقال: إنّي أشرت عليك أمس برأي وإنّ الرأي أن تعاجلهم بالنزع فيعلم السامع من غيره ويستقلّ أمرك ثمّ خرج من عنده. فجاءه ابن عباس فأخبره بما أشار إليه المغيرة من الرأيين. فقال: أمّا أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشّك. وقد كان الرأي الدنياويّ الخالص في حفظ الملك ذلك لكنه عليه السلام لمّا لم يكن ليتساهل في شيء من أمر الدين أصلاً وإن قلّ وكان إقرار معاوية وأمثاله على الأعمال يستلزم العدول في كثير من تصرفاتهم عن سبيل الله لا جرم لم ير إقراره على العمل، ومنعه ما سأل. ولما كان منعه أولاً مما سأل منعاً خالصاً لله عن مشاركة الهوى والميول الطبيعية لم يكن سؤاله ثانياً واستعطافه إيّاه مقرّباً له إلى اجابته خصوصاً وقد أحدث تلك الحروب الشديدة التي أخذت من العرب ما أخذت وقتل من المهاجرين والانصار وسائر العرب من قتل؛ بل أجابه بعين ما أجابه أولا من الردّ والمنع في قوله: فلم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس. إذ العلّة في المنع قائمة في كل حين وزمان وهي المحافظة على دين الله.

الثالث: حفظ الرجال. والتبقية على الأجناد لحفظ الاسلام وتقويمه أمر واجب فلا جرم استعطفه واستدرجه الى التبقية عليهم بالتنبيه على ذلك بقوله:

وقد والله. إلى قوله: بقيت. فأجابه عليه السلام ألا ومن أكله الحقّ فإلى النار وهو كبرى قياس حذفت صغراه للعلم بها، وتقديرها: أنّ هؤلاء الأجناد الذين قتلناهم إنّما قتلهم الحقّ: أي كان قتلهم بحقّ لبغيهم. وتقدير هذه الكبرى: وكلّ من قتله الحقّ فمصيره إلى النار فينتج أنّ مصير من قتل من هؤلاء إلى النار. ثمّ هذه النتيجة تنبيه على الجواب وهي في قوّة صغرى قياس ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان من أهل النار فلا يجوز التبقية عليه ولا الأسف لفقده.

الرابع: أوهم بقوله: وإنّا في الحرب والرجال سواء. على أنّه ممّن لا ينفعل عن هذه الحروب وإن اشتدّت، وأنّ الضعف والهلاك إن جرى فعلى العسكرين. وفيه نوع تخويف وتهويل. فأجابه عليه السلام بقوله: فلست بأمضى. الى قوله: الآخرة، ووجه كون الأوّل جواباً أنّه يقول: إنّك في طلبك لما أنت طالب له على شكّ من استحقاقه وأنا على يقين في ذلك وكل من كان في شك من أمره فليس بأمضى في حربه وقيامه عليه ممّن هو على ثقة في أمره ينتج أنّك لست أمضى في أمرك على الشك مني على اليقين في أمري. ويفهم من ذلك أنه يقول: بل أنا أمضى في امري وأولى بالغلبة لكوني على بصيرة ويقين. وحينئذ تكذب المساواة بينهما لكون المتيقن أرجح في فعله من الشاكّ، ووجه كون الثاني جواباً أنّه يقول: إنّ أهل الشام يطلبون بقتالهم الدنيا وأهل العراق يطلبون بقتالهم الآخرة وليس أهل الشام بأحرص على مطلوبهم من الدنيا من أهل العراق على مطلوبهم من الآخرة. ويفهم من ذلك أنّه يقول: بل أهل العراق أحرص على الآخرة من أهل الشام على الدنيا لشرف الآخرة ولتيقّنهم حصولها، وانقطاع الدنيا وشكّ أهل الشام في حصولها كما قال تعالى: ﴿**فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون**﴾[1] وحينئذ تكذب المساواة في الحرب والرجال لشرف أهل الآخرة على أهل الدنيا ولكون الأحرص أولى بالغلبة والقهر.

الخامس: أنّه نبّه بقوله: ونحن بنو عبد مناف. إلى آخره على مساواته

---

(١) ٤ - ١٠٥.

له في الشرف والفضيلة وهو في قوّة صغرى قياس ضمير من الأوّل. وتقدير كبراه: وكلّ قوم كانوا من بيت واحد فلا فضل لبعضهم على بعض ولا فخر. فأجابه عليه السلام بالفرق بينهما بعد أن سلم له الاشتراك بينهما في كونهما من بني عبد مناف وذكر الفرق من وجوه خمسة بدء فيها بالأمور الخارجة أوّلا من كمالاته وفضائله ورذائل خصمه متدرجاً منها الى الأقرب فالأقرب.

فالأوّل: شرفه من جهة الآباء المتفرّعين عن عبد مناف، وذلك أنّ سلك آبائه عليه السلام أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وسلك آباء معاوية أبو سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد مناف، وظاهر أنّ كلّ واحد من أولئك الثلاثة أشرف ممّن هو في درجته من آباء معاوية. وقد ذكرنا طرفا من فضلهم على غيرهم.

الثاني: شرفه من جهة هجرته مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وخسّة خصمه من جهة كونه طليقاً وابن طليق. وهذه الفضيلة وإن كانت خارجيّة إلّا أنّها تستلزم فضيلة نفسانيّة وهي حسن الإسلام والنيّة الصادقة الحقّة، وكذلك ما ذكر من رذيلة خصمه بدنيّة عرضت له إلّا أنّ هذه الفضيلة والرذيلة أقرب من الاعتبارين الأوّلين لكونهما حقيقيتين بالآباء وهميّتين بالأبناء دون هاتين.

الثالث: وكذلك شرفه من جهة صراحة النسب وخسّة خصمه من جهة كونه دعيّا. وهذان الاعتباران أقرب ممّا قبلهما لكونهما اعتبارين لازمين لهما دون الأوّلين.

الرابع: شرفه من جهة كونه محقّاً فيما يقوله ويعتقده، ورذيلة خصمه من جهة كونه مبطلا. وهذان الاعتباران أقرب لكونهما من الكمالات والرذائل الذاتيّة دون ما قبلهما.

الخامس: شرفه من جهة كونه مؤمناً والمؤمن الحقّ هو المستكمل للكمالات الدينيّة النفسانيّة، وخسّة خصمه من جهة كونه مدغلا: أي خبيث الباطن مشتملاً على النفاق والرذائل الموبقة. وظاهر أنّ هذين الاعتبارين أقرب الكمالات والرذائل إلى العبد، وإنّما بدء بذكر الكمالات والرذائل الخارجيّة لكونهما مسلّمة عند الخصم وأظهر له وللخلق من الامور الداخليّة.

ثمّ لمّا ذكر الرذائل المتعلّقة بخصمه أشار إلى كونه في أفعاله ورذائله خلفاً لسلف هوى في نار جهنّم. ثم رتّب ذمّة على ذلك.

وقوله: ولبئس الخلف. إلى قوله: جهنّم.

في قوّة كبرى قياس استغنى بمفهومها عن صغراه. وتقديرها: فأنت خلف تتبع سلفاً، وكلّ خلف تتبع في أفعاله ورذائله سلفاً هوى في نار جهنّم فهو كذلك، وكل من كان كذلك فبئس به.

السادس: أنّ معاوية لمّا أكّد ما به علّق من المساواة في الفضل في قوله: وليس لبعضنا على بعض فضل واستثنى من ذلك فقال: إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز ولا يسترّق به حرّ. أشار عليه السلام إلى كبرى هي كالجواب لذلك وهو قوله: وفي أيدينا بعد فضل النبوّة. إلى قوله: الذليل، وظاهر أنّ هذا الفضل الذي حصل في هذا البطن من هاشم هو سبب إذلالهم الأعزّاء وإنعاشهم وتقويتهم الأذلّاء واسترقاقهم الأحرار، وذلك فضل عريت عنه بنو أمية وغيرهم. فإذن قوله: وليس لبعضنا على بعض فضل إلاّ فضل لا يستذلّ به عزيز. إلى آخره قول باطل. ثم اردف هذه الفضيلة بذكر رذيلة لخصمه بالنسبة الى فضيلة شملت كثيرا من العرب؛ وتلك هي دخولهم في الاسلام لا لله بل إما لرغبة أو رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم الى الله وحصل المهاجرون والأنصار على ما حصلوا عليه من الفضائل المسعدة. ثمّ لمّا ظهر هذه الفرق من فضائله ورذائل خصمه نهاه عن أمرين.

أحدهما: أن لا يجعل للشيطان في نفسه نصيباً. وهو كناية عن النهي عن اتّباعه للهوى.

والثاني: أن لا يجعل له عليه سبيلاً. وهو كناية عن النهي عن انفعاله عنه وفتح باب الوسوسة عليه، وهذا النهي يفهم منه أنّه قد جعل للشيطان في نفسه نصيباً وله عليه سبيلاً وأنّ ذلك النهي في معرض التوبيخ له على ذلك. وبالله التوفيق.

١٨ ـ ومن كتاب له (عليه السلام) إلى عبد الله بن عباس، وهو عامله على البصرة

اعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ؛ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلاَّ طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ، وَإِنَّ لَهُم بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا، فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ آلله ـ فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرّ؛ فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذٰلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ؛ وَلاَ يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ؛ وَالسَّلاَمُ.

أقول: روي أنّ ابن العباس كان قد أضرّ ببني تميم حين ولّي البصرة من قبل عليّ عليه السلام للّذي عرفهم به من العداوة يوم الجمل لأنّهم كانوا من شيعة طلحة والزبير وعائشة فحمل عليهم ابن عباس فأقصاهم وتنكّر عليهم وعيّرهم بالجمل حتى كان يسمّيهم شيعة الجمل وأنصار عسكر ـ وهو اسم جمل عائشة ـ وحزب الشيطان. فاشتدّ ذلك على نفر من شيعة عليّ عليه السلام من بني تميم منهم حارثة بن قدامة وغيره. فكتب بذلك حارثة إلى عليّ عليه السلام يشكو إليه ابن عبّاس. فكتب عليه السلام إلى ابن عباس:

أمّا بعد فإنّ خير الناس عند الله غداً أعلمهم بطاعته فيما عليه وله وأقولهم بالحقّ وإن كان مرّاً. ألا وإنّه بالحق قامت السماوات والأرض فيما بين العباد فلتكن سريرتك فعلاً وليكن حكمك واحداً وطريقتك مستقيماً. واعلم أنّ البصرة مهبط إبليس. الفصل.

والتنمّر: تنكر الأخلاق وتغيّرها. والوغم: الحقد. والماسّة: القريبة. ومأزورون: أي يلحق بنا الوزر وهو الإثم. وأربع: أي توقّف وتثبّت. وفال الرأي يفيل: أي ضعف وأخطأ.

واعلم أنّه كنّى بكون البصرة مهبط إبليس عن كونها مبدء الآراء الباطلة والأهواء الفاسدة الصادرة عن إبليس المستلزمة لإثارة الفتن وكثرتها لأنّ مهبط إبليس مستقرّه ومحلّ لذلك، وأراد مهبطه من الجنّة. واستعار لفظ المغرس للبصرة باعتبار كونها محلاّ تنشأ فيه الفتن الكثيرة كما أنّ مغرس الشجر من الأرض محلّ لنشوئه ونمائه. قال بعضهم: وفي قوله: مهبط إبليس. نوع لطف فإنّ الوهم الذي هو إبليس النفس العاقلة إذا انفرد بحكمه عن تدبيرها العقليّ وخرج عن موافقة العقل العمليّ فيما يراه ويحكم به فقد هبط من عالم الكمال وموافقة العقل وتلقّي أوامره العالية التي هي أبواب الجنّة إلى الخيبة السافلة، ومشاركة الشهوة والغضب في حكمه بأصلحيّة الآراء الفاسدة. ولمّا أحاط القضاء الإلهي بما يجري من أهل البصرة من نكث بيعته عليه السلام ومخالفته وكانوا ممّن عزلوا عقولهم عن الآراء المصلحيّة رأساً وهبط إبليس وجنوده بأرضهم فأروهم الآراء الباطلة في صور الحقّ فلحقوا بهم فكان منهم ما كان ونزل بهم ما نزل من سوء القضاء ودرك الشقاء فكانت بلدتهم لذلك مهبط إبليس ومغرس الفتن الناشئة عن وسوسته وآرائه الفاسدة.
ثمّ أمره أن يحادثهم بالإحسان إليهم: أي يعدهم بذلك، وأن يحلّ عقد الخوف عن قلوبهم. واستعار لفظ العقدة لما ألزمهم به من المخالفة [المخافة خ] بالغلظة عليهم وكثرة الأذى لهم، ووجه المشابهة كون ذلك الخوف ملازماً لهم معقوداً بقلوبهم كالعقدة للحبل ونحوه، ورشّح بلفظ الحلّ وكنّى به عن إزالة الخوف عنهم. وغرض هذه الأوامر أن لا ينفر قلوبهم منه وتثور أضغانهم فيعاودوا الخروج عن طاعته وإثارة الفتنة. ثمّ أعلمه بما يريد إنكاره عليه ممّا بلغه من تنمّره لهم، وأردف ذلك بذكر أحوال لهم يجب مراقبتهم وحفظ قلوبهم لأجلها:

أحدها: أنّه لم يمت لهم سيّد إلاّ قام لهم آخر مقامه، واستعار له لفظ النجم، ووجه المشابهة كون سيّد الجماعة وكبيرهم قدوة يهتدون به ويقتدون بآرائه في الطرق المصلحيّة، ورشّح بذكر المغيب والطلوع.

الثاني: أنّهم لم يسبقوا بوغم. ويحتمل وجهين:

أحدهما: أنـه لم يسبقهم أحد إلى الثوران والأحقاد وحيث كـانوا، في جـاهليّة أو إسـلام لشرف نفـوسهم وقلّة احتمـالهم لـلأذى، وذلـك أنّ المهين الحقير في نفسه لا يكاد يغضب ويحقد ممّـا يفعل من الأذى. وإن غضب في الحال إلّا أنّه لا يدوم ذلك الغضب ولا يصير حقداً.

الثاني: يحتمل أن يـريد أنّهم لم يسبقـوا بشفاء حقـد من عدوّ. وذلـك لقوّتهم ونجدتهم. فحذف المضاف.

الثالث: أنّ لهم ببني هاشم قـرابة قـريبة إلى آخـره. قيل: تلك القـرابة لاتّصالهم عند إلياس بن مضر لأنّ هاشم بن عبد منـاف بن قصيّ بن كلاّب ابن مـرّة بن كعب بن لـويّ بن غـالب بن فهـر بن مـالـك بن النضـر بن كنـانـة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وتميم ابن مـراد بن طانجـة بن إلياس ابن مضر، وزاد ترغيباً في مواصلتهم ومداراتهم بكون صلة الرحم مستلزمة لـلأجر في الآخـرة، وتركهـا مستلزم للوزر. وقال: مـأزورون. والأصـل مـوزورون. فقلّب ليجـانس قـولـه: مـأجـورون. وفي الحـديث لتـرجعنّ مـأزورات غيـر مأجورات. ثمّ أردف ذكر تلك الأحوال التي يقتضي الرفق بهم بالأمر بالتـوقّف والتثّبت فيما يجري على يده ولسانه من فعل وقول أهو خيـر أو شرّ لأنّ التثبّت في الأمور أولى بإصابة وجه المصلحة، وأراد بالشرّ مـا يجريـه على رعيّته من عقوبة فعليّة أو قوليّة.

وقوله: فإنّا شريكان في ذلك.

كالتعليل لحسن أمره له بالتثبّت في ذلك لأنّه لمّا كان والياً من قبله فكلّ حسنة أو سيّئة يحـدثها في ولايتـه فله عليه السلام شركـة في إحداثهـا. إذ هو السبب البعيد لمسبّبها القريب، وأبو العباس كنية عبد الله بن العباس. والعـرب تدعـو من تكـرمه بـالكنى. قـال: أكنّيه حين أنـاديـه لأكـرمـه. ولمّـا كـان عليه السلام قـد استصلحه للولاية ورآه أهلاً لها أمره أن يلازم ظنّه الصالـح فيه ولا يكشف عن ضعف ذلك الرأي وعدم مطابقته فيه بسوء صنيعه. وبالله التوفيق.

١٩ ـ ومن كتاب له (عليه السلام) إلى بعض عماله

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً؛ وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوا لِشِرْكِهِمْ، وَلاَ أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالإِدْنَاءِ، وَالإِبْعَادِ وَالإِقْصَاءِ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ:

أقول: الدهقان: معرّب يحتمل الصرف إن كان نونه أصليّة وإلّا فلا ينصرف للوصف والألف والنون الزائدتين. والقسوة: غلظ القلب وشدّته. وأقصاه: أبعده والجفوة: ضدّ البرّ. والجلباب: الملحفة. والمداولة: تقليب كلّ واحد من القسوة والرأفة على الآخر والأخذ بكلّ منهما مرّة ـ من الإدالة وهي الإدارة ـ والمنقول أنّ هؤلاء الدهاقين كانوا مجوساً. ولمّا شكوا إليه غلظة عامله فكّر في أمورهم فلم يرهم أهلاً للإدناء الخالص لكونهم مشركين ولا إقصائهم لكونهم معاهدين فإنّ إدناءهم وإكرامهم خالصاً هضم ونقيصة في الدين، وإقصاءهم بالكلية ينافي معاهدتهم. فأمره بالعدل فيهم ومعاملتهم باللين المشوب ببعض الشدّة كلّ في موضعه، وكذلك استعمال القسوة مرّة والرأفة أخرى والمزج بين التقريب والإبعاد لما في طرف اللين والرأفة والتقريب من استقرار قلوبهم في أعمالهم وزراعاتهم التي بها صلاح المعاش وما في مزاجها بالشدّة والقسوة والإبعاد من كسر عاديتهم ودفع شرورهم وإهانتهم المطلوبة في الدين. واستلزم ذلك نهيه عن استعمال الشدّة والقسوة والإبعاد في حقّهم دائماً واللين والرأفة والإدناء خالصاً، واستعار لفظ الجلباب لما أمر بالاتّصاف به وهو تلك الهيئة المتوسّطة من اللين المشوب بالشدّة بين اللين الخالص والشدّة الصرفة، ورشّح بذكر اللين. وبالله التوفيق.

٢٠ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

الى زياد بن أبيه، وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة، وعبد الله خليفة أمير المؤمنين على البصرة والأهواز وفارس وكرمان.

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً لأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ. ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ الأَمْرِ؛ وَالسَّلَامُ.

أقول: زياد هذا هو زياد بن سميّة أمّ أبي بكر، دعي أبي سفيان، قد يعدّ في أولاده من غير صريح بنوّة، وروي أنّ أوّل من دعاه ابن أبيه عائشة حين سئلت لمن يدعى. وكان كاتباً لمغيرة بن شعبة ثمّ كتب لأبي موسى ثمّ كتب لابن عامر ثمّ كتب لابن عباس. وكان مع عليّ عليه السلام فولّاه فارس. فكتب إليه معاوية يهدّده. فكتب إليه: أتوعّدني وبيني وبينك ابن أبي طالب أما والله لئن وصلت إليّ لتجدني أحمز ضراباً بالسيف. ثمّ ادّعاه معاوية أخاً له وولّاه بعد علي عليه السلام البصرة وأعمالها وجمع له بعد المغيرة بن شعبة العراقين. وكان أوّل من جمعا له. والشدّة: الحملة. والوفر: المال. والضئيل: الحقير.

وحاصل الفصل تحذير زياد من خيانة ما يليه من مال المسلمين ووعيده إن وقعت منه بالعقوبة عليها. وكنّى عنها بالشدة ووصف شدّة تلك الشدّة باستلزامها أموراً ثلاثة فيها سلب الكمالات الدنيويّة والأخروية:

أحدها: نقصان ماله وقلّته.

والثاني: نقصان جاهه. وكنّى عنه بقوله: ضئيل الأمر. وهما سالبان للكمال الدنيويّ.

الثالث: ثقل ظهره بالأوزار والتبعات. وهو دالّ على سلب كماله الأخروى. فإن قلت: كيف يريد ثقل الظهر بالأوزار وليس ذلك بسبب شدّته عليه السلام وإنّما الأوزار من اكتساب نفسه.

قلت: إنّ مجموع هذه الأمور الثلاثة وهي سلب ماله وجاهه مع ثقل الظهر بالأوزار حالة يدعه عليها وهي حالة مخوفة مكروهة خوّفه بها. ولا شكّ أنّ تلك الحالة من فعله وإن لم يكن بعض أجزائها من فعله، أو نقول: الثلاثة أحوال متعدّدة والحال لا يلزم أن تكون من فعل ذي الحال، ويحتمل أن يكون ثقل الظهر كناية عن الضّعف وعدم النهوض بما يحتاج إليه ويهمّه: أي يدعك ضعيف الحركة في الأمور، والله أعلم.

٢١ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إليه أيضاً:

فَدَعِ الإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَٱذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ.

أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ أَجْرَ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ؟ وَتَطْمَعُ ـ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ ـ أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ؛ وَالسَّلاَمُ.

أقول: التمرّغ: التمعّك [التملّك خ] والتقلّب.

وقد أمره في هذا الفصل بأوامر:

أحدها: ترك الإسراف وهو رذيلة الإفراط من فضيلة الاقتصاد المتوسّط بينه وبين الإجحاف بالنفس والإصرار بها وهو طرف التفريط من هذه الفضيلة. والأمر بترك الإسراف مستلزم للأمر بهذه الفضيلة لأنّ الأمر بالشيء على حالة أمر بتلك الحالة أيضاً.

الثاني: أن يذكر في اليوم غداً: أي يذكر في حاضر أوقاته مستقبلها من يوم القيامة فإنّ في ذلك زجراً للنفس وانكساراً عن الإشراف على الدنيا والاشتغال بها.

الثالث: أن يمسك من المال بقدر ضرورته. وهو تفسير للاقتصاد في تناول الدنيا وحفظها.

الرابع: أن يقدّم الفضل منها ليوم حاجته وهو يوم القيامة وما بعد الموت. وفيه استدراج لإنفاق المال في سبيل الله فإنّ كلّ عاقل يعلم أنّ إسلاف ما لا يحتاج إليه من فضول المال في سبيل الله وتقديمه لما يحتاج إليه في وقت حاجته من أكبر المصالح المهمّة. ثمّ استفهم على سبيل الإنكار عن رجائه أن يؤتيه الله ثواب المتواضعين حال ما هو مكتوب في عمله من

المتكبّرين تنبيهاً منه على أنّ ثواب كلّ فضيلة إنّما ينال باكتسابها والتخلّق بها لا بالكون على ضدّها. فمن الواجب إذن التخلّق بفضيلة التواضع لينال ثوابها. ولن يحصل التخلّق بها إلّا بعد الانحطاط عن درجات المتكبّرين فهو إذن من الواجبات، وكذلك استفهمه عن طمعه في ثواب المتصدّقين حال اقتنائه للمال وتنعّمه به ومنه ما للضعيف والأرملة استفهام منكر لذلك الطمع على تلك الحال فإنّ ثواب كلّ حسنة بقدرها ومن لوازمها، وجزاء كلّ حسنة بحسبها ومن لوازمها. ونبّه على ذلك بقوله: وإنّما المرء مجزي بما أسلف. إلى آخره، وفي قوله: قادم على ما قدّم. من محاسن الكلام، وفيه الاسقاق.

٢٢ ـ ومن كتاب له (عليه السلام) إلى عبد الله بن العباس رحمه الله

وكان عبد الله يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله، صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كانتفاعي بهذا الكلام.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوءُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

أقول: الدرك: اللحوق. ولا تأس: ولا تحزن.

وحاصل الفصل النهي عن شدّة الفرح بما يحصل من المطالب الدنيويّة وشدّة الأسف على ما يفوت منها، وبيان ما ينبغي للإنسان أن يسرّ بحصوله ويأسف لفقده ممّا لا ينبغي له. فأشار إلى الأوّل بقوله: فإنّ المرء إلى قوله: ليدركه، وهو خبر في معنى النهي، ولفظ ما في الموضعين مهمل يراد به المطالب الدنيويّة، ونبّه بقوله: ما لم يكن ليفوته. على أنّ ما يحصل من مطالب الدنيا أمر واجب في القضاء الإلهيّ وصوله إلى من يحصل له فهو كالحاصل فلا ينبغي أن يشتدّ فرحه عند حصوله، وبقوله: ما لم يكن ليدركه.

على أنّ ما يفوت منها فهو أمر واجب فوته فالأسف عليه ممّا لا يجدي نفعاً بل هو ضرر عاجل. ثمّ خصّصه بالخطاب على سبيل الوصيّة والموعظة وفصّل له ما ينبغي أن يسرّ ويأسف عليه ممّا لا ينبغي له فأمّا ما ينبغي أن يسرّ به فهو ما ناله من آخرته وما ينبغي أن يأسف عليه فهو ما فاته منها، وأمّا ما ينبغي أن لا يفرح به ممّا ناله من دنياه لما عرفت من وجوب فنائها وكون القرب منها مستلزماً للبعد عن الآخرة وما ينبغي أن لا يأسف عليه ممّا لم ينله منها لكون البعد عنها مستلزماً للقرب من الآخرة.

فإن قلت: كيف قال: ما نلت من آخرتك. ومعلوم أنّه لاينال شيء من الآخرة إلّا بعد الموت؟.

قلت: يحتمل وجهين: أحدهما: لا نسلّم أنّ من مطالب الآخرة لا يحصل إلّا بعد الموت فإنّ الكمالات النفسانيّة من العلوم والأخلاق الفاضلة والفرح بها من الكمالات الأخرويّة وإن كان الإنسان في الدنيا. والثاني: يحتمل أن يريد فليكن سرورك بما نلت من أسباب آخرتك. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وكذلك بيّن له ما ينبغي أن يكون همّه متوجّهاً نحوه وقصده متعلّقاً به وهو ما بعد الموت من أحوال الآخرة من سعادة دائمة يسعى في تحصيلها أو شقاوة لازمة يعمل للخلاص منها. وبالله التوفيق.

٢٣ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

قاله قبل موته على سبيل الوصية، لما ضربه ابن ملجم لعنه الله:

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ: أَقِيمُوا هٰذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ.

أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ؛ وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي؛ وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ آللهُ لَكُمْ)؟

وَآللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ؛ وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ؛ وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ (وَمَا عِنْدَ آللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ).

قال الرضي رحمه الله، وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدم من الخطب إلا أن فيه ههنا زيادة أوجبت تكريره.

أقول: هذا الفصل قاله عليه السلام في بعض أيّام مرضه قبل موته وسيأتي شرح حال مقتله ووصيّته في فصل أطول من هذا وأليق بذكر الحال عنده إنشاء الله بعده وفجأه الأمر: أتاه بغتة. والقارب: طالب الماء. وقيل: هو الذي يكون بينه وبين الماء ليلة. وقد وصىّ عليه السلام بأمرين هما عمود الاسلام وبهما يقوم:

أحدهما: أن لا يشركوا بالله شيئاً. وهو التوحيد الخالص، والشهادة به أوّل مطلوب بلسان الشريعة كما سبق بيانه.

والثاني: الاهتمام بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمحافظة على سنّته. وقد علمت أنّ من سنّته وجوب اتّباع كلّما جاء والمحافظة عليه فإذن المحافظة على كتاب الله من الواجبات المأمور بها بالالتزام. وظاهر أنّ إقامة هذين الأمرين مستلزم للخلوّ عن الذمّ، ولفظ العمود مستعار لهما ملاحظة لشبههما بعمودي البيت في كونهما سببين لقيام الإسلام وعليهما مداره كالبيت على عمده، وخلاكم ذمّ. كالمثل. يقال: افعل كذا وخلاك ذمّ: أي فقد أعذرت وسقط عنك الذمّ. ثمّ نعى نفسه إليهم، وأشار إلى وجه العبرة بحاله بذكر تنقّلها وتغيّرها في الأزمان الثلاثة ففي الماضي كان صاحبهم الذي يعرفونه بالقوّة والشجاعة وقهر الأعداء وعليه مدار أمور الدنيا والدين، وفي الحاضر صار عبرة: أي محلّ عبرة. فحذف المضاف، أو معتبراً. فأطلق اسم المتعلّق على المتعلّق مجازاً، وفي المستقبل مفارق لهم. ثمّ أردف ذلك ببيان أمره مع قاتله على تقديري فنائه وبقائه، ويشبه أن يكون في الكلام تقديم وتأخير والتقدير فأنا وليّ دمي، وروي: أولى بدمي فإن شئت أقمت القصاص وإن شئت عفوت فإن أعف فالعفو لي قربة وإن أفن فالفناء ميعادي فإن شئتم فاقتلوا قاتلي وإن شئتم تعفو فالعفو لكم حسنة فاعفوا؛ لكنّه ذكر قسمي بقائه وفنائه ثمّ عقّبهما بذكر حكمهما مقترنين واقتبس الآية في معرض الندب إلى العفو ترغيباً فيه. ثمّ أقسم أنّه ما أتاه من بغتة الموت وارد كرهه ولا طالع ينكره. وصدقه في

ذلك ظاهر فإنّه عليه السلام كان سيّد الأولياء بعد سيّد الأنبياء ومن خواصّ أولياء الله شدّة محبّة الله والشوق البالغ إلى ما أعدّ لأوليائه في جنّات عدن. ومن كان كذلك كيف يكره وارد الموت الذي هو باب وصوله إلى محابّه وأشرف مطالبه التي قطع وقته في السعي لها وهي المطالب الحقّة الباقية؟ وكيف ينكره وهو دائم الترصّد والاشتغال والذكر له؟. ثمّ شبّه نفسه في هجوم الموت عليه ووصوله بسببه إلى ما أعدّ له من الخيرات الباقية بالقارب الذي ورد الماء، ووجه الشبه استقرابه لتلك الخيرات ووثوقه بها واستسهاله بسببها آفات الدنيا وشدائد الموت كما يستسهل القارب عند وروده الماء ما كان يجده من شدّة العطش وتعب الطريق، وفيه إيماء إلى تشبيه تلك الخيرات بالماء. وكذلك شبّه نفسه بالطالب الواجد لما يطلبه، ووجه الشبه كونه أقرّ عيناً بما ظفر به من مطالبه الأخرويّة كما يطيب نفس الطالب للشيء به إذا وجده، وظاهر أنّ طيب النفس وبهجتها بما تصيبه من مطالبها ممّا يتفاوت لتفاوت المطالب في العزّة والنفاسة، ولمّا كانت المطالب الأخرويّة أهمّ المطالب وأعظمها قدراً وأعزّها جوهراً أوجب أن يكون بهجة نفسه بها وقرّة عينه بما أصاب منها أتمّ كلّ بهجة بمطلوب. ثمّ اقتبس الآية في مساق إشعاره بوجدان مطلوبه منبّهاً بها على أنّ مطلوبه في الدنيا لم يكن إلّا ما عند الله الذي هو خير لأوليائه الأبرار من كلّ مطلوب يطلب. وبالله التوفيق.

٢٤ - ومن وصية له (عليه السلام)
بما يعمل في أمواله، كتبها بعد منصرفه من صفين

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ ٱللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، لِيُولِجَهُ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الأَمَنَةَ.

منها: وَإِنَّهُ يَقُومُ بِذٰلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ فِي الْمَعْرُوفِ؛ فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ، وَحُسَيْنٌ حَيٌّ قَامَ بِالأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ.

وَإِنَّ لِبَنِي فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ؛ وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذٰلِكَ إِلَى ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ.

وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ، وَأَنْ لَا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هٰذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً، حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً.

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ؛ فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ: قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ.

قال الرضي: قوله عليه السلام في هذه الوصية «أن لا يبيع من نخيلها ودية»: الودية: الفسيلة، وجمعهاودى، وقوله عليه السلام «حتى تشكل أرضها غراسا» هو من أفصح الكلام، والمراد به أن الأرض يكثر فيها غراس النخل حتى يراها الناظر على غير تلك الصفة التي عرفها بها فيشكل عليه أمرها ويحسبها غيرها.

أقول: رويت هذه الوصيّة بروايات مختلفة بالزيادة والنقصان وقد حذف السيّد منها فصولاً ولنوردها برواية يغلب على الظنّ صدقها: عن عبد الرحمٰن بن الحجّاج قال: بعث إليّ بهذه الوصيّة أبو إبراهيم عليه السلام. هذا ما أوصى به وقضى في ماله عبد الله عليّ ابتغاء وجه الله ليولجني به الجنّة ويصرفني به عن النار يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. إنّ ما كان لي بينبع من مال يعرف لي فيها وما حولها صدقة، ورقيقها غير أبي رباح وأبي يبرو عتقاء ليس لأحد عليهم سبيل. فهم موالي يعملون في المال خمس حجج وفيه نفقتهم ورزقهم ورزق أهاليهم. ومع ذلك ما كان بوادي القرى كلّه مال بني فاطمة رقيقها صدقة وما كان لي لبني وأهلها صدقة غير أنّ رقيقها لهم مثل ما كتبت لأصحابهم، وما كان لي بادنية وأهلها صدقة، والقصد كما قد علمتم صدقة في سبيل الله وإنّ الذي كتبت من أموالي هذه صدقة واجبة ببكّة حيًا أنا

كنت أو ميّتاً ينفق في كلّ نفقة أبتغى بها وجه الله في سبيل الله وجهة ذوي الرحم من بني هاشم وبني المطّلب والقريب والبعيد. وإنّه يقوم بذلك الحسن بن عليّ يأكل منه بالمعروف وينفقه حيث يريد الله في كلّ محلّل لا حرج عليه فيه، وإن أراد أن يبيع نصيباً من المال فيقضي به الدين فليفعل إنشاء لا حرج عليه فيه، وإن شاء جعله من الملك، وإنّ ولد عليّ أموالهم إلى الحسن بن علي وإن كانت دار الحسن غير دار الصدقة فبداله أن يبيعها فليبعها إن شاء لا حرج عليه فيه فإن باع فإنّه يقسمها ثلاثة أثلاث فيجعل ثلثاً في سبيل الله، ويجعل ثلثاً في بني هاشم وبني المطّلب، ويجعل الثلث في آل أبي طالب وأنّه يضعهم حيث يريد الله. ثمّ يتّصل بقوله: وإن حدث بحسن حدث وحسين حيّ فإنّه إلى حسين بن عليّ وإنّ حسيناً يفعل فيه مثل الذي أمرت به حسناً، له مثل الذي كتبت للحسن وعليه مثل الذي على الحسن. ثمّ يتّصل بقوله: وإنّ الذي لبني فاطمة. إلى قوله: وتشريفا لوصلته. ثمّ يقول: وإن حدث بحسن وحسين حدث فإنّ للآخر منهما أن ينظر في بني عليّ فإن وجد فيهم من يرضى بهديه وإسلامه وأمانته منهم فإنّه يجعله إليه إنشاء وإن لم ير فيهم بعض الذي يريد فإنّه يجعله في بني ابني فاطمة ويجعله إلى من يرضى بهديه وإسلامه وأمانته منهم. وإنّه شرط على الذي جعله إليه أن يترك المال على أصوله وينفق من ثمره حيث أمره الله من سبيل الله ووجوهه وذوي الرحم من بني هاشم وبني المطّلب والقريب والبعيد، وأن لا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى إلى آخره. ثمّ يقول: ليس لأحد عليها سبيل هذا ما قضى عليّ أمواله هذه يوم قدم مسكن ابتغاء وجه الله والدار الآخرة لا يباع منه شيء ولا يوهب ولا يورث والله المستعان على كلّ حال، ولا يحلّ لامرىء مسلم يؤمن بالله واليوم والآخر أن يغيّر شيئاً ممّا أوصيت به في مال ولا يخالف فيه أمري من قريب ولا بعيد. وشهد هذا أبو سمر بن أبرهة وصعصعة بن صوحان وسعيد بن قيس وهيّاج بن أبي الهيّاج، وكتب عليّ بن أبي طالب بيده لعشر خلون من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين.

يولجني: يدخلني. والأمنة: الأمن. وحرّرها: جعلها حرّة. وأكثر هذه الوصيّة واضح عن الشرح غير أنّ فيها نكتا:

الأولى: جواز الوصيّة والوقف على هذا الوجه، وتعليم الناس كيفيّة ذلك.

الثانية: قوله: يأكل منه بالمعروف: أي على وجه الاقتصاد الذي يحلّ له من غير إسراف وتبذير ولا بخل وتقتير وينفق منه في المعروف: أي في وجوه البرّ المتعارفة غير المنكرة في الدين.

الثالثة: قوله: فإن حدث بحسن حدث. كناية عن الموت. والأمر يحتمل أن يريد به أمره بما أمره به وقيامه به تنفيذه وإجراؤه في موارده، ويحتمل أن يريد به جنس الأمور التي أمر بالتصرّف فيها وبها.

الرابعة: الضمير في قوله: بعده. للحسن. وفي أصدره. للأمر الذي يقوم به. وأمّا الضمير الذي في ـ مصدره ـ فيحتمل وجهين:

أحدهما: عوده إلى الحسن، وتقديره وأصدر الحسين الأمر كإصدار الحسن له وقضى في المال كقضائه. والمصدر بمعنى الإصدار كقوله: ﴿**والله أنبتكم من الأرض نباتاً**﴾[1] أي إنباتاً، ويحتمل أن يكون المصدر محلّ الإصدار: أي وأصدره في محلّ إصداره.

الثاني: ويحتمل أن يعود إلى الأمر الذي وصى به عليه‌السلام ويكون المعنى ووضع كلّ شيء موضعه.

الخامسة: قوله: أن يترك المال على أصوله. كناية عن عدم إخراجه ببيع أو هبة أو بوجه من وجوه التمليكات.

السادسة: قوله: وأن لا يبيع من أولاد نخيل هذه القرى وديّة حتى يشكل أرضها غراساً. والحكمة في ذلك وجهان:

أحدهما: أنّ الأرض قبل أن تشكل غراساً ربّما يموت فيها ما يحتاج

---

(١) ٧١ ـ ١٦.

إلى أخلاف فينبغي أن لا يباع من فسيلها شيء حتى تكمل غراساً وثبت بحيث لا يحتاج إلى شيء.

الثاني: أنّ النخلة قبل أن يشكل أرضها تكون بعد غير مستحكمة الجذع ولا مشتدّة فلو قلع فسيلها من تحتها ضعف جداً حتى لا تكاد تنتج فأمّا إذا قويت واشتدّت لم يكن عليها بقلع فسيلها كثير مضرّة وذلك حين يشكل أرضها ويتكامل غراسها وتلتبس على الناظر حسب ما فسّر السيّد ـ رحمه الله ـ.

السابعة: كنّى بالطواف على إمائه عن نكاحهنّ وكنّ يومئذ سبع عشرة منهنّ أمهات الأولاد أحياء معهنّ أولادهنّ، ومنهنّ حبالى، ومنهنّ من لا ولد لها. فقضى فيهنّ إن حدث به حادث الموت أنّ من كانت منهنّ ليس لها ولد ولا حبلى فهي عتيق لوجه الله لا سبيل لأحد عليها، ومن كان منهنّ لها ولد وهي حبلى فتمسك على ولدها وهي من حظّه: أي تلزمه. ويحسب ثمنها من حصّته وتنعتق عليه فإن مات ولدها وهي حيّة فهي عتيق لا سبيل لأحد عليها، وقضاؤه عليه السلام بكون أمّ الولد الحي محسوبة من حظّ ولدها وتعتق من مات ولدها من إمائه بعد موته بناء على مذهبه عليه السلام في بقاء أمّ الولد على الرقّ بعد موت سيّدها المستولد ويصحّ بيعها. وهو مذهب الإماميّة، وقول قديم للشافعي، وفي الجديد أنّها تنعتق بموت سيّدها المستولد ولا يجوز بيعها، وعليه اتّفاق فقهاء الجمهور حتى لو بيعت وقضى قاض بصحّة بيعها فالمختار من مذهب الشافعي أنّه ينقض قضاؤه. وبالله التوفيق.

٢٥ ـ ومن وصية له (عليه السلام)

كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات، وإنما ذكرنا هنا جملا منها ليعلم بها أنه كان يقيم عماد الحق، ويشرع أمثلة العدل: في صغير الأمور وكبيرها، ودقيقها وجليلها:

إنْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى آللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَلاَ تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلاَ تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً؛ وَلاَ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ آللهِ فِي مَالِهِ؛ فَإِذَا قَدِمْتَ

عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؛ وَلاَ تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَخَلِيفَتُهُ لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ؛ فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لاَ! فَلاَ تُرَاجِعْهُ وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ، فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ وَتُوعِدَهُ، أَوْ تَعْسِفَهُ، أَوْ تُرْهِقَهُ! فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلاَ تَدْخُلْهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ؛ فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلاَ تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلاَ عَنِيفٍ بِهِ، وَلاَ تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلاَ تُفْزِعَنَّهَا، وَلاَ تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا وَاصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ: فَإِذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعَرَّضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ، ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ: فَإِذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعَرَّضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ، فَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ، فَاقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ. وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَوْداً، وَلاَ هَرِمَةً، وَلاَ مَكْسُورَةً، وَلاَ مَهْلُوسَةً، وَلاَ ذَاتَ عَوَارٍ، وَلاَ تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلاَّ مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلاَ تُوَكِّلْ بِهَا إِلاَّ نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعَنِّفٍ وَلاَ مُجْحِفٍ وَلاَ مُلْغِبٍ وَلاَ مُتْعِبٍ، ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ، نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ؛ فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَنْ لاَ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلاَ يُمَصِّرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذٰلِكَ بِوَلَدِهَا وَلاَ يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذٰلِكَ وَبَيْنَهَا وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللاَّغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ، وَلاَ يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالأَعْشَابِ، حَتَّى تَأْتِيَنَا، بِإِذْنِ اللهِ، بُدُناً مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلاَ مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ أَعْظَمُ لأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

أقول: روّعه: أفزعه. ولا تخدج بالتحيّة: أي لا تنقصها. وروي يخدج التحيّة: من أخدجت السحابة إذا قلّ قطرها. وأنعم له: أي قال: نعم. والعسف: الأخذ بشدّة وعلى غير وجه. والإرهاق: تكليف العسر. والماشية: الغنم والبقر. والعنيف: الذي لا رفق له. وصدعت المال صدعين: قسّمت بقسمين. والعود: المسنّ من الإبل وهو الذي جاوز في السنّ البازل. والهرمة: العالية السنّ. والمكسورة: التي انكسرت إحدى قوائمها. والمهلوسة: التي بها الهلاس وهو السلّ. والعوار ـ بالفتح ـ: العيب، وقد يضمّ. والمجحف: الذي يسوق المال سوقاً عنيفاً يذهب بلحمه والملغب: المتعب. واللغوب: الإعياء. وأوعزت إليه بكذا: أي أمرته به. وحال بين الشيئين: حجز. والمصر: حلب كلّ ما في الضرع من اللبن، والتمصّر: حلب بقايا اللبن فيه. والترفيه: الإراحة واستأن: أي ارفق. والنقب: البعير الذي رقّت أخفافه. والغدر: جمع غدير الماء. والنطاف: المياه القليلة: والأعشاب: جمع عشب وهو النبات. والبدن: السمان، الواحد بادن. والمنقيات: التي صارت من سمنها ذات نقى وهو مخّ العظام وشحم العين. والنقو: كلّ عظم ذي مخّ.

وهذه الوصية مشتملة على تعليم عامله على جباية الصدقات قوانين العدل في أخذها من أهلها. ومداره وأمره له على الشفقة عليهم والرفق بهم. واعلم أنّ الرفق بالرعيّة وإن كان من أهمّ المطالب للشارع صلى الله عليه وآله وسلم لاستلزامه تألّف قلوبهم واجتماعها عليه وعلى ما جاء به من الحقّ إلّا أنّه هيهنا أهمّ والحاجة إليه أشدّ؛ وذلك أنّ الغرض هنا أخذ بعض ما هو أعزّ المطالب عند الناس من أيديهم وهو المال ومشاركتهم فيه فقلوبهم هنا أقرب إلى النفار ممّا يدعون إليه من سائر التكاليف وهم إلى المداراة والرفق أشدّ حاجة فلذلك أكّد عليه السلام وصيّة العامل بالرفق بهم والمساهلة منهم حفظاً لقلوبهم. وفي الوصيّة مواضع:

الأوّل: أمره بالانطلاق معتمداً على تقوى الله غير مشرك في تقواه غيره ولا موجّه نيّته في انطلاقه إلى سواه لأنّ حركته هذه حركة دينيّة من جملة

العبادات فيجب توجيهها إليه بالإخلاص.

الثاني: لا يفزع مسلماً كما هو عادة الولاة الظالمين، وأن لا تختارنّ عليه كارهاً: أي لا تختار شيئاً من إبله أو ماشيته وهو كاره لاختياره، وروي ولا يجتازنّ بالجيم: أي ولا يمرّن على أرض إنسان ومواشيه وهو كاره لمرورك عليها وبها. وانتصب كارها على الحال من الضمير المجرور.

الثالث: أمره إذا نزل بقبيلة أن ينزل بمائهم لأنّ من عادة العرب أن تكون مياههم بارزة عن بيوتهم، وأن لا تخالط بيوتهم لما في ذلك من المشقّة عليهم والتكلّف له.

الرابع: قوله: ثمّ امض إليهم. إلى قوله: ولا تسوءنّ صاحبها. فيها تأديب له بما ينبغي أن يفعله في حقّهم ممّا يستلزم المصلحة، وتعليم لأسباب الشفقة عليهم من الأفعال كالسكينة والوقار والقيام فيهم من الأقوال كالسلام وأداء الرسالة وأحوال الأقوال كإتمام التحيّة والرفق في القول، ومن التروك كأن لا يخيف المسلم ولا يتوعّده ولا يعسفه ولا يرهقه عسراً ولا يدخل إبله وماشيته من غير إذنه ولا يدخلها دخول متسلّط ولا جبّار ولا عنيف وأن لا ينفّر بهيمة ولا يفزعها ولا يسوء صاحبها فيها بضرب ونحوه لما في ذلك كلّه من أذى صاحبها وتنفير قلبه المضادّ لمطلوب الشارع.

الخامس: أنّه علّل نهيه عن دخولها بغير إذن صاحبها بأنّ أكثرها له. والكلام في قوّة صغرى قياس ضمير من الشكل الأوّل يستلزم حسن هذا النهي. وتقدير كبراه: وكلّ من كان أكثر المال له فهو أولى بالتصرّف والحكم والمال فيلزم أن لا يصحّ تصرّف غيره فيه ودخوله إلاّ بإذنه.

السادس: قوله: واصدع المال. إلى قوله: في ماله. تعليم لكيفيّة استخراج الصدقة التي في الإبل والماشية، وهو أن يفرّق الإبل والماشية عند اختلاط الكلّ فرقتين ثمّ يخيّره فإن اختار قسماً فلا ينازعه فيه وليس له أن يستأنف فيه نظراً آخر، وكذلك يقسّم الصدع الباقي بنصفين ولا يزال يفعل كذلك حتى ينتهي أحد الصدعين إلى مقدار الواجب من حقّ الله تعالى في

ذلك المال أو فوقه بقليل فيؤخذ منه مقدار الواجب أو دونه بيسير فيتمّم ويجعل لـربّ المال اختيـار أحد الصـدعين والإقالـة إن استقال من أخـذ تلك القسمة تسكيناً لقلبه وجبراً من تنقّص ماله.

السابع: نهـاه أن يأخـذ في مال الله مـا كان بـأحد الصفـات المذكـورة كالعود والهرمة والمكسورة والمهلوسة والمعيبـة بكباد ونحـوه مراعـاة لحقّ الله تعالى وجبراً لحال مصارفه وهم الأصناف الثمانية الذين عدّدهم الله تعـالى في كتـابه الكـريم من الفقراء والمسـاكين وغيرهم. وقـال قطب الـدين الراونـدي ـ رحمه الله ـ الظاهر من كلامه عليه السلام أنّه كـان يأمـر بإخـراج كلّ واحـد من هذه الأصناف المعيّنة من المال قبل أن يصدع بصدعين.

الثامن: أنّه نهاه أن يأمن عليها ويوكّل بحفظها وسوقها إلاّ من يثق بدينـه وأمانته واثقاً من نفسه بحفـظه حتى يسلّمه إلى وليّهم يعني نفسـه عليه السلام ويكون ناصحاً: أي لله ولرسولـه، شفيقاً: أي على مـا يقوم عليـه، أميناً حفيـظاً عليه غيـر ضعيـف ولا مجحف ولا متعب له. وذلـك من الأمـور الـلازمـة في حفظ الواجب في حقّ الله تعالى.

التاسع: أمره أن يحمل إليه ما يجتمع معه ولا يؤخّره لأمرين:

ـ **أحدهما**: الحاجة إلى صرفه في مصارفه.

ـ **الثاني**: الخوف من تلفه بأحد أسباب التلف قبل الانتفاع به.

العاشر: أنّه عاد إلى الوصيّة بحال البهائم وهو أن يأمر أمينه عنـد تسليم المـال أن لا يحول بين نـاقة وفصيلهـا، ولا يحلب جميع لبنهـا؛ لأنّ الأمرين يضرّان بالولد، ولا يجهدنّها ركوبا وتخصّصها به دون صواحباتها لأنّ ذلك ممّا يضرّ بها والعدل بينها في ذلـك ممّا يقـلّ معه ضـرر الركـوب وهو من الشفقَة الطبيعيّة، وكذلك الترفيه على اللاغب والتأني بـالناقب والـظالع، وكـذلك أن يوردها فيما يمرّ به من الماء والكلاء، وأن يروّحهـا في ساعـات الرواح للغـاية التي ذكـرها وهـو أن يأتي بحـال السمن والراحـة. وإنّما قـال: لنقسمهـا على كتـاب الله وسنّة نبيّـه وإن كان ذلـك أمراً معلومـاً من حالـه عليه السلام لأنّه بـالغ في

الوصيّة بحالها فربّما سبق إلى بعض الأوهام الفاسدة أنّ ذلك لغرض يختصّ به يخالف الكتاب والسنّة ثمّ رغّبه في ذلك بكونه أعظم لأجره عند الله وأقرب لهداه ورشده لطريق الله وهو ظاهر: أمّا أنّه أعظم لأجره فلكونه أكثر مشقّة وأكثريّة الثواب تابعة لأكثريّة المشقّة، وأما أنّه أقرب لرشده فلسلوكه في ذلك على أثره عليه السلام واقتدائه بهداه الذي لم يكن عارفاً به. وبالله التوفيق.

٢٦ - ومن عهد له (عليه السلام)

إلى بعض عماله، وقد بعثه على الصدقة:

آمُرُهُ بِتَقْوَى ٱللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَا شَاهِدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ. وَآمُرُهُ أَنْ لَا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِن طَاعَةِ اللهِ فِيما ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إلى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ؛ فَقَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ وَآمُرُهُ أَنْ لَا يَجْبَهَهُمْ، وَلَا يَعْضَهَهُمْ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمُ ٱلإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالأَعْوَانُ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

وَإِنَّ لَكَ فِي هٰذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ؛ وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ! وَإِلَّا فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَبُؤْساً لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ ٱللهِ الْفُقَرَاءُ، وَالْمَسَاكِينُ، وَالسَّائِلُونَ، وَالْمَدْفُوعُونَ، وَالْغَارِمُ، وَٱبْنُ السَّبِيلِ!! وَمَنِ ٱسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا؛ فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا الذُّلَّ وَالْخِزْيَ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ ٱلأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ ٱلأَئِمَّةِ؛ وَالسَّلَامُ.

أقول: يقال: جبهته بالمكروه: إذا استقبلته به. وعضهته عضها: رميته بالبهتان والكذب. والفاقة والبؤس والفظع: الشدّة.

وقد أمر عليه السلام بأوامر بعضها يتعلّق بأداء حقّ الله تعالى وبعضها يتعلّق بأحوال الرعيّة والشفقة عليهم لغاية نظام حالهم وتدبير أمورهم. فالذي يتعلّق

بحقّ الله تعالى أمران:

أحدهما: أن يتّقيه فيما يسرّ من أموره ويخفى من أعماله وهي التقوى الحقّة المنتفع بها.

وقوله: حيث.

إشارة إلى موضع إسرار العمل وإخفاء الأمور. وأتى بقوله: لا شهيد غيره ولا وكيل دونه في معرض الوعد له والتخويف باطّلاعه تعالى على سرائر العباد وخفيّات أعمالهم وتولّيه لها دون غيره. ونبّه بكونه هو الشهيد دون غيره على عظمته مع الردّ لما عسى أن يحكم به الوهم مطلقاً من أنّ السرائر والأمور الخفيّة لا يطّلع عليها غير من هي له.

الثاني: أن يوافق في طاعته لله تعالى بين ما أظهره وما أبطنه، ويخلص أعماله الظاهرة من الرياء والسمعة، وذلك قوله: وأمره أن لا يعمل. إلى قوله: فيما أسرّ. و ـ ما ـ في قوله: فيما. بمعنى الذي ويحتمل أن تكون مصدريّة. وفيما ظهر: أي للناس من طاعة الله.

وقوله: ومن لم يختلف. إلى قوله: العبادة.

ترغيب له فيما أمره به من عدم اختلاف السريرة والعلانية والفعل والقول بكون ذلك مستلزماً لإخلاص عبادة الله ولأداء أمانته التي كلّفها عباده على ألسنة رسله وأئمّة دينه، وظاهر كون ذلك مستلزماً لثواب الله والأمن من سخطه. وأمّا ما يتعلّق بأحوال الرعيّة والشفقة عليهم فمنه ما يتعلّق بحال أرباب الأموال التي يستحقّ عليهم الصدقة، ومنه ما يتعلق بأرباب الصدقة المستحقّين لها: أمّا الأوّل فأن لا يلقاهم بمكروه ولا يرميهم ببهتان وكذب وأن لا ينقبض عنهم ويترفّع عليهم تفضيلاً لنفسه بالإمارة. وانتصب تفضيلاً على المفعول له.

وقوله: وإنّهم الإخوان. إلى قوله: الحقوق.

إشارة إلى احتجاج بقياس ضمير من الشكل الأوّل يستلزم حسن الانتهاء عمّا أمر بالانتهاء عنه ووجوبه، والمذكور في قوّة صغرى، وتقدير

الكبرى: وكلّ من كان أخاً في الدين وعوناً على استخراج الحقوق فيجب أن لا يفعل في حقّه شيء ممّا أمرت بالانتهاء عنه، وأمّا أنّهم الأعوان على استخراج الحقوق فلأنّ الحقوق المطلوبة منهم إنّما تحصل بواسطتهم، وحصولها منهم إنّما يتمّ بالشفقة عليهم وأن لا يفعل معهم شيء ممّا نهى عنه عليه السلام فإنّ كلّ تلك الأمور ممّا ينفّر طباعهم ويشتّت نظام شملهم ومنه يكون قلّة مال الصدقة المستحقّة عليهم، ويحتمل أن يدخل في هؤلاء الجند أيضاً، وأمّا ما يتعلّق بالمستحقّين للصدقة فأن يوفّيهم حقوقهم منها، وأشار إلى الحجّة على وجوب ذلك عليه بقوله: وإنّ لك. إلى قوله: وإنّا موفّوك حقّك، وهو في قوّة صغرى ضمير من الشكل الأوّل، وتقدير كبراه: وكلّ من كان له نصيب مفروض وحقّ معلوم في شيء وله شركاء فيه بصفة الفقر والمسكنة وهو مستوف لحقّه منه فواجب عليه أن يوفّي شركاءَه حقوقهم: أمّا الصغرى فظاهرة. وأمّا الكبرى فأشار إلى بيانها بقياس آخر من الشكل الأوّل مركّب من متّصلين. فأشار إلى الصغرى بقوله: وإلّا. إلى قوله: إلى يوم القيامة. ونبّه على الكبرى بقوله: ولو شاء إلى قوله: وابن السبيل. وهي في قوّتها إذ الأصناف المذكورون من مستحقّي الصدقة هم الخصوم وهم أكثر الناس وكان الأوسط متّحداً، وصار تقدير القياس وإن لا توفّهم حقّهم فإنّك ممّن خصومه أكثر الناس: أي الفقراء والمساكين وسائر الأصناف يوم القيامة، وكلّ من كان خصومه أكثر الناس وهم الأصناف المذكورة فبؤساً له عند الله يوم القيامة، وينتج متّصلة مركّبة من مقدم الصغرى وتالى الكبرى وهي إن لا توفّهم حقوقهم فبؤساً لك، وهو في معرض التهديد والتنفير له عن ظلمهم والاستبداد عليهم بشيء من الصدقة، وشركاء عطف على قوله: حقّاً معلوماً. وأهل المسكنة صفة له، وبأساً نصب على المصدر.

وأمّا الأصناف المستحقّين للصدقات فهم الثمانية المعدودة في القرآن الكريم بقوله: ﴿**إنّما الصدقات للفقراء**﴾ إلى قوله: ﴿**وابن السبيل**﴾[1] فأمّا الفقير فقال ابن عباس وجماعة من المفسرين: إنّه المتعفّف الذي لا يسأل،

---

(١) ٩ - ٦٠.

والمسكين هو الذي يسأل. وعن الأصمعي أنّ الفقير هو الذي له ما يأكل والمسكين هو الذي لا شيء له، وأمّا العاملون عليهم فهم السعاة في جباية الصدقات. ويعطيهم الإمام منها بقدر أجور أمثالهم، وأمّا المؤلّفة قلوبهم فكانواقوماً من أشراف العرب يتألّفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مبدء الإسلام ويعطيهم سهماً من الزكاة ليدفعوا عنه قومهم ويعينوه على العدوّ كالعباس ابن مرداس وعيينة بن الحصن وغيرهما ثمّ استغنى المسلمون عن ذلك عند قوّتهم، وأمّا في الرقاب: أي في فداء الرقاب. فقال ابن عباس: يريد المكاتبين وكانوا يعطون سهماً ليعتقوا به، وأمّا الغارمون فهم الذين لزمتهم الديون في غير معصية ولا إسراف، وأمّا في سبيل الله فهم الغزاة والمرابطون، وأمّا ابن السبيل فهو المنقطع به في السفر ويعطى من الصدقة. وإن كان غنيّاً في بلده. وقد ذكر عليه السلام هيهنا في معرض إيجاب الشفقة والرحمة له خمسة وهم الفقراء والمساكين ويدخل فيه السائلون ثمّ المدفوعون ويشبه أن يريد بهم العاملين عليها وسمّاهم مدفوعين باعتبار أنّهم يدفعون لجباية الصدقات أو لأنّهم إذا أتوا إلى من لا زكاة عليه فسألوه هل عليه زكاة أم لا دفعهم عن نفسه. ذكرهم هنا بهذا الوصف لكونه وصف ذلّ وانقهار وكونه عليه السلام في معرض الأمر بالشفقة عليهم. قال بعض الشارحين: أراد بهم الفقراء السائلين لكونهم يدفعون عند السؤال. ثمّ الغارم وابن السبيل. وإنّما ذكر هؤلاء الخمسة أو الأربعة لكونهم أضعف حالاً من الباقين.

وقوله: ومن استهان. إلى قوله: وأخزى.

يشبه أن يكون كبرى قياس ضمير احتجّ به في معرض الوعيد والتخويف من الخيانةعلى لزوم الذلّ والخزي له في الدارين على تقدير أن لا يوفّيهم حقوقهم وتقدير القياس وإن لا توفّهم حقوقهم تكن مستهيناً بالأمانة راتعاً في الخيانة غير منزّه نفسك ودينك عنها، وكلّ من كان كذلك فقد أحلّ بنفسه في الدنيا الذلّ وهو في الآخرة أذلّ وأخزى، وروي أخلّ بنفسه: أي ترك ما ينبغي لها، وروي أحلّ نفسه: أي أباحها. والذلّ على هاتين الروايتين مبتدء خبره في الدنيا. والخيانة أعمّ من الغشّ. وهي رذيلة التفريط من فضيلة الأمانة.

والغشّ رذيلة تقابل فضيلة النصيحة وهما داخلتان تحت رذيلة الفجور.

وقوله: وإنّ أعظم الخيانة. إلى آخره.

تنبيه على عظم الخيانة هيهنا. إذ كانت خيانة كلّيّة عامّة الضرر لأكثر المسلمين، ومستلزمه لغشّ الإمام الذي هو أفضل الناس وأولاهم بالنصيحة فإذا كان مطلق الخيانة ولو في حقّ أقلّ الخلق وأحقر الأشياء منهيّاً عنها ويستحقّ العقاب والخزي عليها فبالأولى مثل هذه الخيانة العظيمة. وكلّ ذلك في معرض الوعيد والتنفير عن الخيانة والاستهانة بالأمانة. وبالله التوفيق.

٢٧ - ومن عهدٍ له (عليه السلام)

إلى محمد بن أبي بكر، رضي الله عنه حين قلده مصر:

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَناحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَماءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلا يَيْأَسَ الضعَفاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعالَى يُسائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ؛ وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ: فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ؛ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَاعْلَمُوا، عِبادَ اللهِ، أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعاجِلِ الدُّنْيا وَآجِلِ الآخِرَةِ، فَشارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيا فِي دُنْياهُمْ، وَلَمْ يُشارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيا فِي آخِرَتِهِمْ: سَكَنُوا الدُّنْيا بِأَفْضَلِ ما سُكِنَتْ، وَأَكَلُوها بِأَفْضَلِ ما أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيا بِما حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْها ما أَخَذَهُ الْجَبابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْها بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ: أَصابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيا فِي دُنْياهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ، فَاحْذَرُوا عِبادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ: بِخَيْرٍ لا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً! فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عامِلِها، وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عامِلِها؟ وَأَنْتُمْ طُرَداءُ الْمَوْتِ: إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ

مِنْ ظِلِّكُمْ! الْمَوْتُ مَعْقُودٌ، بِنَوَاصِيكُمْ، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ، فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ: دَارٌ لَيْس فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلاَ تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلاَ تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ، وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ؛ فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ.

وَاعْلَمْ، يَامُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي: أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلاَ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلاَ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لاِشْتِغَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاَتِكَ.

أقول: قلّده الأمر: جعله في عنقه كالقلادة. واللفظ مستعار. وحظى من كذا: أي صار له منه حظوة وهي المنزلة والحظّ الوافر. والجبّار: البالغ في التكبّر. والطرداء: جمع طريدة وهو ما يطرد من صيد. والخلف: العوض.

وهذا الفصل من العهد ملتقط من كلام طويل ومداره على أمور:

الأوّل: وصيّته محمّداً ـ رضي الله عنه ـ بمكارم الأخلاق في حقّ رعيّته، وذكر أوامر:

أحدها: أمره بخفض الجناح. قيل: وأصله أنّ الطائر يمدّ جناحيه ويخفضهما ليجمع فراخه تحتها إيهاماً للشفقة عليها. فاستعمل كناية عن التواضع الكائن عن الرحمة والشفقة كما قال تعالى: ﴿**واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين**﴾(١) وقد بيّنا أنّ التواضع ملكة تحت فضيلة العفّة.

---

(١) ١٥ ـ ٨..

الثاني: أمره بإلانة جانبه كناية عن الرفق في الأقوال والأفعال وعدم الغلطة عليهم والجفاوة في حقّهم في كلّ الأحوال. وهو قريب من التواضع، ومن لوازمه.

الثالث: أمره أن يبسط لهم وجهه وهو كناية عن لقائهم بالبشاشة والطلاقة من غير تقطيب وعبوس. وهو من لوازم التواضع أيضاً.

الرابع: أن يواسي بينهم في النظرة واللحظة وهي أخفّ من النظرة، وهو كناية عن الاستقصاء في العدل بينهم في جليل الأمور وحقيرها وقليلها وكثيرها.

وقوله: حتّى لا يطمع. إلى قوله: عليهم.

بيان وجه الحكمة في أمره بالمساواة بينهم في اللحظة والنظرة على حقارتهما. فإن قلت: فلم خصّص العظماء بالطمع في الحيف والضعفاء باليأس من العدل؟ قلت: لأنّ العادة أنّ الولاة والأمراء إنّما يخصّصون بالنظرة والإقبال بالبشاشة الأغنياء والعظماء دون الضعفاء وذلك التخصيص مستلزم لطمعهم أن يحاف لهم، والإعراض عن الضعفاء مستلزم لليأس من العدل في حقّهم. والضمير في قوله: عليهم. يرجع إلى العظماء.

الثاني: الوعيد للعباد بسؤال الله لهم عن صغير أعمالهم وكبيرها وظاهرها ومستورها، والإعلام بأنّهم مظنّة عذابه لبدئهم بمعصيته والبادي أظلم. قال الراوندي ـ رحمه الله ـ المراد بأظلم الظالم. قلت: ويحتمل أن يكون قد سمّي ما يجازيهم به من العدل ظلماً مجازاً لمشابهة الظلم في الكمّيّة والصورة كما سمّي في القصاص اعتداء في قوله: ﴿**فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾(1) ثمّ نسب إليه فعلهم فصدق إذن أفعل التفضيل باعتبار كونهم بدؤوا بالمعصية وكذلك الإعلام بأنّه تعالى مظنّة الكرم بالعفو عنهم.

الثالث: إعلامهم بما ينبغي لهم من استعمال الدنيا والتنبيه على كيفيّة

---

(1) ٢ ـ ١٩٤.

استعمالها الواجب بوصف حال المتّقين فيها ليقتدوا بحالهم وهي ما أخبر عنه بقوله: ذهبوا بعاجل الدنيا. إلى قوله: ولا ينقص لهم نصيب من لذّة، وخلاصة حالهم المذكورة أنّهم أكثر فائدة من أهل الدنيا. إذ حصلوا من اللذّة في دنياهم على أفضل ما حصل لأهلها من لذّاتهم بها مع زيادة الفوز الأكبر في الآخرة بما وعد فيها المتّقون، واعلم أنّ الذي يشير إليه من عاجل الدنيا في حق المتّقين الذين شاركوا أهلها فيها وحظوا به منها ممّا حظى به المترفون وأخذه الجبابرة المتكبّرون هو ما حصلوا عليه من لذّات الدنيا المباحة لهم بقدر ضرورتهم وحاجتهم كما روي عنه في صفتهم بلفظ آخر: شاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم أباحهم في الدنيا ما كفاهم وبه أغناهم قال الله عزّ اسمه: ﴿**قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾[1] الآية سكنوا من الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم من طيّبات ما يأكلون وشربوا من طيّبات ما يشربون ولبسوا من أفضل ما يلبسون وتزوّجوا من أفضل ما يتزوّجون وركبوا من أفضل ما يركبون أصابوا لذّة الدنيا مع أهل الدنيا وهم فيها جيران الله يتمنّون عليه فيعطيهم ما يتمنّون لا يردّ لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيباً من لذّة. فأمّا وجه كونهم أكلوها على أفضل ما أكلت وسكنوها بأفضل ما سكنت فلأنّهم استعملوها على الوجه الذي ينبغي لهم وقد أمروا باستعمالها عليه. وظاهر أنّ ذلك الوجه أفضل الوجوه، وأمّا أنّهم شاركوا أهل الدنيا في طيّباتها فظاهر؛ بل نقول: إنّ لذّتهم بما استعملوا منها أتمّ وأكمل، وذلك أنّ كلّ ما استعملوه منها من مأكول ومشروب ومنكوح ومركوب إنّما كان عند الحاجة والضرورة إليه، وقدعلمت أنّ الحاجة إلى الشيء كلّما كانت أشدّ وأقوى كانت اللذّة به عند حصوله أتمّ وأعلى وذلك من الامور الوجدانيّة. فثبت إذن أنّهم حظوا منها بما حظى به المترفون وأخذوا منها أخذة الجبابرة المتكبّرين مع ما فضّلوا به من الحصول على آجل الآخرة الذي لم يشاركهم أهل الدنيا فيه كقوله تعالى: ﴿**ومن كان يريد حرث**

---

(1) ٧ - ٣.

الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[1] وأمّا الزاد المبلّغ لهم إلى ساحل العزّة وحضرة الجلال فهو التقوى الذي اتّصفوا به كما قال تعالى: **﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى﴾**[2] وقد علمت معنى كونه زاداً غير مرّة. واستعار للتقوى والطاعة لفظ المتجر باعتبار كون الغاية المقصودة منها استعاضة ثواب الله المشبه للثمن، ورشّح بذكر المربح: أي المكسب للربح، وذلك باعتبار زيادة فضل ثواب الله في الآخرة على ما بذله العبد من نفسه من العمل.

وقوله: أصابوا لذّة زهد الدنيا.

إشارة إلى بعض ما يزود به من اللذّات في الدنيا وهو لذّة الزهد. إذ كان لهم بطرح الدنيا عن أعناق نفوسهم ووصولهم بسببه إلى ما وصلوا إليه من الكمالات العالية ابتهاجات عظيمة أجلّ وأعلى مما يعده المترفون والمتكبّرون لذّة وخيراً. وهم الذين يحقّ لهم أن يتكبّروا على المتكبّرين. إذ كان الكمال الذي به تكبّر المتكبّرون أمراً خالياً ضعيفاً بالقياس إلى الكمال الحقّ الذي حصل عليه هؤلاء.

وقوله: وتيقنوا أنّهم جيران الله غداً.

أي يوم القيامة، وهو إشارة إلى جهة فرحهم بجوار الله والتذاذهم به المضاف إلى ما أصابوه من لذّة زهد الدنيا وتلك الجهة هي ما حصلوا عليه من اليقين بالله والوصول التامّ إليه بعد مفارقة الأبدان، وذلك معنى جواره.

وقوله: لا تردّ لهم دعوة.

إشارة إلى بعض فضائلهم التي انفردوا بها أيضاً المتفرّعة على كمال نفوسهم وكرامتهم عند الله اللازمة عن لزوم طاعته وهو كونهم مجابي الدعوة مع ما شاركوا غيرهم فيه من تمام اللذّة في الدنيا وانفردوا به من تمامها في الأخرة.

---

(١) ٤٢ - ١٩.

(٢) ٢ - ١٩٢.

الرابع: تحذيرهم من الموت وقربه وتنبيههم على غايته من ذلك التحذير وهو أن يعدّوا له عدّته التي يلقى بها ولا يكون كثير ضرر وقد علمت أنّه التقوى والعمل الصالح، وأكّد الأمر بإعداد عدّته بالتنبيه على عظم ما يأتي به من الأمر والخطب الجليل، وأشار إلى أنّ ذلك الأمر قد يكون خيراً خالصاً دائماً وقد يكون شرّاً خالصاً دائماً لتشتدّ الرغبة وتقوى في إكمال العدّة المستلزمة لتحصيل ذلك الخير ولدفع ذلك الشرّ. ثمّ نبّه على أنّ ذلك الخير الذي يأتي به الموت هو الجنّة وذلك الشرّ هو النار وأنّ المقرّب إلى كلّ منهما والمستلزم للحصول عليه هو العمل له بقوله: فمن أقرب. إلى قوله: عاملها. ثمّ نبّه بقوله: وأنتم. إلى قوله: خلقكم. على أنّ هذا الأمر المستعقب لإحدى هاتين الغايتين العظيمتين وهو الموت لا بدّ من لقائه ليتأكّد الأمر عليهم بالاستعداد له. واستعار لهم لفظ الطرداء ملاحظة لشبههم بما يطرد من صيد ونحوه ولشبهه بالفارس المجدّ في الطلب الذي لا بدّ من إدراكه الطريدة، وظاهر أنّه ألزم لكلّ امرء من ظلّه. إذ كان ظلّ المرء قد ينفك عنه حيث لا ضوء والموت أمر لازم لا بدّ منه.

وقوله: والموت معقود بنواصيكم.

كناية عن لزومه وكونه لا بدّ منه من اقتضاء: أي مشدود ومربوط بنواصيكم وذلك الربط إشارة إلى حكم القضاء الإلهي به وكونه ضروريّاً للحيوان، وإنّما خصّ الناصية لأنّها أعزّ ما في الإنسان وأشرف، واللازم لها أملك له وأقدر على ضبطه. ونحوه قوله تعالى: ﴿**فيؤخذ بالنواصي والأقدام**﴾[1] واستعار لفظ الطيّ لتقضّي أحوال الدنيا وأيّامها التي يقطعها الإنسان وقتاً فوقتاً ملاحظة لشبه أحوالها بما يطوى من بساط ونحوه، وظاهر أنّ ذلك الطيّ من خلفهم خلفاً خياليّاً بالنسبة إلى ما يستقبلونه من أحوالها بوجوه هممهم. ثمّ لمّا كرّر ذكر الموت وأكّد لزومه بطيّ الدنيا رجع إلى التحذير من غايته وهي النار ووصفها بأوصافها ليشتدّ الحذر منها وهي بعد قعرها. وممّا ينبّه عليه ما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سمع هدّة فقال لأصحابه: هذا حجر ألقى

---

(1) ٥٥ - ٤١.

من شفير جهنّم فهو يهوى فيها منذ سبعين خريفاً والآن حين وصل إلى قعرها. وكان ذلك إشارة إلى منافق مات في ذلك الوقت وعمره سبعون سنة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. وشدّة حرّها كقوله تعالى: ﴿**قل نار جهنم أشدّ حرّاً**﴾[1] وحدّة عذابها كقوله تعالى: ﴿**كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذقوا العذاب**﴾[2]وكونهاليست بدار رحمة ولا يسمع لها دعوة كقوله تعالى: ﴿**ربّنا أخرجنا منها**﴾[3] الآية. إلى قوله: «يكلّمون» وكونها لا تفرّج فيها كربة كقوله تعالى: ﴿**في عذاب جهنّم خالدون لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون**﴾ وقوله: ﴿**ونادوا يا مالك**﴾ إلى قوله: ﴿**ماكثون**﴾[4].

الخامس: قوله: وان استطعتم. إلى قوله: بينهما. أمر لهم بالجمع من شدّة الخوف من الله وحسن ظنّ به وهما بابان عظيمان من أبواب الجنّة كما علمته فيما سلف. ثمّ أشار إلى أنّهما متلازمان بقوله: فإنّ العبد. إلى قوله: خوفاً لله: أي أنّ مقدار حسن ظن العبد بربّه مطابق وملازم لمقدار خوفه منه إنّ زيادته مع زيادته ونقصانه مع نقصانه.

واعلم أنّه عليه السلام لم يجعل أحدهما علّة للآخر بل هما معلولا علّة واحدة مساوياً بها وهي معرفة الله. ثمّ لمّا كانت معرفة الله تعالى مقولة بحسب الشدّة والضعف كان حسن الظنّ به ورجاؤه وشدّة الخوف منه أيضاً ممّا يشتدّ ويضعف بحسب قوّة المعرفة وضعفها إلاّ أنّ كلّ واحد منها يستند إلى ضعف من المعرفة واعتبار خاصّ يكون هو مبدء القريب أمّا في حسن الظنّ والرجاء فأن يلحظ العبد من ربّه ويعتبر جميع أسباب نعمه على خلقه حتّى إذا علم لطائفها في حقّهم ممّا هو ضروري لهم كآلات الغذاء، وما لهم إليه حاجة كالأظفار، وما هو زينة كتقويس الحاجبين واختلاف ألوان العينين، وبالجملة ما ليس بضروري علم أنّ العناية الإلهيّة إذا لم يقصر في أمثال هذه الدقائق

---

(1) ٩ - ٨٢.
(2) ٤ - ٥٩.
(3) ٢٣ - ١٠٩.
(4) ٤٣ - ٧٧.

حتى لم يرض لعباده أن يفوتهم الموائد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك الأبديّ بل إذا أراد اعتباراً في هذا الباب علم أنّه تعالى هيّأ لأكثر الخلق أسباب السعادة في الدنيا حتى كان الغالب على أكثرهم الخير والسلامة سنّة الله التي قد خلت في عباده وعلم أنّ الغالب في أمر الآخرة ذلك أيضاً لأنّ مدبّر الدنيا والآخرة واحد وهو اللطيف بعباده وهو الغفور الرحيم، وحينئذ تكون الملاحظات والاعتبارات مستلزمة لحسن الظنّ وباعثة على الرجاء. ومن هذه الاعتبارات النظر في حكمة الشريعة وسببها ومصالح الدنيا، ووجه الرحمة على العباد بها، وبالجملة أن يعتبر صفات الرحمة واللطف. وأمّا في الخوف فأقوى أسبابه أن يعرف الله تعالى وصفات جلاله وعظمته وتعاليه وسطوته واستغناه، وأنّه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وكذلك سائر اعتبارات الصفات التي يقتضي العنف وإيقاع المكاره كالسخط والغضب، ولذلك قال تعالى: ﴿**إنّما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[1] وقال صلى الله عليه وآله وسلم: أنا أخوفكم لله. وبحسب اشتداد المعرفة بتلك الاعتبارات يكون حال الخوف واحتراق القلب ثمّ يفيض أثر ذلك على البدن فيحصل التحوّل والصغار والغشية والرعشة والرعدة على الجوارح فيكفّها عن المعاصي ويقيّدها بالطاعات استدراكاً لما فرّط منه في الصفات فيفيد قمع الشهوات وتكدير اللذّات، ولاحتراق القلب بالخوف يحصل له ذبول وذلّة يفارقه معها كثير من الرذائل كالكبر والحسد والحقد والبخل وغيرها. ثمّ إنّ الجمع بينهما يستلزم كثيراً من الفضائل، وذلك أنّ معرفة الله تعالى واليقين به إذ حصل هيّج الخوف من عقابه والرجاء لثوابه بالضرورة، وهما يفيدان الصبر إذ حفّت الجنّة بالمكاره فلا صبر على تحمّلها إلاّ بقوّة الرضا، وحفّت النار بالشهوات فلا صبر على قمعها إلاّ بقوّة الخوف. ولذلك قال عليّ عليه السلام: من اشتاق إلى الجنّة سلّى عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرّمات. ثمّ يؤدّي مقام الصبر إلى مقام المجاهدة والتجرّد لذكر الله ودوام الفكر فيه وهي مؤدّية إلى كمال المعرفة المؤدّي إلى الأنس المؤدّي إلى

---

(1) ٣٥ ـ ٢٥.

المحبّة المستلزمة لمقام الرضا والتوكل. إذ من ضرورة المحبّة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته. ولمّا ثبت أنّهما معلولا علّة واحدة ثبت أنّهما متلازمان وليسا بمتضادّين وإن ظنّ ذلك في ظاهر الأمر بل ربّما غلب أحدهما على الآخر بحسب غلبة أسبابه فيشتغل القلب به ويغفل عن الآخر فيظنّ أنّه يعانده وينافيه، ولذلك أتى عليه السلام هنا بإن المقتضية للشكّ في استطاعتهم للجمع بينهما ثمّ نبّهه على إحسانه إليه بتوليته أعظم أجناده ليتبنى عن التذكير بتلك النعمة ما يريد أن يوصيه به.

السادس: نبّهه على ما ينبغي له وهو أولى به وذلك أن يخالف على نفسه الأمّارة فيما تأمر به من السوء والفحشاء وسائر مناهي الله إلى ما يحكم به العقل والشرع من طاعته وأن ينافح عن دينه ويجاهد شياطين الإنس والجنّ عنه ولو لم يكن له من الدهر إلّا ساعة فينبغي أن لا يشغلها إلّا بالمجاهدة عن دينه وأن لا يسخط الله برضا أحد من خلقه: أي لمتابعة أحد من خلق الله فيما يسخط الله.

وقوله: فإنّ في الله. إلى قوله: في غيره.

احتجاج على وجوب مراعاة رضاه تعالى دون غيره بقياس ضمير من الأوّل المذكور في قوّة صغرى. وتقدير الكبرى: وكلّما كان في الله خلف عن غيره وليس في غيره خلف منه فالواجب اتّباع رضاه وان لا يسخط برضا غيره. ثم أمره أن يصلّي الصلاة لوقتها المؤقّت لها: أي المعيّن. واللام للتخصيص والتعليل وأن لا يقدّمها على وقتها لفراغه في ذلك الوقت ولا يؤخّرها عن وقتها لشغله عنها بغيرها فإنّها أهمّ من كلّ شغل وأولى. ثمّ أعلمه أنّ كلّ شيء من الأعمال الصالحة تبع للصلاة.

والمراد أنّ الإنسان إذا حافظ على صلاته وأتى بوظائفها في أوقاتها يوشك أن يكون على غيرها أولى بالمحافظة وإذا تساهل فيها فهو في غيرها أكثر تساهلاً، وذلك أنّها عمود الدين وأفضل العبادات كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد سئل عن أفضل الأعمال فقال: الصلاة لأوّل وقتها،

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة فمن تمّت صلاته سهل عليه غيرها من العبادات ومن نقصت صلاته فإنّه يحاسب عليها وعلى غيرها.

واعلم أنّه ذكر أمر الصلاة في هذا العهد بكلام طويل هذّه السيّد ـ رحمه الله ـ وفيه بيان حال الصلاة ولواحقها وأوّله أنّه قال: وانظر إلى صلاتك كيف هي فإنّك إمام لقومك إن تتمّها أو تخفّفها. فليس من إمام يصلّي بقوم يكون في صلاتهم نقصان إلّا كان عليه ولا ينقص من صلاتهم شيء وإن تتمّها بحفظ فيها يكن لك مثل أجورهم ولا ينقص به ذلك من أجورهم شيئاً. وانظر إلى الوضوء فإنّه من تمام الصلاة تمضمض ثلاثاً واستنشق ثلاثاً، واغسل وجهك، ثمّ يدك اليمنى، ثمّ اليسرى، ثمّ امسح رأسك ورجليك فإنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصنع ذلك. واعلم أنّ الوضوء نصف الإيمان. ثمّ ارتقب وقت الصلاة فصلّها لوقتها ولا تعجّل بها قبله لفراغ ولا تؤخّرها عنه لشغل فإنّ رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أوقات الصلاة فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أتاني جبرئيل فأراني وقت صلاة الظهر حين زالت الشمس وكانت على حاجبه الإيمن، ثمّ أراني وقت العصر وكان ظلّ كلّ شيء مثله، ثمّ صلّى المغرب حين غربت الشمس، ثمّ صلّى العشاء الأخيرة حين غابت الشمس، ثمّ صلّى الصبح فأغلس بها والنجوم مشتبكة. فصلّ بهذه الأوقات والزم السنّة المعروفة والطريق الواضح. ثمّ انظر ركوعك وسجودك فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أتمّ الناس صلاتهم وأخفّهم عملاً فيها، واعلم أنّ كلّ شيء من عملك تبع لصلاتك فمن ضيّع الصلاة فإنّه لغيرها أضيع. أسأل الله الذي يرى ولا يرى وهو بالمنظر الأعلى أن يجعلنا وإيّاك ممّن يحبّ أن يرضى حتّى يعيننا وإيّاك على شكره وذكره وحسن عبادته وأداء حقّه وعلى كلّ شيء اختار لنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا.

ومن هذا العهد أيضاً

فَإِنَّهُ لَا سَوَاءٌ: إِمَامُ الْهُدَى، وَإِمَامُ الرَّدَى؛ وَوَلِيُّ النَّبِيِّ، وَعَدُوُّ النَّبِيِّ. وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً

وَلاَ مُشْرِكاً: أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ ٱللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ ٱللهُ بِشِرْكِهِ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ. الْجَنَانِ عَالِمِ اللِّسَانِ: يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

أقول: هذا الفصل متّصل بقوله: وآخرتنا من فصل الصلاة، وأوّله: وأنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم وسرّكم علانيتكم. ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم إنّه لا يستوى. إلى قوله: تنكرون. ثمّ يتّصل به يا محمد ابن أبي بكر اعلم أنّ أفضل العفة الورع في دين الله والعمل بطاعته وإنّي أوصيك بتقوى الله في سرّ أمرك وعلانيتك وعلى أي حال كنت عليه: الدنيا دار بلاء ودار فناء، والآخرة دار الجزاء ودار البقاء. فاعمل لما يبقى واعدل عمّا يفنى، ولا تنس نصيبك من الدنيا: إنّي أوصيك بسبع هي جوامع الإسلام: اخش الله عزّ وجلّ في الناس ولا تخش الناس في الله، وخير العلم ما صدّقه العمل، ولا تقض في امر واحد بقضائين مختلفين فيختلف امرك وتزوغ عن الحقّ وأحبّ لعامّة رعيّتك ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك فإنّ ذلك أوجب للحجّة وأصلح للرعيّة، وخض الغمرات إلى الحقّ ولا تخف في الله لومة لائم وانصح المرء إذا استشارك واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم جعل الله مودّتنا في الدين وخلّتنا إيّاكم وخلّة المتّقين وأبقى لكم حتى يجعلنا بها إخواناً على سرر متقابلين. أحسنوا أهل مصر مؤازرة أميركم واثبتوا على طاعتكم تردوا حوض نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم أعاننا الله وإيّاكم على ما يرضيه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

والقمع: القهر والإذلال.

واعلم أنّه لما أمرهم بترك النفاق وموافقة الفعل الجميل للقول الجميل استدرجهم إلى ذلك وجذبهم إليه بالفرق بينه وبين غيره من الأئمة فأشار بإمام الهدى ووليّ النبيّ إلى نفسه. وبإمام الردى وبعدوّ النبيّ إلى معاوية، وأسند الخبر المشهور إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأراد بمنافق الجنان عالم اللسان معاوية

وأصحابه كلّ ذلك ليفيئوا إلى طاعته ﷺ وينفروا عن خصمه. وأمّا سرّ الخبر فظاهر أنّ المؤمن لإيمانه لا يخاف منه على المسلمين، وأمّا المشرك فإنّ الله يقمعه ويذلّه بشركه ما دام مشركاً متظاهراً بالشرك لظهور الإسلام وغلبة المسلمين واتّفاقهم على مجانبته ومعاداته وعدم الاصغاء إلى ما يقول، وإنّما يخاف عليهم المنافق الذي من شأنه إسرار الكفر وإظهار الإسلام وتعلّم أحكامه ومخالطة أهله فهو يقول بلسانه ما يقولون ويفعل ما ينكرون، ووجه المخافة منه أنّ مخالطته لأهل الإسلام مع إظهاره له يكون سبباً لاصغائهم إليه ومجالستهم له والاغترار بما يدّعيه من إصداقه. وصدق علمه اللسانيّ وقدرته على الشبه المضلّة وتنميتها بالأقوال المزوّقة يكون سبباً لانفعال كثير من عوامّ المسلمين وفتنتهم عن الدين.

وقوله: إنّ أفضل العفّة الورع.

فالورع هو لزوم الأعمال الجميلة وهو ملكة تحت فضيلة العفّة، وظاهر أنّها جماع الفضائل التي تحت العفّة فيكون أفضل من كلّ منها.

وقوله: واخش الله في الناس.

أي خف منه فيما تفعله بهم من شرّ تعصيه به.

وقوله: ولا تخش الناس في الله.

أي لا تخف أحداً منهم ولا تراقبه فيما يفعله من طاعة الله فتعدل عن طاعته لخوفك منهم. وبالله التوفيق.

٢٨ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية جوابا، وهو من محاسن الكتب:

أَمَّا بَعْدُ، فَقدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ ٱللهِ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَاالدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلاءِ ٱللهِ تَعَالَى عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذٰلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرٍ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ، وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ

النَّاس فِي الْإِسْلَام فُلَانٌ وَفُلانٌ! فَذَكَرْتَ أَمْراً إنْ تُمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ، وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ، وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيز بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبقَاتِهِمْ؟ هَيْهَاتَ! لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لهَا، أَلَا تَرْبَعُ، أَيُّها الْإِنْسَانُ؟ عَلَى ظَلْعِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوب وَلَا ظَفرُ الظَّافِرِ! وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ، أَلَا تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلٰكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ! حَتَّى إذا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ» وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ؟ أَوَ لَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ! حَتَّى إذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ، وذُو الْجَنَاحَيْنِ» وَلَوْلَا مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ. فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ، فَإنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمَ عِزِّنَا، وَلَا عَادِيَّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا فِعْلَ الْأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ! وَأَنَّى يَكُونُ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ، وَمِنَّا النَّبِيُّ وِمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ؟ وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ، وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ؟ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ فَإسْلَامُنَا مَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا وَهُوَ قَوْلُهُ: (وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ) وَقَوْلُهُ تعالى: (إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ. وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ!

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ! فَإنْ يَكُنْ ذٰلِكَ

كَذٰلِكَ فَلَيْسَ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ فَيكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا *

وَقُلْتَ: «إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ، وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً، مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ، وَهٰذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلٰكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ، أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكَفَّهُ؟ أَمَّنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ، وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ؟! كَلَّا وَاللهِ: (لَقَدْ عَلِمَ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ، وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً).

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ.

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ *

(وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي [عِنْدَكَ] إِلَّا السَّيْفُ! فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ * لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ * فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سِرْبَالَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ

هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

أقول: هذا الكتاب ملتقط من كتاب ذكر السيّد منه فصلاً سابقاً، وهو قوله: فأراد قومنا إهلاك نبيّنا. وقد ذكرنا كتاب معاوية الذي هو هذا الكتاب جواب له، وذكرنا الكتاب له بأسره هناك وإن كان فيه اختلاف ألفاظ يسيرة بين الروايات.

وخبأت الشيء: سترته. وطفق: أخذ وجعل. وهجر: مدينة من بلاد البحرين. والنضال: المراماة. والمسدّد: الذي يقوّم غيره لأمر ويهديه إليه. واعتزلك: تباعد عنك. والثلم: الكسر. والطليق: من أطلق بعد الأسروالربع: الوقوف. والظلع: العرج. والذرع: بسط اليد. والتيه: الضلال والتحيّر في المفاوز. والروّاغ: كثير الميل عن القصد. والجمّة: الكثيرة. ومجّ الماء من فيه: ألقاه. والرميّة. الصيد يرمى، والصنيعة: الحسنة. والفلج: الفوز. والشكاة والشكيّة والشكاية: ظاهرة والظاهر: الزائل والمخشوش: الذي جعل في أنفه خشاش وهو خشبة تدخل في أنف البعير ليقاد بها. والغضاضة: الذلّة والمنقصة. وسنح: اعترض. وأعدى: أشدّ عدواناً. والمعوّقين: المثبّطين. والظنّة: التهمة. والمنصّح: المبالغ في النصيحة. والاستعبار: البكاء. وألفيت كذا: وجدته. والنكول: التأخّر جبناً. والإرقال: ضرب من السير السريع. والجحفل: الجيش العظيم. والساطع: المرتفع. والقتام: الغبار. والسرابيل: القمصان. والنصال: السيوف.

وقد أجاب عليه‌السلام عن كلّ فصل من كتاب معاوية بفصل. والكتاب أفصح ما اختار السيّد ـ رحمه الله ـ من الكتب وفيه نكت:

الأولى: أنّه استعار لفظ الخبأ لما ستره الدهر في وجود معاوية من العجب ثمّ فسّر العجب فقال: إذ طفقت. إلى قوله: النضال. ووجه العجب هنا أنّه أخبر أهل بيت النبيّ بحال النبيّ وما أنعم الله به عليه من اصطفائه له لدينه وتأييده بأصحابه مع علمهم البالغ بحاله وكونهم أولى بالإخبار عنها. وضرب له في ذلك مثلين:

أحدهما: قوله: كناقل التمر إلى هجر. وأصل هذا المثل أنّ رجلاً قدم من هجر إلى البصرة بمال اشترى به شيئاً للربح فلم يجد فيها أكسد من التمر فاشترى بماله تمراً وحمله إلى هجر وادّخره في البيوت ينتظر به السعر فلم يزدد إلّا رخصاً حتى فسد جميعه وتلف ماله فضرب مثلاً لمن يحمل الشيء إلى معدنه لينتفع به فيه ووجه مطابقة المثل هنا أنّ معاوية حمل الخبر بما أخبر به إلى معدنه الذي هو أولى به منه كحامل التمر إلى معدنه. وهجر معروفة بكثرة التمر حتى أنّه ربما يبلغ خمسين جلّة بدينار - ووزن الجلّة مائة رطل، فذلك خمسة آلاف رطل - ولم يسمع مثل ذلك في بلاد اخرى. وهجر اسم قد يذكّر لقصد الموضع ولذلك صرفها شاعرهم حيث يقول:

وخطّها إرقالاً وقال قلى: أولّ لا نادما أهجر قرى هجر

الثانية: أنّه شبّه بداعي مسدّده إلى النضال، ووجه التشبيه هنا أيضاً حمل الخبر إلى من هو أولى به منه كما يدعو الإنسان مسدّده وأستاده في الرمي إلى المراماة؛ ومسدّده أولى بأن يدعوه إلى ذلك.

الثالثة: أنّ معاوية لمّا اقتصّ حال أصحابه وذكر الأفضل فالأفضل منهم معرّضاً بأفضليّتهم عليه مع عدم مشاركتهم له في الفضل أجابه بأنّ ذلك التفضيل والترتيب إمّا أن يتمّ أو لا. فإن تمّ فهو بمعزل عنك. إذ ليس لك نصيب ولا شرك في درجاتهم ومراتبهم وسابقتهم في الإسلام فيكون إذن خوضك فيه خوضاً فيما لا يعنيك، وإن نقص فليس عليك من نقصانه عار ولا يلحقك منه وهن. فخوضك فيه أيضاً فضول.

وقوله: وما أنت. إلى وما للطلقاء.

استفهام على سبيل الاستحقار والإنكار عليه أن يخوض على صغر شأنه وحقارته في هذه الأمور الكبار. والمنقول أنّ أبا سفيان كان من الطلقاء فكذلك معاوية فهو طليق وابن طليق.

وقوله: هيهات.

استبعاد لأهليّته لمثل هذا الحكم وترتيب طبقات المهاجرين في

الفضل. ثمّ ضرب له في حكميه ذلك مثلين آخرين:

أحدهما: قوله: لقد حنّ قدح ليس منها، وأصله أنّ أحد قداح الميسر. ـ إذ كان ليس من جوهر باقي القداح ثمّ أجاله المفيض ـ خرج له صوت تخالف أصواتهم فيعرف به أنّه ليس من جملتها. فضرب مثلاً لمن يمدح قوماً ويطريهم ويفتخر بهم مع أنّه ليس منهم، وتمثّل به عمر حين قال الوليد ابن عقبة ابن أبي معيط: أقبل من دون قريش. فقال عمر: حنّ قدح ليس منها.

الثاني: قوله: وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. يضرب لمن يحكم على قوم وفيهم وهو من أراذلهم، وليس للحكم بأهل بل هم أولى منه. إذ شأن الأشراف أن يكونوا حكّاماً. ومراده أنّ معاوية ليس من القوم الذين حكم بتفضيل بعضهم على بعض في شيء، وليس أهلاً للحكم فيهم.

الثالثة: قوله: ألا تربع أيّها الإنسان على ظلعك. استفهام على سبيل التنبيه له على قصوره عن درجة السابقين والتقريع له على ادّعائه لها: أي أنّه فليترفّق بنفسك ولا يكلّفها عليه وليقف بها عن مجاراة أهل الفضل حال ظلعك واستعار لفظ الظلع لقصوره ووجه المشابهة قصوره عن لحوق رتبة السابقين في الفضل كقصور الظالع عن شأو الضليع، وكذلك قوله: وتعرف قصور ذرعك، وقصور ذرعه كناية عن قصور قوّته وعجزه عن تناول تلك المرتبة. وحيث أخّره القدر إشارة إلى مرتبته النازلة التي جرى القدر بها أن تكون نازلة عن مراتب السابقين. وقد أمره بالتأخّر فيها والوقوف عندها تقريعاً وتوبيخاً بها.

وقوله: فما عليك. إلى قوله: الظافر.

في قوّة احتجاج على وجوب تأخّره بحسب هذه المرتبة بقياس ضمير من الشكل الأوّل، والمذكور في قوّة صغراه وتقديرها: فغلب المغلوب في هذا الأمر الكبير ليس عليك منه شيء، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فيجب تأخّره عنه واعتزاله إيّاه وإلاّ لكان سفيهاً بدخوله فيما لا يعنيه.

الرابعة: قوله: وإنّك لذهّاب في التيه: أي كثير الذهاب والتوغّل في

الضلال عن معرفة الحقّ، كثير العدول عن العدل والصراط المستقيم في حقّنا وعن الفرق بيننا وبينكم ومعرفة فضائلنا ورذائلكم. ثمّ نبّهه على وجه الفرق بينهم وبين من عداهم من المهاجرين والأنصار بذكر أفضليّة بيته التي انفردوا بها دونهم في الحياة وبعد الممات بعد أن قرّر أنّ لكلّ من الصحابة فضلا لتثبت الأفضلية لبيته بالقياس إليهم، وذلك قوله: ألا ترى. إلى قوله: الجناحين. فمن ذلك أفضليّتهم في الشهادة. وشهيدهم الذي أشار إليه عمّه حمزة بن عبد المطّلب ـ رضي الله عنه ـ وأشار إلى وجه أفضليّته بالنسبة إلى سائر الشهداء من وجهين:

أحدهما: قوليّ وهو تسمية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم له سيّد الشهداء.

والثاني: فعليّ وهو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصّه بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه في أربع عشرة صلاة، وذلك أنّه كان كلّما كبّر عليه خمساً حضرت جماعة أخرى من الملائكة فصلّى بهم عليه أيضاً، وذلك من خصائص حمزة ـ رضي الله عنه ـ وشرف بني هاشم في حياتهم وموتهم، ومنه أفضليّتهم لما فعل ببعضهم من التمثيل به كما فعل بأخيه جعفر بن أبي طالب من قطع يديه فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك الاعتبار ذا الجناحين والطيّار في الجنّة. ومن المنقول عن عليّ عليه السلام من الشعر فيه والفخر إلى معاوية:

وجعفر الذي يضحى ويمسى ‏ يطير مع الملائكة ابنُ أمّي

وقد ذكرنا مقتلهما وقاتليهما من قبل. ثمّ أشار إلى أنّ له فضائل جمّة تعرفها فيه قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذانهم، وإنّما ترك تعديدها وذكرها في معرض الفخر بها لنهي الله سبحانه عن تزكيته لنفسه، والذاكر يعني نفسه. وإنّما نكّره ولم يأت بالألف واللام ولم ينسبه إلى نفسه لأنّ في ذلك صريح الدلالة على تزكيته لنفسه. واستعار لفظ المجّ لكراهيّة النفس لبعض ما تكرّر سماعه وإعراضها عنه فإنّها تصير كالقاذف له من الأذن كما يقذف الماجّ الماء.

وقوله: فدع عنك من مالت به الرميّة.

أي فدع عنك أصحاب الأغراض والمقاصد المفسدة ولا تلتفت إلى ما يقولون في حقّنا كعمرو بن العاص، ويحتمل أن تكون الإشارة إليه بعينه على طريقة قولهم: إيّاك أعني فاسمعي يا جارة. واستعار لفظ الرميّة، وكنّى بها عن الأمور التي تقصدها النفوس وترميها بقصودها، ونسب الميل إليها لأنّها هي الجاذبة للإنسان والمائلة الحاملة على الفعل.

الخامسة: قوله: فإنّا صنائع ربّنا. إلى قوله: لنا.

وهذا تنبيه من وجه آخر على أفضليّتهم من جهة اختصاص الله سبحانه إيّاهم بالنعمة الجزيلة، وهي نعمة الرسالة وما يستلزمه من الشرف والفضل حتى كان الناس عيالاً لهم فيها، إذ كانت تلك النعمة ولوازمها إنّما وصلت إلى الناس بواسطهم ومنهم. وأكرم بها فضيلة وشرفاً على سائر الخلق. وهذا التشبيه في قوّة صغرى من الشكل الأوّل في معرض الافتخار والاحتجاج على أنّه لا ينبغي لأحد أن يعارضهم في شرف أو يفاخرهم وينافسهم في فضيلة، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان بصفة أنّه صنيعة ربّه بلا واسطة والناس بعده صنائع له بواسطة فلا ينبغي لأحد من الناس أن يعارضه في فضل أو يجاريه في شرف ويجوّز بلفظ الصنائع في الموضعين إطلاقاً لاسم المقبول على القابل والحالّ على المحلّ. ثمّ كثر ذلك المجاز، يقال: فلان صنيعة فلان إذا اختصّه لموضع نعمته كقوله تعالى: ﴿**واصطنعتك لنفسي**﴾[1].

وقوله: لم يمنعنا، إلى قوله: هناك.

امتنان في معرض الافتخار أيضاً. وعاديّ منسوب إلى عاد قوم هود، والنسبة إليه كناية عن القدم، ووجه الامتنان هو أنّهم لم يمتنعوا على فضلهم عليهم من خلطهم إيّاهم بأنفسهم في مناكحتهم. وفعل الأكفاء منصوب على المصدر عن فعل مضمر.

وقوله: هناك.

كناية عن مرتبة الكفاءة في النكاح: أي ولستم أهلاً لتلك المرتبة،

---

(١) ٢٠ - ٤٣.

والواو في ولستم للحال والعامل خلطناكم. ثمّ أشار إلى بيان ما ادّعاه من نفي كونهم أهلاً لمخالطتهم بالمقابلة بين حال بني هاشم وحال بني أميّة ليظهر من تلك المقابلة رذيلة كلّ واحد ممّن ذكر من بني أميّة بإزاء فضيلة كلّ واحد ممّن ذكر من بني هاشم وبظهور فضائل الأفراد ورذائلهم يتبيّن نسبة البيتين في الشرف والخسّة. فذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقابله بالمكذّب له من بني أميّة وهو أبو جهل بن هشام. وإليه الإشارة بقوله: ﴿وذرني والمكذّبين﴾[1] الآية. قيل: نزلت في المطلبين ببدر - وكانوا عشرة - وهم أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج، وأبو البختري بن هشام، والنضر بن الحرث، والحرث بن عامر، وأبي بن خلف، وزمعة بن الأسود. فذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بفضيلته وهي النبوة وذكر أبا جهل برذيلته وهي تكذيبه. ثمّ أسد الله وهو حمزة بن عبد المطلب وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك لشجاعته وذبّه عن دين الله. وقابله بأسد الأحلاف وهو أسد بن عبد العزى والأحلاف هم عبد مناف وزهرة وأسد وتيم والحرث بن فهر، وسمّوا الأحلاف لأنّ بني قصي أرادوا أن ينتزعوا بعض ما كان بأيدي بني عبد الدار من اللواء والنداوة والحجابة والرفادة وهي كلّ شيء كان فرضه قصي على قريش لطعام الحاجّ في كلّ سنة ولم يكن لهم إلاّ السقاية فتحالفوا على حربهم وأعدّوا للقتال ثمّ رجعوا عن ذلك ناكصين وأقرّوا ما كان بأيديهم. ثمّ سيّدا - شباب أهل الجنّة وهما الحسن والحسين عليهما السلام وقابلهما بصبية النار. وقيل: هم صبية عقبة ابن أبي معيط حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم له: لك ولهم النار. وقيل: هم ولد مروان ابن الحكم الذين صاروا أهل النار عند البلوغ وكانوا صبية حين أخبر عليه السلام بذلك. ثمّ خير نساء العالمين وأراد فاطمة عليها السلام وقابلها منهم بحمّالة الحطب وهي أمّ جميل بنت حرب عمّة معاوية كانت تحمل حزم الشوك فتنشرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليعقره. وعن قتادة أنّها كانت تمشي بالنميمة بين الناس فتلقي بينهم العداوة وتهيج نارها كما توقد النار بالحطب فاستعير لفظ الحطب لتلك النميمة للمشابهة المذكورة، ومنه قولهم: فلان يحطب على فلان. إذا كان يغري به.

---

(١) ٧٣ - ١١.

وقوله: في كثير. إلى قوله: وعليكم.

أي وهذا الذي ذكرناه من فضائلنا ورذائلكم قليل في كثير ممّا لنا من الفضائل وعليكم من الرذائل. قال: عليكم من الرذائل. لأنّ الأمور بثمراتها وما تستلزمه وثمرة الرذائل على الشخص مضرّتها وتبعاتها.

وقوله: فإسلامنا. إلى قوله: لا تدفع.

إشارة إلى أنّ شرف بيته على غيره لا يختصّ به في الإسلام فقط فإنّ شرف بني هاشم في الجاهليّة أيضاً مشهور ومكارم أخلاقهم لا يدفعها دافع، وقد نبّهنا على ذلك في المقدّمات، وكما نقل عن جعفر بن أبي طالب لمّا أسلم قال له النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ الله شكر لك ثلاث خصال في الجاهليّة فما هي؟ قال: يا رسول الله ما زنيت قطّ لأنّي قلت في نفسي: إنّ ما لا يرضاه العاقل لنفسه لا ينبغي أن يرضاه لغيره تكرّماً، ولا كذبت كذبة قطّ تأثّماً، ولا شربت الخمر قطّ تذمّماً لأنّه يذهب العقول.

وقوله: وكتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنّا.

أي يوجب لنا بصريح حكمه ويجمع لنا ما شذّ عنّا عن هذا الأمر وسلبناه وهو شروع في الاحتجاج على أولويّته من غيره بهذا الأمر من الخلفاء ومن يطمع في الخلافة وبيّن ذلك من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾[1] ووجه الاستدلال أنّه عليه السلام من أخصّ أولى الأرحام بالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وكلّ من كان كذلك فهو أولى به وبالقيام مقامه مع كمال استعداده لذلك أمّا الصغرى فظاهرة وأمّا الكبرى فللآية.

الثاني: قوله تعالى: **﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه﴾**[2] الآية. ووجه الاستدلال أنّه عليه السلام كان أقرب الخلق إلى اتّباع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأوّل

---

(١) ٨ - ٨٦.
(٢) ٣ - ٦١.

من آمن به وصدّقه وأفضل من أخذ عنه الحكمة وفصل الخطاب كما بيّناه. وكلّ من كان كذلك فهو أولى بخلافته والقيام مقامه فيما جاء به الآية. فظهر إذن أنّه عليه السلام أولى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبمنصبه تارة من جهة قرابته وتارة من جهة طاعته واتّباعه.

الثالث: قوله: ولمّا احتجّ. إلى قوله: دعواهم.

وهو إلزام لهم. وصورته أنّ الأنصار لمّا طلبوا الإمامة لأنفسهم وقالوا للمهاجرين: منّا أمير ومنكم أمير. احتجّ المهاجرون عليهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنّهم من شجرته التي أشار إلى كون الأئمّة منها بما رووه عنه من قوله: الأئمّة من قريش. فسلّموا لهم ذلك وغلبوا عليهم. فلا يخلو ذلك الغلب إمّا أن يكون لكونهم أقرب إليه صلى الله عليه وآله وسلم من الأنصار أو لغير ذلك، فإن كان الأوّل فأهل بيته أولى بذلك الحقّ لأنّهم أقرب إليه صلى الله عليه وآله وسلم ممّن عداهم وهم ثمرة تلك الشجرة وغايتها وإن كان بغيره فحجّة الأنصار قائمة ودعواهم للإمامة باق، إذ لم يكن ما رووه من الخبر دافعا لقولهم إلّا من جهة كونهم من قريش الموجب لهم لقربهم وبعد الأنصار عنه وقد فرض أنّ جهة الأقربيّة غير معتبرة هنا.

السادسة: جوابه عمّا ادّعاه بزعمه من حسده عليه السلام لسائر الخلفاء وبغيه عليهم، وتقرير الجواب أنّه لا يخلو إمّا أن تكون هذه الدعوى صادقة أو كاذبة فإن كانت صادقة كما زعمت فليست جنايتي عليك حتى يكون عذري عنها إليك بل ذلك فضول منك وخوض فيما لا يعنيك. وأكّد ذلك بالمثل. والبيت لأبي ذويب وأوّله:

وعيّرها الواشون أنّي أحبّها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ويضرب لمن ينكر أمراً ليس منه في شيء ولا يلزمه إنكاره.

السابعة: جوابه عمّا ادّعاه توبيخاً له وغضّا من منصبه وهو قوده إلى البيعة للخلفاء قبله كما يقاد الجمل المخشوش قهراً وكرها وإذلالاً وهو وجه التشبيه فقلّب عليه السلام تلك الدعوى وبيّن أنّ ذلك ليس ذمّاً له بل مدحاً، ولا

فضيحة بل على مدّعيها، وأشار إلى كونها مدحاً وليست ذمّاً بقوله: وما على المسلم. إلى قوله: بيقينه. ووجه ذلك أنّه عليه السلام لمّا كان ثابتاً على اليقين التامّ في علومه مبرّءً عن الريب والشبهة في دينه فكان ذلك هو الكمال الحقّ والفضل المبين الذي لا نقصان معه لم يكن عليه غضاضة في ظلم غيره له ولم يلحقه بذلك نقصان ولا ذمّ بل كان انفراده بالثبات على الدين الخالص مع الاجتماع على ظلمه فضيلة تخصّه فيكون ذكرها مستلزماً لمدحه وتعظيمه، وكذلك ليس في ذكرها فضيحة عليه، إذ الفضيحة هي إظهار عيب الإنسان ونقصه وحيث لا عيب فلا فضيحة، وأمّا أنّها فضيحة لمعاوية فلظهور نقصانه في عدم الفرق بين ما يمدح به ويذمّ.

وقوله: وهذه حجّتي. إلى قوله: ذكرها.

أي أنّ حجّتي هذه على كونى مظلوماً في أخذي لبيعة غيري لست أنت المقصود بها. إذ لست في هذا الأمر في شيء فتخاطب فيه بل القصد بها غيرك، وأراد الذين ظلموا وإنّما ذكرت لك منها بقدر ما دعت الحاجة إليه وسنح لي أن أذكره في جوابك.

الثامنة: جوابه عمّا ادّعاه عليه في أمر عثمان وتأليبه وخذلانه وذلك قوله: فلك أن تجاب عن هذه لرحمك. مع إنكاره عليه ما سبق من الكلام فإنّ فيه إرشاداً عظيماً لوضع الكلام مواضعه، وتنبيهاً على أنه لا يجوز أن يخوض الإنسان فيما لا يعنيه. وقرب رحمه منه لكونه من بني أميّة. وحاصل جوابه أنّه عكّس عليه ما ادّعاه وبيّن أنّه هو الذي كان عدوّه وخاذله فإنّه عليه السلام كان ناصره ومعرض نفسه للذبّ عنه فاستفهم عن أيّهما كان أعدى عليه وأهدى لمقاتله: أي لوجوه قتله ومواضعه من الآراء والحيل استفهام توبيخ له، وأراد بقوله: أمن بذل نصرته. إلى قوله: فاستقعده واستكفّه نفسه عليه السلام ، وذلك أنّ عثمان كان متّهما له عليه السلام بالدخول في أمره. فلمّا اشتدّ عليه الحصار بعث إليه وعرض نصرته. فقال: لا أحتاج إلى نصرتك لكن أقعد عنّي وكفّ شرّك. وذكر نفسه بصفة بذل النصرة ليظهر خروجه ممّا

نسب إليه من دمه وهو في قوّة صغرى قياس ضمير تقديرها: إنّي بذلت له نصرتي. وتقدير كبراه: وكلّ من بذل لغيره نصرته فليس من شأنه أن يتّهم بخذلانه وينسب إلى المشاركة في دمه، وأشار إلى دخول معاوية في دمه بقوله: أمّن استنصره فتراخى عنه وبثّ المنون إليه. وذلك أنّه بعث حال حصاره إلى الشام مستصرخاً بمعاوية فلم يزل يعده ويتراخى عنه لطمعه في الأمر إلى أن قتل. وذكر القدر ونسبة القتل إليه هيهنا مناسب لتبرّيه من دمه، والكلام أيضاً في قوّة صغرى قياس ضمير احتجّ به على أنّ معاوية هو الساعي في قتله، وتقديرها أنّك ممّن استنصره واستعان به فسوّفه وقعد عنه وبثّ المنون إليه وعوّق عنه وثبّط عن نصرته، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿لقد علم الله﴾ الآية بعد أن ردّ دعواه عن نفسه بقوله: كلّا: أي كلّا لم أكن أنا أعدى عليه ولا أهدى لمقاتله منك. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فهو أولى بالنسبة إلى دمه والسعي في قتله. والآية نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يثبّطون أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عنه.

التاسعة: قوله: وما كنت اعتذر. إشارة إلى ما عساه كان سببا لتوهّم كثير من الجهّال أنّه دخل في دمه وهو إنكاره عليه ما كان نقمه الناس عليه من أحداثه التي أشرنا إليها قبل، وبيان أنّ ذلك ليس ممّا يعتذر عنه لأنّ ذلك كان إرشاداً له وهداية فإن يكن ذلك هو الذي توهّمه ذنباً إليه فلامنى عليه فربّ ملوم لا ذنب له وأنا ذلك الملوم، إذ لم يكن ما فعلته ذنباً، وقد يستفيد الظنّة المتنصّح وأنا ذلك المتنصّح إذ لم يكن قصدي إلّا إصلاح ذات البين بقدر الاستطاعة.

وقوله: فربّ ملوم لا ذنب له.

مثل لأكتم بن صيفي ويضرب لمن قد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون حجّته وعذره فيه، وكذلك قوله: وقد يستفيد الظنّة المتنصّح يضرب مثلا لمن يبالغ في النصيحة حتى يتّهم أنّه غاش. وصدر البيت:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة   وقد يستفيد الظنّة المتنصّح

العاشرة: جوابه عن وعيده له بالحرب التي كنّى بالسيف عنها.

فقوله: فلقد أضحكت بعد استعبار.

كناية عن أنّ وعيده لمثله عليه السلام من أبلغ الأسباب المستلزمة لأبلغ عجب. إذ كان الضحك بعد البكاء إنّما يكون لتعجّب بالغ غريب وهو كالمثل في معرض الاستهزاء به. وقيل: معناه لقد أضحك من سمع منك هذا تعجّباً بعد بكائه على الدين لتصرفّك به.

وقوله: متى ألفيت. إلى آخره.

استفهام له عن وقت وجدانه لبني عبد المطلب بصفة النكول عن الحرب والخوف من السيف استفهام إنكار لوقت وجدانهم كذلك في معرض التنزيه لهم عن الجبن والفشل.

وقوله: فلبّث قليلاً تلحق الهيجا حمل.

مثل يضرب للوعيد بالحرب. وأصله أنّ حمل بن بدر رجل من قشير أغير على إبل في الجاهليّة في حرب داحس وأغار واستنقذها. وقال:

لبّث قليلاً يلحق الهيجا حمل   ما أحسن الموت إذ الموت نزل

وقيل: أصله أنّ مالك بن زهير توعّد حمل بن بدر فقال حمل: لبّث قليلاً يلحق الهيجا حمل. البيت. فأرسل مثلا. ثمّ أتى وقتل مالكاً، فظفر أخوه قيس بن زهير به وبأخيه حذيفة فقتلهما وقال:

شفيت النفس من حمل بن بدر   وسيفي من حذيفة قد شفاني

وقوله: فسيطلبك. إلى آخر.

شروع في المقابلة بالوعيد بالسير الشديد إليه في الجيش العظيم، ووصفه بأوصاف تزلزل أركان العدوّ من شدّة الزحام وسطوح القتام. إلى آخره. وشديداً ومتسربلين نصبا على الحال. وسربال مفعول به لمتسربلين. وسربال الموت كناية إمّا عن الدرع أو العدّة التي يلقون بها الموت ويخوضون في غمراته، وإمّا عن ملابسهم من الثياب أو الهيئات والأحوال التي وطّنوا

أنفسهم على القتل فيها كالأكفان لهم وإنّما كان أحبّ اللقاء إليهم لقاء ربّهم لكمال يقينهم بما هم عليه من الدين الحقّ وثقتهم بالوعد الإلهي الصادق والذريّة البدريّة التي صحبتهم إشارة إلى أولاد من كان من المسلمين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، وقد ذكرنا أنّ أخاه المقتول حنظلة بن أبي سفيان وخاله الوليد بن عتبة وجدّه عتبة بن ربيعة إذ هو أبو هند أمّ معاوية، وكنّى بالظالمين في الآية عن معاوية وأصحابه. وجميع ما ذكره من أوصاف الجحفل وما يصحبه من الذريّة البدريّة والسيوف الهاشميّة والتذكير بمواقعها بمن وقعت به من أهله ووعيده أن يصيبه منها ما أصابهم من أبلغ ما يعدّ به الخطيب للانفعال والخوف. وبالله التوفيق.

٢٩ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أهل البصرة:

وَقَدْ كَانَ مِن آنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ، فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ الآرَاءِ الْجَائِرَةِ إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي، فَهَا أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَّلْتُ رِكَابِي، وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ، مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيءٍ، وَلَا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ.

أقول: غبت عن الشيء وغبته: إذا لم تفطن له، والمردية: المهلكة. والجائرة: المنحرفة عن الصواب. والمنابذة: المخالفة والمراماة بالعهد والبيعة.

وقد بدء في هذا الفصل بوضع ذنوبهم وتقريرها عليهم ليحسن عقيبها العفو أو المؤاخذة. واستعار لفظ الحبل لبيعتهم إيّاه، ولفظ الانتشار لنكثهم. وجه الاستعارة الأولى كون البيعة سبباً جامعاً لها وناظماً لأمورهم ومتمسّكاً يوصل إلى رضاء الله كالحبل الناظم لما يربط به، ووجه الثانية ظاهر. ونبّه

بقوله: ما لم تغبوا عنه. على علمهم بما فعلوه وتعهّدهم لفعله ليتأكّد عليهم الحجّة. ثمّ لمّا قرّر ذنوبهم أردفها بذكر أمور قابلها بها كرماً وهي العفو عن مجرمهم ورفع السيف عمّن أدبر منهم وقبول من أقبل إليه منهم والرضا عنه. ثمّ أردف ذلك بوعيدهم بكونه مستعدّاً لقتالهم وإيقاعه بهم وقعة يستصغر معها وقعة الجمل أن لو عادوا إلى الفتنة ثانيا. واستعار لفظ الخطو لسوق الأمور المهلكة وسفه آرائهم الجائرة بهم إلى منابذته ومحاربته ثانياً. ووجه المشابهة تأدّيها بهم إلى خلافه كتأدّي القدم بصاحبها إلى غايته. وتقدير الشرط فإن عدتم إلى خلافي فها أنا مستعدّ لكم. وكنّى بتقريب جياده وترحيل ركابه عن كونه مستعدّاً للكرّة عليهم. ورحّلتها: شدّدت الرحال على ظهورها. ويكفي ذلك في وعيدهم على خلافه لأنّ مجرّد خلافهم عليه لا يستلزم وجوب إيقاع الوقعة بهم لاحتمال أن يرجعوا ويتوبوا بوعيده أو بعلمهم ببقائه على الاستعداد لحربهم والإيقاع بهم فلذلك جعل الشرط في وعيده بالإيقاع بهم أن يلجئوه إلى المسير إليهم ومحاربتهم، وذلك بأن يعلم أنّ الأمر لا يستقيم إلّا بالإيقاع بهم فيحمله ضرورة حفظ الدين على ذلك.

وقوله: في وصف تلك الوقعة لا يكون يوم الجمل. الى قوله: لاعق.

كناية عن غاية شدّة إيقاعه بهم. ووجه تشبيه وقعة الجمل بالنسبة إليها باللعقة هو الحقارة والصغر. ثمّ لمّا توعّدهم بما يخشى من الوعيد أردفه بما يرجى معه من ذكر اعترافه بفضل ذي الطاعة وبحقّ ذي النصيحة منهم وأنّه غير متجاوز متّهماً بعقوبة إلى بريء ولا ناكثاً بعهده إلى وفيّ به لئلّا تشتدّ عليهم وطأته فيئسوا من رحمته فيشتدّ نفارهم منه، ويكون ذلك داعية فسادهم.

٣٠ ـ ومن كتاب له (عليه السلام) إلى معاوية

فَٱتَّقِ ٱللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَٱنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَٱرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً

مَطْلُوبَةٌ، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ، مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ وَخَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ، فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، وَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ.

أقول: أوّل هذا الكتاب: أمّا بعد فقد بلغني كتابك تذكر مشاغبتي وتستقبح مؤازرتي وتزعمنى متجبّراً وعن حقّ الله مقصّراً. فسبحان الله كيف تستجيز الغيبة وتستحسن العضيهة. إنّي لم أشاغب إلّا في أمر بمعروف أو نهي عن المنكر ولم أتجبّر إلّا على مارق أو ملحد أو منافق ولم آخذ في ذلك إلّا بقول الله ورسوله: ﴿**ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم**﴾ وأمّا التقصير في حقّ الله فمعاذ الله جلّ ثناؤه من أن أعطل الحقوق المؤكّدة وأركن إلى الأهواء المبتدعة وأخلد إلى الضلالة المحيّرة. ومن العجب أن تصف يا معاوية الإحسان وتخالف البرهان وتنكث الوثائق التي هي لله عزّ وجلّ طلبة وعلى عباده حجّة مع نبذ الإسلام وتضييع الأحكام وطمس الأعلام والجري في الهوى. والتهوّس في الردى. ثمّ يتّصل بقوله: فاتّق الله. الفصل المذكور. ومن هذا الكتاب أيضاً: وإنّ للناس جماعة يد الله عليها غضب الله على من خالفها. فنفسك نفسك قبل حلول رمسك فإنّك إلى الله راجع وإلى حشره مهطع وسيبهضك كربه ويحلّ بك غمّه في يوم لا يغني النادم ندمه ولا يقبل من المعتذر عذره يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون.

والعضيهة: الإفك والبهتان. والطمس: إخفاء الأثر. ونهجة: واضحة. ومطّلبة بتشديد الطاء وفتح اللام: أي مطلوبة جدّاً منهم. والأكياس: العقلاء. والأنكاس: جمع نكس وهو الدنيء من الرجال. ونكب: عدل. والخبط. المشي على غير استقامة. والخسر: الخسران. والاقتحام: الدخول في الأمر بشدّة. والوعر: الشديد. والمهطع: المسرع. وبهضه الأمر: أثقله.

والفصل موعظة. فأشار عليه السلام عليه بتقوى الله فيما لديه من مال المسلمين وفيئهم، وأن ينظر في حقّه تعالى عليه وآثار نعمته فيقابله بالشكر

والطاعة، وأن يرجع إلى معرفة ما لا عذر له في أن يجهله من وجوب طاعة الله ورسوله وطاعة الإمام الحقّ.

وقوله: فإنّ للطاعة أعلاماً واضحة.

أي الطاعة لله، واستعار لفظ الأعلام لما يدلُّ على الطريق إلى الله من الكتاب والسنّة القوليّة والفعليّة ومن جملتها أئمّة الحقّ والهدى فإنّهم أصل تلك الأعلام وحاملوها. وعنى بالسبل النيّرة والمحجّة النهجة الطرق إلى الله المدلول عليها بأعلامها المذكورة، وبالغاية المطلوبة من الخلق وصولهم إلى حضرة قدس الله طاهرين مجرّدين عن الهيئات البدنيّة الدنيّة مستمعين للكمالات الإنسانيّة النفسانيّة.

واعلم أنّ الطاعة اسم لقصد تلك الأعلام وسلوك تلك المحجّة طلباً لتلك الغاية، والضمير في قوله: يردها ويخالفها وعنها راجع إلى المحجّة والأعلام الواضحة عليها، وظاهر أنّ العقلاء هم الذين يختارون ورود تلك المحجّة ويقصدون أعلامها وأنّ أدنياء الهمم يخالفون إلى غيرها فيعدلون عن صراط الله الحقّ ويخبطون في تيه الجهل ويغيّر الله بذلك نعمته عليهم ويبدّلهم بها نقمته في دار الجزاء. ثمّ لمّا أشار عليه بما أشار وأوضح له سبل السلامة وما يلزم مخالفها من تغيير نعمة الله وحلول نقمته أمره أن يحفظ نفسه بسلوك تلك السبل عمّا يلزم مخالفتها والعدول عنها من الأمور المذكورة. ثمّ أعلمه بأنّ الله بيّن له سبيله وأراد سبيل طاعته المأمور بسلوكها. وهو في قوّة قياس صغرى من الشكل الأوّل أوجب عليه به سلوك تلك السبيل. وتقدير الكبرى: وكلّ من بيّن الله له سبيله التي أوجب عليه سلوكها فقد وجب عليه حفظ نفسه بسلوكها.

وقوله: وحيث تناهت بك أمورك. فحسبك ما تناهت بك إليه. ثمّ فسّر ذلك الحيث الذي أمره بالوقوف عنده وهو غاية الخسر: أي الغاية المستلزمة للخسر التي هي منزلة من منازل الكفر، وأخبره أنّه قد أجرى إليها وكفى بها غاية شرّ. وإجراؤه إلى تلك الغاية كناية عن سعيه وعمله المستلزم لوصوله اليها. ويقال: أجرى فلان الى غاية كذا: أي قصدها بفعله. وأصله من

إجراء الخيل للسباق. ولفظ الخسر مستعار لفقدان رضوان الله والكمالات الموصلة إليه، وإنّما جعل تلك الغاية التي أجرى إليها منزلة كفر لأنّ الغايات الشرّية المنهيّ عن قصدها من منازل الكفّار ومقاماتهم فمن سلك إليها قصداً وبلغها اختياراً فقد لحق منازل الكفر ومحالّه.

وقوله: وإنّ نفسك قد أولجتك شرّاً.

أي أدخلتك في شرّ الدنيا والآخرة، وأراد نفسه الأمّارة بالسوء بما سوّلت له من معصية الله ومخالفة الإمام الحقّ، ويروى: قد أوحلتك: أي ألقتك في الوحل. وهو مستعار لما وقع فيه من المعصية والاختلاط عن الجهل، وأقحمتك غيّاً: أي أدخلتك في الغيّ والضلال، وأوردتك المهالك: أي الموارد المهلكة من الشبهات والمعاصي، وأوعرت عليك المسالك: أي مسالك الهدى وطرق الخير لأن النفس الأمّارة بالسوء إذا أوردت الإنسان سبل الضلالة وسهّلت عليه سلوكها بوسوستها وتحسينها للغايات الباطلة لزمه بسبب ذلك البعدُ عن طرق الهدى ومسالك الخير، واستصعاب سلوكها. وبالله التوفيق والعصمة وبه الحول والقوّة والعون والتسديد.

هذا آخر المجلّد الرابع من هذا الكتاب.

فهرست
ما في هذا الجزء من الخطب وما يجري مجراها
من الكتب والعهود والوصايا

العنوان	الصفحة

إجراء الخيل للسباق. ولفظ الخسر مستعار لفقدان رضوان الله والكمالات الموصلة إليه، وإنّما جعل تلك الغاية التي أجرى إليها منزلة كفر لأنّ الغايات الشرّيّة المنهيّ عن قصدها من منازل الكفّار ومقاماتهم فمن سلك إليها قصداً وبلغها اختياراً فقد لحق منازل الكفر ومحالّه.

وقوله: وإنّ نفسك قد أولجتك شرّاً.

أي أدخلتك في شرّ الدنيا والآخرة، وأراد نفسه الأمّارة بالسوء بما سوّلت له من معصية الله ومخالفة الإمام الحقّ، ويروى: قد أوحلتك: أي ألقتك في الوحل. وهو مستعار لما وقع فيه من المعصية والاختلاط عن الجهل، وأقحمتك غيّاً: أي أدخلتك في الغيّ والضلال، وأوردتك المهالك: أي الموارد المهلكة من الشبهات والمعاصي، وأوعرت عليك المسالك: أي مسالك الهدى وطرق الخير لأن النفس الأمّارة بالسوء إذا أوردت الإنسان سبل الضلالة وسهّلت عليه سلوكها بوسوستها وتحسينها للغايات الباطلة لزمه بسبب ذلك البعدُ عن طرق الهدى ومسالك الخير، واستصعاب سلوكها. وبالله التوفيق والعصمة وبه الحول والقوّة والعون والتسديد.

هذا آخر المجلّد الرابع من هذا الكتاب.

فهرست

ما في هذا الجزء من الخطب وما يجري مجراها من الكتب والعهود والوصايا

العنوان	الصفحة

العنوان الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

